

رواية

مكتبة

t.me/soramnqraa

لو مين

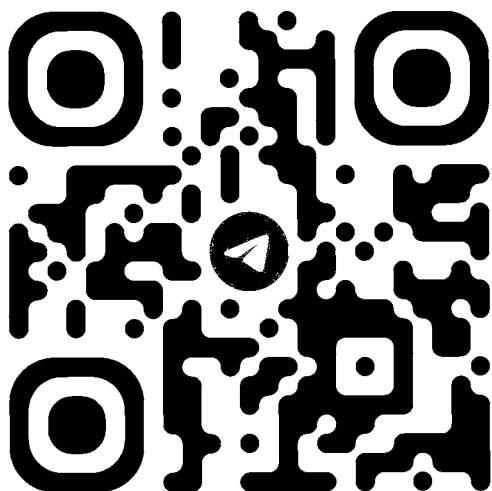
عشاء لستة أشخاص



الترجمة عن الصينية:

ميرا أحمد





سجل في مكتبة
اضغط! الصفحة
SCAN QR

عشاء لستة أشخاص
لو مين

Author: 鲁敏

六人晚餐

© Copyright

Translated from Chinese by:
Mira Ahmad

Book Design:
Sarwar Murad

Cover Illustration:
Meshari Al-Ubayed

ترجمها عن الصينية:
ميرا أحمد

تصميم الغلاف والإخراج الفني:
سرور مراد

لوحة الغلاف:
مشاري العبيد

الطبعة الأولى | يوليو 2025

ISBN: 978-9921-712-97-1

رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية - دولة الكويت:

0812-2025

حقوق هذه الترجمة ونشرها والاقتباس باللغة العربية محفوظة للناسخ

© Alkhan Publishing & Distribution



دار الخان للنشر والتوزيع



+965 99462291 / +965 51088000



@DarAlkhan_kw



info@daralkhan.com

مكتبة

t.me/soramnqraa

مكتبة

t.me/soramnqraa

رواية

عشاء لستة أشخاص

لو مين

ترجمة

ميرا أحمد



Author: 鲁敏

六人晚餐



مقدمة المترجمة

تعتبر لو مين كاتبة لافتة للنظر من كاتبات جيل السبعينيات الذين يمتلكون القدرة على الكتابة عن أنفسهم وتجاربهم الذاتية، ولا يفضلون كتابة أعمال تعكس التاريخ والاندماج معه. ولدت لو مين في دونغهاي بمقاطعة جيانغسو في تشرين الأول عام ١٩٧٣ وحصلت على درجة البكالوريوس في اللغة الصينية القديمة (تعليم مفتوح)، وانضمت إلى الحزب الشيوعي الصيني عام ٢٠٠٥ وبدأت العمل عام ١٩٩١ في أحد مكاتب البريد. شغلت لو مين منصب نائب رئيس اتحاد الكتاب في نانجينغ ونائب رئيس اتحاد الكتاب في جيانغسو، وتشغل حاليًا منصب رئيس اتحاد كتاب جيانغسو ورئيس غرفة الدراسات الإبداعية.

ترجمت أعمالها إلى اللغة الألمانية والإنجليزية والفرنسية والسويدية واليابانية والهولندية والإيطالية والمجرية والروسية والإسبانية، وتحولت أعمالها الروائية إلى أفلام ومسرحيات مثل "عشاء لسته أشخاص"، و"رحلة إلى القمر"، و"وسط الغبار". من أهم أعمالها الأدبية: "قبرة إلى العالم"، و"الوشاح الأبيض"، و"تميمة الحب"، و"رجال من ماء ونساء من زيت"، و"حلو ومر"، و"خسارات الحب"، و"رحلة إلى القمر" و"النهر الذهبي" وغيرها من الأعمال الروائية الأخرى.

فازت "عشاء لسته أشخاص" بجائزة أدب الشعب عام ٢٠١٢، كما فازت لو مين بجائزة لوشون الأدبية، وجائزة تساو شيوي تشين الأدبية عن رواية "النهر الذهبي"، وجائزة وانغ تسن تشي الأدبية، وجائزة المئة زهرة، وجائزة مجلة أكتوبر الأدبية، وجائزة شيناي آن وغيرها من الجوائز الأدبية الرفيعة الأخرى.

مكتبة

ولطالما كان جيل كتاب السبعينيات يفتقرون إلى روح المقاومة الحقيقية، وربما يرجع السبب في ذلك إلى الأغلال التي حاصرتهم وقمعت قدراتهم الأدبية، وإلى تخليهم عن المنطق الأسطوري الذي تبناه كتاب الطليعة في الستينيات واستفادوا منه، لكن كتاب السبعينيات التزموا بالواقعية الشديدة ليميزوا بذلك عن جيل كتاب الستينيات، لكن في عشاء لسته أشخاص نستشعر نوعاً من المقاومة، وعلى الرغم من أنها ليست مقاومة كبيرة، إلا أنها محفزة، وعلى الرغم من أنها جاءت متأخرة إلا أنها كانت ضرورية.

شرارات الإلهام لكتابة عشاء لسته أشخاص:

لوحة "أكلو البطاطس" لفان جوخ

"بتُّ أفكر في هذه اللوحة لسنواتٍ عديدة، وفي كل مرة كنت أمضي إلى اللوحة أشعر وكأنني ضيفٌ في منزل أحد أقاربي، لا أعرفه جيداً، الغرفة قاتمة والأضواء شاحبة والأجواء باردة رغم البخار الذي يتصاعد من البطاطس غير المقشرة، ووجوه مشوهة يستجوب بعضها بعضاً. لقد وقعت في حب هذه اللوحة من النظرة الأولى، وكأنها الشيء الذي كنت أبحث عنه منذ سنوات طوال، ونويتُ أن أكتب روايةً عن هذه اللوحة."

انفجار في مصنع البلاستيك عام ٢٠١٠

"اصطحبت ابنتي في الإجازة الصيفية لتسلك جبل هوانغشان، وفي طريق العودة، وأنا في الحافلة، تلقيت عدّة رسائل نصية مثل: كيف حالك؟ هل أنت بخير؟ كيف حال الجميع في المنزل؟ فهاتفتهم وعلمت منهم بوقوع انفجار في مصنع البلاستيك بالقرب من جسر مايفاو حيث يقع منزلي. عندما وصلت إلى المنزل وفتحت الباب وجدت أن نافذة الشرفة الطويلة تحطمت بالكامل، وتهشم باب المطبخ المنزلق وتطاير كرسٍ خشبيٌّ على الثلاجة، وتطايرت إحدى أرجله نحو خزانة المطبخ وترك الانفجار آثار العنف والدمار في كل أرجاء المنزل. ولو كنت موجودة في المنزل، وقت وقوع الانفجار، لكنت

أصبت بلا أدنى شك، وكنت قد بدأت كتابة عشاء لسته أشخاص في إبريل ٢٠٠٩، وتوقفت عن الكتابة في ٢٠١٠ لأسباب عدّة. في هذه اللحظة عندما رأيت شظايا الزجاج متناثرة على الأرض تذكّرت فجأة الرواية المركونة على الرف منذ فترة طويلة، وإذا بشخصيات الرواية الست تجعلني أشعر بالبرد، وحزن عميق استبد بي لم أستطع كبح زمامه، فأدركت أن أحد أبطال الرواية سيختفي تمامًا مع بيته الزجاجي بعد ظهيرة هذا اليوم.

تبنى رواية عشاء لسته أشخاص سردًا غير تقليدي، فهي تسرد حكاية ستة أشخاص وستة فصول وست تجارب شخصية وست زوايا سردية، تشكل في النهاية شكلًا سداسيًا متساوي الأضلاع، غنيًا بالجمال المتناسق. وبعض القصص المروية بشكل متسلسل تتداخل جزئيًا، في حين أن البعض الآخر يشكل امتدادًا وتكاملاً طبيعيًا، فالزمن لا يمضي على خط واحد ولا يتبع حالة الزمن الخطي.

سعت لو مين إلى خلق علاقات متشابكة بين الشخصيات لتلعب أدوارًا حيوية، وفي الرواية كان ما يعينها هو ليس الحدث في حد ذاته، بل رؤية الآخرين وتعاملهم مع الأزمات.

تكمن مأساة الشخصية لدى لو مين في أنها مأساة اختياره، فالشخصيات ليست ضحايا المجتمع، بل هي ضحية نفسها وضحية اختياراتها، وصنعت الشخصيات مصيرها بكامل إرادتها من دون أي ضغوط.

يمكن أن نطلق على نوعية السرد في الرواية "السرد من منظور نفسي"، فقد لجأت الكاتبة إلى أسلوب الإسقاط النفسي من خلال زوايا متعددة، وعكست تاريخ ستة الأشخاص وذاكراتهم. وهذا ليس إبداعًا فنيًا فحسب، بل يمثل أيضًا فلسفة من طراز خاص.

يتنوع زمن السرد في الرواية بين الماضي والحاضر والمستقبل، ونتج عن هذا التمازج استعادة أحداث الماضي، وكأن الماضي جزء لا ينفصل

عن اللحظة الراهنة. وهذا التذبذب الزمني يجعلنا نتوغل في الشخصيات، والعودة بالزمن إلى الوراء تكون بمنزلة كشف للحقائق المخفية.

حظيت "عشاء لسته أشخاص" بتقييمات عديدة من قبل الكثير من الكتاب والنقاد الصينيين، ذائعي الصيت، مثل:

"ذكرتني عشاء لسته أشخاص بالرؤية الأدبية لفلوبير ومنهاجه.. على حافة مدينة كبيرة في منطقة صناعية تقليدية نائية، ووسط عادات وتقاليد سائدة ونظام صارم، تكتسب مصائر الأشخاص العاديين قوة ملحمة، وتؤثر عليهم عوامل اجتماعية وديناميكيات عديدة فيكتسبون رويدًا رويدًا ثقل العالم والزمان." (الكاتب الشهير لي تزه جينغ)

"أن تحب وتكره وتدمر وتضحى من أجل من تحب، ولا تتنازل أو تتفاوض ولا تقبل التغيير، وإذا بك فجأة تمتلك القدرة على أن تلملم شتات نفسك في نسخة جديدة، بل تجعلها تشرق وتتألق!"

(الكاتبة الشهيرة وانغ آني)

لماذا تحمستُ إلى ترجمة هذا العمل؟

لا بد أن وراء كل قصة أو حكاية شرارة إلهام أولى ينطلق منها الكاتب أو الكاتبة لكتابة النص. ولا يختلف الأمر كثيرًا في ترجمة الأعمال الأدبية، فما من عمل أقدمت على ترجمته إلا وكان هناك شرارة إلهام أولى أشعلت داخلي الرغبة والحماسة للإقدام عليه. وإذا كانت لوحة "أكلو البطاطس" لفان جوخ هي شرارة الإلهام الأولى التي قدحت للكاتبة لو مين لكتابة "عشاء لسته أشخاص"، فكان عنوان الرواية "عشاء لسته أشخاص" لحظة التنوير الأولى التي أضاءت في قلبي وحمستني للإقدام على ترجمة الرواية، فقد أثار العنوان الجذاب فضولًا داخليًا لأعرف ما هو شكل هذا العشاء الذي يجتمع على مائدته ستة أشخاص؟ ولماذا يجتمع ستة أشخاص فقط وليس

خمسة أو سبعة؟ وهل هو عشاء يتناوله ستة الأشخاص مرة واحدة في الحياة أم إنه عشاء يتكرر كل ليلة؟ أسئلة كثيرة راحت تتدفق كسيل هادر في رأسي من دون توقف، ولكي أقطع الشك باليقين، ولكي أجيب بنفسي على هذه التساؤلات الحائرة، نويت ترجمة الرواية. ولم يكن العشاء في "عشاء لسته أشخاص" عشاء لسته أشخاص فقط، بل هو عشاء لي ولكم ولكل شخص سيطالع الرواية، هو عشاء للجميع بنكهة صينية أصيلة!

وكما جرت العادة سأطرح عليكم هذا التساؤل: من يخلد من؟ هل العمل الإبداعي يخلد صاحبه؟ أم صاحب العمل هو من يخلد عمله الإبداعي؟ وأظن أن الإجابة لا تستحق عناء التفكير الطويل، لأن "عشاء لسته أشخاص" لاشك أنها ستخلد لو مين في ذاكرة الوجود الإنساني، كما من دون أدنى جدال أو ريبة إن لو مين ستخلد "عشاء لسته أشخاص" في ذاكرة التاريخ، لأننا هنا أمام حالة أدبية ربما لا تتكرر كثيرًا، فالروائع لا يسطرها سوى المبدعين، ونحن هنا أمام رائعة أدبية حاكتها مبدعة عظيمة من أمل وألم. إنها لو مين!

استهلال

عندما عادت شياو لان، الفتاة ذات الثلاثين عاماً، إلى منطقة المصانع، أحسّت أنها استعادت أربعة عشر عاماً من عمرها. كانت معالم شارع "مفترق الطرق" قد تغيّرت إلى حدٍّ لا يمكن التعرف عليه، وطُمست ملامحه القديمة كلها. كعَجَلَة زمنٍ صدئة، ومع كل خطوةٍ تخطوها، كان الزمن يثَنّ عائداً إلى الوراء، وتنمو من جديد أوراقُ الشجر على الأغصان، ويعود الطريق من تحت قدميها مُوحِلاً مرةً أخرى، وماء العين يجري على الخدين.

تغيّرت ملامح شارع "مفترق الطرق" مثل يافطات وديكورات وأصحاب المحال التجارية، وانعكاس صورتها على نوافذ العرض الزجاجية للمحال وهي تمرُّ من أمامها. لقد تغيّر كل شيء عما كان عليه قبل أربعة عشر عاماً، وشهدت المحال التجارية عهداً جديداً. كانت تمضي وفي أحشائها جنينٌ عمره ثمانية أشهر سيأتي إلى الدنيا يتيماً، لكنها لم تأبه لهذه الأشياء، وكل ما كان يشغلها هو السير على الناحية الأخرى من الشارع، لأن تشنغ جونغ -لا شك- سيكون في انتظارها.

لم يتواعدا في ذلك اليوم على اللقاء، فطوال أربعة عشر عاماً ما تواعدا على اللقاء قط، ولم تجمععهما سوى ذكرياتٍ، مثل عناقيد عنبٍ مرّ، غير ناضجة، معلقة إلى عريشةٍ في شارع "مفترق الطرق". لكن،

كل شيء سيتغير اليوم، كل شيء سيتغير بعد بضع دقائق، وفي متجر الزجاج سيتذوقان -بعد طول انتظار- عنقود العنب الحلو.

رفت على شفتيها بسمّة حلوة وهي تسير في شارع "مفترق الطرق" مثل سحابة خفيفة تطفو على أركان السماء. عندما اقتربت من متجر الزجاج، وبرغم ثقل وزنها، أحسّت أنها مثل طائر صغير موشك على الطيران. لم تنتبه إلى أي شيء، حتى الرائحة النفاذة التي انتشرت في الشارع لم تمس أنفها، ولم تلاحظ الهواء الذي كان يشبه قدراً كبيراً من الحساء، موشكاً على الغليان، وقد سكبت السماء داخله آخر حفنة من الفلفل الأسود؛ فصارت النكهة غنية وعبقة.

بعد وقوع الحادثة كان الجميع في شارع "مفترق الطرق"، وكل من كان خارج بيته يُدلي بشهادته؛ حتى كاد يسيل لعابهم وهم يصفون الرائحة الغريبة التي مسّت أنوفهم، وجعلتهم يتوقفون عن أي شيء يفعلونه، ويقطعون أي حديث دائر بينهم، وراحوا ينظرون إلى السماء المتسخة، وهبّات الهواء تنفذ إلى صدورهم، فأصابتهم نوبة من العطاس، وبعد توقف العطاس شرعوا يتحدثون بحماسة بالغة عن هذه الرائحة في محاولة جادة للتعرف عليها، فأخذوا يتجادلون بصوت عالٍ وأطلقوا لخيالهم الخصب العنان، واستعاروا أشياء من حياتهم، فشبه تاجر لوحات فنية مقلّدة الرائحة بأنها كرائحة "الأكريليك" على لوحة غير مكتملة، وربت رجلٌ بدينٌ على بطنه -وكان يعمل في بيع الدراجات النارية المستعملة (مجهولة المصدر في معظمها)، وخمّن أنها مزيجٌ من زيت الديزل الصناعي والمبيدات الحشرية وماء المراحيض من ماركة "ليوشن"، فيما أعلن -بمنتهى الوقاحة- صعلوكٌ كان يتجول دومًا في شارع مفترق الطرق نهاراً، ويظل ساهراً طوال الليل في كابينة الصراف

الآلي للبنك الزراعي، أنها رائحة مياه الاستحمام لامرأة حسناء، ذات نهدين كبيرين، وقد امتزجت برائحة الحليب.

لكن شياو لان لم تشعر بشيء ولم يمس أنفها أي رائحة، فما كان يدور في ذهنها أكثر تعقيداً من هذه الرائحة الغريبة، إذ طغت الأشواق وزاد الحنين واستبدت بها رغبة اللقاء.

حتى الوشاح الحريري حول عنقها كان يشعر أيضاً بالخطر الوشيك، فراح يتلوى في قلقٍ مثل أفعى مأكرة، ويطلق التحذيرات، لكنها حثت من سيرها ولم تحفل بأيّ تحذير، ومضت مع عجلة الزمن وقلبها عامراً بالأمل؛ أن تقطف -هي والحبیب- عنقود العنب الحلوا! لكنها كانت تجهل أن الحياة لا تمضي كما نتمنى، وإذا مدّ الظمآن يده ليطفئ لهيب الظمأ، ستجفّ مياه النهر، وإذا مدّ الجوعان يده ليقطف ثمار الشجر اليانعة، ستختفي في غمضة عين!

تدفق الزمن في منطقة المصانع في اتجاهين؛ أحدهما كان يتدفق في رهبةٍ وريبةٍ نحو الساعة الثانية واثنين وأربعين دقيقة الموافق لثالث عشر من نيسان عام ٢٠٠٦، والآخر كان ينحسر إلى الوراء مثل ظلّ شجرة حتى عاد الزمن أربعة عشر عاماً إلى الوراء، وعاد إلى تلك اللحظة التي انطلقت منها شياو لان وتشنغ جونغ، وإلى نقطة الصفر حيث بدأ الجميع.

دفتر اليوميات

مكتبة (١)

t.me/soramnqraa

دعونا نبدأ في الحديث عن الهواء الموجود في منطقة المصانع، لأنه كان الأم الحنون التي غذت المشاعر والعواطف كلها، كما كان الألوان الصناعية والمواد الحافظة، التي عتقت أحداث الماضي المنقضي، أيضاً.

تقع منطقة المصانع في إحدى ضواحي المدينة الشمالية، وهي أرضٌ خلاءٌ أُلقي بها إلى البعيد البعيد، وكان لهذا الهواء مزايا مهمة؛ فهو ليس فارغاً في حد ذاته بل كان ممتلئاً وثقيلاً، فضلاً عن قدرته على تطويق الأشياء من حوله وعناقها، في منتهى الرقة واللفظ، وكان يمسُّ أنوف الجميع ثم يجد الطريق إلى الحلق حتى يستقر في رئاتهم. أحياناً، يكون معبئاً برائحة "كبريتيد الهيدروجين" وكأن أسراباً من البيض الفاسد تتطاير في السماء، أو رائحة الصدا المألوفة، أو رائحة النيتروجين التي تشبه رائحة السمك الفاسد، لكن كانت رائحة "الزيلين" أو "القطران"، أكثر الروائح المُنفرة، تجعل حلقك في حالٍ من الجفاف والضيّق، وكأن ولدأ مشاغباً باغتك من الخلف وأحكم يديه حول عنقك فلا تستطيع التنفس. تتحدد هذه الروائح بحسب الريح التي تهبّ والمصنع الذي تهبّ فوقه؛ أحياناً كانت الريح التي تهبّ في الصباح ليست هي نفسها الهابّة في المساء، وربما تمتزج

رائحتان أو أكثر في آنٍ واحد، فكان الأمر مثل كيميائي يحضّر تركيباتٍ بطريقة عشوائية.

فإذا ما هبّت ريحٌ عاتيةٌ يصل هواءُ منطقة المصانع السخّي إلى وسط المدينة. ويا لها من رحلةٍ طويلةٍ ومثيرة! لكن للأسف لا يستوعب أهل الحضر مثل هذه المشاعر الهفهافة، حتى عندما أجبرتهم احتياجاتُ العمل على التوغّل في منطقة المصانع مترامية الأطراف، فإن هذا الهواء الزاخر بالمشاعر كان يُشعرهم بإهانةٍ عظيمة، فلم يسعهم إلا أن يطلقوا العنان للكلمات النابية في أعماقهم، ويحبسوا الأنفاس في صدورهم، ويتمنوا في أعماق قلوبهم أن يغادروا هذا المكان في أقرب وقتٍ ممكن، وفي الوقت نفسه لا يتحملون مشهد الأطفال الذين يلعبون في الغبار على مفترق الطرقات، والكعك المقلي والمطهو على البخار ذي الرائحة النفاذة والمتراص أمام الأكشاك في مهبّ الريح، فكانوا يشعرون أن حياة هؤلاء البشر تشبه حياة الحيوانات.

وعندما جاءت السيارات الصغيرة العائدة إلى المدينة، انطلقوا إليها في عجلة، فلاحت وجوههم البيضاء المجمعة من خلال نوافذ السيارات التي قطعت الطريق كالبرق، بينما راح عمال المصانع ينظرون في سعادةٍ غامرة إلى الضيوف وهم يغادرون صامتين، فكان هواء منطقة المصانع مثل ذوبهم، من المستحيل أن يتخلوا عنه أو يشعروا نحوه بشيءٍ من الكراهية، بل وجدوا طريقةً للتعايش والانسجام معه.

لكن شياو باي، ذلك الصبي الصغير، لم يستطع أن يحيا في مثل هذا الانسجام مع الآخرين، وربما كانت بدانته سبباً في شعوره بهذه الغربة.

"شياو باي البدين"، هكذا ذاع صيته في منطقة المصانع، حتى صار هذا اللقب علامة مميزة ومهمة التصقت به طوال حياته. وبعد مرور السنين، وفي مناخ الجنوب الذي كان أشبه بمناخ الغابات، صار شياو باي البدين شاباً ناضجاً ونحيفاً، وبرغم هذه النحافة المفاجئة، إلا أنه في كل مرة كان يقف فيها أمام المرأة، يحلق ذقنه أو يغسل وجهه أو يرتدي سترة قطنية ومعطفاً، كان يرى صورته القديمة التي عهدها في أيام الطفولة الخضراء.

كان الذقن يكتنز بطبقاتٍ من الدهون، أما الرقبة فلا داعي لوصفها، وكانت العينان غائرتين بسبب طبقات الشحم واللحم حولهما، وفخذان ملتصقتان جعلتا قدميه منحرفتين؛ فكان يتمايل في مشيته. ودوماً كان يرتدي زياً مدرسياً لا يوائم جسده البدين، حتى أطول حزام ساعة لم يكن ليلف حول معصمه، وفي يوم مسابقة التمرينات الرياضية الإذاعية، كان المعلم يطلب منه أن يأخذ هذا اليوم إجازة ولا يحضر إلى المدرسة، حتى زملاؤه عزفوا جميعهم عن السير بجانبه؛ تفادياً لنظرات السخرية من الآخرين بسبب بدانته. وقد منح القدر سيناريو مبتذلاً ورديئاً لفيلم منخفض الميزانية إلى عقل طفل غير ناضج مرهف الحس، وأفكاره معقدة ومتشابكة تشبه أمعاء الشاه، لكن بلا شك وبلا ريبة ما من شخص جاء عبثاً إلى الحياة، ودوماً الحياة تُشكل شخصياتنا وأجسادنا، لذا علينا أن نعود بعجلة الزمن إلى الوراء، نعود ثلاث سنوات قبل وفاة أبيه... نعم، هي إشارة مرورية صغيرة لكن لا بد من الالتزام بها والتوقف عندها، حيث بدأ مصير شياو باي الذي كان في الثامنة وأخته شياو لان التي كانت في الثانية عشر يأخذ منعطفاً آخر.

لن أخوض كثيرًا في الحديث عن والد شياو باي وشياو لان.

وسرعان ما صار هذا الصبي المسكين مثيرًا للشفقة، وقد شاع هذا بين أهالي المنطقة. ولطالما كانت النوايا الطيبة للبشر كما البلغم أو فضلات الجسد لا بد أن تخرج في وقتٍ محدّد، كما أن إبداء التعاطف نحو الآخرين والتعبير عن المشاعر النبيلة وتقديم أعمال البر والإحسان، جميعها متعّ جسديّةٌ يمكنها أن تعزز الشهية وتخلّص الجسد من السموم، بل تضفي عليه جمالًا وبهاءً، وخاصةً في منطقة مثل منطقة المصانع؛ حيث يفتقد بعض الأهالي الجو الأسري، فهناك تلتقي بأناسٍ لا تعرفهم وعليك أن تتعايش مع من لا تعرفه، فطالما سكنت في منطقة المصانع فقد صرت فردًا من أفراد عائلتهم، ويتسنى لك أن تمزح معهم بكلام قبيح، أو تستفسر عن سبب عقم الأزواج والزوجات، أو تضحك ساخرًا على عيوب الأشخاص البدنية، كما لو أنك أحد أفراد العائلة أو صديقٌ مقربٌ. وكانت هذه الأجواء العفوية والمبتذلة تضفي أشياءً أخرى على الهواء في منطقة المصانع.

ومن أجل أن يُبدي المرء تعاطفه لا بدّ من وجود شخصٍ بائس، وكم كان شياو باي في حاجةٍ إلى الشفقة والمواساة! بذلت النساء وسعهن في رعاية هذا الصبي اليتيم، وتعاملن معه بطريقةٍ خاصة جدًا؛ فما إن تقع عيونهن عليه حتى تتسابق أياديهن لتلمس تضاريس جسده السمين، فيلمسن رأسه وأذنيه وذراعيه وظهره، ومؤخرته وفخذه الكبيرين، ولو كان في وسعهن لخلعن حذاءه وقضمن أصابعه الصغيرة!

- يا له من صبيٍّ مسكين فقد أباه في سنٍ مبكرة!

- بشرته ناعمةٌ جدًا!

وراحت نساء منطقة المصانع يداعبن ويدلّلن الصبي اليتيم إلى آخر مدى. حينها كان شياو باي بدينًا حلو التقاطيع ولديه بشرة ناعمة، فبشرته الوردية وغمّازتاه وبطنه الملساء ومؤخرته الصغيرة جعلت منه طفلًا مميزًا في عيون الأهالي، بينما أمه السيدة سو تشين، الأرملة حديثة العهد، كان عليها أن تُبدي شيئًا من الاستكانة وشيئًا من الخجل، فكانت تمضي بجانب الصبي الوسيم واليد تعانق اليد، وتستقبل نظرات التعاطف وتبادل التحيات من أجل أن تعيش هي وابناها في أمان.

تركت أيادي النساء التي كانت تسبح في حرية على جسده ذكريات لا يمكن أن تنمحي أو تزول، فكانت كما أخطبوط ترك مخالبه الحادة تنخر عميقًا في رأسه. وهذا الشعور البغيض، الذي كان مثل عفنٍ تشكّل في مرحلة الطفولة، ملأ في صمت فترة المراهقة حتى صار ملازمًا له، ولا يفارقه حتى وهو في القطار الليلي المتجه إلى الجنوب، وأضحى كابوسًا مزعجًا استطال حتى طال ساعات الصباح الأولى. وتسبّب هذا الكابوس في شعوره بالعداء نحو النساء طوال حياته.

وفي كل مرة كان يجتر هذه الذكريات الأليمة، وهو يجلس أمام الأطباء النفسيين الذين كانوا على وشك النعاس، وفجأةً يستفيقون ويخطون عبارة إنجليزية غامضة: "Oh, It's the point!"، ويدونون بعض الكلمات في الدفتر ويحيطونها بدائرة كبيرة، وكأنهم يبرّرون ما يحصلون عليه من أجرٍ عالٍ.

ومنذ ذلك الوقت وهو يمضي على الطرقات مُطأطئ الرأس، وكان أكثر ما برع فيه هو أن يجعل رأسه يتدلى على صدره مثل شماعة فاسدة. وبعد مضي سنين العمر، عندما وقعت عينا لاولشان على شياو

باي وسط جموع المارة في الجنوب، وكان حينها في العشرين ويبدو عليه شيءٌ من الرعونة، أساء فهمه وأحسَّ بانجذابٍ كبيرٍ نحوه.

لكن لم تكن هذه العناصر هي الوحيدة التي ساهمت في تشكيل شخصية شياو باي، بل كان أكثر ما غذاه هو ذلك الهواء الفريد في منطقة المصانع الذي تحدّث عنه في بداية الحكاية.

أطلقَ لخيالك الوثاب العنان وارسم هذا المشهد على صفحة مخيلتك... صبيٌّ بدينٌ يمضي على الطريق وهو عائد من المدرسة، لا يحمل سوى حقيبة ترتطم بأردافه، يمضي وحيداً من دون صحبة رفاقه، ثم يعود إلى البيت ليجد نفسه في أسرة مفككة من دون أب! ودوماً الأم الأرملة، السيدة سو تشين، في الخارج، وأختٌ كبرى منكبةٌ أغلب الوقت على كتبها. جال ببصره في كل ما حوله، فأحسَّ بإعاقة وكأنه فقد أحد ذراعيه أو ساقيه. كان كل ما تسنّى له رؤيته دخاناً أسود يتصاعد من مدخنة بعيدة، متصلة بمجموعة من البنايات الحديدية الصدئة، ومحطة كهرباء فرعية رمادية عملاقة، وعلى مقربة منها كان هناك شاحنة بضائع ضخمة تزحف زحفاً على الطريق في مشهد قبيح، لكنها كانت تزحف في زهوٍ كبيرٍ وتفوح منها رائحة "المازوت المحترق". كان شياو باي هُشاً مثل بق الفراش وغارقاً لأذنيه في وحدة موحشة، وفجأةً رنَّ صوتٌ في أعماقه: العالم مليءٌ بالبشر ومليءٌ بالعائلات السعيدة، فلماذا يحيا وحيداً من دون رفيق أو عائلة؟!

دار ببصره في كل ركنٍ على أمل أن يلوح فجأةً في هذا الأفق البشع شخصٌ يمكنه الاعتماد عليه، شخصٌ يمتلك سلطةً ويأتي خصيصاً لحمايته، لكن بعد الانتظار الطويل لم يكن هناك سوى ذلك الهواء

العنيف يكسّر عن أنيابه ويخمش وجهه بمخالبه. وفي كل مرة يهب هذا الهواء الثقيل ويغير وجهته، كان يهزأ من هذا الصبي الغارق في وحدة قاتلة. وفي غمرة الأحزان وبمتهى البراءة نوى الصبي الوحيد أن يتخذ هذا الهواء الكثيف ليكون رفيق الدرب والحارس الأمين، ويحكي عنه كل يوم في دفتر اليوميات قدر المستطاع.

الجمعة الموافق ١٩٩١ / ٥ / ٣١

"أختي تتجاهلني وكأنني غير موجود، وقد استشاطت غضبًا لأنني أضعت -متعمدًا- دفتر التمارين الخاص بها. أنا أعلم أنها لا تحمل لي أي ذرة حب في قلبها، وقد فعلتُ هذا حتى أثير انتباهها، لكنني لن أضايقها، بعد الآن، وسأدعها تلتهم الكتب كما تشاء!

الهواء اليوم له طابعٌ خاص، وكأن أحذيةً مطاطيةً وأواني بلاستيكية تُطهى داخل قِدرٍ كبير، وشخصٌ ما يحركها ويضيف إليها السكر وربما بعض الخل، فاستحالت إلى سائل سميك من القطران أو شيء يشبه العسل، ويتقاطر من الهواء أو كما لبن أُمي.

آه، لكنني لا أتذكر شيئًا عن حليب أُمي....."

الأربعاء الموافق ١٩٩١ / ٩ / ١١

"أُمي شحيحة جدًا! ما اشتريت لنا القريدس قط، أحيانًا تشتري لنا سمكًا صغيرًا موشكًا على الفساد. كما إنها لا تجيد الطهي على الإطلاق وطعامها تعافه النفوس، فإما أن تنسى إضافة الملح أو تحرق الطعام.

اليوم، الهواء رائحته مثل رائحة السمك الميت، أو مثل القريدس الميت أو الحوت الأزرق الميت، أو سياف البحر الميت أو الحوت الأحذب الميت (جمل البحر) (رأيت صورته في موسوعة أختي التعليمية وكان منظره في غاية القبح). كانت جميع الأسماك ميتة وتفوح منها رائحة الموت. بدت منطقة المصانع في ذلك اليوم وكأنها غارقة في قاع المحيط الهادي بعد أن جفّت مياهه. أخبرنا المعلم أن المحيط الهادي هو أكبر محيطات العالم، وأنا الآن أتجول في أكبر محيطات العالم، وكل ما حولي أسماك ميتة!"

الخميس الموافق ١٢ / ٣ / ١٩٩٢

"اصطحبتنا المعلمة لنغرس الأشجار، ولأن صحتي جيدة فقد تولّيت مسؤولية الحفر وغرس الأشجار نيابةً عن جميع الفتيات، لكن لا أحد يهتم بي، حتى هؤلاء الفتيات لا يعرّني اهتمامًا. وبعد انتهاء اليوم الدراسي عدتُ مرةً أخرى واقتلعت كل ما غرسته من أشجار، من دون أن يراني أحد. وعلى الرغم من أن يدي أصيبت ببعض الخدوش، إلا أنني شعرت بارتياح كبير بسبب ما فعلته.

اليوم، الهواء خصبٌ جدًا للدرجة تكفي لسقي الأشجار المزروعة. رائحته مثل قطع توفو منقوعة منذ أسبوع. كانت قطع التوفو التنتة أشبه بقطعة قماش مبللة، وُضعت بإحكام على أنوف أهالي منطقة المصانع بأكملها، كما غطّت أنفي أيضًا.

بعد انتهاء اليوم الدراسي تغيّر اتجاه الريح، وهبّت رائحةٌ من مصنع الأنابيب الإلكترونية المجاور. أحببتُ هذه الرائحة، وشعرت كما لو أنني أجلس بجوار تلفازٍ ساخن يشع حرارةً، أو كأن أحدًا لمس

ذلك الصغير الراقد بين فخذَيّ، وفي كل مرة كانت الريح تهبّ فيها من هذا الاتجاه أحسّ بانقباضة في ذلك الصغير!"

أثر هذا الهواء الممتع في منطقة المصانع على مزاج شياو باي وأوحى له ببعض الأفكار الغريبة، وعلى الرغم من أنها كانت مغامرات طائشة لم تسبب له أي أضرار، إلا أن تأثيرها ربما كان أشبه بانفجار نووي!

في عام ٢٠٠٤ عاد شياو باي من الجنوب، وكان قد بلغ الرابعة والعشرين. عاد إلى منطقة المصانع التي ودعها قبل عشرة أعوام، وعندما اقترب القطار من المحطة، فتح النافذة وأخذ هبات من النسيم وملأ بها صدره، فطافت الدموع في عينيه وكأنه استنشق رائحة الحنين إلى الوطن، وتذكّر كل كلمة دوّنها في دفاتر اليوميات في تلك السنوات البعيدة وهو غارق في وحدته، فلكرته الصبية الصغيرة التي كانت تجلس بجواره، فارتعش أنفه الذي تلوّن بالحمرة من فرط البكاء، وغمغم ببعض الكلمات وقال مفسراً:

- قد اقترفتُ خطأ عندما كنت في مثل عمرك!

- أنت تبكي لأنهم غاضبون منك!

- لا، أنا أبكي لأنه لا أحد منهم يعرف شيئاً عما فعلته!

(٢)

كانت دفاتر يوميات شياو باي دفاتر تمرينات مادة الرياضيات، ذات غلافٍ وردي وخطوطٍ أفقية خضراء في الداخل. ذات يوم زارهم جارهم، مدرس الرياضيات، وأهدى إليهم عشرين دفترًا، لأنها كانت مخزونة منذ وقتٍ طويل، بهت لونها وصار ورقها هشًا، لدرجة أنه لو كتبَ فيها للطخها قلم الحبر.

منذ وفاة أبيه اعتاد الجيران أن يهدوهم مثل هذه الأشياء، التي تبدو في حالة جيدة، لكنها في حقيقة الأمر بلا جدوى. قبلت الأم الهدية وشكرته، وعندما غادر ألقت بها إلى شياو باي من دون اكتراث وقالت:

- استخدمها كمسودة للمذاكرة، وإذا كانت تالفة فألقها في القمامة.

أبدت الأم فتورًا كبيرًا وكأن الجار أساء إليها بهديته، وحاولت قدر الإمكان أن تكبح زمام عواطفها، فمنذ وفاة زوجها تبدلت حالها وصارت امرأةً مختلفة، وشرعَ الرجال باللقاء تحيات قصيرة عليها، أما تحيات النساء فكانت أطول قليلًا، وكأنما تعذر عليها أن تحظى بعلاقات شخصية طبيعية بعد وفاة زوجها.

لم يلقِ شياو باي بالدفاتر، فقد ذكّرتَه هذه الدفاتر ذات الورق الهش بحاله، ونوى أن يكتب فيها يومياته.

مضت السنون وعاد شياو باي من الجنوب إلى منطقة المصانع، وراح يتحدث مطولاً مع أخته شياو لان التي كانت حاملاً في هذا الوقت، لكنها قررت الانفصال عن زوجها وانتقلت للعيش وحدها. في تلك الليلة أخرج دفاتر اليوميات وحكى لها عن قصة جمعته بلاو شان، وكانت المرة الأولى التي يجعل شخصاً آخر يطلع على أسرارهِ الدفينة.

اعترت الدهشة شياو لان التي كان الألم ينخر في خصرها نخرًا بسبب الحمل، ولأن اليوميات مكتوبة منذ عهد بعيد، صارت أشبه بكومة أوراق ممزقة، وبين علامات الحبر القديمة عجزت عن أن تميز المدوّن فيها، لكنها اكتشفت أن يوميات شياو باي درامية جدًا؛ بعضها مشحونٌ بشحناتٍ من الغضب وزاخر بالسباب والشتائم والسخرية، وبعضها زاخرٌ بمشاعر حانية وعاطفة مشبوبة باستخدام قائمة طويلة من الاستعارات والتشبيهات عن نسيم الربيع، وهناك أجزاء كانت عامرة بالمكائد والمؤامرات المبالغ فيها. حاولت شياو لان أن تكبح زمام عواطفها، فأخذت تضحك لتخفي حزنها العميق، وفكرت؛ إذا كان شياو باي قد استمر في الكتابة عن هواء منطقة المصانع فعقله بلا أدنى شك مصابٌ بلوثةٍ من الجنون. ولحسن الحظ بعد بضعة أشهر، ظهر بطلٌ آخرٌ حقيقيٌّ وكان بديل الهواء، وأصبح "هناك" هو البطل الجديد في يوميات شياو باي.

عندما طالعت شياو لان هذه الكلمة، لم تستطع أن تتمالك نفسها وراحت في نوبة بكاء هستيرية، وحررت دموعًا حارقة، حبستها سنين وسنين، وكأنها كانت متحجرة في عينيها طوال هذه السنوات. دموعها جعلت الجنين يتحرك، في بطنها، وكأنه تأثر أيضًا وراح يشاظرها الأحران.

"هناك" هذه الكلمة تحمل في طياتها معانٍ شائعة كثيرة، وربما وصفها هكذا شياو باي في دفتر اليوميات من دون قصد. أليست هذه الكلمة مثل: "افعل هذا الشيء"، و"خذ هذه النقود"، و"نوعية هذه الأماكن"، و"نوعية هذه النساء"، فهي كلمة عامرة بمعانٍ بعيدة المرمى.

لكن كيف ظهر "هناك" فجأة في حياتهم؟! وكيف تعرّفت أمه على هذا الرجل؟! كان هذا الحدث المباغت، وظهور ذلك الرجل لشياو باي، اللاهي عن كل شيء بجسده السمين، والغارق لأذنيه في الهواء الذي يطوقه من كل جانب كما صاعقة نزلت على رأسه!

وعندما علم بوجود ذلك الشخص ومضى للقاءه، أمسك بيد أخته في عتمة الليل، لكنها أفلتت يدها، وبعد أن ركب خلف أمه على الدراجة، شرع يغمز لها وكانت تركب دراجة أخرى، وكالعادة أبدت شياو لان، ذات السادسة عشر، صمتاً يشبه صمت البالغين ولم تلتفت إليه، فلم يسعه إلا أن يعتمد على نفسه، فلا أحد كان لديه من الصبر الجميل حتى يحتمله ولا أحد يحنو عليه، وكان عليه أن يتسلق الجبال الشاهقة وحده كي يمضي قدماً إلى هناك!

لم يكن ذلك البيت بعيداً، فalcائلتان سكنتا في منطقة المصانع الوعرة، وكان بيت شياو باي في منطقة مصنع الألكيل بنزين. تجولوا حول مصنع المواد البلاستيكية الكيميائية على شكل حرف "L"، ثم عرجوا إلى البوابة الخلفية، وانعطفوا يميناً حيث مبنى السكن في مصنع الأنابيب الإلكترونية في الجهة الأخرى. كانت هذه المصانع أشبه بالجيران، والخدمات المشتركة مثل البنايات السكنية والمطاعم ودورات المياه ودور السينما ومحلات البقالة الصغيرة والمدارس

الابتدائية، تناثرت مثل دبائيس تثبت الورق في فوضى وعشوائية. سار ثلاثتهم وسط هذه المباني العشوائية، بالدراجتين، واستغرق الأمر برمته قرابة العشرين دقيقة.

لطالما كان الحسّ المرهف يُفضي بالمرء إلى حالة من خيبة الرجاء! وسرعان ما فطن شياو باي الجالس في المقعد الخلفي للدراجة أن أمه تألف هذا الطريق جيدًا، وأدرك أن الأم التي كانت تخرج متذرعةً بثتى الأعذار من البيت وتبقى طويلًا في الخارج، لا شك أنها كانت في تلك الأيام والليالي تسلك هذا الطريق بدراجتها. لم يكن الأمر مبالغًا أو صادمًا فقط، بل كان مثل غيمة ثقيلة طفت فوق رأسه.

عندما وصلوا إلى المبنى، تحدّثت الأم إلى شياو باي كما فعلت قبل خروجهم من البيت قائلة: "ألقِ التحية على أصحاب المنزل والتزم الأدب!"، ثم أدارت دفعة الحديث إلى أختها وقالت: "التزمي الأدب!". كانت مرة واحدة تكفي، فما جدوى تكرار النصيحة؟ ولماذا قالتها بهذه النبرة الغريبة؟ وكأن هناك سببًا لتعامل ولديها مع أصحاب البيت بعدم تهذيب!

صعدوا الدرج ووقفوا أمام الباب، وراحت الأم تنظر إليهما وكأن ما قالت لهما لم يكن بدافع منها، بل أمر مجبورة عليه، وفي النهاية طرقت الباب.

فُتح الباب فظهر رجلٌ غليظٌ يرتدي البدلة الزرقاء الداكنة الشائع ارتداؤها في المصانع، وشرع يفرك يديه وعلى وجهه ابتسامة عريضة ليوحى بأن الأمر طبيعيٌّ وما من شيء خاطئ في الموقف. لمع رأسه

الأصلع مثل قنديل بضوءٍ أصفر، واصطبغ أنفه باللون الأحمر فبدأ وكأنه أفرط في شرب الخمر، وتألقت عيناه بنورٍ أحمر وهّاج، وإذا بالأم تمسك بيد شياو باي وتقول:

- حيّ عمك دينغ!

وفي غرفة المعيشة، على الأريكة ذات الجلد الصناعي المقسّمة إلى ركنين، جلس فتى حلو التقاطيع، وقد استطال شعر جبهته حتى أنه غطى نصف وجهه وأخفى تعابير وجهه، فيما جلست صبية متواضعة الجمال، بدا فمها واسعاً من ابتسامتها العريضة، وسرعان ما نهضا واحداً تلو الآخر قائلين:

- مرحباً عمتي سو!

وكما الإنسان الآلي تحوّلت عيونهما صوب شياو باي وشياو لان، وراحا يسبحان في جسديهما ويفحصانهما، وفعل شياو باي وشياو لان الأمر ذاته، وراحا يتفرسان في كامل جسديهما، ثم انتبها إلى وجود صورة في زاوية الغرفة موضوع عليها شريط أسود، ومن خلف الإطار الزجاجي للصورة كانت ربة البيت تنظر إلى الضيوف، وعلى وجهها تعبيرٌ يشي بالسمو والرقى.

طلبت الأم من شياو باي أن يناديهما "أخي تشنغ جونغ"، و"أختي تشن تشن"، فامتثل لأوامرها، كما حيت شياو لان دينغ بوه جانغ والأخ تشنغ جونغ، وعندما جاءت لتحبي الأخت تشن تشن تردّدت في البداية وزمت شفّتيها، ففطنت الأم إلى الأمر، وضحكت وسألت دينغ بوه جانغ عن عمر تشن تشن، وراح كل منهما يتحدّث عن تاريخ ميلادهما والتقويم القمري والشمسي، وبعد عقد المقارنة، توصلا

إلى نتيجة وهي أن تشن تشن تكبر شياو لان بثلاثة أشهر ونصف،
وينبغي أن تناديهما "أختي الكبيرة تشن تشن"، فضحك الاثنان وكأنهما
توصلا إلى حل مسألة رياضية في غاية التعقيد.

طلبت الأم من شياو لان أن تناديهما مرةً أخرى، فلوت عنقها
ونادتها بصوتٍ غريب وكان قطعة حلوى محشورة في فمها، فأجابتها
تشن تشن بصوتٍ عالٍ وبنبرة متشحة بالنصر. سوف تحظى تشن
تشن بمتعة هذا اللقب مرةً أخرى، بعد سنوات طوال، لكن الأحوال
ستتبدل ويكون الموقف مهيباً!

الوقت مثل قصب السكر، لكن مَنْ منا يستطيع أن يعرف أي طرف
هو الحلو الطيب وأي طرف هو المر العلقم! في هذه اللحظة وفي هذا
البيت يجلس رجل وامرأة وأربعة أبناء من عائلتين مختلفتين، ولا أحد
منهم يدري بعد تعارفهم، كيف سيرسم القدر طريق مستقبلهم. كان
كل ما يسترعي انتباههم في هذه اللحظة هو هذا اللقاء الذي سادته
أجواء متوترة.

قبل انتهاء إلقاء التحيات الروتينية والتعارف ومناقشة عمر تشن
تشن وشياو لان، وقف الجميع وكأنهم ارتسموا وسط دائرة، وقفوا
في أماكنهم المحددة كأغصان أشجار تجردت من رداؤها الأخضر،
وتفاوتت درجة صلابة أجسادهم التي شكلت خطوطاً هندسية
متداخلة.

في هذه الليلة لف شياو باي دفتر التدريبات المدرسية، لفه على
شكل أسطوانة ثم فرده ثم لفه مرةً أخرى، وأحس أن عقله تحجّر
وصار مثل مجرى مائي مسدود، ولم يفهم ماذا تعني كلمة "هناك"
على وجه التحديد؟!

شرد وفكر ملياً، ولكي يتخلص من هذه الأفكار المزعجة، التي
جثمت على صدره، كتب في دفتر اليوميات مجموعة من الأقوال
المأثورة، التي تعلّمها الأسبوع الماضي في المدرسة، مثل: "كرّس
نفسك من أجل الوطن!"، و"الولاء المطلق والقلب المخلص!"،
و"الحرص على سلامة الأمة!"، و"الحرص على مصالح الشعب!"،
و"الروح الأبية تدوم إلى الأبد!". كتب هذه العبارات عدّة مرات،
وبعد أن انتهى من الكتابة، أحسّ أنه عبّر عما اعتمل في صدره
وتحررت روحه من الهموم الثقيلة. كان شياو باي يهوى مثل هذه
العبارات الرنانة، وعلى الرغم من أنها تبدو جوفاء وخالية من أي حسّ
أدبي ولا مغزى وراءها، إلا إنه في هذه السن الصغيرة، أحسّ بمرونتها
وانسيابيتها، فكانت وسيلة مذهلة للتعبير عن هذا العالم مثلما يتبدى
في عينيه!

وما إن انتهى من الكتابة وترك القلم حتى قفزت على صفحة ذهنه
فكرة ترك لها العنان... بعد انتهاء اليوم الدراسي في أثناء عودته إلى
البيت، لطالما كان يتوق إلى بيت دافئ وأشخاص مفعمين بالعطف
والحنان، وقد تحقّقت أمنيته الآن! ولا شك أن الضوءين، الأصفر
والأحمر، اللذين يشعان من دينغ بوه جانغ لا يروقانه، لكن تشن تشن
تشبه أمه وأخته، وهناك أيضًا تشنغ جونغ، هذا الأخ الكبير! السند
والمعين! شخص رائع يمكن الاعتماد عليه ليحميه ويعتني به ويكون
سنده في الحياة، وكفاه ذبولاً حتى صار مثل حبة قرع ذابلة. وعلى
الرغم من أنه كان صبيّاً سميناً ووزنه ثقيل، إلا أنه كان يحس نفسه
كما شجرة صفصاف هزيلة ترتجف في مهبّ الريح، ولو سمعه طبيبٌ
نفسى وهو يصف حالته لاهتز قلمه بين أصابعه!

أحسّ شياو باي ببارقة أمل بعد أن أغلق دفتر اليوميات، وبشيء من القلق في الوقت نفسه، وتذكر أن تشنغ جونغ، بعد أن ألقى التحية على الحضور، سرعان ما انكمش ومضى إلى غرفته ولم يظهر مرة أخرى، وقد لاحت اللامبالاة جليةً على صفحة وجهه.

(٣)

منذ ذلك الحين بدأ شياو باي يولي عناية بـ"هناك"، وشرع يبحث عن الحارس الأمين وتكوين أسرة سعيدة، وصارت غايته المنشودة هي جعل ست بتلات صغيرة زهرة واحدة كبيرة، وحشو قطع من القطن حتى تصير لحافاً مريحاً! وبعد مضي السنين، عندما تذكر هذه الغاية المشروعة، أحسّ أنها لم تكن فكرة سيئة، بل كانت فكرة بسيطة وقابلة للتنفيذ من دون عناء. ربما بالغ في مشاعره وقتها، ولم يكن لديه أدنى اعتراض أن يصبحوا عائلة واحدة ويصير له أبٌ بديل وأخٌ مزيف وأختٌ مزيفة.

راح يراقب أمه ويحاول أن يفهم طبيعة علاقتها بـ"هناك"، وأخذ يحلل المزايا والعيوب وتطور الأوضاع في المستقبل، لكن تعذّر عليه أن يعرف طبيعة هذه العلاقة، فكانت أمه مثل حصن جبلي منيع، وكانت وفاة أبيه نقطة تحوّل كبرى في حياة العائلة، وتغيرت أمه تغيراً جذرياً وأضحت امرأة أخرى؛ في بعض الأوقات كان تبدو كالمريضة، ولا تطهو لأيام متواصلة، وتشترى فقط كعك السمسم، وتستلقي في الفراش وتظل تحملق في السقف وهي ساهمة، وبعد مضي ساعتين تنهض من الفراش وتدبُّ الهمة في روحها، وتؤدي أشغال البيت بنشاط كبير، حتى الحذاء الواقي من المطر كانت تغسله عدّة مرات. وصارت فجأة لا تحبّ الحديث، وإن تحدّثت يكون حديثاً مزيفاً.

"صارت شبه ميتة" هذه المقولة تعلّمها شياو باي في المدرسة، وكانت الوصف الدقيق لما وصلت إليه حالة أمه.

وعندما بدأت في الذهاب إلى هناك، كانت الليلة رتيبةً كالعادة، تحلّق شياو باي وشياو لان حول المائدة، يؤديان الواجبات المدرسية، وفوقهم مصباحٌ معلقٌ يطنُّ في آذانهما كأزيز الذباب. تارةً كانت تجلس على الأريكة وكأنها تجلس على جمرةٍ من نار، وتارةً أخرى كانت تستوي واقفةً وتذرع الغرفة جيئةً وذهابًا، وتمسك بهذا الشيء وتلمس ذلك الشيء، فخدش شياو باي عنقه ونظر إليها، وقضمت شياو لان نهاية قلمها، فحاولت أن تخفي حركة أصابعها المتوترة التي بدت وكأنها تعدّ على عدادٍ خشبي. ولا عجب في هذا، فقد كانت تعمل محاسبة في إحدى الشركات التابعة لمصنع الألكيل بنزين.

واصل كل منهما تأدية الواجبات المدرسية، وسكبت لهما الأم كوبين من الماء، وفي النهاية عقدت حاجبيها، وكأنها ستفعل شيئاً ضد رغبتها وقالت:

- سأذهب الآن وسأعود في الصباح لإعداد الفطار. شياو باي، اسمع كلام أختك!

لم يرفع شياو باي رأسه لينظر إليها، وبدا منشغلاً في واجباته. نهضت شياو لان ودنت منها قائلةً:

- قودي الدراجة على مهل!

وانتظرا حتى أغلقت الباب، وسرعان ما ترك شياو باي القلم ونهض واقفاً، ومثل فرسٍ صغيرٍ أخذ يصول ويجول في الغرفة التي كانت ضيقة فشغل حيزاً كبيراً بجسده السمين، وبدا وكأنه فيلسوف

مشغول بقضية فلسفية، ويفكر في أشياء تؤرقه، فخرجت أخته عن طورها، وصاحت وقد نفذ صبرها:

- لا أستطيع حفظ الكلمات بسبب حركتك! أنه واجباتك ثم اغتسل واذهب إلى الفراش!

لم يتحدثا عن أمهما أو عن هناك، لكن شياو باي كان على يقين أنها لا تعترض على زيارات أمهما المنتظمة إلى ذلك البيت، وعلى حدّ تعبير الجيران الذين سمعهم -من دون قصد- وهم يقولون:

- لماذا لا تواعد سو تشين شخصاً آخر بعد موت زوجها؟

لكن كانت المشكلة تتجسّد في أنهما شريكان غير متوافقين!

السبب الأول هو ذلك المدعو دينغ بوه جانغ، كيف أصفه؟ هو رجلٌ أصلعٌ بأنفٍ وردي، تفوح من بدلته الزرقاء رائحة الصدا، ونظراته مأكرة، ودوماً يفرك يديه بطريقة فظة... كانت منطقة المصانع منطقة كبيرة جداً، وبها الكثير من الرجال، وإذا أغمضت عينيك فمن السهل أن تصطدم بشخصٍ مثله! نعم ليس من الأدب الحكم على الآخرين من خلال مظهرهم الخارجي، لكن عند مقارنته بأبيهما يكون الفارق كبيراً، كبيراً جداً! كان أبوهما يجيد اللغة الروسية كأنه رجلٌ روسيٌّ، ودوماً يرتدي بدلة العمل "الكاكي"، وحذاؤه الجلدي يلمع دائماً، فماذا حدث للأُم ولذوقها في الرجال!

والسبب الثاني الذي كان يدعو إلى القلق، هو أنه على الرغم من تورطها في العلاقة مع دينغ بوه جانغ، إلا أنها لم تكشف عن هذه العلاقة وتجنبت أن تتحدّث عنه أمام الآخرين، وأخفت الأمر عن كل العيون، وقبرت سرّ البيت الآخر في قلبها، وكأن الجيران والمعارف

وزملاءها في المصنع أبرياء لا يفقهون شيئًا، وكأن جميع العائلات، وخاصة النساء في منطقة المصانع، ضحيرات وصماوات وبكماوات، وهذا جعل شياو باي يحسّ بالخجل الشديد ويستبد به القلق، فكان صمت أمه يشير إلى أنها -ربما- تنكر علاقتها بهذا الرجل في أي لحظة، مثل مقامرٍ يُلقي فجأةً بورقه ويعلن عن عدم رغبته في اللعب!

لماذا تبدو الحياة، دومًا، مثل أرجوحةٍ تصعد بنا إلى السماء السابعة وفجأةً تهوي بنا إلى الأرض!

(٤)

اعتادت الأم الذهاب إلى هناك يوم الأربعاء، وقد تبين لشيوا لان من خلال تصفحها لدفاتر يوميات شيوا باي أنه كان يعاني ذكرى أليمة في مساء كل أربعاء، فلم يكن يكتب شيئاً، بل كان يرسم بعض الأشياء العشوائية، مثل جذوع نباتات طويلة، مليئة بأشواك متناثرة، وملاً دفاتر اليوميات المتهالكة بعلاماتٍ من الحبر الأزرق.

لكن السؤال يلح هنا بشدة، لماذا اعتادت الأم الذهاب كل يوم أربعاء إلى هناك؟ الإجابة بمتهى البساطة لأن تشن تشن نجحت في امتحان قبول الكلية الفنية، وباتت تسكن في سكن الجامعة، أما تشنغ جونغ قد رسب في امتحانات قبول الجامعة وفشل في الالتحاق بأي كلية، وكان يمكث طويلاً في البيت وشرع يبحث عن عمل، وسجل في أحد الفصول الدراسية الليلية، واعتاد الحضور في مساء كل أربعاء، ولأنه تعذر عليه اللحاق بآخر حافلة، فكان يبيت في بيت أحد زملائه، لذا صار البيت الآخر مثل عش فارغ يخلو من الطيور في مساء كل أربعاء، أو بعبارة أخرى تستطيع الأم أن تبيت هناك ويتظاهران بأن شيئاً لم يحدث!

في البداية أحس شيوا باي بشيء من الارتياح من زيارة أمه، كل أربعاء، إلى بيت دينغ بوه جانغ، لكنه فيما بعد أحس بالغضب وراح يفكر أن أخاه تشنغ جونغ سيحتقره، فكم كان يتوق لأخ يعتمد عليه،

ويؤسس علاقةً أخويةً مليئةً بالنبل والشرف، وفي الوقت نفسه كان يتطلع إلى تكوين عائلةٍ كبيرة في جوٍّ طبيعيٍّ ومحترم. فلماذا يدنس الكبار ليالي الأربعاء حتى صار محفورًا على وجوههم هذا الخزي وهذا العار!

وتواعدا على اللقاء كل مساءً أربعاء، ووفيا في كل الأيام، فأحسّ شياو باي بالألم ينخر روحه عميقًا، وعندما يتذكّر يوم الأربعاء كان يتظاهر أنه ليس يومًا من أيام الأسبوع وأنه ليس ابنها، ولا يكثرث إلى كل هذه الأشياء الكريهة التي يمكن إلقاؤها في المرحاض من دون أن تخلف وراءها أثرًا.

وذاث أربعاء رسم في دفتر اليوميّات نافذةً سوداء، مفتوحةً على مصراعيها، ويدًا ممدودة في منتصف النافذة، ووسط الخلفية السوداء للنافذة ظهرت يدٌ بيضاء تمتدّ إلى الأمام ومفتوحة على آخرها، فبدا المشهد مرعبًا. وهناك قصة وراء هذه اليد.

دعوني الآن أصف لكم شكل بيت شياو باي، ولم تمنح صورة هذا البيت من ذاكرته يومًا. كان البيت يقع في نهاية المباني السكنية لعمال مصنع الألكيل بنزين، بجوار زقاقٍ ضيق، وكانوا يسكنون الطابق الأرضي وتطل نافذة البيت على الزقاق الضيق. كان فراش شياو لان تحت النافذة، وتقاسم شياو باي وأمه فراشًا وُضع بجوار الحائط، ولو أن القدر أمهل أباهما عامًا ونصف العام، أو لو كان بارعًا في التخطيط والتملق والمداينة، لكان تسنّى لهم الانتقال إلى بيتٍ آخر بمساحةٍ أكبر. لكن "لو" لا طائل منها الآن، فالحياة دومًا قاسية تمضي إلى الأمام مثل سهم مارق، من دون أن تلوي على شيء، ولا تعطي وزنًا لمثل هذه الافتراضات.

والآن أودُّ أن أقدم لكم الأخت الكبيرة شياو لان. كان شياو باي يعلم منذ الصغر أنها فتاةٌ جميلة، وقد ذاع صيت جمالها بين الأهالي مثلما ذاع صيته بينهم بأنه طفلٌ بدينٌ، ولم يكن هذا الجمال يسترعي الدهشة؛ فالجماليات كثيرات، لكن شياو باي اعتاد أن يسمع الآخرين وهم يتحدثون عن أخته، ويرون بأن سرَّ جمالها يكمن في أن من يعرفها لا يمكن أن ينساها، وأنها تترك بصمةً قوية في الآخرين، لأنها فتاةٌ عنيدة وحازمة ولديها آراء خاصة، وكل من يلتقيها يُجمع على رأي واحد، وهو لا سبيل إلى التعامل معها!

كانت بالفعل شخصيةً غريبةً ومختلفة، وكان أكثر ما يثير ضيقها هو كلمات المديح لجمالها، التي تشعرها بأنها مثل وسادةٍ مطرزة، فتعمّدت عدم الاكتراث لملابسها ومظهرها، فكانت ترتدي ملابس أمها القديمة، وملابس الجيران التي كانوا يهدونها إليهم، ولم تكن تبالي حتى لو كانت قديمة أو لا تواكب الموضة. واعتادت الحصول على درجات ممتازة في المدرسة، وامتلأت بالصبر والعزيمة والإرادة، وكانت الأعمال الروائية العالمية التي تطلعها والكلمات التي تحفظها من القاموس، تنبئ بأن هذه الفتاة ستفعل أشياء مذهلة في المستقبل.

باختصار، يمكن أن نلخص شياو لان في كلمة "الصواب"، كما أنها كانت تذكّر الأهالي بمجموعة من الكلمات مثل: التميّز والنقاء والاجتهاد وغيرها من هذه الكلمات الرنانة، لكن ربما يبدو الأمر مثيرًا للسخرية عندما تجتمع مثل هذه الكلمات على خلفيةٍ متداعية في منطقةٍ مثل منطقة المصانع! لكن هل تظنّ شياو لان أنها تستطيع العيش في منطقة المصانع من دون أن تغرق في الوحل؟ أو أنها

تستطيع التحكم في القدر المحتوم؟ لذلك كان هذا الصواب نابعا من إنكارها للقدر، فدوماً كان شيء عميق يتبدى في عينيها، أو في طرف شعرها أو في طرف ملابسها، شيء لم يكن أبداً حقيقياً، يومض مثل إبرة فضية ويشعر شيوا باي بالخوف.

عند العودة إلى ذلك الأربعاء، كانت ليلة صيفية حارة خلد فيها شيوا باي إلى النوم مبكراً، وظلت شيوا لان تطالع كتاباً وتركت نافذة الغرفة مفتوحة من دون أن تسدل الستائر. وعندما فكر شيوا باي في الأمر بعد فوات السنين، فطن إلى أن أخته كانت عاشقة للقراءة، وأي شخص لديه شيء من العقل سيدرك أن نور الغرفة الساطع وسط عتمة الليل في الخارج، لا شك أنه سيجذب الأشخاص السيئين الذين ينتبهون إلى أن هذا البيت في هذه الساعة المتأخرة، لا يوجد به سوى صبي صغير وأخته الحسناء. وفي تلك الليلة، أوت شيوا لان إلى فراشها في ساعة متأخرة واستلقت تحت النافذة المفتوحة، وراحت تستمتع بنسمات الليل الباردة وهي تداعبها. وبعد أن أنهت واجباتها المدرسية، أحسّت بحلاوة الإنجاز، وسرعان ما غطت في نوم عميق.

وفجأة، استفاق شيوا باي وكأن شخصاً قرصه، واستلقى على جانبه في صمت وفتح عينيه على وسعهما وسط العتمة الجامحة، واستطاع أن يرى بوضوح يداً تتسلل من النافذة ناحية فراش شيوا لان وتنفقد وتلمس في الظلام. وبمنتهى الصبر راحت اليد تتحرك ثم تتوقف مثل شخص يتلمس الطريق ليحدّد وجهته. توقفت اليد عند الكتف ثم مضت إلى مكان آخر، وعندما أحسّت أنها وجدت بغيتها، توقفت وشرعت تتحرك في حذر. في هذه اللحظة فتح شيوا باي عينيه

على وسعهما، وشرع يصرخ بأعلى صوته، لكن الشيء الغريب أن صوته توقف في حنجرتة فكان صراخًا بلا صوت!

كانت شياو لان مثل جثة هامدة لا تتحرك، وبعد لحظات تأوّهت وتقلّبت في الفراش، وكانت أزرار ملابسها مفتوحة وانكشف الجزء العلوي من جسدها، وأخذت هذه اليد تكبر شيئًا فشيئًا، ثم ظهر ظل وجه صاحب اليد والجزء العلوي من جسده، وراح الظل يكبر رويدًا رويدًا في عتمة الليل. رغب شياو باي في النهوض ودفع اليد بعيدًا عن جسد أخته، لكنه أحسّ وكأن قدميه مقيدتان وعجز عن الحراك، بينما راحت اليد تتجه إلى أسفل وتلمّس هنا وهناك من دون توقف.

"أخي! أخي!" صرخ شياو باي بأعلى صوته من دون أن يعي لماذا يستنجد بأخيه الكبير، ثم تكوّر على نفسه واحتضن رأسه بيديه، وأغلق عينيه وراح يحرك قدميه في الهواء مثل طفل حديث الولادة. وفجأة، استيقظت شياو لان وتقلّبت في الفراش، ثم سرعان ما قفزت وسارت نحو فراش شياو باي وقالت:

- ماذا بك؟ ماذا حدث؟

ولم تنتبه إلى ما حدث إلى ملابسها ولم تلاحظ أن نصفها العلوي مكشوف، ولم تعلم ماذا حدث لجسدها المسكين منذ قليل، فأشار إليها بيد وباليدين الأخرى وأشار إلى النافذة وهو يقول: "كان هناك يد! كان هناك يد!"، وكأنه طفل تعلم الكلام حديثًا ولا يعرف سوى هذه الكلمة. في هذه اللحظة كانت تلك اليد الملعونة قد اختفت، والنافذة لا تزال مفتوحة في حالة من اللامبالاة وسط هذا الظلام، فأدركت شياو لان أنها استفاقت من حلم، فأحنت رأسها وغطت يديها الجزء العلوي المكشوف، ثم شرعت تعيد ملابسها كما كانت وهي

تهزّ رأسها، ثم طففت تذرّع الغرفة الصغيرة جيئةً وذهابًا في عصبية شديدة، وكأنها فأرةٌ بيضاء صغيرة محقونة بالسم وتقاتل من أجل أن تختبئ في زاوية محجوبة عن العيون، وتدفن نفسها وهي على قيد الحياة!

وعجز كلُّ منهما على النوم في النصف الثاني من الليل.

قفزت إلى ذهنهما العديد من الأفكار ولم يصرّحاً عنها، فذهبت وأغلقت النافذة بالمزلاج وأسدلت الستارة، وحأكت الجزء الأخير من الستارة بإحكام، ووضعاً داخل الستارة كرسيًا وطبق الغسيل ومنشر الغسيل وصندوق الأقلام الفارغة والغلاية وأشياء فارغة من هذا القبيل، واتخذتا منها حيلةً ذكية حتى إذا دفع أحدٌ من الخارج النافذة، سقطت هذه الأشياء وأحدثت ضوضاء، لكن لم يرف لهما جفن طوال الليل، وجلسا على حافة فراش أمهما وكأنهما يشاهدان فيلمًا سينمائيًا، وأعينهما على النافذة في ذعرٍ شديد، ويتوقعان ظهور تلك اليد مرةً أخرى.

وفي حوالي الخامسة صباحًا عادت الأم، وقد اعتادت العودة في مثل هذا التوقيت، وقبل أن يستيقظ أحدٌ من الجيران كانت تصفُّ دراجتها في هدوء مثل لصٍّ متمرس، ومن دون صوت تفتح الباب على مهل، وفي الظلام تتحسّس الغلاية وتبدأ بإعداد الإفطار، وتنتظر حتى يُلقِي الفجر بخيوطه الأولى على الكون، وتضع يدها الممثلة برائحة الصابون على أنف شياو باي وتقول: "انهض! اليوم ستأكل الأرز بالبيض المخفوق!". كان هذا الوقت هو أسعد أوقاته، وقبل أن يفتح عينيه يرّى هذا الصوت في أعماقه: أمي نظيفة جدًا وتتضوع منها رائحةٌ جميلة وتغمرها السعادة، ومضى ذلك الأربعاء المخزي!

لكن في هذا الصباح، عندما مدّت يدها لتفتح الباب كما الظل، سرعان ما تراجعت إلى الوراء وكأن أحدًا رشها بمياه غسيل الصحون، ورأت النافذة وما وضعاه تحتها وابتتها التي تجلس من دون حركة بعينين تجمّعت حولهما هالات سوداء، وكانت الغرفة معتمّة وكئيبة وتفوح برائحة عرقٍ لاذعة.

استفاقا من شرودهما واقتربا من أمهما، وراحت شياو لان تحدّق النظر فيها، وحاولت أن تحافظ على أدبها قدر المستطاع، بينما شرع شياو باي يحكي لها ما حدث في الليلة الماضية بلسانٍ متلعثم مثل راوي الحكايات:

- يدّ تتحسّس، يدّ في الظلام... نهضت أختي من الفراش وكدت أموت من الخوف...

وطفق يستخدم هذه العبارات الطفولية مما ضخم من حالة الذعر. يا له من مشهدٍ خطير! ولأن الأم تركت ولديها وذهبت تقضي ليلتها هناك، كادت تقع فضيحة -هنا- ولا يمكن لأحد أن يتصوّر كيف ستكون عاقبتها!

لكن لم تكن عاقبة ما قاله محمودة، فأخذت تنظر إليه بعناية وهو يتحدث، وحاولت أن تجذب ابتتها التي كان ترتعد من الخوف إلى حضنها، لكنها تراجعت إلى الوراء وراحت تمسح دمعّة كادت تنبثق من عينيها، ومضت تغسل أسنانها. صمتت الأم ووضعت يديها على جنيها، وكان شياو باي لا يزال يحكي ما حدث في تلك الليلة الليلية، فحدّقت في وجهه بخيبة أمل وقالت:

- ينبغي أن تكبر، أنت لم تعد صغيرًا!

وتجري الرياح بما لا تشتهي السفن! لم يجد دموع الندم والمواساة
كما خيل له، بل أحس أن أمه تُلقِي باللوم عليه، فأحس أنها تتصور أنه
يحيك الأكاذيب وكل هذا من وحي خياله! فصاح كطفل صغير قائلًا:
- أنا لا أكذب! أنا خائف جدًا! أريد أن يعاملني شخصٌ بلين ويعتني
بي!

لو كان لديه أخ كبير لما حدث كل هذا، واعتمد عليه في كل شيء!
أيتها السماء مدي يد العون إليه، فكم يحتاج إلى أخ كبير!

أحس بالإنهاك بعد سرد القصة، فجلس تحت ضوء المصباح
الشاحب في حالة من الحزن، وعندما شقَّ نور الفجر الظلام، أمسك
بدفتر اليوميات وفتحها بعنف، وشرع يرسم النافذة، التي بات طيلة
الليل يحملق فيها، ووسط النافذة ذات الطلاء الأسود المفتوحة على
مصراعها يدٌ مفتوحة وممدودةٌ على آخر مدى. وبعد انقضاء السنين
عندما دققت شياو لان النظر في هذه الصورة، كانت على وشك البكاء
وتمنّت لو تعود إلى تلك الليلة وتعاق أخاها المسكين، وتجنّف عرقه
الذي كان ينضح غزيرًا من فرط الخوف.

ولم تنته قصة النافذة عند هذا الحد، وعلى غرار أسلوب دينغ بوه
جانغ وخلال أسبوعٍ واحد، ركب للنافذة سلكًا شبكيًا للحماية من
السرقات.

وذاث يوم عاد شياو باي إلى البيت، بعد انتهاء اليوم الدراسي،
ورأى السلك الشبكي موضوعًا على النافذة. كانت المادة المصنوع
منها السلك أسلاك حديدية رفيعة، وكل خمسة أسلاك حديدية تلتف
معًا في حبلٍ واحد، وتتقاطع الخيوط الحديدية الكبيرة بعضها مع

بعض في مهارة فائقة، لتشكل في النهاية نسخة مكبرة من شبكة صيد السمك، تضوي تحت أشعة شمس النهار.

لم يكن أحدٌ من الجيران يضع مثل هذا السلك على نافذة بيته، وكان هذا التفرد علامةً دامغةً على الخزي والعار، وكأنه رايةٌ ترفرف عاليًا وتدين هذا البيت!

نظرت الأم إلى شياو لان وقالت:

- جمعَ عمك دينغ قطع الخردة من المصنع، وظلَّ طوال ظهيرتين يركبها، وجاء اليوم ووضع السلك على النافذة.

وكان هذا السلك الشبكي عربون صداقة!

كانت شياو لان من نوعية الشخصيات التي يمكنها أن تكبح غرورها، فمدّت يدها إلى السلك الشبكي وراحت تفحصه وهي تومئ برأسها وقالت:

- حتى يدي لا يمكنها أن تمرّ عبر السلك، كما أن التهوية جيدة. والآن نستطيع فتح النافذة بحرية.

ومنذ تلك الليلة، حتى وإن تواجدت أمهما في البيت، ورغم درجة الحرارة العالية، ظلَّت النافذة دومًا موصدة، وحُرِّم على شياو لان فتحها أو رفع الستارة أو حتى الحديث عمّا حدث، وظلَّ ثلاثتهم طوال أسبوعٍ كامل كالمحاصرين في أرضٍ قاحلة، ومجبرين على النوم وسط بحور العرق الغزير.

ولم يغفل شياو باي أن يسجِّل بمنتهى الدقة ويكتب عن هذا السلك الشبكي في دفتر اليوميات، ووصف شكله ولمسه، واستعار

مقولة تعلّمها منذ وقتٍ قريب في المدرسة وهي: "لا يمكن أن يفلت الأشرار من عقوبة السماء؛ فالسماء شبكةٌ كبيرة!"، فكان هذا الوصف الدقيق لهذا السلك الشبكي الذي كان مثل شبكةٍ واحدة كبيرة، وقعت في شركها سمكتان صغيرتان!

وبعد حوالي ثلاثة عشر عامًا، عندما تهدّم فجأةً المبنى السكني في مصنع الألكيل بنزين، في يومٍ خريفي حار، عند الظهيرة، هطلت الأمطار بغزارةٍ ووقف شياو باي وشياو لان في الخارج يودّعان بيتهما القديم.. وقفّا في عمق الزقاق السابح في بحور المياه، يتذكّران الآلام والجراح التي عاشاها في هذا البيت، ولكن كانا مثل عابري سبيل يقفان وينظران من بعيد، وكأن ما من صلةٍ بينهما وبين هذه الأطلال، حتى إنهما تخليّا عن المظلة ووقفّا في سعادةٍ تحت المطر. والشبكة التي وصفها شياو باي وصفًا دقيقًا في دفتر اليوميات، قد ظهر عليها منذ وقتٍ طويل بقع صدأ صفراء، وانهمرت الأمطار على هذه البقع الصدئة مثل دموع العين.

(٥)

في العام الأخير، في الجنوب، زار شياو باي العديد من عيادات الطب النفسي على نفقة لاو شان، وفي أثناء الكشف كان الطبيب يطلب منه ملء استمارة، مدوّن فيها خانة "سن البلوغ"، واعتاد شياو باي أن يتخطى هذه الخانة في كل مرة، وكأنه ضريّر لا يراها، أو كأنها كلمة غريبة يجهلها!

علّق شياو باي آمالاً عريضة على فترة البلوغ وإيقاظ الرجولة النائمة، وعلى الرغم من أنه لم يحدث وتحدّث معه أحدٌ في تلك الأمور (ومن كان سيتحدّث معه في مثل هذه الأمور الحساسة وسط هذه الوحدة القاتلة؟)، لكن من خلال ملاحظته لما طرأ على أقرانه، أحسّ بتفاوتٍ كبير وأنه سيشهد مثل هذه الطفرة في النمو، وكان على يقين تام بأنه سيفقد الوزن ويشهد جسده تغييراً كبيراً.

لكن في الواقع لم تتحقّق هذه الآمال، ومرت عدّة سنوات ولم تظهر عليه علامات البلوغ الواضحة مثل: تفاحة آدم وتغيّر الصوت وحبّ الشباب واتساع الكتفين. وإذا دققت النظر قليلاً، لربما تجد شيئاً صغيراً مثل حبة الفول السوداني مختبئة في عنقه المكتنز باللحم، أما عن الصوت فكان الأمر يدعو للسخرية، فقد تغيّر الصوت وصار أنعم من ذي قبل! وأكثر ما كان يدعو إلى التهكم هو أن ما اتّسع ليس كتفيه، بل ردفاه امتلأتا وصارتا في حجم البطيخة! كما تجمعت

الدهون في منطقة الصدر وتهدّلت إلى أسفل. وعندما كان يأتي الصيف كانت السترة الخفيفة تحدد معالم صدره تمام التحديد، فكان يثير غيرة الفتيات، صاحبات النهود المسطحة، وإذا حمل حقيبة ظهره أو ركض أو تعرق أو ذهب إلى دورة المياه العامة، فبمجرّد التفكير فقط في المشهد، لا يمكن لمن يراه أن يتمالك نفسه من الضحك!

لكن كيف كان ينظر شياو باي إلى جسده المَلِيء بالشحوم؟ هل كان يشفق على حاله أم يبغض جسده؟ أم كان يحسّ باللامبالاة نحو هذه البدانة؟ لم يعبّر عن شعوره الحقيقي في دفتر اليوميات وكان مثل مؤرخٍ بارع، فلجأ إلى طريقةٍ أخرى ليعبّر بها عن شعوره في اليوميات، فراح يسجّل قائمة الطعام التي كانت تقدّم، في عشاء كل سبت، في البيت الآخر، حيث كانت أشكال وألوان من الطعام تظهر على المائدة مما يبرهن على ميوله الشديدة إلى البدانة، وكان كل صنفٍ يحتوي على ألف أو ألفي سعرة حرارية، فتكدّست الدهون في دفتر التمارين وجعلت منه طفلاً بديناً، بديناً جداً.

وبعد اللقاء الأول، صارت الأم تصطحبهما إلى هناك للاجتماع على العشاء، فبدا وكأنه عشاءٌ رسميٌّ. ودوماً كانت تنتظر حتى تلفّ العتمة الكون، وبعد موعد العشاء بوقتٍ طويل وعندما تتضوّر البطون من الجوع، تصطحبهما إلى هناك كي تضمن أنهنّ لن يلتقوا بأحدٍ يمكن أن يعرفهنّ، لكن هناك على الدرج كانوا يلتقون بالجيران، فيفسح لهم الشخص بالمرور في أدب جم، لكن في عينيه ألف سؤال وسؤال مثل: "جاءت الأرملة مرةً أخرى، وهذه المرة بصحبة ولديها! ما هذا الصخب!"، وكانت هذه النظرات -دوماً- تجعل شياو باي يشعر بشيءٍ من الخجل، حتى كاد لا يطيق المشهد، لدرجة أنه كان

يرغب في أن يقلص جسده السمين ليصير بحجم ذبابة ضئيلة! ولم يكن يجرؤ أن ينظر إلى أمه أو شياو لان، لأنه لو رأى حمرة الخجل في وجهيهما، سيزداد شعوره بالخجل أضعافاً مضاعفة.

وبعد هذه النظرات الخجلة جاءت الأمسية الربية، وكان استقبال العائلة الأخرى على طريقتهم الخاصة، وربما يكون هذا بسبب الخجل، فما إن وصل الضيوف حتى ظهر أمامهم تشنغ جونج، وقد غطى شعره نصف وجهه، وسرعان ما ألقى التحية بطريقة غريبة من دون أن ينظر إلى أحد منهم، ثم تسلل إلى غرفته من دون استئذان. كانت غرفته في شرفة البيت، فأخذ شياو باي يمعن النظر وهو فاجر الفم إلى الباب الحديدي، قديم الطراز، الذي لم يكف عن الاهتزاز، فوقف مثل المسحور مما رآه، فإذا بتشن تشن تأتي من خلفه وتربت على كتفه وتقول:

- لا تنظر كثيرًا. هذه صومعته الخاصة، وغير مسموح لأحد بالدخول، حتى أنا لا يدعني أدخل!

حادّ بنظره عن الباب ومضى وأخذ مقعده كأنه ضيفٌ يتصرّف بأدبٍ بالغ، بينما راحت تشن تشن تتفحّصه وكادت تلتصق بوجهه، وشرعت تشن تشن على ملامحه: "بشرتك بيضاء! ورموشك طويلة جدًا!"، فرغب في أن ينكمش إلى الخلف، لكن مسندي المقعد ألما مؤخرته، فتظاهر بعدم الاكتراث وهو يُرهف السمع لوصف تشن تشن تقاطيع وجهه، فأراد أن يظهر لها شيئًا من اللطف، بينما جلست شياو لان على مقعد من الصمت الرهيب، في ركن ركن، تطالع كتابًا أحضرته معها، وكانت درجة الحرارة انخفضت بعض الشيء في المكان الذي جلست فيه، أما الأم فما إن مضت إلى داخل البيت حتى ارتدت قناع

الفضيلة، وتعاملت وكأنها صاحبة البيت، وسرعان ما اتجهت نحو المطبخ.

في المطبخ وقف دينغ بوه جانغ وهو يرتدي المئزر البني المليء ببقع الزيت والسمن، فبدأ مثل الجزار، ولم يؤثر هذا المئزر على مهارته في الطهي، واستغل بمنتهى الذكاء كل شبر في المطبخ الضيق ورتّب محتوياته على هيئة نضيد طويل، وتراصت الأطعمة النيئة، الخضراء والبيضاء، واللحوم والخضراوات والأطباق الرئيسية والتوابل، وُضع كل شيء في مكانه ليؤدي وظيفته. أمضى المساء كله في المطبخ حتى انتهى من تقطيع كل الأطعمة، ثم انضمت إليه سو تشين وسط سحب من الدخان الكثيف، وصار الاثنان مثل خادمين يعملان في المطبخ، وربما كانت ذريعة ليتجنب كل منهما أولاد الآخر.

نعم، لم يكن أحدٌ من الطرفين يرتاح إلى الحديث مع أولاد الآخر، وإذا تطلب الأمر التطرق إلى موضوع ما، كانا يديران دفّة الحوار ويعرضان عن الحديث بشتى الطرق والحيل.

وبعد مضي اثني عشر عامًا، عندما تحدّث شياو باي مع شياو لان عن دينغ بوه جانغ، كان مجرد ذكرى شاحبة من الماضي البعيد، وانتبه إلى أنه على الرغم من أن العائلتين اجتمع شملهما مدة عامين ونصف العام، إلا أن أحاديثهما لا يمكن أن تملأ كلماتها صفحة واحدة من دفتر اليوميات، وربما تكون سو تشين أثبتت حضورًا أقوى منه وتملأ أحاديثها مع ولديه صفحة ونصف الصفحة، وتبادلوا الأحاديث عندما كان الجميع يتحلق حول مائدة العشاء.

كان عشاء السبت لستة أشخاص عشاءً رسميًا، لكنه كان مثل لقاءات دبلوماسية عديدة بغير جدوى!

وفي هذا الوقت العصيب أثناء انتظارهما العشاء، جلس شياو باي في غرفة المعيشة ولم يجد سوى تشن تشن ليتجاذب معها أطراف الحديث. كانت تشن تشن تعاني قصر النظر، ولم تفارق وجهها الابتسامة، وظلّت تفرّس في شياو باي وشياو لان، وعيناها مثل عيني كلبٍ مخلص فتسبب الحرج للآخرين، ثم شرعت تُلقِي عليهما بسيلٍ من الأسئلة الذي لم يتوقف رغم الإجابات الروتينية.

ومن الجدير بالذكر الحديث عن فستان تشن تشن، فعلى الرغم من مظهرها، غير الأنثوي، لكنها كانت مهووسةً بأحدث صيحات الموضة، وربما يكون هذا بسبب المدرسة، التي كانت مكانًا تفعل فيه ما يحلو لها. وفي نهاية كل أسبوع، كان شياو باي يكتشف شيئًا جديدًا في مظهرها مثل تجعيد الرموش وتغيير لون طلاء الأظافر، وثقب الأذن والتحول من تجعيد الشعر الواسع إلى التجعيد الضيق، فبدت أكبر من عمرها الحقيقي، وسعت دومًا إلى التغيير في مظهرها. جلست على الأريكة في وضعية مائلة وراحت تنظر إلى أظافرها المطلية، وعلى شفثيها ابتسامة عريضة، ثم شرعت تعبت بالحزام الذهبي المصنوع من جلد "بولي يورثين*"، وكشفت حركاتها عن رغبتها في تبادل الحديث مع شياو لان، وخاصةً الحديث عن ملابسها، حتى لو كانت بعض كلمات النقد، وفضحت نظراتها الفضولية هذه الرغبة المُلحّة.

الزينة والملابس؟! يبدو أنها لا تعرف شياو لان حق المعرفة، فهذه الموضوعات أكثر ما كان يثير حنقها. جلست شياو لان وقد قطّبت حاجبيها، وكان الكتاب الذي تطالعه قد خطفها من كل ما

* نوع من الجلد المقلد يشبه الجلد الطبيعي إلى حد كبير. [الترجمة]

حولها، بينما لفّ شياو باي مؤخرته على الكرسي، في جهد، وحاول أن يذيب الثلج بينه وبين تشن تشن فسألها:

- هل تكتبين شيئاً كل يوم؟

ارتعدت من سؤاله، وسألت نفسها لماذا يسألها هذا السؤال، فنظرت إليه بدهشة وضحكت عالياً قائلة:

- تقصد اليوميات؟ هذه اليوميات أكثر ما أكرهه في حياتي، لأنه ليس لديّ ما أكتب عنه، لكنني اعتدت كل يوم فعل شيء معين، خمن ما هو؟

- لا أعرف!

فقالت وضحكتها تجلجل في الأنحاء وقد كشفت عن لثتها الحمراء:

- أنظرُ لنفسي في المرأة أيها البدين الصغير، هذا شيءٌ تفعله كل الفتيات.

وفجأةً، أغلقت شياو لان الكتاب ونهضت واقفةً ثم جلست مرةً أخرى واستأنفت القراءة، فهزّت تشن تشن رأسها وضحكت، ومثل ساحرةٍ أخرجت امرأةً صغيرة من جيبها وبحركة أنثوية فاتنة، راحت تفحص نفسها وهي تغمز لشياو باي، فلمعت المرأة وانعكست عليها صورة شياو باي، فرأى وجهه السمين المتعرق وابتسامته التي لا تفارقه، وعندما رأى صورته عبر المرأة همس هامس في أغواره يقول: "لا تضيع الوقت! افعل شيئاً واجعل هاتين الكتلتين من الطين تندمجان في أسرع وقتٍ ممكن، وتصبحان كأبطال المسلسل

التليفزيوني "نور المليون أمل"، وتحت ضوء المصباح الشاحب، يجتمع إخوة وأخوات يتحدثون ويتسامرون وتهدر الضحكات في أرجاء البيت. "فتحرّكت مشاعره عندما جالت هذه الخاطرة بباله، فترك تشن تشن واستوى واقفاً، وسار بخطواتٍ جادة كأنه محاربٌ همام يخترق عمق الجبهة.

مضى إلى دورة المياه، وكانت أصدق مكانٍ يعبر حق التعبير عن هذا البيت؛ فتصوّعت منه رائحة بولٍ نفاذة، ووُضع فيه حوض غسيل أصفر امتلاً بملابس متسخة، وفي إناءٍ من الفخار استلقت سلحفاة سوداء، وخارج النافذة بُت رفٌ من الحديد وُضعت عليه أقفاص عصافير فارغة، وأوانٍ مملوءة بعضها بالأعشاب الجافة والبصل والثوم، وفاحت رائحة الثوم في جنبات دورة المياه لكنها كانت تنضح برائحة ذكورية أصيلة، فلم تكن تشبه دورة المياه في بيتهم، التي كانت تزعجه كثيراً، لأنها تعبق برائحة أنثوية قوية، وتمتلئ برائحة "الشامبو" وزيت الوجه وماء التواليت وأحمر شفاه منتهي الصلاحية.

جلس شياو باي القرفصاء فترةً طويلة، متظاهراً بأنه في حاجةٍ إلى المرحاض، فضرب الهواء البارد مؤخرته، وشرع خلال هذه الفترة يفحص بعينه المناشف الست المعلقة أمامه، وكانت جافةً وخشنة واصطبغت جميعها باللونين الأصفر والرمادي، ولاحت عليها بقعٌ تشبه تضاريس خريطة العالم. وفجأةً، قفزت إلى عقله فكرةٌ ملعونة وهي لو أنه يستطيع تحديد أي منشقة تخصّ دينغ بوه جانغ، لاستعملها ومسح يديه وعنقه ووجهه وفخذه فيها حتى تؤذي حبيباتها الخشنة

* مسلسل تليفزيوني يحكي الثقلبات التي عاشها شعب هونغ كونغ منذ الستينات حتى مطلع القرن الحادي والعشرين. [الترجمة]

بشرته! ثم شرع يدور ببصره في غرفة المعيشة، فألقى مكتبة خشبية تخلو من أي زخارف، فقط تكدّست فيها مجموعة من جرائد المصنع قديمة وصفراء، ولو رغب أحدٌ في تغليف شيءٍ أو وضع صحنٍ ساخن على المائدة، يمكنه أن يسحب واحدة! كما رأى خزانة كتب صغيرة، تشبه الرف، وُضعت عليها تقاويم مكتبية قديمة وقفازات بيضاء ولعبة الورق "كوتشينة" وزجاجات نبيذ.. وقد انتقدت شياو لان هذا المشهد ذات مرة قائلة: "أراهنك أن تجد هناك كتابًا، وكأن لا أحد منهم يجيد القراءة!"، قالت هذه الكلمات وهي ترتّب بعض القواميس والرسومات الهندسية لأبيها، وكانت لهجتها تخلو من أي مبالغة أو تجنُّ عليهم، لكن شياو باي تجاهل ما قالت وأحسّ بالضيق منها، فكان عليه أن يغضّ الطرف عن هذه الاختلافات.

لكن شيئًا مشتركًا جمع بين العائلتين وهو وضع صورةٍ للمتوفى. وأثناء الانتظار الرتيب للعشاء، نظر شياو باي عدّة مرات إلى صورة الأم المتوفاة التي كانت تطلُّ عليه، من خلف الإطار الزجاجي، بنظراتٍ تملؤها الفضول، وكانت نظراتها مثل شعاع ضوءٍ مسلّط عليه، وبدت أنها متقبّلة وجودهم مما ولّد داخله إحساسًا وهميًا بالخوف والدفء في آنٍ واحد، فقد أحسّت بوحدته أكثر من أي شخص حوله، حتى أكثر من أمه. أحسّ أنها لا تزال على قيد الحياة، لكنها ذهبت في زيارة قصيرة لأحد الجيران، وسرعان ما تعود، بينما ينتظر عودتها لتتحدّث معه عن معنى العائلة الكبيرة المترابطة، وتصف له هذا المشهد المُفعم بالحب والمودة.

وأخيرًا صار العشاء جاهزًا، فأخرجت الأم رأسها من المطبخ وقالت بصوت أمٍّ فاضلة زائف:

- ادع أخاك تشنغ جونغ ليتناول الطعام!

كان صوتها عاليًا، فلا شك أنه سمعها لكن تطلّب الأمر القرع على الباب وقتًا طويلًا:

أخي، تشنغ جونغ!

وفي النهاية خرج وصفع الباب وراءه وكأنه يخشى أن تقع عين أحدهم على شيء في الغرفة.

كان تشنغ جونغ طويلًا ونحيفًا وشياو باي قصيرًا وبدينًا، فنظر إليه شياو باي وعندما ألف أن جبينه مليء بالبثور، أحسّ بالغيرة تنهش قلبه ورنّ صوت في أغواره يقول: إنه يملك كل ما لا أمتلكه!

وبصوتٍ خفيضٍ وقد تحرّكت تفاحة آدم في عنقه قال:

- لا تنادني أخي، لم أعتد سماع هذه الكلمة، فقط نادني باسمي!

لا يريد أن أناديه أخي؟ أحسّ بحزنٍ كبير، لكنه حاول أن يواسي نفسه قائلاً: "لا يمكن أن نكون إخوة وأخوات بهذه البساطة، فالأمر يحتاج إلى المال كما إنه شيءٌ يثير القلق، وليس من الهين أن نصبح في غمضة عين عائلةً واحدة!"

سرعان ما انتقلت نظرات شياو باي إلى مائدة الطعام، وإذا بآمال قلبه، المحطّمة، تستحيل إلى رغبةٍ ملحةٍ في تناول الطعام. جلسوا كما اعتادوا الجلوس كل عشاء، وعلى الرغم من أن المائدة كانت مستديرة، إلا أنهم كانوا يجلسون وكأنهم في معسكرٍ حربي، يجلس الأب والأم على طرفي المائدة ويشكلان خط حدودٍ فاصلة، بينما يجلس الأولاد على الجانبين، بعضهم مقابل بعض. كان عشاء السبت

فاخرًا بشكل لا يصدّقه عقل، رغم أن دينغ بوه جانغ كان مجرد عامل في مصنع، ولا يمكن أن يكون ثريًا إلى هذا الحد، وكى تفسّر الأم سبب هذا العشاء الفاخر، نظرت إلى شياو لان حتى تجعلها تنتبه إلى أن دينغ بوه جانغ لا يكون سخيًا إلا عندما يجتمع الأفراد الستة معًا على العشاء.

وبعد وفاة دينغ بوه جانغ تحدّث شياو باي وشياو لان عن هذه العشاءات، فقالت شياو لان: "إن معامل إنجل يمثل حصّة نفقات الفرد على الطعام من إجمالي نفقاته، وإذا زاد هذا المعامل ساءت جودة الحياة، وهذا يعني أن الناس تعيش حياةً مثل حياة الكلاب والخنازير."، لكن شياو باي لم ترقه هذه المعادلة، وطفق يفكّر: أليس الطعام والشراب أحد ملذات الحياة، التي لا غنى عنها، خاصةً عندما يضطر الغرباء إلى الاجتماع معًا ليتبادلوا مشاعر الحب والدفء؟!

ومع حضور الكثير من الأشخاص وأشكال وألوان من الطعام، ظهرت أدوات الطعام على المائدة بطريقة عشوائية ومبهجة؛ فوضع صحنٌ أصفر ومقلاة صغيرة وحاوية الطعام المصنوعة من الفولاذ المقاوم للصدأ، ووعاء بلاستيكي منقوش وصحن مكسور من الخزف، وقد أضافت هذه التنوعة من الأواني والصحون شيئًا من الطاقة والحيوية إلى المائدة، وبدأت أصناف الطعام وكأنها ترخّب بالضيوف ترحيبًا حارًا وتهتف في حماس وتقول:

- هيا لا تبالوا بالشكل! أسرعوا والتهموني!

ولتلبية هتاف الصحون ونداء الطعام، الذي أغرى العيون، صبّوا كل تركيزهم على الطعام وعقدوا ألسنتهم عن الكلام، فلم يُسمع سوى

صوت عيدان الطعام والمَضغ، وبدت صنوف الطعام لسته أشخاص والبطون التي تتلوى من الجوع، وسطح المائدة الدهني وصوت عيدان الطعام التي تُقرع على الصحن مثل لوحة "أكلو البطاطا" لقان جوخ، وكأنها تُعرض على تلفازٍ قديم الطراز، حيث يبدو الأشخاص الذين يتحلّقون حول المائدة بأثسين ويحسّون بوحدةٍ مُوحشة رغم محاولتهم البائسة ليشعروا بالدفع. وتكرّر هذا المشهد في كل يوم سبت لأكثر من عامين تقريبًا حتى تفرّق شمل هذه العائلة المؤقتة.

لكن في بعض الأوقات يكون للسنين صدى، فبعد مضي أربعة عشر عامًا، على مفرش مائدة صغير، مفروش على العشب الأخضر، على شاطئ نهر اليانغتسي* بصحبة الأموات ومولودة حديثة العهد، التأم شمل العائلتين من جديد. جلسوا جنبًا إلى جنب، يحجبهم فقط شفق المساء الدامي، وحاولوا جاهدين اجتناب الحديث عن أحداث الماضي الذي كان، أو عن الكارثة التي وقعت للتو.

وفي معظم الأوقات التي قضاها شياو باي في الجنوب (باستثناء الفترة القصيرة التي قضاها بصحبة لاو شان)، اعتاد أن يتناول الطعام بمفرده، بصحبة عيدان الأكل الخشبية، ودومًا كانت تستدعي ذاكرته عشاء يوم السبت، والأشخاص الكثيرين وأصناف الطعام، وتلك العائلة المثالية التي اكتملت صورتها في مخيلته فقط. وعلى الرغم من أن الصمت الرتيب كان بطل هذه اللقاءات، إلا أنه كان هناك دائمًا مبررٌ لهذا الصمت.

على سبيل المثال، لم يكن أمام دينغ بوه جانغ وقتٌ لتبادل الأحاديث في أثناء العشاء، فانشغل دومًا بشرب الخمر، وكان لديه

* أطول أنهار الصين وقارة آسيا، وثالث أطول أنهار العالم بعد نهر النيل. [الترجمة]

كأس من الفخار الأخضر، خصصها فقط لشرب الخمر، وكانت الكأس سميكة ولمسها خشن، توائم مشروبه الكحولي المفضل، فاعتاد شرب نبيذ ماركة "يانغخه داتشي"، وقد لصق على الزجاجاة ملصقاً أحمر، طبعت عليه صورة جنية بفستان أخضر. وعادةً كان يضع زجاجاة النبيذ والكأس الفخارية على حافة المائدة، ويجلس في وضعية ذكورية، ويسكب لنفسه في نشوة بالغة، ويظل يرشف رشفة وراء رشفة، لذا لم يكن لديه متسع من الوقت للسمر مع الحضور الكرام.

أما بالنسبة إلى تشنغ جونغ فكان من الطبيعي تفهم صمته، لأنه شاب عاطل منذ فترة طويلة، ولم يكن يفارق البيت، فمالت طباعه إلى القسوة بعض الشيء، وكان من الشرف العظيم لهم أن يلتقوا به كل سبت على العشاء، ولم يكن يستعمل شفتيه إلا ليلوك بها الطعام في هذه الليالي. أما إذا وصفنا تشن تشن، فعندما يستحضر شياو باي صورتها على العشاء لا يسعه إلا الضحك! كانت تجلس في حماسة بالغة، وكأنها تأكل وحدها ولا أحد يراها، فتكدس فيها الطعام ويسقط بعض الحساء على ياقة فستانها، وتزئم شفتيها وهي تحاول أن تلتقط حبة كستناء، استعصت أن تلتقطها عيدان الطعام.

لكن رغم ندرة الكلام وموت حماسهم في التواصل على مائدة العشاء، إلا أنه كان هناك دائماً شيء من التواصل البصري بينهم، وقد شبّه شياو باي هذه الحالة، في دفتر اليوميات، بسؤال اعتاد الإجابة عليه في الواجبات المدرسية، وكتب: "صل الكلمة بالكلمة المناسبة!" على سبيل المثال، بدا وكأن روحاً شريرةً تلبّسته، وصارت مهمته هي مراقبة دينغ بوه جانغ وحساب عدد كؤوس الخمر التي يصبها في

جوفه، حتى بلغت به الحال أنه صار يرقب أي كأسٍ ستجعله يغيب عن الوعي. كما انتبه إلى أن تشن تشن تعشق تقليد شياو لان، فكانت تنتظر لترى ماذا ستأكل، ثم تمدّ يدها وتأكل من الصحن نفسه، وعندما تلتقط شياو لان لقمةً بأناقة سرعان ما تلتقطها، وفي بعض الأحيان، كان تشنغ جونج يرمقهم بنظراتٍ عشوائية، بينما تجاهلت شياو لان الجميع، وكانت تصبُّ كل تركيزها على صحنها ولا تحيد بعينها عنه، وكأنها لا تأكل بل تصلي وتطلب العفو والغفران لحاضري هذا العشاء الخاطيء!

كان دينغ بوه جانغ سخيًا في نظراته، يوزعها هنا وهناك وهو غارق في الشراب، كأسًا تلو الأخرى، وإذا به يتحوّل من كبير الجزارين (أطلق عليه شياو باي هذا الاسم) إلى سكير لطيف، فصارت عيناه كما الرادار يمسح بهما المائدة بعد كل رشفة، ثم يعود ليواصل تناول الطعام. وتكرّر هذا المشهد في كل عطلة أسبوعية، فكان يواصل شرب الخمر مثل عداءٍ يركض حتى يبلغ خط النهاية في السباق.

بينما كانت الأم تجلس في رباطة جأش وكأنها -يومًا ما- تزوّجت من مهندس، ولم ترَ في حياتها سوى هذا العامل السكير، وكانت تلقي بأشعة شمسها المصطنعة، التي تخلو من أي دفء، على الأولاد الأربعة، وتطلّ تراقب من فرغ صحنه لتنهض وتحضر له المزيد من الطعام.

لكن الشيء الغريب، في عشاء السبت، هو أن عيون تشنغ جونج وشياو لان لم تتلاق أبدًا، ولتحرّي الدقة لم يكونا ينظران، بعضهما إلى بعض، على الإطلاق! لكن شياو باي كان يعلم أنهما يتحاشيان

تبادل النظرات، وكان على يقينٍ أنهما يراقبان بعضهما بعضًا خلسةً.

وإذا به يشعر بقشعريرةٍ تسري في جسده وكأنه لمس أرنبا صغيرًا! ووسط هذه النظرات الصريحة وغير الصريحة، استمتع شياو باي بالطعام وأحسّ بحلاوة كل صنف يتناوله. ومع حركة عيدان الطعام وملعق الغرف وحركة أسنانه ووجتيه، تحفّزت شهيته، وبعد أن فرغ من العشاء ارتخى على المقعد، وقد تباعدت ساقاه، والتصق قميصه ببطنه، مما جعله يبدو مثل تمثال بوذا ببطنٍ مُنتفخة.

لكن لم يكن هناك سبيلٌ للخلاص من هذا المشهد، حتى بعد أن انتهى الجميع من العشاء ووضعوا الصحون وعيدان الطعام جانبًا، بدأ دينغ بوه جانغ يشنُّ هجمةً شرسةً أخرى، وكأنه يقدم عرضًا مسرحيًا، فالتقط في نشوةٍ بعض قطع اللحم المتبقية وخلط صلصة الصويا بالأرز وبقايا الطعام ثم وضعها في فمه، وفي النهاية انتبه إلى أن جميع العيون ترقبه، بما فيهم تشنغ جونج، وهم يحبسون أنفاسهم في صدورهم ويمعنون النظر في هذا الشره وهم في ذهول تام.

وفي طريق العودة إلى البيت، جلس شياو باي على المقعد الخلفي لدراجة أمه، وراحت معدته تترجرج مع كل مطبّ على الطريق، وكأنه يجلس على أرجوحة، تصل إلى أعلى نقطة في الهواء ثم يشعر بالألم عندما تهبط، وعندما وصل إلى البيت زاد الألم في معدته، فمضت الأم تغلي له كوبًا من المياه وأخبرته أنها ستعدّ له الشاي، وعندما فكر شياو باي في أنه سيشرب الشاي، أحسّ أنه يرغب في أن يمسك بمعدته ويتكوّر على الأرض.

راحت شياو لان تنظر إليه بفتور، ثم خطرت على بالها فكرة، فأمسكت بفرشاة أسنان ووضعتها في حلقه بلا رحمة، وبسبب حركة شعر الفرشاة في حلقه سرعان ما تقيأ كل ما في جوفه، وكانت الرائحة كريهة. أخذ يتقيأ وهو ينظر إلى المخاط الذي يخرج من فمه فأحس بارتياح غريب.

وسرعان ما غطت شياو لان فمها بكتاب، وراحت تضرب على ظهره، الذي كان يشبه كيسًا من الخيش، وتنهره قائلة:

- ماذا تفعل بنفسك؟ لقد تقيأت كل ما تناولته!

أعطته أمه كوب الماء ليمسح فمه، من دون أن تعبّر عن أدنى مشاعر التعاطف معه، وكأن نهرًا من الجليد تشكّل أمامهم، وعلى كل واحد منهم أن يختار طريقته الخاصة لعبوره بأمان!

وعندما استقرت حالته هرع إلى دفتر اليوميات، وشرع يسجّل قائمة الطعام التي تناولها الليلة على العشاء، وكتب: الفول السوداني المتبل بخمسة بهارات، والفلفل المحشي باللحم المفروم، ومكعبات الدجاج بالصويا والأرز، وشرائح الباذنجان المحشوة باللحم المفروم، والعجين المقلّي بالخيار المتبل، ومكعبات البط بالكراث، وقدم الخنزير بالصلصة الحمراء، وقطع التفوف بشرائح الفاصوليا الخضراء...

وبعد فوات السنين، عندما كان شياو باي يحنُّ إلى الماضي، أو تعتمل الكراهية في صدره، كان عليه فقط أن يقلّب في دفاتر اليوميات ويعيد قراءة هذه الأصناف الشهية، حتى وإن كان يتضوّر من الجوع، كانت قوائم الطعام المدوّنة في الدفاتر تستدعي عشاء السبت في تلك الليالي البعيدة وتصل إلى عمق معدته!

(٦)

يعني عيد تشينغمينغ* الكثير لمن فقد أحدًا من أهله، حتى إنه يتجاوز الاحتفال بالعام الجديد. ظهر هذا الاهتمام في دفاتر يوميات شياو باي، فكان يغيّر دفتر اليوميات بحلول العيد كل عام، وحرص على الحديث عن أعياد تشينغمينغ السابقة، حتى لو كرر المحتوى ذاته في كل عام، وهذا جعله ينتبه إلى أن الحياة مجرد تكرارات بلا نهاية، تكرار للأحداث التي تنسى بمجرد الانتهاء منها، وتكرار لشهوة الجوع وملء البطون الفارغة، وتكرار لمشاعر الحنين إلى ذكريات السنين، فحياة الإنسان دورة لا تنتهي من الولادة والموت والعودة بعد الموت والتحلل وإعادة النمو.

ومنذ رحيل أبيهم اعتادوا كل عام أن ينطلقوا من منطقة المصانع، الواقعة في شمال المدينة، ويستقلّوا ثلاث حافلات على غرار نظام النقل البطيء في المدن، ويسيروا وسط المدينة حيث يحرق الجميع العملات الورقية على روح المتوفين، وأن يصلوا في النهاية إلى مكان بعيد ناحية الجنوب. كانت المقابر في ذلك الوقت باهظة الثمن؛ لذا استأجرت سو تشين مكانًا هناك لوضع رماد الجثمان، وكانت تدفع الرسوم كل خمسة أعوام، ومدة الإيجار تمتدّ إلى عشرين عامًا،

* أحد الأعياد الصينية التقليدية لتكريم الأسلاف ويعرف بعيد "كنس المقابر"، تتجمع فيه العائلات في المقابر لتنظيفها وتقديم الطعام وحرق العملات الورقية وحرق البخور للموتى.
[المترجمة]

ووقت إتمام الإجراءات سألت الموظف المسؤول: "وماذا يحدث بعد مضي عشرين عامًا؟"، فنظر الموظف إليها وإلى ولديها وهز رأسه قائلاً: "عشرون عامًا وهذا يكفي".

صار للأب في هذا المكان عنوان تفصيلي، حتى كان يمكن استخدامه لإرسال الإعلانات والفواتير عبر البريد: "رقم ٦٤٥٠٣، الغرفة الثامنة، الطابق الخامس، منطقة رونيانغ".

وقد سجل شياو باي هذا الموقع بالتفصيل على الخطوط الخضراء في دفتر اليوميات: منطقة رونيانغ، المبنى الثالث في منطقة شيجانغ التذكارية، ومن الخارج تبدو كمبنى سكني ويوجد ممراً يضم ثلاثاً وعشرين غرفة كبيرة، ورقم الغرفة مكتوب على كل باب باللون الأسود، ووضع رماد أبيهم في الغرفة رقم ثمانية، وكانت من دون باب (ربما لم يوضع بابٌ للغرفة وربما لا يتذكر شياو باي، لكن من المفترض أن تكون غرف حفظ الرماد بأبواب)، وداخل الغرفة وُضعت مجموعة من الرفوف، تشبه رفوف محلات البقالة، وكان رقم أربعة وستين هو رقم رف الأب، ورقم خمسة يعني أنه في المستوى الخامس على الرف، ورقم ثلاثة يعني أنه الثالث من الخلف.

شغل الأب، تقريباً، مساحة مجلتين مصورتين، يبلغ ارتفاعها حوالي أربعة أو خمسة صناديق أدوات مكتبية. ولأن الرماد كان موضوعاً في نهاية الرف تسنى لأشعة الشمس الوصول إليه، وقد أوضح العامل هذا الأمر للأم وكأنه ميزة عظيمة يحظى بها الفقيد، لكن شياو باي لم يحس أنها ميزة، وعلى العكس أزعجه وصول أشعة الشمس إلى رماد أبيه. عندما مضى إلى الغرفة أحس كما لو أنه سقط في نهرٍ متدفقٍ تحت الأرض، ومادت الأرض من تحت قدميه حتى أنه

رغب في أن يمسك بيد أخته، لكنه خشي أن يُظهر لها خوفه، فكانت في أثناء هذه الزيارات تشعر بحماسةٍ بالغة، وهي تتجول بين الرفوف، وكأنها تشاهد معروضات فنية في متحف، وعندما كانت تنتهي من معاينة كل الرفوف سرعان ما تبدأ مرةً أخرى. كانت تقرأ الأسماء المدونة على الألواح التذكارية، وتحسب عمر المتوفى وتقارنه بالصورة وتردّد اسمه أو اسمها بصوتٍ خفيض، وإذا ترك أحد الزوار تذكارًا صغيرًا للمتوفى، كانت تجذب شياو باي ليذهب ويفحصه، لكن في هذه اللحظة كان يبحث عن أمه ليحتمي بها، لكن يبدو أنها اختفت ووقفت على الضفة الأخرى للنهر!

في أثناء الزيارة كرّرت سو تشين ما تفعله دومًا، في كل عام، من تأدية بعض المراسم البسيطة، فأحضرت قطعة قماش لتمسح الغبار عن الرف، من الداخل والخارج ومن اليسار واليمين، وعندما كانت تنظّف رفوف جيران زوجها همست قائلةً: "اعتنوا بعضكم ببعض!"، ثم أشعلت سيجارتين لزوجها، فزمت شفيتها وحبست الدخان في فمها ثم أطلقت سراحه على مهل، وأخبرته بنتيجة العام الماضي لولديهما ومركزهما على الفصل، ثم أخذت تحمّل في عقب السيجارة الذي سرعان ما استحال إلى رماد.

تحاشى شياو باي النظر إلى صورة أبيه، فقد أحسّ أنه غريبٌ، مثله مثل كل الصور الموضوعة في الغرفة! بالفعل لم يكن يتذكّر كم طوله؟ هل كان نحيفًا أم بدينًا؟ كيف كان يتكلّم؟ ماذا يحب عادةً أن يأكل؟ فلم يستطع أن يستحضر مشاعر الحزن في هذا المكان، وفي صمتٍ رتيبٍ راح يرقب ظله البدين وظل أمه النحيل وظل شياو لان الشاحب، فأحسّ بالملل، وراودته رغبةٌ قوية في أن يحلّق فوق هذا

المكان الهادئ، الذي كان بالفعل يشبه المقابر، فراح يتجول وحده وهو يحاول أن يُلقِي بذكرى أبيه إلى البعيد، ويبحث عن ظلٍّ سقط على الأرض وسط مشاعر التيه والضياع.

وفي طريق العودة مروا على قاعة النصب التذكارية، والتقوا بجموع غفيرة حضروا لتشيع جنازة، وقد غطى أهل المتوفى رؤوسهم ووضعوا زهرةً بيضاء صغيرة على صدورهم، ولم يكفوا عن البكاء، وتحدث زملاؤه بصوتٍ خفيض. مرَّ الثلاثة بجانبهم، فأمسكت شياو لان بيد أخيها وراحت ترقب الحشود بفضولٍ كبير، وحاولت أن تسمع شيئاً من حديثهم، حتى إنها كانت تلوي عنقها بين الحين والحين وتحقق النظر بهم.

ولم تكن شياو لان تكفُّ عن الحديث، عن الأموات، في أثناء العودة إلى البيت، وتظل على هذه الحال عدّة أسابيع، فكانت تتمتع بذاكرةٍ فريدة تجعلها تتذكر الموتى الذين مرّت عليهم، ثم تبدأ بالحديث عن أحدهم، وكأن البيت صار مرتعاً للأموات، يروحون ويأتون فيه!

حاولت الأم كبح زمام نفسها، وفي النهاية نفذ صبرها فتحدثت إليها لتكفَّ عن هذا الحديث، فقالت شياو لان وعلى شفيتها ابتسامة عريضة:

- موضوع الموت يثير اهتمامي، وزملائي يحبون سماعي وأنا أتحدث عن الموت، فأنا أشفق عليهم لأنه يبدو أنهم لا يعلمون أن كل إنسان سيموت في يومٍ ما وتفكيرهم سطحي جداً!

كانت نبرتها تشي بشيءٍ من التفوق على زملائها، وكأنها استحدثت علماً جديداً بلغت فيه مستوى الريادة!

وفي العام الذي تعرّفوا فيه على العائلة الأخرى، عبّر شياو باي في دفتر اليوميات عن قلقه بشأن عيد تشينغمينغ الذي كان يقف على الأعتاب، وكتب:

"جاء عيد تشينغمينغ وذهبت أُمّي لتزور أبي. هل أخبرت أبي، عندما أشعلت السيجارة، بشأن العائلة الأخرى كما أخبرته عن نتيجتنا؟ وهل هذا الخبر بالنسبة إلى أبي أهم من نتيجة ولديه؟"

لم يكن هناك مبررٌ لهذا القلق، فقد طلب دينغ بوه جانغ منهم أن يرافقوهم في أثناء زيارتهم إلى المقابر، لأنه يرغب في أن يُعرّف زوجته الراحلة عليهم.

ماذا؟! يعرّفها بنا؟! يعرّف من بمن؟! اتسعت عينا شياو لان وراحت تومض مثل عيني عصفورٍ صغير، لكن شياو باي أحسّ بالامتنان وراقت له الفكرة وفطن إلى طباعهم، فهم أشخاص تلقائيون ويتصرفون بحرية من دون أي تحفظات، وفجأة، تذكر أنف الأم وعينيها الضيقتين ونظرتها العطوف وابتسامتها الرقيقة التي لاحت من خلف إطار الصورة الزجاجي، فأحسّ أنه يريد بالفعل التعرّف عليها.

أحسّت سو تشين بالحيرة وراح سيلٌ من التساؤلات ينهال على رأسها: ماذا يرتدون؟ وهل ينبغي شراء العملات الورقية أم لا؟ وما هي الأشياء الواجب إحضارها عند زيارة الموتى؟ فنصحتها شياو لان برباطة جأش قائلة:

- ارتدي ملابس رسمية بعض الشيء لتليق بالمناسبة! ولا داعي لشراء النقود الورقية!

التقى الأشخاص الستة في الطابق السفلي لبيت دينغ بوه جانغ، وبدأ تشنغ جونج الذي لم يخرج من البيت لوقتٍ طويلٍ حسن الهندام حليق الرأس، وقد هذب لحيته وشدّ عوده وحمل في يده مجرفةً، بينما حملت تشن تشن سلّة لم يظهر ما بداخلها، ويبدو أنها كانت ثقيلة فمال جسدها إلى الأمام مثل فلاحه تحمل "مِسْنَة خضراوات"!

تقابل الجميع في الموعد المحدّد، وتفاجأت كل عائلة من شكل العائلة الأخرى وملابسها، وكانت المرة الأولى التي يلتقون فيها في وضح النهار وفي الهواء الطلق ويسافرون معًا. رغبت سو تشين أن تحمل السلّة عن تشن تشن، فدفعتها تشن تشن ببراءة وهي تنظر إلى ملابسها وملابس شياو لان بإعجاب شديد.

- لا توجد سيارة لتقلّنا، فلنذهب سيرًا، المكان ليس بعيدًا عن هنا!

وسرعان ما خرج دينغ بوه جانغ وقادهم على الطريق، فسار الفريق خلفه بطريقةٍ عشوائيةٍ، ولأنه لم يرتد المئزر ولم يحمل الكأس الفخارية، أحسّ شياو باي أنه رجلٌ غريبٌ، ولحسن الحظ أنه كان لا يزال برأسه الحليق وأنفه المتوهج بالحمرة، كما اعتاد أن يراه في عشاء السبت.

كان السير ممتعًا في الهواء الطلق وكان يومًا ربيعًا مشرقًا، وعندما توغلوا في أعماق الضاحية الشمالية تحوّل الطريق الإسمنتي، من تحت أقدامهم، إلى طريقٍ طيني، ثم صار طريقًا ترابيًا أبيض اللون، وفي النهاية استحال إلى أرض غير مستوية، وبدأ النسيم يخف وتضوّعت رائحة البلاستيك المحروق، الممتزجة برائحتي القرنبيط والسماذ المجفف، وعند السير بجانب النهر فاحت رائحة المياه. مست روائح

الربيع القوية أنوفهم وتسَلَّت إلى أكمَام ملابسهم وتثبت بها مثل
بكتيريا حميدة، وبددت نسمات الهواء العليل إحساس الغربة الذي
غمرهم في بداية اللقاء.

سارت الأم بجوار دينغ بوه جانغ وتحدثت عن الطقس قائلةً:
"لماذا أشهر الربيع قصيرة دومًا، الربيع الماضي والربيع قبل الماضي
والربيع الذي سبقه؟"، بينما أخذ تشنغ جونغ يعلم شياو باي طريقة
استخدام المجرفة، زَمَّ شياو باي شفّتيه وشدَّ ذقنه واتبع التعليمات
بحذافيرها: "ارفع المجرفة لأعلى! أمسكها بيدك اليسرى! انزل بها
مرة أخرى! باعد بين السبابة والإبهام!". أليست هذه علامةً على أنهما
سيصبحان إخوة؟ وهذه الصحبة الحلوة ستغدو عائلةً حقيقية؟

مضت شياو لان وتشن تشن في صمت وهما يحملان السلّة
الثقيلة بخطواتٍ إيقاعية. هبَّ النسيم مرةً أخرى فأطاح بتنورة شياو
لان وكشف عن ركبتيهما النحيلتين، وقد أثار هذا المشهد الجميل
المفعم بالمشاعر سعادة شياو باي، وأخذ يفكر بطريقته الرومانتيكية
المعهودة؛ أن هذا اللقاء الذي يشبه نزهةً إلى المقابر في موسم الربيع
لا يمكن أن يبرح ذاكرته أبدًا.

على جانب الطريق تناثرت المقابر بطريقة عشوائية، وامتلاً بعضها
بالأعشاب الضارة، وبعضها كانت مرصوفة بالحجارة، وأخرى
طوقتها الخرسانة بإحكام. وكانت مقبرة صاحبة البيت تقع على
الجانب الآخر من جبل القمامة، وقد سمع شياو باي من قبل عن جبل
القمامة لكن من دون أن يراه. غطّت أكوام القمامة قمة الجبل وكادت
تصل حدّ السماء، فكان المنظر يؤذي العيون وكأن كل نفايات المدينة
تجمّعت في هذا المكان. مرّت شاحنةٌ مهالكةٌ بجانبهم، وأفرغت

حمولتها وسرعان ما غادرت مخلفَةً وراءها الغبار، فتجمعت أسراب الذباب حولها وتسنى لهم رؤيتها من بعيد، وهي تحوم حول القمامة من كل جانب.

كان شياو باي وشياو لان يسيران على مهل، بينما أعطت تشن تشن السلّة لأبيها ثم ركضت بخفّة بين القبور، تتحسّس الطريق وسط أكوام القمامة، ثم اختفى ظلها وسط الأعشاب والحشائش.

تهلّلت أسارير دينغ بوه جانغ، وبنبرة تشي بالفخر وهو يرسم دائرة في الهواء قال:

- بعد اختياري لهذا المكان فعل الكثيرون مثلي، من عمال المصنع، وجاؤوا إلى هنا، فالمكان مناسبٌ ورخيص! ثم شرع يقدم لهم الراقدين تحت التراب:

هنا يرقد فلان وهنا علان، وهذا مات إثر إصابته بسرطان الرئة وذاك بسبب تعرّضه لحادث، وكم كان عمرهم عندما ماتوا...

توزعت المقابر في الأمام وفي الخلف وعن اليمين وعن اليسار، وبدأت كأنها وجوهٌ بشريةٌ هرعت لاستقبال الزائرين. عجزت شياو لان عن أن تخطو إلى الداخل، فتقهقرت إلى الخلف وشحب وجهها وتأرجحت قدماها وأحسّت أنها لا تحتل الوقوف، فكان يبدو أنها معتادة على صالة الجنازات بأزهارها الصناعية. انتبه شياو باي أن تشنغ جونغ ينظر إلى أخته ويبطئ من سيره، ومضى وأمسك بيد شياو باي واصطحب شياو لان، ومضوا بعيداً عن المقابر، فأحسّ شياو باي بامتنانٍ بالغ وهو ممسك يده، وأحكم يده على يد أخته وسار ثلاثهم وأذرعهم تشكل حرف "Z" وراحت تعلو وتهبط وهم يتحركون وسط المقابر.

وفي النهاية توقفوا عند نصب تذكاري إسمتي، خشن الملمس، محفور عليه: "زوجتي الحبيبة خوانغ مينغ شيو"، فتحسّسه دينغ بوه جانغ قائلاً:

- كتبتُ هذه الكلمات بعيدان الطعام وانتظرتُ حتى تجفّ، ونسيتُ أن أكتب تاريخي ميلادها ووفاتها، لكن ما من مشكلة فأنا دائماً أتذكرهما.

كانت الأعشاب الخضراء قد نمت بشكل جميل فوق المقبرة، وسقطت عليها بعض الشعيرات البيضاء، فراح يلتقطها برفق وكأنه يلتقط خيوطاً رفيعة من رأس شخص، وقد انتبه شياو باي أن ملامح وجهه قد تبدّلت.

في ذلك الوقت، كان تشنغ جونغ يمسك بالمجرفة ويعزق الأرض المجاورة، وبمهارة فائقة أضاف كتل التراب إلى مقبرة أمه فسحقت العشب الأخضر، وقد اعتادوا إضافة طبقة من التراب للمقبرة لتصير سميكة وكبيرة، ووقف الباكون جانباً ينظرون إليه والريح تعوي في آذانهم.

وربما بسبب سنه الصغيرة أو ربما لانهماكه في العمل، أحسن استخدام المجرفة، لكن سرعان ما أحسّ بحرارة في جسده، فخلع معطفه وسترته ولم يبق إلا على سترٍ داخلية قطنية كانت سابحة في العرق، ولم يخيّل لأحد أنه نحيلٌ وطويلٌ إلى هذه الدرجة، وعندما رفع المجرفة لأعلى انتفخت عضلات صدره وذراعيه، فأحسّ شياو باي بالغيرة، وشرع يفكّر في ثدييه الكبيرين اللذين يشبهان أثداء الفتيات، وشرّد يفكّر في أن هذه العضلات هي معالم الرجولة الحقيقية، وهو

شيء يتعذر عليه أن يدركه! وبالصدفة وقعت عيناه على شياو لان، فانتبه أن وجهها قد اعتلته الحمرة وهي تقف بعيداً تحدّق في شاهد المقبرة، ويبدو أنها كانت تشعر بالخوف من مشهد المقابر!

وإذا بذلك الشعور القديم يباغته مرة أخرى وكأنه يداعب أرنبا، فتحرّكت مشاعره وسأل نفسه: ما هذا الشعور؟

وبعد إهالة التراب على المقبرة بدأت مراسم التابئين، فأحضروا السلّة وأخرجوا منها أشكالاّ واللوانا من الأطعمة وافترشوا بها الأرض، ورغم أن كميات الطعام لم تكن كبيرة، إلا أن تنوعها كان يخطف العقول، فكان هناك المقلي والمالح والحلو والحرار، وكانت الأصناف الرئيسية؛ الأرز والفظائر المحشوة باللحم المفروم (المانتو) والشعيرية، باختصار كانت أصناف الطعام أفضل من تلك التي تُقدّم في عشاء السبت!

أحسّ شياو باي باستياءٍ شديد وضجرٍ مما رآه، وقفزت أمامه صورة أمه وهي تشعل السيجارتين أمام جرّة رماد أبيه في دار الجنازات الصغيرة، رقم ٦٤٥٠٣، الغرفة رقم ثمانية، الطابق الخامس بمنطقة رونيانغ. وقفت وأشعلت سيجارتين أمام الجرّة وهي تنظر إلى الدخان من دون أدنى اكتراث. رمق شياو باي أمه التي أسبلت جفניה، عاقدةً لسانها عن الكلام وقد شرد عقلها، ويبدو أنها كانت تفكّر في شيء آخر.

وبعد وضع الأطعمة على الأرض بدأت مراسم حرق العملات الورقية، وكانت السلّة أشبه بقبعة الساحر، حيث خرجت منها القصاصات الطويلة الملونة، والشرائط الورقية الحمراء، المطبوع

عليها بعض التمايم، وغيرها من هذه الأشياء. تطايرت ألسنة اللهب في الهواء، وحلّق الرماد المحترق ثم هبط واستقرّ على الطعام الموضوع على الأرض، وكأنه يتواصل تواصلًا روحياً حقيقياً مع الموتى.

وجد دينغ بوه جانغ مكانًا شاغرًا بين قبرين، فجلس وراح ينظر إلى صنوف الطعام في رضا وامتنان قائلاً:

- أفعلُ هذا كل عام ولا أنسى شيئاً. أصيبت زوجتي بسرطان القلب ولم تكن تستطيع أن تتناول الطعام، حتى وإن كانت تتضور من الجوع، لذا أنا أعدُّ لها مأدبةً فاخرة كل عام!

وقالت تشن تشن:

عندما كانت تبلع الطعام كان عنقها يؤلمها، فكانت تمدّه قدر الإمكان حتى تستطيع البلع.

وعندما أحسّت تشن تشن أن شياو باي لا يصدّق ما قالته أضافت:

- حتى إنها كانت لا تستطيع أن تبلع الماء، أو حتى ريقها!

أوماً شياو باي برأسه، بجديّة، وشعر أنه موضوعٌ جيدٌ للنقاش، وراح يردّد ما سمعه في تلك الأيام عن مرض أبيه:

- أصيب أبي بسرطان الكبد، هل تتخيّلون أن كبده صار متحجراً مثل الصخرة وانتفخ جسده وصارت بشرته ناعمة جداً، فإذا قرصته ستُحدث يدك تجويفاً كبيراً.

ثم قالت شياو لان:

- كانت بشرته ناصعة البياض ولا أحد منكم يضاهيه فيها، لكن قبل موته اسودّت بشرته لدرجة أنني لم أعد أعرفه.

اندهشت مما قالته فعقدت لسانها عن الكلام.

هز دينغ بوه جانغ رأسه موافقًا، وقال:

- هذه نهاية طبيعية لمرضى سرطان الكبد. خلال السنوات الأخيرة سمعت عن جميع أمراض السرطان، ما عدا سرطان القلب هذا، حتى اسمه غريب! لماذا هي من دون البشر يصيبها هذا المرض؟ حتى إننا لم نكن نعرف اسمه!

فقلت تشن تشن لتمازح أبيها:

- هل تتذكر الجلبة التي أحدثتها، يومها، في المشفى بسبب هذه الكلمة؟ تشاجرت يومها وكدت تطيح بجناح المرضى! فقد الطبيب يومها أعصابه، وأخبرك أن منطقة المصانع مليئة بمثل هذه الأمراض العجيبة، فلماذا تصيح!

رغبت سو تشين أن تشارك في هذا الحديث، فقالت بصوت مبحوح:

- إن سرطان الكبد مرض وراثي في عائلتنا! عندما كنت أغادر المشفى وأعود إلى البيت، كنت أخشى أن يكون نعل حذائي قد علق به شيء وتنتقل العدوى إليهما، حتى وصل بي الحال أنني جمعت المناشف والزجاجات والمراوح الورقية وأطباق الغسيل وترامس المياه، وألقيت بها في سلة نفايات المشفى. عشت أيامًا صعبة!

مسح تشنغ جونغ على شعره وقال:

- ما زلت أتذكر الدواء الذي كانت تتناوله أمي، كان موضوعًا في علب بلاستيكية محكمة الغلق وكانت العلب تبدو مثل المشغولات اليدوية، وكل علبة تحوي ستة أقراص بترتيب بالغ.

وعندما شرعوا يتحدثون عن الدواء أحسّت شياو لان براحة كبيرة، وقالت:

- كان دواء أبي أنيقًا جدًا! كانت العلب من الخزف وعليها نقوش وزخارف تشبه تلك الأكواب التي لها صحن وغطاء، وكانت العائلات القديمة العريقة تشرب فيها الشاي، لدرجة أننا كنا نحفظ بجميع العلب الفارغة، ومن يلقي مثل هذه العلب الأنيقة؟ كان يمكن أن تجد هذه العلب تحت السرير والأريكة وتحت نضد التلفاز وفوق الثلاجة!

- علب من الخزف! المريض سيموت، وهم يهتمون بهذه الأشياء!

قالت تشن تشن وهي تلوح بيدها وجسدها يترنح من الضحك، فانتقلت عدوى الضحك إلى الجميع، ورثت الضحكات في المكان. لم تُسد مثل هذه الأجواء الطبيعية منذ وقتٍ طويل بين العائلتين، فغمرت السعادة شياو باي وملأته الثقة بأن هاتين العائلتين ستنسجمان، وتتولد بينهما الألفة وتتوطد علاقتهما، ولا يمكن أن تنفصلا!

وفجأة، انتبه شياو باي أن تشنغ جونغ يحدّق في شياو لان ولا يحيد بناظريه عنها، وكأنه لا يستطيع أن يتمالك نفسه. كان شياو باي يعرف هذه البسمة الحلوة التي تتوّج شفّتي أخته، فنادرًا ما كانت تبسم هناك، ولم تكن تتحدّث بمثل هذه الحيوية والطلاقة.

فغمره ذلك الشعور للمرة الثالثة، وإذا برعشة تسري في جسده ويستحيل إلى جوادٍ صغير يركض بكل جموح. وراح يفكر فيما يمكن أن يقدمه لأخيه تشنغ جونغ ولهذه العائلة الكبيرة كي لا تفترق أبدًا. رأى الأمر أمامه مثل سلم يكبر أمامه رويدًا رويدًا، وكل شيء بات مهياً أمامه، وعليه فقط أن يبدأ بالتنفيذ.

هبت نسائم الربيع محملةً بروائح جبل القمامة الكريهة، وكانت المقابر حولهم كما جماهير تجلس وترهف السمع لأحاديثهم، والأعشاب من حولهم تعبر عن تعاطفها الكبير لما يقولونه. لم تفارق ذكراتهم ذكريات عن مرض أهلهم وحالتهم الصحية قبل أن يغيبهم الموت، وأخذ شريط الذكريات يتدافع أمام عيونهم، وكانت هذه الذكريات مثل ميراث يتباهون به أمام الناس ويتقاسمون ويحررونه من دون أي تحفظ. جلسوا بصدرٍ رحيبٍ في مواجهة جبل القمامة برائحته الكريهة، ومشاهد الربيع الخلابة تتجلى في كل شيء. في هذه اللحظة، لم يغط الرماد الطعام فقط، بل زحفت أسراب من النمل والذباب بشجاعة وتسلفت الطعام وراحت تذوقه.

ووسط هذه الأجواء الصاخبة قضوا عيد تشينغمينغ، وبعد مضي أكثر من عشر سنوات، انضم موتى جدد إلى الموتى القدامى، واجتمع الناجون من الكارثة مرةً أخرى وهم يمسكون بأكياسٍ قماشية حمراء، وعندما سمعوا صوت صافرة الباخرة أفرغوا ما بداخلها في حوض نهر اليانغتسي، وألقوا برماد ذويهم، وإذا بشياو باي الذي كان يقف في مراسم الجنازة على شاطئ النهر، يقترح قضاء نزهة في هذا المكان. وعلى الرغم من أن الكثير من الذكريات مضت إلى ذاكرة النسيان، إلا أنه تذكر فجأة نزهة عيد تشينغمينغ.

وعندما أحسوا بجفاف الحلق وبالإرهاق الشديد، عادوا من حيث أتوا، وعندما أوشكوا على الوصول صاح شياو باي فجأة، وكأنه صديقٌ حميمٌ للعائلة:

- عمي دينغ، نسيت أن تعرفنا عليها!

- ذهابك لزيارتها يعني أنكم بالفعل تعارفتُم، ولا شك أنها أخبرت أباك عنا، فالآن صار الجميع يعرف بعضهم بعضًا.

ما قاله دينغ بوه جانغ كان منطقيًا جعل شياو باي يقتنع، بل وحفظ كلماته وسجلها في دفتر اليوميات، وصار لديه اعتقادٌ راسخٌ أن جميع الراقدين تحت التراب يتواصلون عبر لغة حوارٍ خاصة بهم، بل وعليهم الاهتمام بكل شيء يخص أهلهم وذويهم.

مكتبة

t.me/soramnqraa

(٧)

كرّرت السنون، وتحت إصرار الطبيب النفسي حاول شياو باي أن يتذكّر مرحلة البلوغ، فتصبّب عرقاً وكأنه يبحث في ذاكرته عن واحدة من الخيال، فقال وهو يفرك كفيه:

- لا شيء حدث وقتها!

فسأله الطبيب وهو ينقر بالقلم على الدفتر:

- انسَ هذا الأمر! متى بدأ اهتمامك بالجنس الآخر؟

فأطرق وشرع يفرقع أصابعه، وعاد إلى عمر الرابعة عشرة، وكان عليه أن يتوغّل في هذا العام، وقال:

- هذا الشيء...

في ذلك العام زادت زيارات الأم إلى هناك، ومرّ الوقت سريعاً، فساوره القلق بشأن أمرين، الأمر الأول هو أن العائلتين لم تندمجا على نحو كافٍ، ولم تجتمعا تحت سقف بيت واحد، حتى تشنغ جونغ لم يعتنِ به كما كان يتمنى، وظل وحيداً في هذا العالم، لا ينعم بأي لحظة عطف أو حنان من أي شخص، والأمر الثاني هو الفضول الذي كاد يقتله ليعرف أكثر عن هذا الشيء الذي عجز عن التعبير عنه.

كانت هذه الكلمة الجديدة على قاموس مفرداته مثل نمِرِ شرس، ينهش رأسه، لكن شياو باي تحلّى بالقوة، وراح يقاتل بصمتٍ على صفحات دفتر اليوميات ليتخلص من ضراوتها.

لن أتحدّث عن الجهود المرهقة التي بذلها ليترد هذا الوحش، الذي تملك منه، لكن يمكن الحديث عن كلمة ذات علاقة وثيقة بهذا الشيء، وهي "الفراش". هذا المكان المخصّص لخلع الملابس والتكور فيه تحت اللحاف، كما يمكن كتابة مقالة طويلة عن "مَن ينام بجوار مَن". عادةً يتخبّط الكثير من الفتيان في مرحلة المراهقة ثم يتجاوزون هذه المرحلة، لكن شياو باي لم يكن مثل أقرانه، فلا يسمح أن تمرّ الأشياء على ذهنه من دون فهم متقن. فبرغم بدانته فإنه يمتلك عقلًا راجحًا، وقد جاء إلى الدنيا ليكون متفوقًا على جميع أقرانه.

نظر إلى البيت بحزن، فلم يجد سوى فراش شياو لان وفراشًا آخر يتقاسمه مع أمه.

وإذا به يقترح على أمه:

- أريد فراشًا خاصًا بي، دعي أختي تنام بجوارك، هي فتاة مثلك وأنا رجل!

- ماذا قلت؟!

حدّقت به وكأنه اقترب من منطقة، محظور الكلام عنها، وصاحت قائلةً:

- أنت لا تزال صغيرًا، كيف تتحدّث عن الرجال والنساء! لا تثر المشكلات بمثل هذا الحديث!

"أنت لا تزال صغيراً!"، و"كيف تتحدث عن الرجال والنساء!"، يبدو أنهما غفلتا عن عمره وجنسه! فكانت كل منهما تبدّل ملابسها وتغتسل أمامه من دون خجل، وقد رأى في سنّ صغيرة كل شيء يتعلّق بالنساء؛ رأى ملابسهما الداخلية وورق التواليت وأمشاط وزيت الشعر ومستحضرات التجميل... كان يعلم كل شيء عن عالمهما الأنثوي ورائحته الخاصة، وتلك التي تأتيهما في وقتٍ معين خلال الشهر ويتغير المزاج على إثرها، وبقع الدم الوردية التي كان يراها مصادفةً، هنا وهناك، حتى أحسّ أنه ينبغي أيضًا أن يبحث عن هذه البقع في ملابسه!

هل تظنون أنها فكرة غريبة؟

عندما نظر إلى جسده الضخم في المرأة، لم يجد سوى مؤخرة سمينة بيضاء وثديين متدليين مثل أئداء الفتيات، فأحسّ بالضيق والاشمئزاز ورنّ صوتٌ في أغواره يتساءل: مَنْ أكون؟ هل الفرق بين الرجل والمرأة مهمٌ إلى هذه الدرجة؟ ودوماً كانت تتراءى له تلك اليد التي رآها في الظلام، في تلك الليلة المأساوية، فهي لم تتسلّل من النافذة وتندس في ثياب شياو لان فقط، بل تسلّلت أيضًا إلى دفتر يومياته. كانت هذه اليد المتسلّلة مثل ضحكةٍ قدّرة تأتيه من أعماق الماضي، وتهمس إليه بسخريةٍ وتقول: هل عرفت؟ هذا هو الفارق بين الرجل والمرأة، وأنت إلى أي فريقٍ منهما تنتمي؟ هل أنت فتاة بمؤخرة سمينة وثديين متهدلين؟ أم إنك مثل تلك اليد المتسلّلة في العتمة؟

"لا! لا أريد هذا! أنا لا أفهم مَنْ أكون!" وقد جعلته هذه التساؤلات يركض ويلهث داخل عقله الباطن، ويطلب المساعدة من أبيه الذي

غامت ملامحه في عينيه بضبابٍ كثيف، والتمسها من أمه ذات الوجه الهادئ وأخته التي تحفظ كلماتٍ بالإنجليزية عن ظهر قلب، لكن الجميع ابتعدوا عنه ومضوا بعيدًا بعد أن بصقوا عليه، وفي النهاية لم يجد ملاذًا سوى دفتر اليوميات. في هذه الليلة رسم العضو التناسلي للأنثى في الدفتر، لكن سرعان ما صارت الصفحة رطبةً ومجعدة بعد أن بصق عليها.

وفجأةً أحسّ بالاشمئزاز، فخدش الرسم بقلمه بقوة ومزّق الصفحة ثم أغلق الدفتر ودفعه بعيدًا، لكن لم يجد هذا، فقد ترك ما فعله آثاره على العالم، حتى بعد انقضاء السنين يمكن أن نرى أسفل الصفحة الممزقة الرسم التفصيلي بوضوح، وقد مضى غبار السنين إلى الأخاديد الضحلة، فبدأ ما رسمه مثل وجه شابٍ مراهق! وكان الأمر اللافت للنظر، هو أنه كتبَ بجانب الصورة مجموعةً من الكلمات الفارغة مثل "ABB"، "AABB"، كتبها من أعلى وأسفل ومن الأمام والخلف، وكان بعضها مكتوبًا بخطٍ رقيق، وبعضها بخطٍ سميك مثل جسدٍ مكتنزٍ بالشحوم.

في النهاية، بعد البحث المضني في حادثة اليد بغير جدوى، قرر الفيلسوف الجهبذ أن يوسع من نطاق استكشافاته لهذا الشيء ويصل إلى هناك!

كان فراش دينغ بوه جانغ لشيواو باي مثل صنارة صيد، تطفو به رويدًا رويدًا ثم فجأةً تغوص به في قاع البحر، وقد تعلّق جسده بها وأخذت تخزه وخزًا. كان هذا الفراش يتوافر به كل الأشياء المطلوبة وهي: رجل.. وامرأة.. وليل حالك.. وباب موصل. كان يفهم ما يحدث فوقه، لكن كان فهمًا مجردًا؛ مما زاد من تعطشه لكشف

المستور عن هذا الشيء، وحتى يفهم ما يحدث فوق الفراش فلا بد أن يكون موجودًا مساء الأربعاء في مكان الحدث. حاول جاهدًا أن يخنق هذا الشعور الثائر الذي راح ينهش عقله وقلبه، لكنه لم يحتمل، فكان مثل شمسٍ تقف عند خط الاستواء، تشتعل وتحترق، ولم يعد هناك ملجأً ليحتمي به من هذه النيران المستعرة التي تأكل روحه!

كان طفلًا مسكينًا بجسدٍ بدين، لكن وعيه الجنسي كان يواجه أزمةً وهو في مهد النمو.

في مساء ذلك الأربعاء، بعد أن غادرت أمه إلى هناك، انتهى شياو باي من واجباته المدرسية، واغتسل واستعد للنوم، لكنه أحس فجأةً بدوارٍ شديد، واعتلت الحمرة وجهه (وربما يكون أصيب بالحرارة بسبب هذه الفكرة الشريرة)، وكانت المنشفة الموضوعة على جبينه مثل قطعة جليد تلمس نيرانًا متأججة، وعندما سمعت شياو لان أنينه اقتربت منه ولمست جبينه، فقالت بحزن:

- أنت محموم!

وفي هذه اللحظة قفزت إلى عقله فكرةٌ شيطانية، فسألها متشككًا:

- هل هذه حمى؟

وكانت منهمكةً بالتفكير في مسألة فيزياء، فلم تأخذ المسألة على محمل الجد وأجابت:

- اشرب كوبًا من الماء وضع المنشفة المبللة على جبينك!

فأشار إلى قلبه وقد تغضن وجهه، فبدت علته أخطر من مجرد حمى، وقال:

- لا أريد شرب الماء، هنا يؤلمني!

وحاول أن ينهض من الفراش، لكن ساقه ارتعشتا وهوى على الكرسي وظهر بياض عينيه. دوماً كان يلعب هذه اللعبة وهو وحده.

فانتابها ذعرٌ شديدٌ وكأنه أشرف على الموت، وقالت:

- لا أعرف طريق أقرب مشفى ولا أعرف أين تضع أُمي النقود؟ ولا يمكن أن نطلب المساعدة من الجيران، لأنهم سيهزؤون منا؛ لأنها ليست في البيت في مثل هذه الساعة المتأخرة.

فشعر شياو باي بالقلق من قلة ذكاء هذه الطالبة التي لا تملُّ ولا تكلُّ من الدراسة، فغمغم بعينين نصف مفتوحتين قائلاً:

- اذهبي وأحضري أُمي!

- حاول أن تتحمل الألم.

وسرعان ما وضعت معطفها، وسحبت شياو باي الذي كاد ينهار من التعب وغادرا البيت.

كانت العتمة جامحةً وقمر المساء ساطعاً في السماء، يرافقهما وينير لهما الطريق في ظلام الليل. تحامل شياو باي على نفسه، واحتمل الألم رغم أنه كان أشبه بكيس الدقيق، وهو يجلس في المقعد الخلفي لدراجة شياو لان. قادت شياو لان الدراجة بكل ما أوتيت من قوة، وراحت تكافح حتى تتعرّف على معالم الطريق في أثناء مرورها بكومات قبيحة من مواد البناء، فالأزقة والممرات التي كانت تعجّ بالبشر في الصباح، صارت الآن خاويةً وموحشة فضلاً الطريق، ومن حسن حظهما أن متجر فطائر السمسم جعلهما يتذكران

الطريق. والطريق الذي كان عادةً يستغرق عشرين دقيقة بالدراجة، استغرق قرابة الساعة.

لم يبال شياو باي بالتأخير، فكلما تأخر الوقت كان أفضل له حتى يقرّ عينيه برؤية فراش دينغ بوه جانغ، وحينها سيشعر برضا كبير، حتى وإذا مات بعدها فلا يهم، فيكفيه أنه نال عين المراد!

فتح دينغ بوه جانغ الباب ووقف في ذهول تام، وسرعان ما صاح عاليًا ينادي أمهما، لكنها لم تخرج من غرفة النوم، فاستندت شياو لان إلى خزانة الأحذية من فرط التعب، وقالت بصوت عالٍ:

- أمي، شياو باي محموم وصدره يؤلمه.

لم ينتظر شياو باي طويلًا، فالفرصة صارت سانحة الآن، فحرّر يده بقوة من يد أخته واندفع إلى غرفة النوم كالمجنون، وكانت أمه أمام الفراش تنتعل الحذاء، وما إن رآته حتى ضمّته إليها ولمست جبينه بجبينها، فأخذ نفسًا عميقًا إلى صدره ومسّ أنفه رائحتي الدفء والنيذ، فسرى خدرٌ لذيذٌ في أوصاله.

أجبر نفسه على التزام الهدوء، وراح مثل جروٍ صغير يتشمّم رائحة أمه، وهو يفحصها بعينه من أعلى لأسفل، فوجد كل شيء طبيعيًا؛ كانت ترتدي كامل ملابسها وكانت قدمها عاريتين، وقد انسدل شعرها على كتفيها، فأحسّ بخيبة أمل، ثم ألقي نظرةً على الفراش فوجد وسادتين موضوعتين جنبًا إلى جنب وغطاء الفراش مطويًا إلى أسفل، فبدأ كل شيء في مكانه، ولم يلفت نظره سوى عبوة ورق التواليت المفتوحة، ماركة "جولدن لوتس"، وقد ظهرت منها ورقة مطبوعٌ عليها لونٌ وردي. مضى دينغ بوه جانغ إلى داخل

الغرفة وكان يرتدي بيجامة قصيرة، وصلت عند ركبتيه المشعرتين بغزارة، بينما جال شياو باي ببصره في الغرفة في محاولة لاكتشاف أي آثار لهذا الشيء الذي لا يعرفه، ووقفت أمه جانبًا تنظر إليه، وسألته ببرود:

- هل نذهب إلى المشفى؟

فقال متلعثمًا:

- المشفى؟

فصاحت الأم قائلةً:

- شياو لان! أين هذه الحمى؟!

فأحسّ بالقلق، ومدّ يده يتحسّس نفسه ويبدو أن جبينه قد برد، وسأل نفسه متى ذهبت هذه الحمى اللعينة؟ ثم أحكم خطته الماكرة قائلاً:

- الآن أشعر بالبرد.

فقالت شياو لان موضحةً:

- فجأةً ظهر بياض عينيه وصرخ طالبًا المساعدة!

فعقدت الأم لسانها عن الكلام وانحنت لترتدي جوربها قائلةً:

- فلنعد إلى البيت!

ثم استدارت إلى دينغ بوه جانغ وقالت:

- ربما يشتد الهواء في الليل فتعود إليه الحمى!

قادت الدراجة سريعاً على الطريق، وجلس شياو باي خلفها ولم يجرؤ على أن يحتضن خصرها، لأنه أحس أنها كشفت خطته، لكنه لم يشعر بالقلق، لأن شياو لان ستسأله وتشهد أن حرارته ارتفعت بالفعل، فكيف تعاقب أم ابنها المريض؟!

لكن ما جعله يشعر بالإحباط هو ما رآه الليلة، لكن ماذا رأى؟ لم ير شيئاً ولا يزال جاهلاً بهذا الشيء، ولم يفضّ سره أو يكشف عنه الستار، فجأة تضاعف حزنه وسأل نفسه: هل سيموت وهو يحمل هذه الظنون القاتلة؟ من يمكن أن يمدّ له يد العون؟ فهو في حاجة إلى مرشد يأخذ بيديه ويخرجه من الظلمات إلى النور، هو في حاجة إلى التنوير من أخ كبير!

في تلك الليلة لم يدوّن في دفتر اليوميات شيئاً عن الحمى التي أصابته، ولم يتحدث عن القمر، ولا عن كل مشاعر الإحباط التي كانت تمور في أعماقه، فقط كتب عبارة طفولية بخطّ مرتعش ينضح بأسى بالغ: "أخ كبير! أنا أريد أخاً كبيراً!"

ومن رحمة السماء أن هذه الليلة لم تضع سدى ولم تذهب أحزانه أدراج الرياح!

في عشاء السبت مضى كل شيء طبيعياً كالعادة، كان دينغ بوه جانغ في حالة سكر تامة، بينما راحت الأم تنظّف آثار الجريمة بعد العشاء، وتشغّ جونغ الذي اعتاد بعد العشاء أن يمضي إلى صومعته صافعاً الباب خلفه، بقي جالساً على المائدة على غير المتوقع، وفجأة تحدّث إلى شياو باي هو ينظر إلى شياو لان:

- علمت بما فعلتماه مساء الأربعاء، لقد فعلتما عين الصواب، هما يظنّان أننا لا نفهم شيئاً!

فأسبلت جفניה ورفضت التعقيب، ولم يصدّق شياو باي ما سمعه، فالتفت إلى تشنغ جونغ كما جرو صغير يريد أن يداعبه صاحبه، وهمس هامس في أغواره: ألم يكن ما فعلته في هذه الليلة سخيفاً؟ هل بالفعل يشعر أن ما فعلته كان له جدوى؟

ثم قال تشنغ جونغ بصوت هامس:

- ما زال لدينا الكثير لنفعله! تشن تشن، يمكننا أن نتحدّج بالدراسة! وكانت شياو لان لا تزال مسبلة العينين، لكن شياو باي كان على يقينٍ أنهما يختلسان النظر بعضهما إلى بعض، فاقتربت تشن تشن وربّت على كتف شياو باي قائلة:

- شياو باي، أيها الصغير البدين، يجب أن نتعلم منك!

وفجأة تولّد بينهم شعورٌ غريبٌ من التعاون والحميمية، يمكن أن نسميه "تحالف الأربعة". جاءت سو تشين وفي يدها خرقةٌ لتمسح المائدة، فاستجاب الجميع بحركة آلية بمن فيهم تشن تشن، على الرغم من أنها لم تكن تدري ماذا حدث بالفعل.

وعلى الرغم من أن تشنغ جونغ لم يفصح عن حقيقة نواياه، إلا أن شياو باي قد سبر أغواره وكشف نيّته، فجلس هناك في وجوم، وعرق غزير راح يتصبّب من ظهره، وتحاشى النظر إلى أمه؛ فكان هو المُحرّض على هذه الفعلة. والآن لا يمكنه التراجع أو الاعتراض بعد أن جمعهم هذا التحالف وصاروا مثل إخوة حقيقيين، فكم كان يتمنى أن يصبحوا مثل الإخوة!

انقضى أسبوعان هادئان وكان شيئاً لم يحدث، لكن شياو باي كان يعلم أن عاصفةً عاتيةً ترقد تحت هذا الهدوء، وفي مساء أربعاء آخر كاد

أيضاً ينساها، ذهبت أمهما إلى هناك، لكنها عادت بعد وقتٍ قصير؛ فقد دعت تشن تشن مجموعةً من الصديقات بحجة التدريب على برنامج حفل الكلية المسائي، واستدعى الأمر السهر حتى منتصف الليل. مرَّ وقتٌ حتى استعادت هدوءها، وتكورت في الفراش وأعطت ظهرها لهما، في هذه اللحظة طفت صورة فراش دينغ بوه جانغ على صفحة ذهنه، فبدا مثل فمٍ مفتوح فارغ.. فارغ من أي شخص!

وفي مساء الأربعاء الذي تلاه، عادت تقريباً بعد أن تجاوزت الساعة الثانية صباحاً، وضعت المفتاح في الباب بحرص وانتبهت إلى وقع خطواتها، ثم دفعت الباب على مهل. مرّت خمس دقائق هادئة وكان الجميع يغطّون في النوم، لكن شياو باي استفاق فجأةً وكأنه كان يرتقب عودتها. فتح عينيه وكان حذرًا ألا يرفّ له جفنٌ، بينما هي مضت إلى غرفة النوم وجلست على طرف الفراش، فاغتتم الفرصة ليُلقي نظرةً عليها تحت نور المصباح، فكان وجهها وشعرها غارقين بندى الليل، وكان الأسى يلوح في وجهها جلياً وهي تفرش غطاء الفراش.

وظفّق يفكّر: من فعلها هذه الليلة؟ من عكر صفو ليل العاشقين؟ فخمّن أن تشنغ جونغ قد عاد من المدرسة في المساء بصحبة صديق وظلا يلعبان الورق طوال الليل.

ظنّ الأربعة أنه ما من نهاية لهذه المؤامرات، ولم يكلّفوا أنفسهم عناء تفسير هذه الحوادث العرضية التي تحول بين لقاءات الأربعة، بل كانوا دومًا يقرعون الباب هناك في منتصف الليل، بلا أدنى مبرر، وكأنهم يكشفون الغطاء عن هذه العلاقة الغامضة، ويستمتعان بشعور الحرج الذي يتتابهما! لكن أليس كل ما يحدث بسبب شياو باي؟

نهشه الشعور بتأنيب الضمير؛ مما جعله يبكي في جوف الليل، وفكر في أن يذهب إلى أمه ويعترف لها بأنه هو المدبر الحقيقي لتعكير صفو ليالي الحب، وأن هذا الشيء لن يتكرر مرة أخرى. كما رغب في أن يجد الفرصة ليتحدث مع تشنغ جونغ مثل رجلين ناضجين لإيقاف هذه اللعبة وإنهاء هذا التحالف! لكنه لم يجرؤ على سؤاله، فهل يقطع الخيط الأحمر الرفيع لأواصر هذه الصداقة الغالية؟

ووسط كل هذه الاحتمالات والفرضيات، نام شياو باي نومًا عميقًا، واستفاق على المزيد من الحيل الماكرة مثل عودة تشن تشن إلى البيت لتبحث عن بعض الأغراض، فتمضي إلى غرفة دينغ بوه جانغ وتقلّب في خزانته، ويعود تشنغ جونغ متذرّعًا بانتهاء الدروس الليلية، ويبقى في البيت يشاهد التلفاز، وذات مرة جرح السكين قدم شياو باي فاصطحبته شياو لان إلى هناك وقرعت الباب... حتى صار ليل الأربعاء كابوسًا شنيعًا لسو تشين مما جعلها تتردّد قبل الخروج كل مساءً أربعاء، حتى قررت في النهاية ألا تذهب إلى هناك وتبقى في البيت تتقلّب في الفراش والنوم يجافي عينيها، وتظل ساهرة حتى الصباح وهالات سوداء تتجمع حول عينيها مثل شبح شارد كان يتجول طوال الليل.

وفي عشاء السبت وسط نظرات دينغ بوه جانغ الذي كان دومًا في حالة نشوة من الخمر، وسو تشين التي تتعامل كأم مثالية تعتني بأبنائها الأربعة، حافظ الأربعة على التحالف السري بينهم وتظاهروا بالبرود كعادتهم، وتحاشوا النظر بعضهم إلى بعض وتعاملوا بعدم اكتراثٍ شديد، وكأنهم صاروا أعضاء في منظمة سرّية، شعارها هو: "من يمتلك القدرة ومن تسنح أمامه الفرصة ستقع على عاتقه مهمّات

أكبر!"، وعندما يبلغون سن الرشد وينضجون ويتشكل وعيهم نحو العلاقات بين الرجل والمرأة، سيتقابل تشنغ جونغ وشياو لان ذات يوم، ويتحدثان عن التحاقها بامتحانات الماجستير، ولسبب ما تذكره مقالب يوم الأربعاء، فران الصمت بينهما ثم بلع تشنغ جونغ ريقه، وأعلن عن تدمير تحالف الأربعة قائلًا:

- أخطأنا التصرف وقتها، لكن كنت أظن أن الأمر يروقك، أنا فعلته من أجلك أنت!

فأشاحت بوجهها عنه ونظرت إلى بعيد، وكأنها رأت صورة أبيها الذي فارق الحياة منذ أكثر من عشرين عامًا، ذلك الرجل الأنيق وهو يرتدي بدلة العمل الكاكي وقالت:

- نعم كان يروقي!

- كان الأمر يستحق كل هذا العناء!

ولم يتحدثا عن شياو باي، فلطالما كان ينكران دوره في تحالف الأربعة!

(٨)

وبعد مضي شهرين بدأت قوة تحالف الأربعة تتضاءل. في ذلك اليوم عندما عاد شياو باي من المدرسة وجد دراجة زرقاء، من طراز "ستة وعشرين"، في انتظاره في غرفة المعيشة.

وقفت أمه بجانبها تنتظره ولمّا رأته هتفت قائلة:

- هذه دراجتك؟ هل أعجبتك؟

كان بالفعل يتمنى أن تكون لديه دراجة خاصة، لكن في الوقت ذاته كان يحسّ بالخجل، لأنه من الصعب أن يتخيّل نفسه وهو يقود دراجة بوزنه الثقيل من دون أن يتكور مثل قطعة حديد على الأرض، ودومًا كان يسبح بخياله، فيرى نفسه يسقط من فوق الدراجة على الطريق، فتلتوي الدراجة ويصير مثل سلحفاة انقلبت على ظهرها ولا تستطيع أن تعود إلى وضعها الطبيعي، والمارة يلتفون حوله ويشيرون إليه وضحكاتهم ترنّ في الأنحاء.

جثا على ركبتيه وحرك الدواسة، فتحرّكت العجلة الخلفية وأحدثت صوتًا. أعجبه الدراجة وتحمّس لركوبها، وتذكّر الهواء الرطب في منطقة المصانع، فأحسّ أنه سيدعمه ويخفف من وزنه ويجعله يقودها بشكل احترافي! ولن يعود بحاجة ليركب خلف أمه وساقاه تهزان في الهواء مثل الفتيات، وربما عليه أن يكتب شيئًا عن

الدراجة في دفتر اليوميات، ويستخدم قلم حبر معطرًا ويكتب عنها
بخط جميل!

وأوشكت ابتسامة طفولية أن ترتسم على وجهه الممتلئ.

- اشتراها لك عمك دينغ!

لم ينظر إليها لكنه استطاع أن يتخيل ملامح وجهها وهي تتحدث،
فأحسّ وكأنه بالونٌ مثقوبٌ أو أن أحدًا سكب عليه ماءً متسخًا، وفجأة
غامت الدنيا في عينيه، وحرّك الدواسة بشكل أسرع، وكأنه يحرك
عجلة الريح والنار التي ستحمّله بعيدًا عن هذا الهواء القذر.

وانهالت على رأسه الأسئلة تخزه وخزًا: هل هذه مجرد هدية؟ أم
أنها رشوة؟ هل سيقبلها؟ هل ستتوقف لعبة الأشقاء الأربعة؟ وترك
الغضب ينهش صدره حتى أبغض الدراجة، لدرجة أنه بات يفضل
الركوب خلف أمه على دراجتها!

لا! سيقود الدراجة ويقبل الرشوة! ويجعل هذه الهدية البغيضة
تصير صفقة مشبوهة!

أمسك بالدراجة ودفعها إلى الخارج، ورغم أنه لا يجيد ركوبها
لكن الرغبة تملّكت منه، ومثل دبّ سمين أو كلبٍ أحمق راح
يتدحرج بها على الطريق، فتارةً يضغط عليها ويمسك بزمامها، وتارةً
أخرى تضغط هي عليه وتقلت منه، والغريب أنه كلما سقط من فوقها
أحسّ بنشوةٍ بالغة، ولم يكن يمانع من الإصابة بالكدمات والخدوش
وارتطام المرفقين بالأرض، بل كان يحسُّ سعادةً كبيرةً! حتى لو رآه
أحدٌ فلن يبالي، بل كان يرحّب بهم وبسبابهم؛ مثل البدين الأحمق

والخنزير والحمار الغبي، وكيف يقود هذا البدين مثل هذه الدراجة الجميلة؟ ورنّ صوتٌ في أعماقه: لماذا تغيّر فكرك يا فتى؟ لماذا قبلت بهذه الرشوة؟ آه، في البداية كنت عميلًا ثم بعت نفسك! عار عليك!

هرعت شياو لان خلفه بدراجتها وتمكنت من اللحاق به، وعندما رآها ترك الدراجة وألقى بنفسه على الأرض، وكأنه يريد أن ينبش الأرض، فلم تعترض على تصرفه بل جلست بجواره وقالت:

- ما هذا الجنون؟ اشترى لي قاموس أكسفورد (صيني - إنجليزي)، سأستخدمه في البحث عن الكلمات.

وكانت لهذه الكلمات القاسية بالغ الأثر في نفسه ولم يرغب في النهوض، بل شرع يمعن النظر في خطوط الأرض الإسمتية وفي الحفر التي تشبه نبات القنب، وسأل نفسه: ماذا قدما لتشنغ جونغ وتشن تشن؟ النقود عندهما بلا حساب! في النهاية انفرط عقد التحالف الأربعة، وانتهت إلى الأبد هذه العلاقة الحميمة التي جمعتهم كرفقاء سلاح واحد، وسيغدو كما كان من قبل يضرب وحيدًا في بيداء الحياة ويعيش منطويًا على نفسه إلى الأبد.

يا لها من حياة قاسية! لم يشعر يومًا بمثل هذا الحزن ولا بمثل هذا الضيق، وسيبقى إلى الأبد يزحف على الأرض حتى تبتلعه في جوفها، وفي النهاية يصل إلى أبيه وأمه فربما يقدران على استيعاب حزنه وضيقه.

وكان عقاب سو تشين لشياو باي أشبه بطائرة ورقية، سحبتها إلى آخر مدى حتى نجحت في أن ينسى أفراد العصابة خطتهم، وكانت

ذريعتها للعقاب هي نقطة حبرٍ لطّخت قميصه الأبيض، فضربتة ضربًا مبرحًا، وتعمّدت أن يكون أمام شياو لان، من دون أن تتفوّه بكلمة، لكنه لم يصرخ أو يستغث بأحدٍ، بينما أطرقت شياو لان وانكبت على حفظ الكلمات من دون حتى أن تنظر إليهما، أو تحاول أن تنقذه من يدها، بينما واصلت ضربها له وهي تضغط على أسنانها.

ران الصمت الطويل بين ثلاثتهم، وكان لهذا الصمت عميق الأثر في نفسه، ربما أكثر من آلام ظهره ومؤخرته، وبعد هذه الليلة، خيم صمتٌ مريبٌ على البيت، وكأنهم كانوا في حاجةٍ إلى مثل هذا الضرب المبرح حتى يمحووا أي ذكرى سيئة ارتسمت هناك.

وفجأةً استفاق في منتصف الليل، وربما يكون من فرط الإحساس بالألم حتى أنه لم يقدر ليلتها أن يكتب شيئًا في دفتر اليوميات، لكن ما جدوى الكتابة في دفتر اليوميات الآن؟

مضى على أطراف أنامله حتى وصل إلى دورة المياه، وراح يفحص شعره الأشعث وعينه الكليلتين في المرآة، وبعد لحظات خطرت له فكرةٌ شيطانية!

أمسك بكوب فرشاة الأسنان ووضعها جانبًا ثم ملأ الكوب بالماء، وفتح غطاء علبة الصابون المعطر وغير المعطر وملاهما بالماء، وجمع كل أحواض الغسيل وملاها بالماء، ثم مضى إلى المطبخ وأفرغ أوعية الخضراوات والتوابل والأكواب الزجاجية، وشرع يملؤها كلها بالماء، فأحسّ أن هذا لا يكفي ليشعر باللذة والمتعة، ففتح فمه وحمل أردافه ومضى إلى الغرفة، وفتح حقيبته ووجد علبة ألوانٍ مائية، تحوي اثني عشر لونًا، فاتسعت ابتسامته أكثر وأكثر، وفصل الألوان الهادئة

عن الألوان الساخنة، وأفرغها في الماء وجعلها تذوب، ثم تراجع خطوةً إلى الوراء وأخذ يراقب الدوائر المشرقة تحت نور المصباح الباهر التي بدت مثل ألوان مواسم العام، أو مثل قوس قزح يتألق في السماء، أو مثل ألعاب نارية تبارق في سماء المساء.

ورغب في أن يجوب كل النائمين واحة الأحلام ويروا الأوعية المملوءة بالماء والألوان التي تسبح مثل نباتات الماء، وقد ألقى المصباح الأصفر وهجًا على المشهد، فأشرقت شمسٌ صغيرةٌ محبةٌ في قلبه، وأحسَّ أن هذه الألوان تحبه مثل أمه وأبيه وأخته، وصارت عائلته ولم يعد وحيدًا. فهل هناك أعذب من هذه الأحلام؟! ولا أحلى من هذه الرؤى العذاب؟

ووسط هذه الفرحة العارمة أحسَّ بشيءٍ من الندم، وشرع يفكر في طريقةٍ جديدةٍ ليزيد الترابط بين العائلتين، ويوطد العلاقة بين دينغ بوه جانغ وأمه من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى يوطد العلاقة بين تشنغ جونغ وشياو لان.

ولا شك أن غايته لم تكن أن يجمع الحب بينهما، فلم يكن ساذجًا إلى هذه الدرجة، فهو يعلم طبيعة شياو لان ومن المستحيل أن تعجب بشابٍ مثل تشنغ جونغ، كل ما هنالك أنه كان يرغب في أن يقرب بينهما؛ حتى تغدو هذه العائلة مثل صرح كبير لا يمكن أن ينهار! فقط كان الأمر يحتاج دفعةً منه حتى يجعل تشنغ جونغ يوليها اهتمامه.

أخذ يسكب الألوان ويغمرها بالماء، وهذا تمامًا ما كان يحتاجه، يضع النار بجوار البنزين ويضيف بعض التوابل، ويذر بذرة الحب الأولى في قلبيهما ثم يترك حرية الاختيار وكامل القرار للطرفين.

نسج شياو باي خيوط قصة حب كاذبة، وزرع في عقليهما أوهامًا خادعة، لكن في النهاية لم يجنِ حصاد تبعه، فبعد مضي ستة أشهر، انفصلت العائلتان فجأة دون أي سابق إنذار وذهبت كل جهوده أدراج الرياح.

ولم يبرح ذاكرة شياو باي مشهد الفراق لأنه كان مثل فراق حقيقي، كان مثل سياسة توظيفٍ داخلية أو مثل ارتفاع سعر السكر في الأسواق فجأة، أو مثل ترقية شخصٍ من دون سابق إنذار، فقد علموا خبر الانفصال بطريقةٍ غامضة، عبر همسات الشفاه ونظرات العيون، فزم الجميع شفاههم وكان ما يحدث ليس لهم به صلة، وكان شياو باي لا يزال يحيا في الظلام، فكان آخر من يعلم بأمر الانفصال!

اجتمعت العائلتان على مائدة العشاء الأخير، مساء السبت، وكانت المرة الأولى التي تلتقي فيها الفتاتان بعد ستة أشهر؛ لأن شياو لان كانت تستعد لاختبارات قبول الجامعة، وتشن تشن كانت تعمل نوبات إضافية في المساء.

بدلت تشن تشن ملابس العمل، ذات الأحمر الداكن، وارتدت ملابس مناسبة للعشاء، وعلقت في أذنيها قرطين كبيرين يخطفان الأنظار ويحدثان جلبةً، ويلمعان تحت الضوء مثل عينيّن تنظران عن اليمين وعن اليسار.

حاول شياو باي أن يقنع نفسه بأهمية هذا العشاء، فكان من الحماسة أن يجتمع شمل هاتين العائلتين، وفقط المغفل هو من يعتقد خلاف هذا، وكان أنسب شيء في هذه الليلة هو أن يطلق الجميع تنهيدة تنم عن ارتياح لفراق العائلتين، وكأنهم تخلصوا من قطعة شحم زائدة أو قطعة ثلج أو شكت على الذوبان.

بدا قرطاً تشن تشن وكأنهما يحدقان النظر في شياو لان، وكانت قد مرت أشهر طويلة ولم تلتقيا، وكان امتحان قبول الجامعة أضفى على شياو لان شيئاً من الأدب واللفظ، فجلست وهي تحني ظهرها واضعة كتاباً على ساقها، وكأنها أو شكت على أن تبهر إلى رحلة بعيدة، وعليها أن تحتل كل الصعاب حتى تصل إلى مرفأ الأمان.

وإذا بتشن تشن، التي باتت طويلاً تبحث عن هذا السؤال، تسألها:

- هل تدرسين العلوم الإنسانية أم الفيزيائية؟

فرفعت شياو لان الكتاب عن وجهها وقالت:

- أدرس العلوم الإنسانية، عادةً تدرس الفتيات العلوم الإنسانية.

- ثلاث من موظفات الفندق، يعملن معي في نفس الطابق، رسبن في اجتياز امتحانات قبول الجامعة، وكان الامتحان في العلوم الإنسانية.

لم يسع شياو لان إلا أن تبتسم ابتسامة تنم عن ثقة بالغة في قدرتها على اجتياز امتحان قبول الجامعة، فسألته بسخرية:

- هل جميع زملائك في الفندق فتيات؟ أين الفتيان؟

- نعم جميعهن فتيات، وهناك مجموعة أخرى جميعهن أيضًا فتيات، والرؤساء أيضًا فتيات.

- هل من تقدمن لامتحان العلوم الإنسانية جميعهن فتيات؟

- لا! لكن عدد الفتيات أكثر من الفتيان، الفتيات اللاتي تقدمن لدراسة العلوم الفيزيائية أقل بكثير!

كان حديثاً رتيباً انحصر موضوعه حول الفتيات والعلوم الإنسانية، وكان هذا دليلاً ساطعاً على عدم وجود تناغم في العلاقة بين الفتاتين. انقطع الحديث وظلت كل منهما تكافح حتى تبقي عليه حتى جاء تشنغ جونج (وكان قد وجد -في هذا العام- وظيفة عامل نفخ الزجاج في أحد المصانع، ولم يكن شياو باي يعلم بهذا الخبر، وكان هذا أحد أسباب انفصال العائلتين).

فسرعان ما عقدت شياو لان لسانها عن الكلام واستأنفت قراءة الكتاب، ولم تنفقه بكلمة أخرى طوال الليلة، وقد انتبه شياو باي إلى تصرفها، وباعتباره رسول الغرام، أحسّ بالندم على جهوده التي ضاعت سدى!

جاء تشنغ جونج وهو يحمل قفص عصافير، وكان من الغريب أن يشتري الليلة عصفوراً. وضع مفتاح الدراجة في فمه، وبيد أمسك جريدة المصنع، وباليد الأخرى أمسك القفص، لذلك لم يستطع التحدث مع أحد منهم، وسرعان ما اتجه إلى دورة المياه وعلق القفص على حافة النافذة ثم أطلق صافرةً للعصفور، فتناهى صوتها من الباب المفتوح، وكانت هذه الصافرة بمثابة حديثٍ طويل بينهما وعجز الجميع عن فكِّ شفرته.

"ما نوع هذا العصفور؟" فكّر شياو باي أن يسأله وظنّ أنه ربما يكون طائر الخوامي* المغرّد، ذا اللون البني، لكنه لم يسأل، فقد تغيّر صوته وبلغ أصعب مرحلة ولم يكن يرغب في أن يتحدث مع أحد، فكان يبدو أنه الوحيد بينهم الذي يشعر بالأسى للفراق، ويهتزّ كل كيانه بسبب هذا العشاء الأخير، ولا أحد من الحضور يشعر بالحزن مثله. ما هذا الفتور! وما هذه البلادة في المشاعر! لا أحد منهم يرغب في أن يُبدي أي تأثير بسبب هذا الفراق!

عَضّ شياو باي على شفّتيه وأبغض عمره الصغير، فقد بلغ الرابعة عشر والنصف، لكنه لا يزال صبيًا صغيرًا! كلّ منهم قد عرف طريقه وأدرك ملاذه الآمن: تشنغ جونغ صار عامل زجاج ماهرًا، وتشن تشن تبدّل الشراشف في الفندق، وشياو لان سرعان ما ستلتحق بكلّية من كليّات القمة، فيما عدا هو؛ لا يزال عالقًا في هذه العائلة متبلّدة المشاعر، فقد أحب تشنغ جونغ كثيرًا وتعلّق بتشن تشن، كما أنه يحب أخته، حتى إنه لا يكره دينغ بوه جانغ، وقد حاول كثيرًا أن يجد حلولًا وتملّق هنا وهناك للإبقاء على هذا الوضع الفوضوي، ويلمح البصر، تضيع كل هذه الجهود هباءً، ويُلقون بها إلى البعيد بلا أدنى شكر أو تحية!

لم يكن هناك شيء مميزٌ على مائدة العشاء الأخير، وكان العصفور هو بطل الحديث طوال الليلة، فكان مثل زورقٍ على وشك الغرق، فتمسكوا به حتى يقضوا ليلتهم الأخيرة البائسة.

- ما نوع هذا العصفور؟

* أكثر الطيور المغردة شهرة في الصين. [الترجمة]

- الحسون. هل رأيت منقاره البرتقالي؟

- ريشه جميلٌ جدًّا، هل يمكنه الغناء؟

- هل هو من فصيلة العصفير أم من فصيلة الكناري؟

- كان بائع العصفير يقف على جانب الطريق، وتبقى معه هذا العصفور، وكان يرغب في بيعه والعودة إلى بيته، فباعه بثمان زهيد جدًّا!

- هل يمكن أن أطعمه؟

- انس الطعام اليوم! هو يحب الطعام الجاف مثل الدخن والذرة وبذور عباد الشمس.

- هل يأكل أوراق الخضراوات؟ هل يجب تغيير المياه كل يوم؟

كان موضوع العصفور في ليلة العشاء الأخير هو شغلهم الشاغل، وكأنهم صاروا فجأة من محبي الطيور والعصفير، فكان كلمة السرّ التي جعلت الجميع يتنافسون للتعبير عن آرائهم السطحية، وحاولوا جاهدين أن يجعلوا من ليلة الفراق ليلةً باردة تخلو من أي مشاعر ومن أي عواطف.

تشتت عقل شياو باي وسأل نفسه: هل ينبغي بالفعل أن يكون الناس بلا قلب وبلا مشاعر! وأحس أن الحياة مجرد فتراتٍ من التخبّط والحيرة والغموض، هذه الأيام تقضيها هناك مع هؤلاء الأشخاص، وأيام أخرى تقضيها في مكانٍ آخر مع أناسٍ آخرين، والناس دومًا تهجر الأماكن والأماكن دومًا تهجرهم، لذا فلا داعي للمشاعر الزائدة عن الحد لأنها تكون في غير محلّها!

وعندما همّوا بالانصراف قالت تشن تشن وهي تتجشأ:

- تعالوا إلى فندقنا، سنعطيكم خصمًا!

وكانت هذه هي كلمة الوداع الأخير، وألقى شياو باي النظرة الأخيرة على البيت، فألقى دينغ بوه جانغ نائمًا على المائدة وسط بقايا الطعام، بينما ذهب تشنغ جونغ إلى دورة المياه ليواصل حديثه مع العصفور.

سلسلةً من الهجمات الباردة جعلت البرد يضرب أوصاله، وكان قد جلس على المقعد الخلفي للدراجة، يستمع إلى أمه وأخته وهما يتحدثان بحماسٍ مصطنع عن طقس الغد.

كثيرًا ما كان الثلاثة يقودون الدراجة عبر هذا الطريق إلى هناك، ثم يقودنها مرةً أخرى من هناك إلى هنا، فكم أحب هذه العلاقة وهذا الوضع المستقر المؤقت! وما كاد يطمئن قلبه ويخطو أعتاب الفردوس حتى تداعت حصون الحصن المنيع، وكان يعلم أن أمه المزاجية سوف تلقي أوراقها في أي وقت، وترفض أن تكمل اللعب!

وعندما كانت الدراجة تتلوى على الطريق، أدرك أن أكثر ما يمكن أن يسببه بشر من أذى أو ضرر ليس الانتقام والكراهية التي تشبه طعنات الخناجر، بل هو الفراق القاسي وعدم الاكتراث لمشاعر الآخرين. وفي هذه اللحظة الحزينة -فجأة- خطرت على باله فكرة، وهي أنه الآن في الصف الثالث الإعدادي، ويمكن في العام المقبل أن يكمل دراسته في مدرسةٍ أخرى خارج المدينة، وابتعد عنهم جميعًا ويفارقهم من دون أدنى شفقة ويزلزل كيانهم زلزالًا حتى يعرفوا قيمته الحقيقية!

وقد منحته هذه الفكرة شيئاً من سلوى النفس عما يعتمل في صدره
من كراهية، فجلس على المقعد الخلفي بصمت وساقاه تتأرجحان
في الهواء، وكان لا يزال يبدو مثل صبية سمينة ببشرة بيضاء.

وفي أيلول العام التالي تحققت أمنية شياو باي، وركب القطار الأخضر الداكن وهو يحمل حقيبة بنية، وانطلق إلى حيث الجنوب، وظهره العريض كان يبدو مثل راية صامتة لا يمكن أن ترفرف.

التحق بمدرسة فنية، متخصصة في المساحات ورسم الخرائط، لكن هل الرومانتيكية وإحساسه المرهف جعلاه يتخيل أنه يمكن أن يرسم الخرائط بهذا الجسد البدين، أو ربما قال إنها وظيفة مضمونة براتب جيد وامتيازات خاصة. لا! لم يكن يبالي بمثل هذه الأشياء، بل كان كل ما يبتغيه هو أن يسافر إلى مكان بعيد، ويترك تلك الكائنات ذات الدم البارد تعيش وحدها! والآن مضى من دون أن يلوي على شيء.

لكنه كان يعلم، تمام العلم، أن قلبه الأخضر لا يزال متعلقًا بالمشاعر الأسرية الدافئة، ولا تزال هي عين المراد، بدءًا من فراق أبيه ومن أيادي النساء التي كانت مثل أخطبوط يزحف على جسده، مرورًا بعشاء كل سبت وصولًا إلى طائر الحسون الذي كان ضيف العشاء الأخير. مضت ستة أعوام وصار مثل شجرة منحنية، غير مكتملة النمو، عطشى للماء ولا يمكن أن ترتوي أبدًا!

انطلقت صافرة القطار، فأبى أن يلقي نظرة إلى الوراء، فهو لا يملك شيئًا هنا سوى رماد أبيه (حتى إنه لم يتذكر ملامحه، وعلى

العكس كان يتذكر ملامح زوجة دينغ بوه جانغ)، لا يوجد هنا سوى جو خائق وأخ كبير حاول استرضاءه بشتى الحيل والطرق وهو لا يستحق كل هذه المحاولات، حتى هذا الأخ لا يعرف أنه غادر منطقة المصانع! كانت علاقة لا تستحق كل هذا العناء! والآن لا يحمل معه سوى أغلى ما يملك وهو دفاتر اليوميات. وعلى الرغم من أن الحقيقية كانت ممتلئة، إلا أنه رفض أن يتركها هناك، واستغنى عن معطفين حتى يجد لها مكاناً في الحقيقة.

وما جدوى المعطف في الجنوب؟! فالجنوب دافئٌ مثل أيام الربيع ولياليه، ولربما يلقي هناك ولو القليل من الحب!

الفصل الثاني

كأس النبيذ

(١)

كانت كأس النبيذ الفخارية التي لم تفارق دينغ بوه جانغ كأسًا لا يمكن أن تنكسر. في ظهيرة الثالث عشر من نيسان، عام ٢٠٠٦، تحطمت العديد من الأشياء وتدحرجت الكأس على طول الطريق الوعر، إلا أنها ظلت صلبة لم تنخدش أو تنكسر! وربما السبب أن دينغ بوه جانغ قد فارق الحياة ومضى إلى حياة الخلود! وقد شهدت هذه الكأس أحلى الأوقات، وكانت مثل صاحبها غليظة ودومًا تفوح بعطر النبيذ.

كم هي غريبة، ذكريات السنين! وكم هي انتقائية، لحظات العمر! وعند تحليل الذاكرة الإنسانية، ستكتشف أن هناك بعض الذكريات يتذكرها البشر وأخرى يحيلونها إلى ذاكرة النسيان، وربما يتعلق الأمر بالقدر، لكن السبب الحقيقي هو طبيعة العقل الانتقائية، فالعقل هو الذي يقرّر ما يبقيه حيًا وما يهيل عليه التراب. ولم تكن ذكريات دينغ بوه جانغ أليمة إلى هذا الحد، فبعد انفصال العائلتين وخلال أربعة أعوام فقط، صار عقله، وهو في الخامسة والخمسين، مثل كيسٍ مملوءٍ بالخمّر، وبات يتطاير منه حتى نضب تمامًا ولم يتبق داخله سوى الهواء!

وبعد مضي عام على انفصال العائلتين، كان دينغ بوه جانغ في أتم صحته ولا تفارق الكأس الفخارية يده، وظل يفكر فيما أفضت إليه الحال، وربما بسبب الخمر، التي لعبت برأسه، كان يبغض المجتمع بكل أنظمته العقيمة، فعلى سبيل المثال العلاقة التي جمعت العائلتين طوال عامين وسبعة أشهر، كان يراها مثل نزهة قصيرة؛ ستة أشخاص تقابلوا كالغرباء وجلسوا على صخرة الملتقى يتسامرون، ثم نهض كل واحد منهم ينفض الغبار عن ملابسه، وفي النهاية مضى كل في طريقه.

وعن أسباب الانفصال لم يستطع دينغ بوه جانغ حصرها حتى إنه يستشعر غرابة فيما حدث، فلم يحدث شجاراً بين العائلتين في يوم، وإذا تطلب الأمر فلتحديد السبب الحقيقي؛ لا بد أن يحصي الأسباب على أصابع اليد الواحدة، مثل عمل تشنغ جونغ في مهنة الزجاج، وطلب تشن تشن زواجهما، وشخصية شياو لان المتقلبة... لكن لتحري الصدق، إذا كان هناك سبب للفراق، فكان السبب الحقيقي هو وكأس النبيذ.

ولم يجد دينغ بوه جانغ حرجاً في الاعتراف بأنه رجلٌ سكير! كان من الطبيعي أن يشرب عمال المصانع الكحول، كما إنه دليلٌ ساطعٌ على الرجولة، ثم أن رجلاً أرملاً رحلت زوجته، وتركته له طفلين يعتني بهما، ماذا عساه أن يفعل في ساعات الأيام الرتيبة؟ لا يمكن أن يكون كهلاً كبيراً لا يتحرك، كما إنه لا يستطيع أن يكون شاباً مفعماً بالحيوية والنشاط يركض في شارع مفترق الطرقات.

عشق دينغ بوه جانغ النبيذ عشقاً خالصاً، وكفي تتيقن من هذه الحقيقة، كل ما عليك هو أن ترفع الألواح الخشبية لفراشه وتنظر

إلى ما تحتها! كان هناك وظيفة واحدة لفراش دينغ بوه جانغ في ذهن شياو باي، وبالمقارنة بين ما كان يحدث فوق الفراش، فكان هناك أيضًا أشياء ترقد في هدوء تحت الفراش، فكروا معي في الاحتمالات التي يمكن أن نراها تحت الفراش؟ ربما أشياء غير شرعية أو هدايا حب سرّية، وربما بضائع مسروقة أو مواد مخدرة؟ لا تترك لخيالك الحر العنان وتوقف، كان تحت فراش دينغ بوه جانغ مجموعة من زجاجات النبيذ الفاخر، من ماركة "فنج جيو"، و"لاو ياو"، و"لوتشو"، و"شيفنج"، و"جيان نانتشون"، وغيرها من الماركات الشهيرة الأخرى. هل تذكر ذلك الأربعاء البعيد الذي تظاهر فيه شياو باي بالحمى، وجاء واقتحم غرفة النوم ليرى فراش دينغ بوه جانغ. كانت روائح النبيذ العطرة التي مسّت أنفه ليلتها تتصوّع من تحت الفراش!

نعم كان دينغ بوه جانغ يرى أن أفضل مكانٍ لتخزين زجاجات النبيذ تحت الفراش حتى يتعذّر وصول الضوء إليها، كما تكون في متناول يده في أي وقتٍ من الليل.

وقد استغرق الأمر الكثير من الوقت والجهد لجمع هذه الزجاجات الفاخرة، عاملاً بمبدأ "الجبل العالي يبدأ بحصواتٍ صغيرة!" جمع زجاجات النبيذ بصبرٍ شديد مثل ذواقة حقيقي واعتاد شرب أي نوع يقع أمامه، لكن كان النبيذ الفاخر يعتزّ به مثل أفضل ملابسه أو مثل مقتنياتٍ ذهبية غالية. ولا شكّ أنه تكلف الكثير من المال، لكن إذا قسمت التكلفة كما لو أننا نقسم شطيرة، فلن تكون هناك مشكلة، فكان يشتري زجاجتين في عيد الأشباح وزجاجتين في عيد قوارب التين وزجاجتين عندما يحصل على مكافأة من المصنع، فصار لديه نبيذ من سيتشوان وأنهوي وجيانغسو، حتى إنه كان يمتلك زجاجة

نبيذ عزيزة، ماركة "ماوتاي"، من الضفة الشرقية لنهر تشيشوي! لكن لم يكن أحدٌ يعلم بوجود هذه الزجاجات، فقد دسّها تحت الفراش وسط مجموعة من صناديق الأحذية الفارغة.

لكن لماذا كان يشتري كل هذه الزجاجات من النبيذ؟ لم يكن واثقاً من السبب في قرارة نفسه، وكان يشعر بالفخر نحو فراشه، وكأنه الحارس الأمين لهذا الفراش نادر الوجود، وبات يحرسه في رهبة وتبجيل. ولا شك أن شهوة النبيذ هي التي كانت تحركه، لكن ليس من أجل الشراب فقط! الأمر كان مثل شخصٍ يشتري سبائك الذهب ويدّخرها للزمن، لتكون له خير معين في الأيام الحالكة.

وتتبدل الأحوال وهذه الأيام الحالكة التي كنا نخشاها تأتي لا محالة! فلم يستطع الاحتفاظ بزجاجات النبيذ لوقتٍ طويل، ولم يكن يعلم ما تخبئ له المقادير.

وطوال عشرة أعوام لم تفارق الكأس يده، فكان يرفع الكأس الفخارية على شفثيه المتشققتين ويصبّ في فمه النبيذ اللزج ولا يتلعه على الفور، بل يحتفظ به في فمه، ويحركه يميناً ويساراً ومن أعلى لأسفل، ويتركه يداعب الفك العلوي والسفلي والخدين، لكن لا يمكن أن يكون جشعاً، فيخشى أن يبقيه لفترةٍ أطول ويتخدّر فكه، فلا بدّ أن يكون هذا اللقاء الحميم تحت رقابة صارمة، فيدفع بالنبيذ إلى الحلق ثم يسكبه في جوف المعدة، وينظر إلى هذا اللقاء الحميمي مرةً أخرى!

وكانت هذه هي الطريقة المثلى لشرب النبيذ، فلم يكن يبالي بتناول "المزة" من الفول السوداني المملح ولحم الخنزير، فكان يشعر

أنها أشياء رخيصة لا تليق بالنبذ، بل كانت "المزة" أشياء أخرى، كانت أفكار وخواطر مشوشة مثل: هل الخمر تخفف من أحزان القلب؟ وهل يمكن إشعال الحطب بالخمر؟ وهل يمكن أن تروي الخمر الأرض العطشى؟

وفي الفترة الأخيرة استولت على رأسه فكرة واحدة، وهي أن يجد وظيفة مناسبة لتشنغ جونغ، وكانت هذه الأمنية بعيدة المنال مثل حجر مربوط في عنقه لا يفارقه أينما ذهب.

وعلى الرغم من أن دينغ بوه جانغ كان مجرد عامل في المصنع، وجميع الموجودين في المصنع، رجالاً ونساءً، من فئة العمال أو المتدربين أو من العمال المتقاعدين على المعاش، إلا أن هذا لا يمنعه من أن يعلق على ابنه آمالاً عريضة، كما إنه كان يراه الطفل المعجزة!

لم يتحدث من قبل مع سو تشين عن هذه المسألة، فكان ابنه هو الثروة الحقيقية التي يتقاسمها هو وزوجته قبل وفاتها، فقد عقدا آمالاً عريضة عليه، وراحا يتنبآن له بمستقبل باهر، وكان هو محور حياتهما. ولا تفارق ذاكرته السبب الذي جعله يختار له هذا الاسم؛ في ذلك اليوم كان قد شرب آخر زجاجة نبذ، وسار وهو يترنح وأفكاره تترنح معه، وفجأة جاءت شرارة الإلهام كمثقف كبير وقال: "تشنغ جونغ"، يا له من اسم يحمل الكثير من الطموحات والنجاحات، وسيحالفه الحظ الوفير في المستقبل، وربما يتقلد منصباً حكومياً رفيعاً، ويكون منجم الذهب لكل الأسرة!

لكن الأمور لم تمض على نحوٍ وردي! فقد فشل في امتحان قبول الجامعة ولم يجد عملاً، وطوال عامين وهو يتسكع هنا وهناك حتى

نحل جسده وصار مثل عمودٍ حديدي، وذبلت يداه وقدماه وعيناه صارتا بليدتين لا تستطيعان الدوران، فكان يديم النظر إلى أشياء صغيرة لوقتٍ طويل، حتى إنه كان يقضي ساعتين جاثماً على ركبتيه يحسب عدد المرات التي أخرجت فيها السلحفاة رأسها.

وعندما كان يمسح المائدة يظلُّ يتأمل في عدد الشقوق عليها، ويستغرق هذا الشيء منه ربع ساعة.

ذات ليلة رآه دينغ بوه جانغ نائماً في صومعته، وفي يده صحيفة قديمة يعود تاريخها إلى عدّة سنوات وظل يطالعها لمدة ساعة كاملة، ولم يرفع وجهه عنها حتى جاء المساء، ثم مزّق الصحيفة وكان لديه طريقة فريدة في التمزيق؛ كان يمزق كلمةً كلمةً ويقطع العناوين الكبيرة إلى أجزاء صغيرة، ويقطع الصور إلى مربعات صغيرة ثم يجمعها ويرفع يده ويلقي بها في الهواء، وكأن السماء في هذه اللحظة تمطر ثلوجاً.

وعندما رأى ابنه على هذه الحال، تمنى لو يكون قصاصة من قصاصات الورق ويُلقي بها من النافذة! فكان من المستحيل أن تستمر الحياة على هذا المنوال! جلس حول المائدة وكان خلفه تشنغ جونج، ولم يكن موعد العشاء قد حان لكنه أمسك بكأس النبيذ وشرع يشرب.

أخذ يرشف رشفةً تلو الرشفة، وإذا بفكرةٍ تلتمع في ذهنه وأحس أنه آن الأوان، وجاء الوقت العصيب، وعليه أن يفتح الكنز الثمين المدفون تحت الفراش حتى يجد لابنه وظيفة، فالسما لا تمطر ذهباً وعليه أن يطلب المساعدة من أحد، وكانت العملة الصعبة المتاحة

في المصنع هي زجاجات النبيذ، فأَي شخص يراها سيدرك حجم التضحية التي قدمها من أجل الحصول على وظيفة لابنه، وكأنه قطع إحدى ساقيه أو إحدى ذراعيه.

وعندما أيقن أنه لا حيلة أمامه سوى تقديم زجاجات النبيذ، أحسّ أنه لن يقدر على هذه الفعلة وكأنه سيبيع أحدًا من أبنائه، فكانت هذه الفعلة كوقع خنجر مزروع في قلبه، وخشي وهو يقدمها لأحد أن تحمرّ أنفه وعيناه، وربما يعيدها مرةً أخرى، وربما يشربها قبل أن يقدمها، فلن يقدر على هذه التضحية الغالية. كان يدرك تمام الإدراك هذه المشاعر الممتزجة حيال حبه للنبيذ، ولا شيء في العالم يمكن أن يوقف هذا الحب الجارف لهذه الزجاجات العزيزة!

فَكَرَّ في سو تشين، في ذلك الوقت كان قد مضى على علاقتهما قرابة العام، فأعطاها زجاجات النبيذ لتقدمها إلى المسؤولين في المصنع، فهو لم يقدر على أن يفعلها حتى لا يتألم قلبه، كما إنها امرأة رزينة ووقورة، وكان الجميع يوقرونها بسبب مظهرها الأنيق والجاد، ودوماً كانت تبدو هي وزوجها المهندس مختلفين عن بقية عمال المصنع، ولا شك أنهما على علاقة بأشخاص رفيعي المستوى من قيادات المصنع العليا.

سؤال حائر ظلّ يتردد في ذهنه، وهو: رغم أنها تختلف عنه تمام الاختلاف، فلماذا تولد بينهما كيمياء من نوع خاص؟ لكن ظل السؤال حائراً من دون إجابة. فلا يزال يتذكر عندما التقاها للمرة الأولى، وحتى قبل أن ينتهي من شرح كل ظروفه الاجتماعية، هزت رأسها موافقة على العرض وقَبِلَ هو أيضاً. وقد اندهش يومها من جرأتها واندفاعها وأحس أنه لا بدّ من اغتنام الفرصة، ولا يجعلها تفلت من بين يديه، فهي امرأة جميلة ذات وجه حسن وعود ملفوف، ولديها ابنان لا يمثلان أدنى مشكلة، فيمكنها أن تتذرّع بالخروج لشراء أغراض، وسرعان ما أعرب لها عن موافقته خشية أن تضيع الصفقة الرابحة من يديه.

وبدا يتساءل عن السبب في قبوله، لكنه لم يستطع أن يسألها مباشرة، فخشى أن تجيبه إجابات عشوائية! فقد كانت امرأة جادة ولا

يمكن التنبؤ بردة فعلها، لكنها كانت خبيرةً في شؤون الفراش حتى إنها جعلته يتوهم أنها شغفت به حباً، وإلا لماذا تكون بهذا الشوق وهذه الحرارة فوق فراش الهوى!

وكان هذا يكفيه، فهل يطمع في أكثر من هذا؟ هزّ رأسه بلامبالاة وقد توصل إلى نتيجة منطقية، وهي أنه لا بدّ أن يكلف سو تشين بتوظيف ابنه، فهي أنسب شخص لهذه المهمة، ومن الواجب عليها أن تسدي له هذا المعروف، ألا تبدو دومًا في عيون الآخرين امرأة راقية وأنيقة تختلف عن بقية عاملات المصانع؟ فلا بدّ أن تؤدي مهمةً على ذات القدر من الأناقة والرقي!

وبدأ العرض الساخر! في يوم خميس بعد قضاء الليلة معاً، ركض وراءها وهي تستعد للعودة إلى البيت، حاملاً حقيبة ثقيلة وكأنها مملوءة بسبائك ذهب، وقال:

- هذه زجاجة ماركة فنغجيو وهذه شيفنغ، أما هذه فجيان نانتشون! كان يتحدث وهو يربت على الحقيبة برفق، من دون أن ينظر إليها. فسألته بدهشة:

- ماذا أفعل بها؟

وبعينين نصف غائمتين، وهو يربت على الحقيبة برفق، قال:

- من أجل حصول ابني على وظيفة! ليلة أمس ذكرت لك عدّة أسماء، أعط لكل شخص منهم زجاجة.

- لا يمكن أن أفعل هذا!

في ليلة أمس ذكر عدّة أسماء لكنها لم تفهم السبب.

ومن أجل إقناعها كشف لها عن البطاقة الأخيرة الرابعة التي يمتلكها وقال:

- خذوها! انظري إلى عددها وماركاتها! ولا تنسي أن تخبريهم أن ابني معجزة حقيقية، وينبغي أن يحصل على وظيفة مرموقة! نعم، إنه بالفعل طفل نابغة! أنا وأمه كنا نعرف هذا الشيء، أنا أتحدث معكِ بصدق!

ووسط خيوط نور الصباح تراءى له مشهدٌ بديع، وكأنه جوادٌ يعدو ويشير الغبار، وراح يستحضر ذكريات كاذبة مثل سرابٍ خداع: في عامه الأول تعلّم العدّ، وفي العام الثاني طالع أشعار باي، وفي العام الثالث حفظ أشعار تانغ، وفي العام الرابع طالع الصحف، وطالع كتب العام الرابع في العام الثالث، وفي الصف الأول الإعدادي اجتاز امتحانات الصف الثاني... هل تفهمين أنه ليس طفلًا عاديًا وينبغي أن يحصل على عمل مرموق! هو جوادٌ أصيل يسبق الجميع، ويومًا سوف تعتمد الأسرة عليه.

ثم قال:

- أمه لم يحالفها الحظ لترى نجاحه، لكن أنتِ وشياو لان وشياو باي يمكنكم أيضًا أن تستفيدوا منه، سنصعد جميعًا على أكتافه ويأخذ بأيدينا ونركض إلى البعيد البعيد! ثقي بي.

فأمسكت سو تشين بالدراجة وضغطت على الدواسة، ولم تأخذ كلامه على محمل الجد، ورغبت في المغادرة بأقصى سرعة، فهي لا ترغب في سماع هذه السخافات، ورنّ صوتٌ في أعماقها: هل صار جميع الأبناء معجزةً في هذا العالم؟ وحاولت أن تدفع الدراجة في طريق العودة إلى البيت.

ظَلَّ ينظر إليها ورائحة النبيذ تفوح عبر الريح وقال:

- منذ أن ماتت أمه صار عديم الفائدة. أنا أتألم من أجلها، فقد وعدتها أن أجعل منه شيئاً عظيماً، ولا بدّ أن يحصل على مثل هذه الوظيفة. هل ستحدّثين معهم؟ لا بدّ أن تتحدّثي معهم بشأن الوظيفة.

حاولت أن تتذكّر أسماء الموظفين الذين ذكرهم ليلة أمس، لكن كان ضرباً من الخيال. فكيف لهؤلاء الموظفين أن يقدموا يد العون لتشغ جونغ؟ هل سيقبلون هذه الزجاجات؟ ثمّ كيف تذهب وتتوسّط لابنه وتكشف عن علاقتهما السرية أمام الجميع، فأحسّت أن هذه الفعلة تفوق قدراتها.

نظرت إليه وهو يتحدّث فأدركت أنه في حالة سكرٍ تامة، وأي شخص يقف أمامه سيتحدّث إليه بمثل هذا الحديث، وكى يعبر عن أبوته الحقيقية فلا بدّ أن يضحى بزجاجات النبيذ العزيزة على قلبه. ومن أجل الهروب من هذا الموقف العصيب، كان عليها أن توافق على طلبه، فتناولت منه الحقيقية، وانطلقت في طريقها كالبرق.

ركض خلفها عدّة خطوات، فكبرَ ظلّه المهلهل وبدا مثل جدارٍ كبير، وفي نور الصباح نحل ظلّه ثم كبر، وامتد بلا حدود عبر الزمان والمكان، وراح هذا السكّير -الذي تنازل عن زجاجات النبيذ الغالية- ينتظر وظيفة مرموقة لابنه، وأحسّ أنه في الفترة الفاصلة بين اللحظة والغياب عن الوعي ستكون المسألة قد حُسمت، وحصل ابنه على الوظيفة الموعودة، فأبصر المستقبل الباهر في شارع مفترق الطرق، بعد أن كانت الكلاب والخنازير تعيش حياةً أفضل من حياتهم!

لاحت على وجهه ابتسامة تنم عن ثقة تشبه ثقته الكبيرة في النبيذ
وسرّها اللاذع، فكانت كما الفئار يهديه دوماً وهو يمضي على دروب
الحياة.

لكن سرّ النبيذ اللاذع لم يكن مجدياً، بأي شكل من الأشكال،
في الحصول على وظيفة لتشنغ جونغ، وعلى غير المتوقع هبط الخبر
على رأسه وهو على مائدة عشاء السبت، وإذا بتشنغ جونغ يعلن أمام
الحضور بصوت أجش، وكأن عصا معدنية محشورة فيه، ويقول:

- قد وجدت وظيفة في مصنع الأنابيب الإلكترونية.

فحدّق النظر فيه وكأنه ينظر إلى قنبلة موقوتة وقال بصوت شبه
ميت:

- ماذا يعني هذا؟

- سأعمل عامل نفخ زجاج في الورشة رقم إحدى عشرة، سأعمل
كمندوب لمدة ثلاثة أشهر، وسأقدم الاثنين المقبل تقريراً إلى قسم
شؤون الموظفين.

قال وهو ينظر إلى سو تشين، أو ربما نظر إليه جميع الحضور،
فيما عدا سو تشين، وبالطبع لم تكن إهداء زجاجات النبيذ سرّاً يخفى
على أحد، فقد اختفت جميع الزجاجات من تحت الفراش في الأشهر
الآخيرة، وكان هذا هو سبب اكتئاب دينغ بوه جانغ وتقلّب مزاجه.

فسأله متحققاً وكان على يقين أنه يكذب:

- كيف وجدت هذه الوظيفة؟ نافخ زجاج؟ ما هذه الوظيفة؟ هل
هذه مهنة حقيقية؟

فأجاب ببرودٍ بالغ:

- كان الإعلان موضوعاً على باب المصنع ولم يتقدم أحدٌ للوظيفة، فذهبتُ وتقدمت.

لم يكن تشنغ جونغ يعرف ماذا يعني نفخ الزجاج، لكنه لم يجد مشكلةً في الأمر، فيستطيع أن يتدرّب على هذا العمل حتى يتقنه.

فجأةً عاد دينغ بوه جانغ إلى الوراء، وكأن شخصاً سدّد إليه مائة لكمة، ورفع الكأس الفخارية وأخذ يشرب، واندفع نحو سو تشين قائلاً:

- هيا نشرب نخبك! قد خفّف عنك الحمل ووجد عملاً بمجهوده الشخصي! هل سمعتِ ماذا قال! سيكون عامل نفخ زجاج! وسرعان ما نهضت واقفةً فانقلب الكرسي، وقالت بتردد:

- في الواقع...

رفض أن يستمع إلى حديثها، ورفع كأسه بقوة، فانسكب النبيذ على ياقة قميصه وارتعشت شفتاه، وإذا به يذرف الدموع الحارة، فغاصت المائدة كلها في حالةٍ من الحزن والكآبة. صفقت تشن تشن، ربما لأنها كانت سعيدةً بحصول أخيها على وظيفة، أو ربما لأن بكاء أبيها أثار حماسها، بينما أحسّ شياو باي بالخجل، وأغلقت شياو لان عينيها قدر المستطاع، ولم تكن تدري ماذا يمكن أن تغلق أيضًا!

وعندما سالت دموعه أحسّ بقوة تدبّ في أوصاله، وراح يحملق في كأس النبيذ وانبثقت في جوفه مشاعر فوّارة، وإذا به يكتشف أنه بدأ يكره سو تشين.

هل كان يحسُّ بالحرج من أن يقرَّ بأنه لم يكن واثقًا من نجاح هذه العلاقة؟ واستبدَّ به هذا الشعور عندما قبلت أن تقيم معه علاقةً عابرة، ثم رفضها - بشدة - الإعلان عن هذه العلاقة أمام الجميع، متظاهرةً بأنها امرأةٌ شريفة تحافظ على سمعتها؟ لكن الحقيقة أنها كانت تحتقره وتستهين به. ولطالما كان يبحث عن سبب ليكرهها من أجله، والآن قد وجد هذا السبب، لكن لم تصل الكراهية حدَّ الذروة، إلا عندما أعادت إليه زجاجات النبيذ، وكانت الزجاجات على حالتها الأولى حتى الغلاف الورقي لم يُفتح! ومرةً أخرى عانقته رائحة النبيذ الفوّاحة بحنانٍ دافق، ويبدو أنه بكى مرةً أخرى، فاشتعلت ثورة الغضب في جوفه مثل شخصٍ كان مقبلًا على الانتحار وأنقذوه في اللحظة الأخيرة، وانتظر حتى تفسَّر له الأمر وقلبه يضطرب بين ضلوعه، وسألها:

- ماذا حدث؟ ماذا حدث؟

فتحدّثت بنبرةٍ جادة، ويبدو أنها لم تحسب عواقب الأمور قائلةً:

- في الواقع لم أعطها لأحد، ولم أهدها لأي شخص! أنا أعلم أنه ليس في مقدرتهم تقديم المساعدة، وإذا طلبت هذا الطلب من أحد، سيجيبني قائلاً: ماذا يمكن أن يعمل طالبٌ في الثانوية العامة، إذا لم يكن عاملاً، فماذا عساه أن يكون؟

ثم نظرت إليه باحترام، وكانت عيناه تلتمعان مثل كرتين من الزجاج، وقالت:

- كما إنني أعلم حبك الكبير لهذا النبيذ!

هل سمعتِ أيتها السماء؟ لم تهدِ سو تشين زجاجات النبيذ لأحد! لم تكلف نفسها حتى عناء الذهاب لأحد منهم أو تبذل جهد طلب المساعدة! وتركت تشنغ جونغ يصبح عامل نفخ زجاج لا قيمة له! أما ما قالته عن عشقه لزجاجات النبيذ! فهذا يبرهن على أنها لا تعلم شيئاً على الإطلاق!

كان قلبه مثل حجر نرد يتدحرج على أرض خرسانية في كل نحو من الأنحاء. قد دمرت تلك المرأة مستقبل عائلته ومستقبل تشنغ جونغ! بعد أن كانت الدلائل ساطعةً وتندر بأنه طفلٌ معجزة، وعقدت الأم المصابة بسرطان القلب آمالها عليه وهي على فراش الموت، فلم يكن مثل تشن تشن، التي لا جدوى منها على الإطلاق! ومن حسن حظ أمه أنها ماتت ولم تر ما وصلنا إليه من أحوال!

لكن كيف يعلّق آماله على سو تشين؟ كيف يعلّق آماله على امرأةٍ بديلة؟ فقد نسى الحقيقة بأنه لا يوجد شيءٌ يمكن أن يضاهي الأصل، فهل تركيب زرٍّ جديد على قميص يمكن أن يكون مثل الزر القديم! فالأصل دومًا يربح! ومن الخطأ أن يتوقع أن سو تشين مثل زوجته! لكن هل يفترقان ويتركها بطريقةٍ رخيصة؟ لا! لن يكفّ عن إطعام ولديها أشهى الأطعمة واستغلال جسدها أقصى استغلال! حتى تظنّ أنه يشعر بالامتنان نحوها، فهذا أفضل انتقام! أليس كذلك؟

أما عن عودة زجاجات النبيذ، فكانت مثل عودة الأموات إلى الحياة! فسيشربها حتى ينتشي قلبه. فابتسم ونوى أن يغيّر موقفه حيال هذه الزجاجات الغالية، ويقبلها بحنان ويشربها كلها ويحولها إلى بول.

وعندما سلّم لهذه الفكرة، تناول منها زجاجات النبيذ بلطف وفتح زجاجةً وجلس بجانب المائدة مثل المسمار، وشرع يشرب بلا هوادة وهو يستمتع بالكراهية السوداء التي تنهش صدره بسبب سوتشين.

وبعد شرب ست كؤوس نظر إليها وكانت مستلقيةً على الفراش، وإذا بعينه تحتقان بالدماء، وغضب محموم يشتعل في جوفه، وتأثير الكحول يعمل داخله، وكأنه على وشك أن يريها أشياء لم ترها من قبل! أغلقت عينيها وكأنها تتأهب لاستقبال أقصى عقوبة، لكن أطرافها كانت تعبر عن احتقارها وكأنها تتحدى هذا المجنون ولا تهابه.

همس صوتٌ في أغواره: من المستحيل أن تكون هذه المرأة ملكي في يوم من الأيام، والفترة التي قضيتها معها أشبه بالطعام الذي سيسكب عاجلاً أم آجلاً في سلّة النفايات!

وبعنفوانٍ شديد ألقى بالكأس الفخارية، فتدحرجت على المائدة عدّة مرات، وكأنه يتدرّب عما سيلقاه من متاعب ومصاعب في سنين العمر القادمة.

(٣)

كانت هذه الجلسة، بصحبة الخمر، لها وقع خاص في نفسه، لا يمكن أن تبرح ذاكرته يومًا، لأنها كانت السبب في انفصاله عن سو تشين، كما أنها حولته من مجرد سكير عادي إلى شخص سريع الغضب، يتعدى على من أمامه بالضرب، ولا شك أن هناك فئات لشاربي الخمر.

كان يشرب النبيذ من سويشي بمدينة خوايبي بمقاطعة آنهوي، وقد أجرى بحثًا عن هذا المكان، كما كان يجري بحثًا عن كل المناطق التي يشتري منها زجاجات النبيذ. وكانت سويشي تتمتع بميزة فريدة عن غيرها، حيث كانت منطقة تعدين الفحم، وقد أمر الزعيم "ماو تسي دونغ" بضرورة السيطرة على نهر خواي، وتقسيمه إلى روافد صغيرة وبناء سدّ فوقه. وفي الشتاء، كانت مياهه تجفّ، لكن كانت نوعيتها جيدة وتحتوي على الكبريتات، ومثلها مثل المياه ذات المذاق المرّ التي تنتج أنواع جيدة من الكحول. وقد خرج من هذه المنطقة اثنان من أشهر شاربي الخمر في التاريخ، وهما "جي كانغ" و"ليو لينغ"، وبالطبع لم يكن يعرفهما معرفة شخصية، كل ما هنالك أنه يعرف اسميهما فقط، لكن ثلاثتهم كانوا مثل إخوة، فاتبع طريقتهما واختار نبيذ ماركة "كوتزياو"، ومن الرشفة الأولى تخدّر فكه ولسانه وأسنانه، وعندما ابتلعها أحسّ بوخزٍ في فكه، وكأنه تغرغر بغسول فم لاذع! ثم

فتح فمه فانبعثت منه رائحةٌ نفاذةٌ قابضةٌ واجتاحت الغرفة، بدأت من المائدة وامتدت حتى طالت الباب والنوافذ وشقوق الجدران.

شرب ليلتها ثلاث كؤوس وكانت المَزَّةُ في غاية الغرابة.. كان الحديث عن وثيقة الزواج! وتشن تشن هي من أثارت هذا الموضوع. في مساء السبت انتهت من عملها وعادت لتناول العشاء معهم، ومن دون سابق إنذار اقترحت اقتراحًا جادًا:

- أمركما غريب جدًّا، لماذا لا تتزوَّجان، ونقيم حفل زفاف لتصير العلاقة رسمية!

ولم يكن قد مضى مدَّةٌ طويلةٌ على تحالف الأربعة، وكان اقتراحها يؤكِّد على أن هناك علاقةً بينهما. جمد الجميع ولم يعرها أحدٌ اهتمامًا، وانشغلوا بتناول الطعام ثم أردفت، بعدم اكتراث لمشاعر أحد، وقالت:

- كل أسبوعٍ يقيم في الفندق حفل زفافٍ صاخب، حتى العروس القبيحة عندما ترتدي فستان الزفاف لتصير جميلة!

عقد الجميع لسانه عن الكلام ولم يأتها ردٌّ من أحد! ثم قالت:

- أظنّ أن العروسين في منتصف العمر لا يقيمان حفل زفاف، تزوَّجا ونحن لن نمانع!

تحدّث وكأنهم أعطوها تفويضًا للحديث نيابةً عنهم، ولا أحد كان يعلم ماذا يدور في عقل هذه الفتاة!

أوشك الجميع على الانتهاء من تناول الطعام وسرعان ما تفرقوا. وكالعادة مضت سو تشين لتجلي الصحون في عجلةٍ، فكان عليها

العودة سريعًا إلى البيت لتحضر لشياو لان الطعام، لأنها بقيت هناك لتراجع دروسها، وقد تحمّل دينغ بوه جانغ مشقة أن يعدّها لها من كل صنف طبقًا، رغم أنه كان يعلم أن شياو لان لن تشكره على فعلته. وسمح لنفسه بالنوم وظنّ أن كل شيء على ما يرام مثل عشاء كل سبت، ولم يكثرث أحدًا إلى ما قالته تشن تشن.

وعندما وصلت سو تشين إلى الباب وشرعت ترتدي حذاءها وهمت بالمغادرة، نظر إليها وسألها بنبرة تشي بالتحدي والدعوة في آن واحد:

- ما رأيك، هل نتزوج؟

رأى ساقها تتحرك بشكل غير طبيعي، فأحسّ بالقلق وخشي أن يكون كل شيء على وشك الانتهاء، والفراق صار وشيكًا، والغد الحزين قادمًا لا محالة!

نظر إلى باب غرفة ابنه فلم يسمع صوتًا، ومدّ بصره إلى صورة زوجته المعلقة على حائط غرفة المعيشة، وكانت زوجته لا تزال تنظر إليه بهدوءٍ ووقار. لم تجبه سو تشين فرنّ صوتٍ خافتٍ في أغواره يقول: قد أحب اقتراح تشن تشن، ومن الأفضل أن يجعل العلاقة رسمية ويحصل على وثيقة الزواج، وحينها سيطمئن قلبه ويتيقن من نجاح هذه الصفقة.

اهتزت الساق الأخرى، ثم أبدلت الحذاء الذي انتعلته بالخطأ، وبهدوءٍ شديدٍ أجابته:

- هل تشعر أننا متوافقان؟!

ثم أغلقت الباب ومضت من دون أن تلوّى على شيء.

وبينما كان يتذوق طعم كلماتها، تذكر طعم الفول السوداني النيء اللاذع. شرب ثلاث كؤوس أخرى وسرعان ما فهم قصدها عندما سألته: هل نحن متوافقان؟ هو بالفعل يوافقها الرأي بأنهما شريكان غير متوافقين. هل تظن أنه بالفعل يهتم لأمرها؟ هل يمكن أن يفترق عنها بهذه السهولة؟ وإذا تطلّب الأمر ربما يتركها في الغدا! لكن هل سيحتمل هذا الفراق؟

بدأ النبيذ يلعب برأسه، فقد انزلق لهيبه إلى حلقة ثم بلغ معدته وأمعاءه، ثم اندفعت موجة من الهواء الساخن حتى بلغت عينيه، فاستحالتا إلى اللون الأحمر. تأمل صورة زوجته وطافت به ذكريات من الماضي، واستحضر أيامهما وأسرتهما المكونة من أربعة أفراد، وفكر في الحياة الغريبة التي يعيشها الآن.. آه، كم الحياة قاسية وصعبة!

وبخ نفسه ونوى ألا يكون رجلاً أحمر، ويترك نفسه لمثل هذه المشاعر السلبية وهو بصحبة زجاجة نبيذ حلوة مثل هذه، ورفض أن يشعر بالأسف على نفسه، وسرعان ما صبّ في جوفه ثلاث كؤوس أخرى، ومع كل كأس كان يقيس بدقة مقدار الخمر الذي يسكبه، ثم أسند ظهره إلى الكرسي فأحس أن جسده صار مثل وعاء مملوء بالخمر، وارتجفت سائر أعضائه.

سار مترنحاً ناحية نافذة غرفة المعيشة، وكان بوسعه أن يرى مشهداً اعتاد رؤيته مثل الخمر الذي يشربه كل يوم: مدختان طويلتان و برج مياه يجلس بجانبهما مثل مثلث بزاوية منفرجة. كان برج المياه القصير الممتلئ مبنياً من الطوب الأحمر الداكن، فبداله مثل وجه امرأة عجوز تديم النظر إليه. كانت المدختان مختلفتين بشكل ملحوظ، ويظهر هذا الاختلاف في الدخان المتصاعد. تنتمي المدخنة الأقصر

إلى مصنع الأسمنت وينبعث منها ضبابٌ خفيفٌ طوال اليوم، وعندما تشرق الشمس يتلاشى الضباب. وكان الضباب هو رماد الأسمنت الناعم الذي يخترق البيوت ويتدسّس إلى كل زاوية، ويكون طبقة تلو الأخرى من الغبار، وعندما يعود العمال إلى بيوتهم ويمسحون بأيديهم على الطاويلات، أو يحملون اللحاف الذي علّقه في الهواء صباحًا، أو يمسكون بوعاءٍ من الخبز، يرون طبقةً رقيقةً من الغبار تشبه "الشفون" تغطّي كل شيء مثل قطعة من "الشفون الناعم" يحجب عروسًا خجولاً عن العيون. أما المدخنة الأخرى فكانت شديدة الحرارة ولا تعمل إلا في المساء، وفي الوقت الذي انتهى فيه دينغ بوه جانغ من العمل، كان دخانها الأسود الفاحم يرتفع في الهواء ويتنشر على شكل خصر امرأة رشيق.

أحبّ الوقوف أمام النافذة وهو يحملق في المشهد من أمامه، وكم كان يحبّ المكوث أمامها وخاصةً وقت الأصيل والشمس تنوي الرحيل، وعندما كان يسمع الشباب مضجرين من منطقة المصانع ويعبرون عن استيائهم من الجهل المتفشّي فيها، ويصفونها بأنها منطقة قديمة الطراز، كان يستشيط غضبًا، فكان يشعر أن ما من مقارنةٍ بينها وبين أي مكانٍ آخر؟ فكانت في نظره أجمل مكانٍ في العالم، وكل شيء فيها يشبهه. كان دينغ بوه جانغ مثله مثل الكثيرين الذين أفنوا عمرهم في منطقة المصانع، وراحوا يعملون ويتجولون ويخوضون سباقات العمل، ولا يمكن أن ينسوا المعجزات والإنجازات التي صنعوها، والحياة المفعمة بالعمل والنشاط والجِدّ والاجتهاد.

وبعد رحيل شمس الأصيل إلى المغارب، أسدل الليل ستاره الأسود واختفى الدخان الرمادي وبرج المياه ذو اللون الأحمر عن

الأنظار، وحلّت محلّهما السنة نيران حمراء متوهجة، وكان مصدرها مصنع البتروكيماويات، الذي كان يتخلّص من النفايات لسنوات عديدة ويحترق بلا جدوى من الصباح حتى المساء، مثل شخصٍ يحمل شعلَةً لا تنطفئ، ويتقاضى أجرًا ويجب أن يحافظ عليه إلى الأبد. حدّق النظر في الشعلة، فتوهجت النيران أكثر فأكثر حتى صارت الشعلة وكأنها قلب المصنع، وأضرَم فيه النيران. وكان على يقين تام أن هناك أشخاصًا كثيرين مثله، يقفون في زاويةٍ أمام النافذة ويفرّكون عيونهم الزائغة وهم ينظرون إلى الشعلة المتوهّجة.

وبينما كان يقف أمام النافذة، اجتاحتَه مرةً أخرى موجةٌ من الأحزان عندما تذكر ابنه تشنغ جونغ، فقد ذكرته شعله المصنع به، شعله متأججة استحالت فجأةً إلى حريقٍ هائل في ورشة نفخ الزجاج! ورآه بعين خياله وهو ينفخ الزجاج بيدين عاريتين، وشظايا الزجاج الناعمة تتطاير بشكلٍ يشير الاشمئزاز.. سيبدأ من مجرد متدرّب حتى يصير "أسطى كبير" ثم عامل نفخ مُسنّ، وتتسخ ملابسه ويطلق لحيّة كبيرة من دون تهذيب، ويكتنز جسده بالشحم مع مضي الأيام، ويصير أصلع ويصبح مثل أبيه سكيرًا كبيرًا، ويقف مثله أمام النافذة يحدّق في منطقة المصانع والفحم يحترق والأدخنة تتصاعد دوائر في الهواء، فلم يستطع احتمال هذا المشهد، وكأنه كان واقفًا أمام المرأة ينظر إلى ابنه، وينظر كيف ستبدو حالته بعد عشرين عامًا، وكيف سيغدو حاله ويصبح شخصًا آخر لا يعرفه، ورأى ابنه في المرأة يحدّق فيه بحدّة، فأحسّ بمخزٍ يغرس في قلبه! فكان يمكنه أن يتقبّل أي شيء يحدث له، لكن الشيء المأسوي الذي لا يمكن أن يحتمله، هو أن يرى ابنه، الطفل المعجزة صاحب المستقبل الباهر، على هذه الشاكلة!

راح ينظر من النافذة في حالة من الذعر، وفجأةً أحسّ بالعطش، فاستدار وألقى بنفسه على الكأس الفخارية الموضوعة على المائدة، وراح يشرب مثل رحالة ارتحل منذ سنواتٍ طويلة وأصابته حمى شديدة.

بدأت واقعة الضرب لابنه منذ أن شرع يشرب زجاجة "كوتزهياو"، لكن لقول الصدق، لا يمكن أن نلقي باللوم عليها وحدها، وعلينا أن نقرّ أن العنف هو منحةٌ أخرى يمنحها الإسراف في شرب الكحول لصاحبه.

وعادةً تصاحب هذه المنحة انتفاخ العينين والصداع ومرارة في الفم وألم الأسنان، ومثل هذه الأعراض لم تكن غريبةً عليه، لكن الشيء الغريب هو ما حدث لذراعيه وقدميه، فجأةً استطالت وصارت متيبسةً وصارت ترتجف مثل طفلٍ صغير يرتجف، وفقد القدرة على إحكام قبضته على الأشياء، حتى معجون الأسنان عجز عن أن يضعه على الفرشاة! وتطلب منه الأمر وقتًا طويلًا حتى يجمع شتات نفسه.

النيذ ضيفٌ عزيز وكان يستقبله بحفاوةٍ على مائدة عشاء عامرة بأشهى المأكولات، ثم يتركه بعد ذلك في حالةٍ من الإعياء الشديد ومن البكاء والتقيؤ، لكن هل هذه الأشياء كانت تزعجه؟ لا، فقد استسلم دينغ بوه جانغ لآثار الخمر، على الأقل كان يجد فيها الخلاص من الشكوى والضجر من أحداث الماضي.

جلس مثل مزهرية فخارية كبيرة، منتصبيةً بفخامةٍ لا تقدّر بثمن، وقد اصطبغت أعضاؤه الداخلية باللون الأزرق والأرجواني، وراحت تنبسط وتنقبض وتتأرجح في حالةٍ من التخبّط واليأس، بينما ذهببت تشن تشن لتغيّر الشراشف المتسخة وتنظّف دورات المياه في الفندق.

خيّم السكون على البيت، ولم يكن هناك شيء لافتٌ للانتباه، سوى باب موصل ينال خلفه تشنغ جونغ.

أخذ يحملق في الباب بتركيز شديد كأنه يشاهد شاشة تلفاز، لا يعرض عليها فيلم أو مسلسل أو نشرة الأخبار، بل يعرض عليها فيلمٌ من هونغ كونغ للفنون القتالية، وكلما نظر إلى الشاشة تأججت ثورة الغضب في جوفه. يا للسماء كيف تمرّ الأيام رتيبةً إلى هذا الحد! أليست هذه الرتابة بسبب هذا الابن المستفز؟ أليس بسببه غرق في هذه الحالة من اليأس؟ أليس بسببه يتألم من أجل أمه؟ لولاه لما أحسّ بالكراهية نحو سو تشين ولما سبح في بحور الخمر، فهو سبب شقاء هذا الرجل في الحياة!

وإذا به يصيح عاليًا:

- اخرج لي!

لم يخرج تشنغ جونغ وظلّ الباب موصلًا، ففار دمه واستوى واقفًا يستجمع كل ما أوتي من قوة، ويرفع قدمه ويركل باب الغرفة بقسوة! يبدو أن الباب كان يعمل بطريقة آلية، فانفتح من دون أن يحدث صوتًا وبدقةٍ شديدة، حتى أن تشنغ جونغ لم يسقط وظهر رأسه الحليق (متى حلق شعره؟ لم يخبرني أنه حلقه. إنه يبدو مثل المسجون). لم يتفوّه بكلمة، بل وقف يُمعن النظر في أبيه، وإذا كان دينغ بوه جانغ رأى نظراته، لأدرك أنها نظرات مليئة بالشفقة والازدراء.

- ماذا تفعل عندك؟ دعني أدخل! أريد الدخول والجلوس في الشمس.

فابتسم له وخرج وأغلق الباب ووقف أمامه، وكأنه يقول له "على جثتي ستدخل!"

وسرعان ما انتقلت القوة من قدمه إلى يده، فقوّس يده وصفعه على وجهه، فأحدثت الصفعة دويًا كبيرًا، كما لو أنه يُخيف نفسه بهذه الصفعة. وسرعان ما احمرّت وجنته ولاحت الدماء من زاوية فمه، وكأننا صرنا أمام مشاهد أفلام الفنون القتالية. مسح تشنغ جونغ فمه وراح ينظر إلى قطرات الدماء، فهزّ رأسه مبتسمًا بسخرية، وقال:

- لعبت الخمر برأسك! هل لديك المزيد منها؟ هيا اشرب المزيد! أحسّ دينغ بوه جانغ أن سخرية ابنه من أن الخمر أفقدته عقله. إنه أمرٌ منطقي جدًا، لكن كان لديه المبرر ليشرب حتى الثمالة.

وهكذا بدأت الصفعة الأولى ولم تكن صفعةً قويةً بالقدر الكافي، لأنه كان لاعبًا جديدًا في اللعبة، وكانت الصفعات رتيبةً حتى إنها لم تصاحبها أي شتائم، فقبل كل صفعة كان دينغ بوه جانغ يهزّ رأسه وكأنه يتفق مع ابنه مسبقًا على مكان الضربة، ويقول له ما رأيك أن تكون هنا؟ هنا على اليمين؟ أم هنا على اليسار؟

وضع تشنغ جونغ يديه على وجهه حتى يتفادى الصفعات، وانحنى بجسده وبدا وكأنه إلهٌ يحرس صومعته الصغيرة، وفي بعض الأحيان كان يستدير بظهره حتى يتفادى ضربات أبيه.

كانت صفعات من دون إيقاع محسوب، تنمُّ عن علاقة حميمة بين الأب وابنه. ترنّح تشنغ جونغ حتى وصل إلى الباب، بينما مدّ دينغ بوه جانغ لسانه المتصلّب ولحق قبضة يده المتورّمة وهو يعبس إلى

صورة زوجته، فسمع صوتًا في أعماقه يتساءل: هل هو ذلك البلطجي الذي ضرب ابنه منذ قليل؟ كيف يضرب ابنه هذا الضرب المبرح؟ فإذا صُفّع جميع الأبناء، لا يمكن لهذا الطفل المعجزة أن يُصفّع مثل هذه الصفعات، فهو أكثر شخصٍ يحبه في الحياة!

وكانت الليلة الأولى التي تُوقظ فيها الخمر الوحش الكامن في أعماقه، ثم غطّ في النوم وقد اجتاحتته موجةٌ أخرى من الخدر والأحزان، جعلته يقضي ليلةً جهنميةً من العذاب.

وهذه الليلة الليلاء لا بدّ أن تخلد في ذاكرة التاريخ، فمنذ تلك الليلة صار الحوار بين الأب وابنه شبه معدوم، وصار الضربُ لغةَ الحوار، حتى صار اللغة الرسمية بينهما. كانت الضربات تقع من دون أدنى مبرر، مثل التحيات والسلامات الروتينية، التي يُلقى بها الناس على بعضهم بعضًا، أو مثل تناول الطعام، يحدث من دون سببٍ أو مبرر!

وبعد مضي السنين توفي دينغ بوه جانغ، وكلما فكّر تشنغ جونغ في أبيه شعر بحكةٍ في ظهره، فكم كان يتوق ليتواصل عبر الزمان والمكان ويمسك بيد أبيه ويحركها على ظهره، كم من أوقات تمنّى فيها أن يعود ويضربه كما كان يفعل في الماضي! ولم يكن هذا بسبب اشتياقه إليه فقط، بل كان أيضًا شعورًا بالامتنان نحوه، فلولا هذه الضربات والصفعات، لما ركض وهرب إلى شارع مفترق الطرق، والتقى بشياو لان في ذلك الطريق وهي عائدةٌ من الدرس الخصوصي في المساء، ولولاه لما دقّ الحب باب قلبه، ولما عرف معنى الحب بكل أفراحه وأتراحه وبكل عذاباته وآلامه. وخلال لقاءاتهما السرية التي كانت تفحص فيها الضربات والكدمات وتداويها رغم أنها كانت

إصابات طفيفة، لكن بعد كل لقاء كان يتيقن من حقيقة واحدة، وهي أن شياو لان تحبه وتهتم لأمره!

والشيء المؤسف هو أن دينغ بوه جانغ لم يكن يعلم أنه يلعب دور كيوبيد الحب ويلقي بسهام الحب في قلوبهما! وقد حاول الجميع، بعد حادث شارع مفترق الطرق، أن يسرد التفاصيل ويقدم الاعتذارات، فيما عدا هو؛ لأنه وقتها كان قد رحل وانقطعت كل صلة له بالحياة، لكن حتى لو كان يعلم أنه هو من جمع بين قلبهما، وحتى لو كان لا يزال على قيد الحياة، سيختار أن ينسى الأمر بكامل إرادته. وكانت هذه طريقة تعامله مع العديد من الأشياء، وفي مناح كثيرة من الحياة سلك نهجاً محدداً، على سبيل المثال مشهد الفراق بينه وبين سو تشين، كانت كل لحظة فيه واضحة مثل فيديو عالي الجودة وشديد الدقة، لكنه نوى أن يدير ظهره لما حدث وأن ينسى كل شيء ويبدأ من جديد.

(٤)

كالعادة، في مساء الأربعاء، مضت إلى هناك، وعلى مهلٍ شرعت
تبدّل ملابسها وهي تقول بحسم:

مكتبة - الليلة ليلتنا الأخيرة على هذا الفراش!
فأسبل جفنيه قائلاً:

t.me/soramnqraa

- ليلتنا الأخيرة؟

وسرعان ما فطن أنه حان وقت الفراق.. أليس هذا ما كان يشغل
باله في الفترة الأخيرة؟ لكن كيف لمثل هذه المرأة الأنيقة أن تعلن أنها
الليلة الأخيرة على فراش الهوى بمثل هذه القسوة؟!

فأومأت برأسها وكأنها تدرّبت على هذه الإيماءات والحركات
من قبل، أو ربما منذ اللقاء الأول وهي تتأهب لهذه اللحظة.

حاول جاهداً أن يفتح عينيه وكأن الريح عصفت بهما، وقال
والدموع تطوف في عينيه:

- نعم كنت أنتظر هذه اللحظة منذ وقتٍ طويل، أعلم أنه آن الأوان
لنفترق وما عدت تطيقين الانتظار.

كرّرت ما قالته بلهجةٍ تشي بالدهشة:

- هل كنت تنتظر؟

- بالمناسبة إذا تعطل شيء في البيت أو إذا أردت حمل شيء ثقيل، فلا داعي للخرج، تعالي واطلبي المساعدة.

وكانه تذكر فجأة نقاط قوته وكشف عنها بجسارة، ثم مضى إلى الكأس مثقلًا وملاها وعاد وجلس، ولاح النيذ الأصفر المركز تحت ضوء المصباح، وقال:

- يقول المثل القديم: "يملاً سنين العرسان الطويلة هناء وسرور!"، ونحن لسنا زوجين، لكن عشنا معاً أياماً كثيرة حلوة، أليس كذلك؟
لمست هذه الكلمات شغاف قلبها فقالت:

- لن تسألني عن السبب؟

- لا تتألّمي من أجلي، هذا الشيء سيريحني!

أحبّ ثقته بنفسه، وكان يعلم أنها لن تخبره عن سبب الانفصال الحقيقي، فقال بصوت عالٍ:

- يملأ سنين العرسان الطويلة هناء وسرور!

رتّت إليه وكأنها تقول له لو تمهلت قليلاً لبحثُ لك بالسبب، لكن لا داعي للحديث!

- اليوم نجعلها ليلةً مجيدة وفي مساء السبت نجتمع على العشاء! اذهبي الآن ورتّبي الفراش ودعينا ننام مبكرًا.

كان الوصف الحقيقي والمناسب لليلة الوداع الأخيرة هو "المخاطرة بالنفس"، ووسط رائحة النيذ النفاذة وفي العتمة الجامحة، اختلطت رائحة جسديهما وتألّق جسداهما بقوة وعنفوان، وصاحبت رائحة النيذ كلامه الفاحش، الذي تعلّمه في منطقة المصانع، وراح

يسب ويشتتم كل جزء من جسدها. استغل جسدها أسوأ استغلال في تلك الليلة، وكانت عيناه تلتمعان بالشر، وأطلقت سو تشين صرخاتٍ وصرخاتٍ وقبلت كل إهاناته لجسدها، من دون أدنى مبرر، وانهمرت دموعها شللاً، ولا أحد كان يعلم هل هي دموع الفرح أم دموع الحزن؟

وفي النهاية، حرّر جسده من جسدها، وقال بنبرة تشي بالغضب والاستياء:

- هل تعلمين أنني، منذ لقائنا الأول، أعلم أنكِ تحتقريني وكل ما ترغبين به هو جسدي! كلامي صحيح أم لا؟ أجيبيني؟

لم تنطق ولو بكلمة واحدة، وفي هذه اللحظة كانت شبه غائبة عن الوعي، وفي الظلام تذكرت سؤالاً أحرق ندمت بعد أن سألتها:

- هل ستتذكرني؟

وكان شبه غافٍ، فألقى بذراعها بعيداً وغمغم قائلاً:

- لن أتذكرك! لا يمكن أن أتذكرك! شربت الكثير وتلفت ذاكرتي، في الصباح سأنسى كل ما حدث الليلة!

وغطّ في نوم عميق، ولم يكن يدري أن بسمّة لاحت على شفّتها في الظلام، فقد أرضتها إجابته ولم تتوقع منه أن يجيب بأفضل من هذه الإجابة. كان بالفعل وداعاً حقيقياً ولا يشبه الوداعات العادية، ولم يكن وداعاً لدينغ بوه جانغ فقط، بل كان وداعاً لكل رغبات الجسد، ونوت سو تشين أن تكون المرة الأخيرة التي تعتلي فيها فراش الهوى مع رجل، ووطّنت النفس على أنها، منذ هذه اللحظة، ستغدو امرأة

طاهرة النفس نقية القلب، وستقيد رغبات القلب ولن تلبي أبدًا نداء
الجسد، وتغدو امرأة مُسنَّة بلا رغبات.

ولم يقل دينغ بوه جانغ إلا الصدق، وتحت تأثير الخمر وسلطان
النوم كان بالفعل قد لفظ كل شيء من ذاكرته. وسوف يغيّر فقدان
الذاكرة نظرتة نحو العالم، ويذبل الوعي الذاتي مع بلوغه أكثر فترات
حياته سعادةً وبهجةً.

ورغم ذلك فمن وجهة نظر الغالبية العظمى، وخاصة زملاءه في المصنع، أن السبب في فقدانه الذاكرة هو إعادة هيكلة المصنع، فكان تأثير سلطة الدولة عليه يفوق بكثير تأثير امرأة!

وبحلول عام ١٩٩٩ كانت عملية تصفية الممتلكات في منطقة المصانع تجري على قدم وساق، ولم يقتصر الأمر على تصفية الممتلكات العينية فقط، بل امتد أيضًا إلى الأيدي العاملة، وبيعت أنواعٌ مختلفة من المخارط والأفران وخطوط التجميع، ودعوا إلى إطلاق حملة في المصانع لتقليص عدد المقاصف وورش العمل، وتعالى صوت الآهات والآثات المحمومة بالغضب والألم في كل الأنحاء. وبدأت إعادة الهيكلة بمداعبة خفيفة، منذ حوالي عشر سنوات، من خلال نظام العقود ومن خلال بروفة رسمية، قبل خمس أو ست سنوات، عندما بدأ تطبيق سياسة تُعرف بـ "احتفظ بالكبير وأطلق سراح الصغير!"، وكانت المصانع وورش العمل في منطقة نائية وليست محطاً للأنظار، ولم تصل هذه الهجمات القوية حتى مطلع القرن الحادي والعشرين، وأرغم العمال على التقاعد في سنٍّ مبكرة، واستغنوا عن العمال المسنين، في ظل حملاتٍ من التدمير والتخريب، وكأنهم يجردونهم من ملابسهم ويمزقون ملابسهم الداخلية، فلم يكن أمام هؤلاء العمال خيارٌ سوى أن يقفوا في الزاوية، يحمون أجسادهم، مثل النساء، خوفاً من التعرّض للنهب والاعتصاب.

وزحف العمال، الذين يعانون المرارة، ليلاً ونهاراً كأسراب النمل، وحزم العمال المسرّحون من المصانع أمتعتهم ليكابدوا حياة الفقر، وراحوا يندبون حظهم العاثر في أنهم ليسوا من مديري المصانع أو نوابهم، ولو كانوا لارتفعت أسهمهم وصاروا أثرياء في مثل لمح البصر، والبعض الآخر كان أكثر ذكاءً وراحوا يتجولون في المنطقة يتسمعون إلى الأخبار القادمة من هنا ومن هناك، ويقارنون أسعار بيع الموظفين الكبار القدامى، فكان الوضع أشبه بوضع نفسك على الميزان، فلربما يزيد سعرك بضع يوانات. كما كان هناك بعض العمال الذين أثاروا حركة اضطرابات وقدموا عريضةً لمقابلة مديري المصانع، لا! صار اسمهم "المديرون التنفيذيون"، أليس من المفترض أن يكون هؤلاء المديرون إخوةً لبقية عمال المصانع؟ فكيف يلقون بهم في سلّة المهملات بهذه القسوة؟ كان هناك الكثير من المديرين الفاسدين، الذين استهدفوا تسريح عمالٍ أفنوا حياتهم في العمل ومنحوه عرقهم وجهدهم، وفي النهاية طردوا شر طردة!

عاش دينغ بوه جانغ بمنأى عن هذه الضجة ولم يتخذ أي تدابير مُضادة، بل استغنى عن كل هذه الصراعات بشرب الخمر، ومع انتهاء اللعبة جلس في الصفوف الخلفية، كمتفرج يشاهد المسرحية الهزلية، ويراقب الرعب الهستيرى الذي أصاب العمال القدامى، فأحسّ كأنه يشاهد سفينةً كبيرةً تغرق في المياه، وهو يقول لنفسه: دعونا ندفع هذه الحياة التي غمرتها المياه دفعةً أخرى وننجو جميعاً!

ما هي الكلمة التي كان ينساها دومًا؟ كان يحسّ أن لهذه وقعةً خاصًا في نفسه، لكن لطالما كان ينساها، فما إن يمضي إلى البيت حتى ينساها، فيسأل أحد الزملاء:

- أرجوك أعد تلك الكلمة مرةً أخرى، أنا أعلم أنني لم أعد الأخ الأكبر للعمال، وصار لي اسمٌ آخر؟

- أخي دينغ، أخبرتك منذ قليل أنك صرت عاملاً مسرّحاً، ماذا أصاب عقلك؟ صرت تائهاً، انتبه لنفسك، ما من أحد سيتكفل بنفقات علاجك.

ومضى الرجل وأخبر الآخرين بحزنٍ خالطه شيءٌ من السعادة:

- انظروا كيف ذهبت الهيكله الجديدة بذاكرة أخي دينغ!

لكن عائلته رأت الأمر بشكل مغاير، فقد أحسّ تشنغ جونغ وتشن تشن أنه منذ أن فقد الذاكرة، بدأت أخطاؤه يشوبها شيءٌ من الإبداع، وكانت البداية مع تشن تشن وصديقها خي بي في تلك الليلة.

لم يكن وقتٌ طويلٌ مرَّ على العلاقة بين تشن تشن وصديقها، حتى أحضرته في تلك الليلة وظلت نصف ساعة تقدّمه لأبيها. جلس دينغ بوه جانغ وقد أحسّ بمللٍ شديد، وبدأ في هيئته كأنه وعاءٌ فخاريٌّ مملوءٌ بالخمر، لا يعي كلمة واحدة مما يقوله. فرك عينيه وحاول أن يبقى عليهما مفتوحتين، وكان هذا ما استطاع أن يلتقطه من الحديث: كان الشاب مندوب مبيعات يبيع شيئاً غريباً لم يسمع عنه من قبل، يسمى "المشاية المائية"، ثم أفلس وتعرفت عليه تشن تشن.

وفي الأوضاع العادية لا شك أن الأب سيطرد شاباً تعيس الحظ مثل خي بي من بيته، لكن دينغ بوه جانغ السكير كان أكثر حنكةً وحكمةً ومرونة مثل حركة المرور في شارع مفترق الطرق وقت الزحام، التي سرعان ما تسير مرةً أخرى ويتحرك الركب. وفجأةً، اعتلت الحمرة وجهه وتجشأ وصاح قائلاً:

- ما هذه التفاهة التي تتبعها؟ هل تخدع الناس وتبيع لهم الوهم؟ هل -بالفعل- تريد أن تكسب لقمة عيش من هذه الوظيفة؟ هل تريد أن تتزوج من ابنتي الجميلة تشن تشن؟ هل تعلم أن منطقة المصانع الآن تشبه منجم الذهب، وإذا أردت أن تضع يديك عليه، فعليك أن تتخلى عن كرامتك وتنسى معنى الاحترام!

وقبل أن يتسنى لخي بي أن يقرّ بأنه رجلٌ بلا كرامة، أمسك دينغ بوه جانغ الكأس بقوة غاشمة، فاندفع جسده إلى الأمام وانسكبت بعض القطرات خارج الكأس، ثم قال:

- الأمر في غاية البساطة، اذهب إلى منطقة المصانع، وادخل مصنعًا تلو المصنع، واجمع ما يسمونه بالخردة والنفايات، فهم يلقون بالذهب والفضة على أنه خردة ونفايات، وكل ما عليك هو أن تكون مثل كلبٍ يستلقي على الأرض وتجمع كل ما تجده من برادة الحديد وأسلاك الفولاذ وقطع الغيار... فإذا جمعت هذه الأشياء ستجد لنفسك لقمة عيشٍ حلوة!

كانت يده تشبه يد شخصية مشهورة في ملصقٍ دعائي وهو يشير بها إلى الأمام، يشير بها إلى الخردة والنفايات... يشير بها إلى منجم الذهب والأموال الحقيقية، يشير بها إلى حياةٍ مترفة وعيشة هنية!

وفجأةً اصطبغ وجهه بلونٍ أسود داكن، وانفجرت شفتاه على وسعهما وكشفت عن أسنانٍ ناصعة البياض.

أرشدت كأس نبيذ دينغ بوه جانغ خي بي إلى دربٍ جديد عامر بالأموال، وفتحت له أبوابًا واسعة تطلّ على حياةٍ جديدة، تتلونّ بألوان مبهجة، وكأنها قنديلٌ أضاءت له وسط عتمة الليالي والأيام.

وفي منطقة المصانع المعتمدة كان الأمل الساطع هو جمع النفايات والخردة، ولا شك أنه كان عملاً وضيعاً ويلبي احتياجات الإصلاحيين العجولين، الذين يريدون التخلص من خطوط الإنتاج القديمة. وفي الوقت الذي كان الأشخاص، رفيعو المستوى، يقطعون بسكاكينهم قطع اللحم الكبيرة، كان خي بي يجلس تحت المائدة مثل كلب جائع، يلتقط كل ما يسقط من بقايا طعامهم ويعيش عليها.

وفي أقل من عام عاد خي بي يقرع باب بيت دينغ بوه جانغ، ويطلب -مرة أخرى- يد ابنته للزواج!

أرعى خي بي يديه على المائدة، وفي إصبع التمتع خاتمٌ ذهبيٌ غطى على كل الأوساخ العالقة في أصابعه، بينما وضع خاتماً آخر بجانب يديه، وهو الخاتم الذي من المفترض أن تضعه تشن تشن في إصبعها. ألقى خي بي بكل أوراقه الراحلة على المائدة وراح ينتظر شيئاً في المقابل.

حدّق دينغ بوه جانغ في الخاتمين وقد استشعر غرابةً من وجودهما، وشرع يشرب الخمر الذي ينتمي إليه كل الانتماء، وكلما نظر إلى الخاتمين زاد عدد الخواتم أمام عينيه، وفي هذا الوقت لم تكن الخمر لعبت برأسه، بل كان مجرد توقع بأن ملك الخردة ذا الأصابع المتسخة، لا شك أنه سيُهدي تشن تشن المزيد من الخواتم في المستقبل القريب.

لكن السماء وحدها كانت تعلم أنه ليس سعيداً بهذه الزيجة، فقد أربه نجاح خي بي، ولم يكن يتوقع سرعة نجاحه وتوسع حجم عمله، فكان مثل ذبابة تتغذى على جوارٍ عجوز، وكلما التمتع نجمه

أحسّ بالذنب ينخر روحه؛ لأن عمله كان يُعجل بإبادة منطقة المصانع بالكامل، فرأى بعينه كيف أغلق الكثير من ورش العمل، وأوصدت أبوابها في وجه العمال القدامى، بينما جابت مجموعة من الرجال -من الجنوب- المصانع، يتأبطون حقيبةً جلدية ويحسبون بلا شفقة قيمة الأصول والممتلكات المتبقية، وسرعان ما يلتقي بعجائز مثله صاروا عديمي الجدوى في زوايا بعيدة كالحصى، ولن يتبقى لهم سوى العيش على الخمر.

ملأ خي بي كأس دينغ بوه جانغ ووضع خلف الخاتم، وقال:
- هل تريد أن أقدم المزيد؟

وكان على دينغ بوه جانغ أن يمرّ من على الخاتم ليمسك بالكأس،
وراح خي بي ينتظر إجابة طلبه.

وكانت موافقة دينغ بوه جانغ مثل عدمها، لأن تشن تشن كانت قد حسمت موقفها وقبلت به زوجًا لها؛ لأنها أيقنت أنه الرجل الذي سيضمن لها مستقبلها وستحيا معه حياةً رغيدة، ولا داعيَ لقلق أبيها عليها، وكان تشنغ جونغ هو الجدير بهذا القلق. فقطب حاجبيه وهو ينظر إلى تشنغ جونغ وكان قد غلبه النعاس، فزاد حزنه أضعافًا مضاعفة.

في بداية ذلك العام، انتقل تشنغ جونغ -فجأةً- من مكان عمله إلى العمل في نقابة العمال، وكان من المفترض أن يكون هذا الخبر بشري سارة للجميع، فقد كان الانتقال من العمل اليدوي إلى العمل الإداري خطوةً كبيرةً إلى الأمام وسبقًا منقطع النظير، لكن قبل أن يشعر بالسعادة من أجل ابنه، زاره أصدقاؤه القدامى وهم غاضبون، فلم يكن

يعلم ما هي طبيعة عمله في نقابة العمال على وجه التحديد، ولم يخبره أحد بأنه صار كلب حراسةٍ لمروؤسيه، يوزّع خطابات تسريح العمال وإنهاء الخدمة، حتى صار مثل إله الطاعون بين الأهالي!

وبسبب الإصلاح نعمَ أبناؤه بالثراء، بينما عانى الآخرون أشدَّ معاناة. فيا له من عالمٍ غريب!

ضحك دينغ بوه جانغ وراح يمرر إصبعًا واحدًا حول إبهامه ثم سبابته، ثم أشار بعلامة "OK"

ولم يستطع أن يقول هذه الكلمة إلا مرةً واحدة في حياته، وقد التقطها ذات مرةٍ من التلفاز، فلم تسنح له الفرصة لاستعمالها، لكن هذه المناسبة السعيدة وهذا الزواج المجيد القائم على إبادَة منطقة المصانع، ألا تناسبهما هذه الكلمة!

التقط خي بي الخاتم بسعادةٍ بالغة واصطحب تشن تشن للخروج.. لكن أين يذهبان؟ لم يسأل أحدٌ حتى دينغ بوه جانغ لم يسألهما.

امتدت وصلة شرب الخمر حتى ساعةٍ متأخرة من الليل، ثم صعد إلى الفراش، ولم تكن تشن تشن قد عادت. وكان شخيرُه أعلى من المعتاد، واستفاق في الواحدة صباحًا، وأخذ يتمطى في الفراش حتى يخفّف من تصلّب عضلاته، ثم راح يتفقد في ريبةٍ ما يحدث في البيت، فاستولى عليه القلق ومشى يبحث عن تشنغ جونغ، وعلى غير العادة، طرق الباب بلطفٍ بالغ، فخرج له في ملابس أنيقة، ومن دون أن ينتبه أنه لم يكن نائمًا سأله:

- أين تشن تشن؟

فحدّق به، وسرعان ما صوّر له خياله الطليق الصورة التي يمكن أن تكون عليها تشن تشن الآن، فرآها عاريةً ومستلقيةً في فراش خي بي، لكن سرعان ما بتر حبل هذا الخيال، ليس فقط لأنها أخته، بل لأنه يفتقر إلى الخبرة في مثل هذه الأمور، فأحسّ بالأسف على حاله، وبعد لحظاتٍ من الصمت قال:

- ألم توافق على زواجها من خي بي؟

- بالطبع وافقت على الزواج! هل أخذها معه؟

ثم اتسعت عيناه وكأنه تذكر شيئًا ما، فهزّ رأسه وكأنه استوعب الأمر وسأله في ريبة:

- أين أمك؟

لم يعتد تشنغ جونغ على معاملة أبيه المهدّبة، حتى إنه شعر بالانزعاج من هذه الكياسة، لكن لم يكن لديه فسحةٌ من الوقت ليبتل مع الحديث، فكان منشغلًا بشيءٍ آخر في تلك الليلة، وسنحكي عنه في الصفحات القادمة بالتفصيل. (في ظهيرة ذلك اليوم جاءت شياو لان بعد انفصال العائلتين منذ أربع سنوات لزيارة تشنغ جونغ!)، فأشار -في عجالةٍ- إلى الصورة الموجودة في غرفة المعيشة، قائلاً:

- أليست هي دومًا هنا!

ثم أغلق الباب وغادر.

فلوى عنقه ونظر إلى صورة زوجته الراحلة، في صدمة، وفجأةً انهمرت دموعه قائلاً:

- متى ماتت؟ هل أنتِ الآن ميتة!

بدا عليه التأثير الشديد كأنها رحلت للتو عن الحياة، ثم مضى إلى المائدة وجلس وهو يمسك بصورة زوجته وانخرط في البكاء مثل ثور جريح، وكم كان المشهد مرعباً في هدأة الليل، وباتت كل ليلة تعود إلى الحياة في خياله، فيتألم من أجل فراقها في كل ليلة، وكأنها ليلة موتها الأولى، فيرفع الكأس ويشرب ويشرب وسط أسى بالغ.

ومنذ تلك الليلة، بدأت أحوال دينغ بوه جانغ الغريبة تزداد مع مضي الأيام.

في البداية نسى الأرقام، ونسى أن يحسب عمره ومكافأة نهاية الخدمة، والعام الذي توفيت فيه زوجته وأشياء أخرى من هذا القبيل، ثم بدأ ينسى أسماء الأشياء، على سبيل المثال: اسم الشركة الجديدة بعد الإصلاح، واسم الزقاق الذي عاش فيه لعدة سنوات، ومع مضي الوقت بدأ ينسى أشياء حدثت منذ أسبوع ومنذ يومين وأحداث حدثت في المساء، حتى نسى أحداثاً كانت تحدث قبل دقائق، وبلغ الأمر إلى الطعام الذي يطهوه، فكان ينسى وضع الملح أو ينسى أن يطفى النيران ويتركه حتى يتفحم.

حتى إنه التقى بتشونغ جونج في الصباح وهو يغسل أسنانه فسأله بدهشة:

- من أنت؟ كيف تنام في بيتي؟

فأجابه ببرود:

- أنا ابنك!

- لا يمكن! ابني طفلٌ معجزة لا يمكن أن يكون شاباً جباناً مثلك!

(٥)

وبعد أن تقبل الجميع أمر فقدان ذاكرة دينغ بوه جانغ، كان هناك بعض التفاصيل التي توضح احتمالية أنه اختار أن يفقد الذاكرة بمحض إرادته، ولعب مع الجميع لعبة النسيان، فكان يعتمد تحريك الماضي وكأنه يقلب طعامه المفضل حتى يختفي الطعم الحقيقي تمامًا، وفي النهاية تختلط الحقائق بالأباطيل.

حتى لو كان يفعلها عن عمد، فلا يمكن لأحد أن يلومه أو يدينه، فكان يحمل في عقله ذكريات ثقيلة ويحاول أن يحميها من العواصف والصدمات، وظلّ وحده يعاني الدّل والخنوع. ألم يكن يضخم مشكلاته بسبب حدة ذاكرته، التي لا ترحمه، فلينس ذكريات الماضي الذي ولّى وليلق بها في يَمّ النسيان؛ ليحيا حياة سعيدة. وقد تضاءلت حدة غضبه التي كان يصبها على رأس ابنه، حتى صار الضرب اليومي مجرد إجراء شكلي.

لكن في بعض الأوقات، كانت لعبة النسيان مشوبة ببعض العيوب، وكان هناك دليان على هذه العيوب:

الدليل الأول: بعد أن تواعد تشنغ جونغ وشياو لان سرًا طوال عامين، في النهاية أحسّ دينغ بوه جانغ بأن هناك شيئًا غير طبيعي، فدومًا كان ينام تشنغ جونغ في ساعة متأخرة، ويأكل وهو شارد اللب ويتقلب مزاجه بين الحين والآخر، ويذهب إلى دورة المياه ويظل

يتناجى مع العصفور وقتًا طويلًا، وذات مرة وهو تحت تأثير الخمر
لكزه بقوة في كتفه، وسأله:

- أخبرني كم عمرك؟

- سبع وعشرون!

- بلغت السابعة والعشرين وليس لك أي جدوى!

فضربه على رأسه، ثم سأله:

- وأنا كم عمري؟

- السادسة والخمسون!

- قد كبرت!

ثم اقترب من تشنغ جونج قائلاً:

- شابٌ مثلك في السابعة والعشرين وليس لديه صديقة!

في هذا الوقت كان تشنغ جونج بالفعل على علاقة سرّية بشياو
لان، وتورّط معها في حالة من الحب الميثوس منه، لأنه كان يعلم أن
القَدْر لا يمكن أن يمنحها له، ولا يمكن أن تكون من نصيبه في يوم
من الأيام، وجعل كلام أبيه الدماء تحتقن في وجهه وأحسّ بالخجل،
فأشاح بوجهه من دون أن يتحدث بكلمة.

أحسّ دينغ بوه جانغ بالسعادة، وألصق وجهه بوجه تشنغ جونج
مثل اليرقة، قائلاً:

- هل تواعد فتاة؟ أخبرني؟ أنا أعرف أن العاملات في المصنع
جريئات ويتصرفن كما يحلو لهن!

فنهض واقفاً، وقال:

- سأذهب للنوم!

ثم صفع باب الغرفة خلفه.

وارتكب دينغ بوه جانغ خطأ فادحاً في هذه الليلة. وقف عند باب الغرفة مثل شجرة عالية راسخة في الأرض، وعندما أيقن أن ما من صوت في الداخل أو الخارج، ظل واقفاً حتى انتصف الليل وتوقع أن يكون تشنغ جونغ نائماً، وما من أحد سيسمعه إذا تحدّث وشرع يغمغم:

- أخبرني بالحقيقة، منذ البداية وأنا أعلم أنك تعلّقت بهذه الفتاة، قل لي ما هي مميزاتها؟ تمشي دوماً بمتهى الكبر بين الناس وبوجه عابس، لكن هل ستقبل بك؟ هل يمكن أن تكون من نصيبك في يوم من الأيام؟ وهل يمكن -إذا ظفرت بها- أن أعود أنا وسو تشين كما كنا؟ هذا مستحيل!

وفجأةً انفتح الباب، وخرج تشنغ جونغ ووجهه مفعّم بالأسى، وقال بتوسّل:

- اسكت!

وقد أربعه خروج ابنه، وسرعان ما اندلع الغضب في جوفه وأحسّ بالإهانة، وبخفة القرد أمسك بتشنغ جونغ، ولكمه لكمّة قوية فأسقطه أرضاً ثم داس عليه بقدمه، قائلاً:

- أيها الملعون الصغير، هل تتظاهر بأنك نائم وأنت تسمعني؟ تعجز حتى على مواعدة فتاة! أنت شخصٌ عديم الجدوى! ما جنسك أنت؟ لماذا لا أضربك حتى تموت وتلحق بأهلك!

وأخذ يسدّد له عدّة ركلات أخرى حتى خارت قوته، فتوقف عن الضرب، وسقطت دموعه فمسحها بقوة. زحف تشنغ جونغ حتى استطاع أن يقف على قدميه، وبدأ دينغ بوه جانغ يلعب لعبة النسيان مرةً أخرى، وقال:

- من أنت؟ ماذا تفعل في بيتي؟

والدليل الثاني، على ذاكرته الانتقائية، كان يتعلّق بنقل مقبرة زوجته التي رحلت منذ سنوات.

في عام ٢٠٠١، وبعد سلسلة من الإصلاحات وإعادة الهيكلة، صارت منطقة المصانع التي كانت مثالاّ للقدارة الصناعية منطقةً أنيقةً جدّاً، مثل رجلٍ كان جسده مغطّى بالشحم والزيت ثم غُسل بالماء والصابون وارتدى قميصاً جديداً ناصع البياض، ولم تعد المنطقة رمزاً للتلوث، وخضعت المنطقة المهجورة لأكبر عملية هدم وإعادة بناء تمت في التاريخ، وراج سوق العقارات ولم يستطع أحدُ الوقوف في وجهه، واستولى المستثمرون الجشعون على قطع الأراضي داخل منطقة المصانع والمناطق من حولها، واعدن الأهالي أن المصانع القديمة والمستودعات ودورات المياه العامة، وورش التدريب والعيادات الطبية وغيرها من المرافق، ستصير فيما بعد مركز برمجياتٍ متطور ومراكز لعدّة شركات، وسلسلة فنادق ومناطق صناعية ونوادي رياضية وغيرها من المناطق الخدمية الأخرى. لكن، هل اكتفى هؤلاء المستثمرون وأطفؤوا شهوة طمعهم؟ لا! بل التمعت عيونهم مرةً أخرى على منطقة جبل القمامة ومنطقة المقابر المهملة! من دار بخلده يوماً أن الناس سوف يتنافسون على شراء مثل هذه المناطق البائسة المهجورة، ويضخون بها كل هذه المبالغ، فكان الأمر مغرياً جدّاً!

ولكن دعونا لا نسترسل في الحديث ونستبق الأحداث، لأنه كان هناك بعض المشكلات والشغرات الصغيرة التي تعيّن إيجاد حلول لها، وقد تعرّض دينغ بوه جانغ لهذه المشكلات مرتين. كانت المرة الأولى عندما كُتب على منطقة السكن في مصنع الأنابيب الإلكترونية بخطّ متعرج كلمة "الهدم"، ولحسن الحظ أن المستثمر تعطل في بعض الأمور، فتأجلت عملية الهدم، لكن لم يكن الحظ حليفهم في المرة الثانية، فقد أرسل لكل أسرة إخطاراً رسمياً، شديد اللهجة، يطالبهم بإكمال عملية نقل المقابر، في غضون ثلاثة أشهر فقط، وإلا ستعتبر مقبرة بلا أصحاب وتتصرّف فيها الجهات المعنية كما تشاء.

قرأ دينغ بوه جانغ الإعلان عدّة مرات كما لو أنه رجلٌ أمّي لا يجيد القراءة، وحاول أن يصل إلى أفضل خطة للتصدي لهذا القرار، وظلّ يقرؤه طوال شهرين حتى اهترأت الورقة من الحواف. رغب تشنغ جونغ في الحصول منه على قرار بشأن المقبرة، لكن دوماً كان يلتزم الصمت، وعندما كان يسأله بطريقة مباشرة عن رأيه، كان يربط لسانه عن الكلام ويمسك بالكأس ويقرع على المائدة بغضب، ويطلق العنان للآهات والتنهيدات.

راح يصرخ والدموع تسيل على وجهه قائلاً:

- ما هذا العالم الوحشي! حتى الأموات لا يمكنهم أن يرقدوا بسلام تحت التراب! هذا عملٌ غير إنساني! اعتدنا دفن الموتى تحت التراب، فبأي منطقٍ نأتي الآن ونخرجهم؟! كنت طوال عمري عاملاً شريفاً، كنت أعمل بمتهى الجد وبمتهى الإخلاص، فكيف يتعاملون معي بهذه الطريقة! ماذا فعلتُ لأستحق هذه المعاملة الوحشية! أنا

أفضل أن أموت على أن أعذبها في نومتها! فمن يجرو منهم، فليأت وليقتلني!

لكن ما لبث أن مضت نصف دقيقة، وكان وجهه لا يزال غارقاً في الدموع ومخاط أنفه يسيل حتى تبدلت لهجته قائلاً:

- أمك امرأة محظوظة جداً! فكّر معي في الأمر، الوضع كما لو أنها ستتقل من كومة قش إلى سلّة أرز، كانت ستعيش إلى الأبد بجوار جبل القمامة، برائحته الكريهة، لكن الآن ربما تصبح هذه المنطقة مركز المدينة! هل تعلم ماذا تعني هذه الكلمة "مركز المدينة"؟ تعني أن المتر المربع الواحد سيقدّر بعشرات الآلاف من الحيوانات! فإذا لم أتكلف عناء اختيار مقبرة للدفن على غرار "فنج شوي" في هذا المكان، لما انتهى بها الأمر لتدفن في مركز المدينة، من دون أن أغرم يواناً واحداً من جيبني! وحدها التي ستحظى بهذا الحظ العظيم، حتى أنا لن يحالفني حظٌ مثل حظها!

وفي الأسبوع الأخير من المهلة، لم يطق تشنغ جونج الانتظار ونوى أن يحسم هذا الأمر بنفسه، وفي الليل اصطحب معه رجلين من عمال المقابر ليزيلا مقبرة أمه من على وجه الأرض ويسوّوا بها التراب، لكن الشيء غير المتوقع أن المقبرة التي كان يعرفها ويزورها مرةً أو مرتين خلال العام، لم يستطع تمييز معالمها أو الوصول إليها، فقد جرفت العديد من المقابر وامتلات الحفر الموجودة في الأرض بالقمامة ومياه الأمطار، وتجمّع فيها الطوب المكسور وبعض الألواح الإسمتية والخشبية المتعفّنة التي أزالها عمال القمامة، فبدا المكان وكأنه متاهة.

* فلسفة صينية نشأت منذ حوالي ٤٠٠٠ عام، وتعني فن علوم الحياة لإيجاد التوازن في الطبيعة والتناغم مع المحيط. [الترجمة]

وقف تشنغ جونغ في حالة ذهول تام، واعتراه شيء من الخجل، وأخبره العاملان بنفاد صبر بضرورة التحرك والبحث عن شاهدة قبر أمه. ولم يتوقع هذا المشهد قبل مجيئه ومما زاد من دهشته، أنه لم يعثر على شاهدة قبر أمه الذي كتب عليه أبوه بعيدان تناول الطعام: "زوجتي الحبيبة خوانغ مينغ شيو"، وكأن الشاهدة صار لها جناحان وحلقت بعيداً عن المنطقة! راح الرجلان يبحثان عن شاهدة القبر في الأنحاء كلها، حتى وصلا إلى حدود جبل القمامة وراح يهمسان باسمها خوانغ مينغ شيو، كما لو أن اسمها يلعب معهما لعبة الغمضة.

وبعد ساعتين من البحث، توصلوا إلى نتيجة غير مرضية، وهي أن مقبرة خوانغ مينغ شيو مفقودة!

دفع تشنغ جونغ لهما أجرة العمل، وغادر الرجلان. وفي الظهيرة انسابت خيوط الشمس الذهبية على الأعشاب المتناثرة هنا وهناك، وعلى الحفر المغمورة بمياه الأمطار، وأشرقت مثل مقابر بعيونٍ مُطفأة. جلس تشنغ جونغ يدخن سيجارةً باستياءٍ شديد وهو يفكر في كلام أبيه، بأن مقبرة أمه ستكون في مركز المدينة!

وعندما رفع ناظريه، وهو ينفث حلقات الدخان في الهواء، انتبه إلى أن أباه يقف على مقربةٍ منه يحدّق النظر فيه وهو يتسم بعجرفة، وكانت مثل هذه الملامح الماكرة لا توحى على الإطلاق بأنه رجلٌ عجوز يعاني فقدان الذاكرة.

ولم ينتظر أي ردة فعل من تشنغ جونغ، وسرعان ما تظاهر بحالة الجنون التي تصيبه، وقال:

- أعلم أنك جئت اليوم لتبحث عن أمك! خدعتني عندما قلت لي إنها ماتت، وهي تعيش هنا! لكن لا يمكن أن تتجول هنا، المنطقة صارت خربةً وانقلبت رأسًا على عقب، وستمضي فيها مثل عابر سبيل ضلّ الطريق! هل أخبرتها أنك صرت موظفًا، تسلّم إخطارات تسريح العمال من العمل، وأنت انتقلت إلى نقابة العمال وترتدي قميصًا أبيض؟ لا شك أنها ستكون سعيدةً بهذا الخبر!

لم يلق تشنغ جونغ بالآ بما قاله، وسرعان ما ألقي عقب السيجارة ومضى من دون أن يقول كلمة واحدة.

وبعد أن مضى بضع خطوات، أحسّ دينغ بوه جانغ أنه بالغ في حديثه معه، فأسرع من خطوه حتى صار بجواره، ونظر إليه كما لو أنه يطلب منه العفو والغفران، ثم دنا منه وراح يهمس في أذنه وكأنه سيعضّها، ويبدو أنه لم يكن يريد أن يسمع أحد بهذا السرّ العظيم، عديم الجدوى:

- أنا من أزلت شاهدة القبر! لا أريد أن أنقلها إلى هناك، فكّر معي؛ حتى لو وجدنا لها مكانًا جديدًا، فهم سيهدمون - في المستقبل - كل المناطق، ولن يتركوا للأحياء ولا للأموات موطأ قدم، فإذا لم تكن هذه المرة، ستكون في المرة القادمة، ولن تتوقّف عملية الهدم في المستقبل. أريد أن أطلب منك معروفًا.

فتوقّف تشنغ جونغ عن السير، لكنه أبى أن يرفع ناظره إليه، لأنه يخشى أن يشعر بالتأثر نحوه وتضعف مشاعره أو يشعر بشيء من الحزن من أجله.

- اصنع لي معروفًا ولا تدفني تحت التراب. أنا خائف! انظر إلى هذا المصنع الذي أفنيت فيه عمري، وهذا البيت الذي سكنت فيه

طول حياتي، ومقبرة أمك التي دفنت فيها سنوات طويلة، قد هدموا كل هذه الأشياء وأهالوا عليها التراب. أخبرني أين ستدفني عندما أموت؟ سأخبرك عندما أجد مكانًا مناسبًا. على كل حال أنا لا أقبل أن أدفن تحت التراب. مكتبة سُر من قرأ

وبعد أن منع دينغ بوه جانغ نقل مقبرة زوجته لم تظهر أي مساوئ أخرى، وزادت حالة فقدان الذاكرة شيئًا فشيئًا، وبدأت تظهر مشاهد غريبة في شارع مفترق الطرق، في كل صباح؛ وكأنه يضبط موعده مع عمال النظافة. في ذلك اليوم خرج يتجول في الزقاق الضيق الذي صار عامرًا بمتاجر متلاثة الأنوار، ومرّ على سلسلة "السوبر ماركت" الكبيرة، ومركز الترفيه والاستحمام ومطعم المأكولات البحرية، ومتجر الهواتف الجوّالة، وجميعها كانت لا تزال مغلقة، لكنه لم يكثرث إلى أيّ منها، بل كان عالقًا في أيام الماضي، وذرع الزقاق جيئةً وذهابًا، وتحدّث مع أصحاب متجر فطائر السمسم، غير الموجود، ومتجر الأجهزة وصالة البلياردو وورشة تصليح الدراجات، وتوقف ليحيي أشخاصًا، غير موجودين، من معارفه القدامى وتحدّث إليهم، وكان هناك مكانٌ اعتاد أن ينعطف عنده، لكن تحوّل الآن إلى متجر فطائر وكعك، وسار عدّة خطوات حتى بلغ منطقة العمل بمترو الأنفاق، وضحك عاليًا فقد تخيل تلك الشجرة العتيقة وارفة الأوراق، والطاولة التي كان يتحلّق حولها خمسة من أصدقائه ويلعبون الورق، لكنّ اثنين منهم كانا قد فارقا الحياة.

واصل سيره من دون توقّف حتى وصل إلى مكانٍ معلقٍ عليه لافتة، مكتوب عليها: "شركة لوشى للموارد العالمية"، وكانت شركة

صهره خي بي، وعندما وقع عليها بصره بدأت الذاكرة المنسية تعود إليه فتبدّل ملامحه، وينظر بعصبية إلى الشارع الذي كان يمضي فيه. طفت الذكريات القديمة على صفحة الذاكرة وأيقن أن منطقة المصانع لم تعد منطقة مصانع، وأزيل مصنع الألكيل البنزين ومصنع الأنابيب الإلكترونية ومصنع البتروكيماويات ومصنع الأسمت وجميع المصانع اللعينة التي كانت تنفث سموها في الهواء، وطُرد هو وأقرانه من العمل شرّ طردة، هؤلاء الذين أفنوا حياتهم في العمل في هذه المصانع، وكانوا من أمهر العاملين وأكثرهم حرفية.

وفجأة، التوت ساقاه وخرّ ساقطاً على الرصيف، وقد عادت كل الذكريات الأليمة التي قذف بها إلى مؤخرة عقله، وعادت صورة مقبرة زوجته وسو تشين وزواج تشن تشن من ملك الخردة، وابنه المعجزة الذي ترك العمل في نقابة العمال وفتح متجرًا للزجاج. جلس بشعرٍ أشعث وقد سال مخاط أنفه وشرع يغمغم بارتباك:

- لا أتذكّر ماذا كنت أملك من قبل! ولا أدري ما لا أملكه الآن.

ولا أحد كان يعلم، باستثناء كأس النبيذ الفخارية، أنه خلال هذه الفترة التقى مرةً أخرى بسو تشين. وسنحكي عن هذا اللقاءات بالتفصيل فيما بعد، لكن ما يمكن قوله الآن أنها كانت لقاءات باردة تخلو من أي مشاعر، حتى إنه لم يعبا بدمعة واحدة من دموعها ولم يمسه حديثها الحزين.

وظلت هذه الذكريات الأليمة تجتاحه من وقتٍ لآخر حتى الممات. ومن دون سابق إنذار فارق الحياة، وكأنها حيلةٌ أخرى من حيله التي اعتاد أن يلعبها.

كان عام ٢٠٠٤ هو عامه الأخير، وكانت حوادث هذا العام مفعمةً بالإبداع والتجديد؛ فخلال ساعة واحدة تردّد على محل بقالة في شارع مفترق الطرق ثلاث مرات، وفي كل مرة يشتري الشيء ذاته، وكان محل بقالة متهالك أوشك على الغلق، وجميع البضائع معفّرةً بالغبار ومشكوك في صلاحيتها، فلم يكن يحبّ الشراء من "السوبر ماركت"، على الرغم من أنه نظيفٌ وساطع الأنوار، إلا أنه ظلّ يشتري زجاجات النبيذ وورق التواليت ماركة "جولدن لوتس" والسترات الداخلية من محل بقالة قديم، وفي كل مرة كان يبدو كأنه ممثّل يتدرّب على مشهد سينمائي، فسرعان ما يلقي التحية ويعطي العامل عشرة يوانات، ويشتري زجاجة نبيذ ماركة "خونغ شينغ شياو آر"، وينتظر حتى يتسلم بقية النقود، ثم يكرر ما قاله في كل مرة، وعندما يفتح الباب ليغادر يلوي عنقه بنفس الزاوية، ويصيح في صاحب المتجر بمرح قائلاً:

- انتبه، إنها لا تشتعل!

كما إنه صار مهووسًا بالذهاب إلى دورة المياه، حتى بات يتردّد عليها أكثر من شربه للمياه خلال اليوم، ثم بدأ يقضي وقتًا طويلًا في الداخل، فقد كان مقتنعًا أنه لم يذهب اليوم إلى دورة المياه، فكان يتجاهل ردة فعل جسده ويفضّل لعب الغمّضة بذاكرته. وكان أكثر شيء يثير الضيق هو أن شربه للنبيذ خرج عن السيطرة، وصار يشرب في كل وقت وفي أي وقت، يشرب في الصباح وفي منتصف الليل، بات يشرب الخمر وكأنه ماء أو شاي أو حساء. وقد أفضى به إدمان الكحول إلى تردّده عدّة مرات على غرفة الطوارئ في مشفى الدرجة الثانية، القريب من البيت، وصارت ذراعه مثل مدمن مخدرات مرشوق جسده بالإبر، حتى اللاصقات كانت تظلّ موجودة في ذراعه

من المرة السابقة ولا يتسنى له نزعها، فكان يدخل في غيبوبة ويذهب في منتصف الليل إلى غرفة الطوارئ؛ يغسل المعدة ويحقن بالإبر. فكان ينام ويستفيق ويخرج ويدخل ويتكرر الأمر. كان تردده على غرفة طوارئ المشفى مثل تردده على محل البقالة الصغير ليشتري زجاجة نبيذ، وكأنه كان يتمرن على لعبته الأثيرة.

لكن هذه المرة والتي كانت المرة الأخيرة، حدث خطأ ما في أثناء اللعبة!

في الشوط الأول دخل في غيبوبة، ومضى إلى غرفة الطوارئ وغسل المعدة وحُقن في الوريد، وسرعان ما غطّ في نوم عميق ونسى أن يستفيق مرةً أخرى، وعندما ذهبت الممرضة لتوقظه، اكتشفت أنها لا يمكن أن توقظ هذا العجوز إلى الأبد.

بعد خمسة أعوام من معاناة فقدان الذاكرة، رحل دينغ بوه جانغ، وقد بلغ الواحدة والستين، بسبب إدمان الكحول، ولأن موته كان صدمةً للجميع، لم يكن لديه ولا لدى ابنه وقتٌ للتفكير في البحث عن مكانٍ للدفن، وتنفيذاً لوصيته بالآلا يُدفن تحت التراب، وضع تشنغ جونج وتشن تشن رماده في بيتهم القديم، الذي كتب عليه منذ وقتٍ طويل كلمة "الهدم"، ولم يكن قد هدم بعد، ووضعاً بجواره كأس النبيذ الفخارية.

الفصل الثالث

قوة التأثير

(١)

بعد وقوع الانفجار المروّع في شارع مفترق الطرق، أصيب الجميع بصدمة كبيرة، حتى العجوز الذي كان دومًا يجلس في أرضية المصرف الآلي للبنك الزراعي، لكن تشن تشن كانت الوحيدة التي لم تشعر بشيء على الإطلاق.

في ذلك الوقت كانت تتجول في الطابق العلوي خافت الإضاءة، وراحت تقلّب في أغراضها وهي سابحة في بحور عرقها، وكانت قد أوشكت على البكاء بعد أن اختفى حب عمرها وزوجها خي بي منذ خمس عشرة ساعة، وعلى الرغم من أنه لم يكن وقتًا طويلًا يستدعي كل هذا القلق، إلا أن كل الشواهد وخاصة المكالمات الطارئة التي انهالت على هاتفه (ترك الهاتف في المنزل!) تشير إلى أنه بالفعل اختفى!

استبدّ بها القلق ولم يكن القلق بشأن اختفائه في حدّ ذاته، بل بشأن بعض التفاصيل الصغيرة مثل: هل أخذ معه فرشاة الأسنان والمعجون؟ هل بدّل ملابسه؟ هل حمل معه حقيبة صغيرة أم كبيرة؟ فلا شك أنه لم يكن سيغادر من دون أن يأخذ معه بعض الأغراض!

ظَلَّت تتجول في المنزل وتقلب في جميع الأغراض؛ لتكتشف ماذا أخذ معه على وجه التحديد، وكانت النتيجة تدعو إلى الريبة والطمأنينة في آن واحد؛ إذ لم ينتقص شيء من البيت، وظنت أنه خرج في نزهة قصيرة سيرًا على الأقدام، وسرعان ما سيعود وهو يتضور من الجوع، ويطلب منها أن تعدّ له الطعام.

ظَلَّت تروح وتأتي في المنزل مثل ذبابة -مقطوعة الرأس- تطنّ، وفجأة تذكّرت السندرة التي لا تتعدّى مساحتها المتر الواحد، وكانا وضعًا فيها كل الأشياء القديمة الزائدة عن الاستعمال اليومي ولا يستطيعان التخلص منها. صعدت إلى أعلى فغطّى الغبار رأسها، ومضت بظهرٍ منحني وشرعت تسعل من الغبار، فوقفت في الزاوية الأخرى حتى توقّف السعال، وهنا اكتشفت أن شيئًا قد اختفى، وكان هو الشيء الوحيد المفقود من البيت. اختفت المشاية المائية، وكان خي بي ترك واحدة في السندرة.

تذكّرت أن المشاية كانت تشغل مساحةً كبيرة من المنزل فرغبت في التخلص منها، لكنه أصرَّ على الاحتفاظ بها، وقال وقتها مازحًا:
- اتركها! لا أحد يأمن مكر الأيام! وربما أبدأ مرةً أخرى من الصفر وأعود إلى عملي القديم!

في هذه اللحظة أوشكت على البكاء، وأدركت أن خي بي لم يخرج في نزهة قصيرة، وأنه لن يعود إليها مرةً أخرى! وراحت تسأل نفسها: هل ترك المنزل لأنها تظاهرت بأنها حامل؟ لكن كيف أخذ الأمر على محمل الجد، وغضب إلى هذا الحد؟ فراحت في نوبة بكاء هستيرية ولم ينتبه أحدٌ إلى صوت بكائها، لأن انفجارًا مدويًا وقع في الشارع -في تلك اللحظة- وغطى صوته على صوت بكائها الحار.

لم تكثر لصوت الانفجار وواصلت البكاء، ثم فكّرت في أنه من الصعب أن يسمع أحدٌ صوت بكائها، وسط الهرج والمرج الدائر في الخارج، فنوت أن تخرج إلى الشارع مثل امرأة مسكينة هجرها زوجها، وتجلس على الطريق وتظل تبكي وتتنحب، وسرعان ما مسحت وجهها بيديها المتسختين، وهبطت الدرج، وعبثت بشعرها فطاشت خصلاته وبدأت في حالة حزنٍ عظيم.

وعندما خرجت إلى الشارع أصابها الذهول ولم تصدّق ما رآته؛ كان الشارع أكثر فوضى من منزلها، وراحت تتساءل عمّا حدث، رأت الناس بوجوه مغبرة وشعر أشعث، وعلامات الحزن تكسو الوجوه، وكان هناك أشخاص يستلقون على الطريق وأشخاص يتدحرجون أمامها.

أحسّت بخيبة الأمل وأدركت أن شيئاً كبيراً قد حدث، يشبه اختفاء خي بي، وكان عليها الذهاب للاطمئنان على حالة بيت أبيها! وعلى الرغم من أن البيت لم يكن فيه سوى بعض قطع الأثاث القديمة، إلا أن هذا الشيء التافه هو أول ما خطر على بالها في هذه اللحظة العصيبة.

ركضت مع الراكضين حتى وصلت إلى المنطقة السكنية لمصنع الأنابيب الإلكترونية، وعلى الرغم من أن هذه البيوت يعود عمرها إلى أربعين عاماً، وصارت مليئةً بالنفايات، إلا أنها لا تزال موجودةً وتحطم فقط عددٌ كبيرٌ من النوافذ وصارت مثل عيونٍ مثقوبة تحدّق النظر فيها. ومن دون أدنى تفكير ركضت ناحية البيت ووجدت نفسها محاطةً بالجموع الذين يصيحون باستياءٍ شديد:

- وقع الانفجار بسبب أعمال الهدم! لم يكلفوا أنفسهم العناء ليقروا الخرائط، فانفجرت الأنابيب المارة تحت الأرض. هم لا يعرفون سوى تقاضي الرشاوي!

وفجأة خالطها شعورٌ غريبٌ، وتذكرت أنها سمعت كلمتي "الخرائط" و"أنايب تحت الأرض" بلهجاتٍ مختلفة وهي تردُّ على المكالمات التي جاءت على جوال خي بي، وراحت تفكر كيف توقع هؤلاء الأشخاص الأذكياء وقوع الانفجار؟!

ولم ترهق نفسها بالتفكير، فمنذ الصغر والجميع يعلم أنها فتاةٌ محدودة الذكاء، بدءًا من أمها التي رحلت منذ سنوات مرورًا بأبيها الذي رحل قبل عدة سنوات وأخيها الغارق في الاكتئاب لأذنيه، وانتهاءً بجميع الجيران ومعلميها وزملائها في الفندق وأي شخص كان يتعامل معها، فكان أول ما خطر على بالها بعد وقوع الانفجار هو الركض إلى بيت أبيها القديم، غافلةً عن خطورة الموقف.

دفعت الباب الذي تغيّر شكله بقوة، وتحوّلت حول الحطام وهي تسمح بعينيها المكان. كانت صورتها والديها لا تزالان موجودتين، وقد ظهر شرخٌ صغيرٌ في الإطار الزجاجي لصورة أمها. أحسّت أن هناك شيئًا ناقصًا فراحت تحدّق النظر في الصورتين وتحاول أن تتذكر، لكن لم يهدأ عقلها لشيء، وسرعان ما هبطت الدرج وراحت تجوس بقدميها في الأرض غير المستوية، وإذا بقدمها تصطدم بشيء، فانتبهت أنها كأس أبيها الفخارية التي كانت موضوعةً أمام صورته، لكنها لم تُخدش أو تنكسر وتدحرجت حتى وصلت أمام قدميها.

أطلقت نفسًا عميقًا وجثت على ركبتيها وكأنها عثرت على كنزٍ ثمين، ثم أمسكت بالكأس وراحت تنظر حولها وبعد أن أيقنت أن ما من أحدٍ يراها همست قائلةً:

- أبي، من حسن حظك أنك ميت، انظر إلى شارعنا كيف صار شكله الآن!

كانت تمسك بالكأس بسعادة، وفي هذه اللحظة أحسّت أنه ينبغي أن تذهب وتلقي نظرة على متجر أخيها، فلا شك أنه تعرّض لكارثة.

عادت إلى شارع مفترق الطرق وكانت خطاها ثقيلة بسبب أرض الشارع المتعرّجة، وكان المشهد من بعيد يحبس الأنفاس في الصدور، ومتجر أخيها، الذي كان عليك أن ترفع رأسك لتراه، صار في غمضة عين كومة حطام على الأرض، وبدا المبنى المكوّن من طابقين وكأنه "سندويشة هامبرغر" أزيلت الحشوة والطبقة السفلية، وتبقّت فقط الطبقة العلوية التي بدت مائلة كقارب غارق في الوحل، وتهشّم كل زجاج المتجر وتطاير في الهواء، فتخيّلت مشهد الزجاج وهو يتهشّم مثل مشهد الألعاب النارية، التي تضيء سماء العيد الوطني والتي تشاهدها في التلفاز، وهي تنطلق على مهلٍ وتتألق في السماء ثم تسقط على الأرض وتشكّل دائرة من الزجاج المتهشّم الملون والزجاج المنقوش والمجوّف، وقد ظهر هناك جميع أشكال الزجاج!

فأحكمت يديها على الكأس في هلع، وفجأةً مادت الأرض من تحت قدميها، ولم تستطع أن تتحرّك خطوةً واحدة إلى الأمام، فلم تجرؤ على الذهاب لترى ما إذا كان أخوها المسكين صار من الركام أم لا؟

فقط فكرةً واحدةً كان تجول في رأسها وهي؛ لا بدّ أن تختبئ.. تختبئ في أي مكان!

ركضت مذعورةً جهة اليسار، على طول الطريق المؤدي إلى ماكينة الصراف الآلي بالبنك الزراعي، حيث المكان الذي كان يجلس فيه ذلك المتسوّل وقد اعتادت شراء الكعك له. شعرت بالراحة

لأنه غير موجود، فمضت وجلست في زاوية بعيدة تلملم أنفاسها المبهورة، فرأت المارة يركضون في الخارج وسط أضواء سيارات الشرطة الساطعة، لكنها ظلت جالسة، متكورة على نفسها، وأخذت تتحدث إلى كأس أبيها، وكأنها تفسر لنفسها ما يحدث وتحاول أن تطمئن نفسها، وقالت:

- كنت أمزح معه! لماذا غادر وتركني وحدي؟ ما هذه الفوضى التي وقعت في شارع مفترق الطرق؟ يا للسماء! لماذا يحدث كل هذا؟

(٢)

جاءت تشن تشن إلى الدنيا من أبٍ مغمور بالكحول لتمدّ يد
العون للجميع، وكانت على عكس الآخرين، لا ترغب بالكثير، وكل
ما كانت تتوق إليه هو أن ترتدي ملابس أنيقة وبرّاقة، وتعيش حياةً
مترفةً تُغنيها عن السؤال.

عاشت حياةً يسيرة، وبمجرد الانتهاء من فترة التدريب سكنت
في فندقٍ صغير، حيث مكان عملها، وعلى الرغم من أن الفندق لم
يكن فخماً، إلا أنه كان يعجُّ طوال العام بالزبائن، وكانت تعمل عاملة
نظافة، تغيّر الشراشف وتنظف دورات المياه، حينها أخبرت أبيها
بسعادة، قائلةً:

- المكان جميلٌ جداً! يصرفون لي وجبات ويعطوني جوارب
نايلون وأحمر شفاه!

وبعد تعيينها وتقاضيها راتباً شهرياً منتظماً، أحسّت أن كلّ جزء
في جسدها صار كبيراً، وتزامن هذا الشعور مع انفصال العائلتين، فقد
أحسّت بتأنيب الضمير بسبب هذا الانفصال، فلو لم تكن قد تحدّثت
بشأن وثيقة الزواج في تلك الليلة، لما انفصلت العائلتان.

فاكتشفت أن اقتراحها الصغير الذي كان في حجم بذرة السمسم
تضخم فجأةً وصار في حجم البطيخة. وفي غمرة الشعور بالذنب

أحسّت أنه لا بدّ أن تفعل شيئاً، وباعتبارها المرأة الوحيدة في هذه العائلة، كان عليها أن تتحمّل المسؤولية. ولا شكّ أن تلك المسؤولية الشاقة كانت تفوق قدراتها وإمكاناتها، لكنها لم تكن تعلم بمدى ثقل هذا العبء، وفعلت كل ما في وسعها من أجل القيام بواجبها على أتمّ وجه، فوضعت نظاماً لشرب الخمر بعد انفصال العائلتين.

في تلك الليلة كان تشنغ جونج يعمل ورديةً إضافيةً، ولم يكن في البيت سواهما، هي وأبيها، وبعد الكأس الرابعة رفع كأسه ليملاها مرةً أخرى، فأومأت برأسها قائلةً:

- من اليوم لن تشرب سوى ثلاث كؤوس مع كل وجبة!

قالت بنبرة تشي بالحزم، وليس فقط لمصلحة أبيها، بل لتطمئن أيضاً نفسها بأن الأمور ستتحسّن، وفي النهاية استطاعت أن تجعل من أبيها إنساناً!

وخلال الأيام الماضية أثارت تصرفاتها حتى أبيها وكان على وشك الانفجار، فعقد حاجبيه قائلاً:

- وماذا لو رغبتُ بكأسٍ أخرى!

فأمسكت بالكأس وقالت وهي تبتسم ساخرةً:

- اسكب كأساً أخرى وسترى!

ولم تنتظر حتى يضع أبوها زجاجة النبيذ، وسرعان ما أمسكت بالكأس ومدّت عنقها لأعلى وسكبت الكأس في جوفها، ثم رفعتها مرةً أخرى قائلةً:

- هل تريد كأساً أخرى؟

ذهل دينغ بوه جانغ مما فعلته، ثم سكب كأساً أخرى وسرعان ما شربتها. وتكرّرت هذه الفعلة مثل شريط سينمائي عدّة مرات، فشربت ما لا يقل عن ست كؤوس، وبدأت رائحة النبيذ تتضوع من أنفها وفمها ورأسها، وأخذت عيناها تلتمعان ببريق غريب.

وعندما أدرك أنها جادة فيما تقوله توقّف عن سكب النبيذ. وفي هذه الليلة الكثيرة لم يكن أحدٌ يستطيع إيقافها، حتى لو عاد الموتى إلى الحياة. وفجأةً أحسّ بحزنٍ شديد، فلم يكن يتوقّع أن تلك الفتاة التي لم يكثرث إليها في يوم من الأيام هي من يقف أمامه، بل كانت الوحيدة في هذا العالم التي تهتم لأمره ولا تريده أن ينزلق أكثر في الوحل!

فهزّ زجاجة النبيذ وغمغم قائلاً:

- هذا النبيذ الفاخر لا يمكن أن يُهدر بغير جدوى! لا يمكن أن أضحيّ به!

أغلق غطاء الزجاجة بإحكام، فابتسمت وعادت تتناول الطعام. تناولت قطعتين من اللحم البارد ونصف وعاء من حساء الخضراوات البارد، وعاد كل شيء طبيعياً على مائدة العشاء، وفجأةً نهضت وقبل أن تصل إلى حوض الغسل في المطبخ، انحنت وتقيأت، وإذا بدموع الاعتذار والصدمة الناجمة عن القيء المفاجئ تنهمر، فلوّحت لأبيها بيدها قائلةً:

- أنا سأنظفها! أنا بارعةٌ في التنظيف، فهذا عملي في الفندق!

وبدأت محاولة العلاج من إدمانه للكحول (كان العلاج بلا جدوى، فبعد فترةٍ قصيرةٍ وجد حيلةً أخرى وكان يلجأ إليها قبل عودة تشن تشن إلى البيت)، ومع مضي الأيام أحسّت أنها صارت

ربة البيت، ليس فقط لأنها تعتني بأبيها، بل لأن عنايتها شملت أيضًا أخاها.

كانت تشن تشن تحب أخاها بشدة، فقد اعتادت أن تغمر الآخرين بحبها، لأنها شعرت أن الجميع يفوقها قوةً وذكاءً ومعرفةً، ومنذ الصغر وهو يفوقها في الذكاء، فكان دومًا في عينيها مثل طالب جامعي، فأحسّت أنه ما من ضرورةٍ ليلتحق بالجامعة، لأنه ما من أحدٍ سيهتم ويسأله عن الشهادة الجامعية.

وفجأةً انتبهت إلى أن أخاها الوسيم، متقد الذكاء، صار حزينًا، وقد انغمس في هذه الحالة منذ أن توفيت أمهما، وتبدّلت أحواله وتعدّر عليه الحصول على وظيفةٍ مناسبة (على الرغم من أن عمله في الزواج كان أفضل بكثير من تجارة الخردة التي يعمل بها خي بي)، كما أن أباهما كان يسبه ويضربه وهو سكران، فأشفقت عليه ورأفت بحاله، لكن حزنه هذه المرة كان يختلف عن حزنه المعتاد، فصار كأنه نصف حي ونصف ميت، وعندما كان يتناول الطعام، كان الطعام هو الذي يتناوله، ويشاهد التلفاز وكأن التلفاز هو الذي يشاهده، ويذهب إلى العمل ويعود بصمتٍ مُريبٍ مثل الصنم!

وسألت نفسها: ماذا حدث لهذا البيت؟ وتمنّت من أعماق قلبها أن تتحسّن حالة أبيها وأخيها، فكانت تحاول أن تسحبهما من الهاوية التي تردّيا إليها، ولتحرّي الصدق، كانت فتاةً قوية وفعلت الكثير من أجلهما!

أمعنت التفكير في حالة أخيها، لكن عقلها وذكاءها العاطفي لم يدلاها على شيء. وفي هذا الوقت كانت السماء ترأف بحالها، وإذا بالحب يدق باب قلب تشن تشن!

(٣)

وربما يكون الحب لعاملة بسيطة في فندق صغير مجرد شيء عادي، وربما أعجز عن التعبير عما أريد قوله، لكن في النهاية لا توجد علاقة منطقية مطلقة بين كونك مفكرًا أو كونك جاهلاً، أو بين الفروق الطبقة بين البشر وأهدافهم في الحياة، أو بين التقدّم الذي يحققه الإنسان ونمط حياته.

على سبيل المثال، في فندق صغير تسنح فيه الفرصة للعاملات لمقابلة نزلاء مهمّين من سوتشو ويانتشو وونتشو وغيرهم من رجال الأعمال من مقاطعة تشو، يحتاجون إلى غسل الملابس وكيّها وإحضار الطعام إلى الغرفة، ودفع المزيد من الأموال للعاملات لإرسال الفاكسات وغيرها من هذه الخدمات (ولأن الفندق صغير، فربما لا يوجد به مركز خدمة رجال الأعمال)، ولا شك أن هؤلاء النزلاء من الطبقات المتدنية وجوههم مغبرة ولهجاتهم قوية، يمكنون ليلة أو ليلتين ويستعملون جميع المناشف ويتركونها متسخة، ويتركون أغطية الفراش في كل مكان، ويحملون معهم ما يمكن حمله من الغرفة. لكن ما الجدوى من التعرّف على هؤلاء النزلاء الذين يروحون ويأتون مثل طيور مهاجرة؟ كان هناك منفعة كبيرة من وراء معرفتهم؛ فجميع عاملات النظافة في الفندق يعرفون قصة أفضل فندق في المدينة، وتحكي القصة أن عاملات النظافة في الفندق بفضل علاقات نزلاء الفندق، من جميع أنحاء العالم (وبالطبع علاقتهن بالنزلاء)،

ننحن في الزواج من رجال أثرياء، والكثيرات منهن ذهبن إلى هونغ كونغ وسنغافورة وتايوان والولايات المتحدة! وهذه هي أسطورة هذه المهنة وقوتها المغرية لتغيير الهرم الاجتماعي، فطالما تمتلك الفتاة شيئاً من الجمال و شيئاً من الرغبة و شيئاً من الحظ، فيمكن أن تجد بمتهى السهولة الحياة المرفهة، وكانت عاملات النظافة في الفندق في حاجة إلى مثل هذا الأمل البارق!

ودعونا نتحدث عن الرجل الذي هامت به تشن تشن عشقاً، بدلاً من الحديث عن هذه الفرص الذهبية.

كان شاباً ببشرة داكنة ويدعى خي بي، من أهل الشمال ويتحدث بلهجتهم القوية، ولم يلفت انتباه أي عاملة من عاملات الفندق، وكان الشيء المثير للسخرية هو المشاية المائية التي يبيعها، فكانت شيئاً سخيفاً لا معنى له، ولا أدري من أعطى لها حقوق براءة هذا الاختراع. كانت عبارة عن قدمين كبيرتين مصنوعتين من البلاستيك المطاطي، تربطهما في قدميك حتى تتمكن من الوقوف على سطح الماء وتسير مثل بطّة غبية. ولم يستطع أحد أن يحسّ بأهمية ما يبيعه، أو حتى يصدق أنه يجني الأموال من وراء هذا الاختراع التافه!

لكن هل كان بالفعل يكسب الأموال من وراء هذا الاختراع العجيب؟ كان يسافر إلى المدن الصينية التي تبدو متطورة ويمكن أن يسوق فيها هذه المشاية العجيبة، وكان أول ما يبحث عنه بمجرد أن تطأ قدماه المدينة هو العثور على فندق صغير ووسيلة انتقال سهلة، ثم يذهب إلى جميع المتزهات ويحاول إقناع الإدارة بأن شراء المشاية، للسير بها في البحيرات الصناعية، يمكن أن يجذب للمنتزه المزيد من السياح.

وقد علق خي بي آمالاً عريضةً على هذه المدينة الواقعة على ضفاف النهر، لأن لها واجهة بحرية كبيرة على الطراز الكلاسيكي، وسرح بخياله الرومانتيكي المحدود، فرأى صورة حشودٍ من السياح المصطفين، يصطفون في طوابير لارتداء المشاية المائية، ليطفوا بها على الجدران البيضاء والأفاريز السوداء لتلك المنازل التي نراها في اللوحات، في المعارض الفنية، ويستعرضون جمال المشاية المائية، فأحس أن هذه المدينة لا شك أنها ستكون مثل منجم ذهب وسيحقق فيها نجاحاً مذهلاً ويطوي كل صفحات الفشل!

ذهب إلى الفندق الصغير الذي تعمل به تشن تشن وقلبه عامراً بالأمل، وحجز ثلاث ليالٍ، من الجمعة إلى الأحد، وذهب خلالها إلى جميع المنتزهات بالمدينة، وحكى عن الاختراع بمتهى الحماسة وبمتهى الشغف، لكن من دون جدوى وعاد خائب المسعى محطماً القلب.

رأته ليلتها عاملات الفندق وطالعهن وجهه الذي ازداد عبوساً وقتامة، وتحدثن سراً بينهما: "أيها الرجل الفقير، أظن أنك ستنجح؟ لا تحلم! الأمر ليس بهذه السهولة، فعليك أن تبذل المزيد من الجهد لتحقيق النجاح!"

وفي عشية مغادرته الفندق اشترى النبيذ ولم يشتر طعاماً وكان يحمل حقيبة كبيرة، مليئة بالمشايات المائية، وقد أحضر الكثير منها هذه الزيارة، على الرغم من أنه كان يحسب أن ما أحضره ليس كافياً.

وخلال نصف ساعة لعبت الخمر برأسه وأعاد شحذ طاقته، وشرع يرقص في أنحاء الغرفة الضيقة وهو يلقي بالأغراض في كل مكان، ويمزق كل شيء حوله ويلقي به في كل نحو من الأنحاء مثل

فتاة تنثر الورود، حتى صارت الغرفة مثل قفص حيوانات وتضوّعت منها رائحة كريهة، وأخيراً غطّ الوحش الكاسر في النوم، واستيقظ في الرابعة فجرًا عندما أحسّ بعطش شديد، وشعر وكأنه مقيّد وملقى في حفرة عميقة، فهاتف خدمة الغرف وطلب ماءً.

ردّت زميلة تشن تشن على مكالمته، واعتقدت في البداية أنه رجل أعمال صغير، وإحضار المياه لغرفته في هذه الساعة ربما تكون فرصتها الذهبية، لكن عندما أدركت أنه خي بي، صاحب البشرة الداكنة، غضبت لأنها تعلم أنه مفلس ولا جدوى من توصيل المياه إلى غرفته، فطلبت من تشن تشن أن تردّ على المكالمات، وسترّد هي على المكالمات التالية.

حملت تشن تشن المياه، وعندما دخلت الغرفة مست أنفها رائحة الكحول القوية ففطنت إلى الأمر، فلديها خبرة كبيرة في التعامل مع الأشخاص الذين ينامون وهم في حالة سكر تامة، ومن دون أدنى تردّد انتقلت لتؤدي هذا الدور مثلما كانت تفعل مع أبيها.

رفعت الستائر المسدلة وفتحت النافذة، فتسلّلت نسائم الصباح الباردة وصفعت وجهه، ثم سكبت نصف كوب من الماء البارد وطلبت منه أن يتغرّغ به، ثم سكبت له كوبًا من الماء البارد ورشت فيه السكر لإزالة بقايا الكحول من فمه. وبينما كان يبتلع السكر، راحت وجمعت الشراشف والأغطية المتسخة، ونظفت القيء الجاف من على الفراش والكرسي، كما نظفت حذاءه الذي طاله القيء.

كان خي بي يستلقي على الفراش وشعره المتعرق قد غطى وجهه، وحاول جاهدًا أن يبقى على عین مفتوحة ليتابع حركاتها. تحرّكت ساقها بدقّة ومنهجية شديدة داخل الزي الأحمر الداكن، الذي يصل

طوله إلى الركبتين، وكلما انحنت مررت يدها على شعرها، ودست خصلة خلف أذنها (وكان خلف أذنها شامة صغيرة)، وقد أبدت تدمراً مما تفعله، لكنها أصرت على إظهار قدرتها على جعل المكان نظيفاً ومرتباً. وفي الساعات التي سبقت طلوع الفجر، كان خي بي التائه عن الوعي يحدّق النظر في مؤخرتها وهي تنحني، فخالطه شعورٌ غريبٌ بأنه على استعداد أن يقضي بقية حياته يركض وراء هذه الفتاة مثل جرو صغير!

وسرعان ما انتهت وأعادت الغرفة إلى طبيعتها، وعندما أوشكت على المغادرة سألتها:

- ما اسمك؟

وكان لسانه ثقیلاً ومخدراً ومتورماً، لكنه حاول جاهداً أن يسألها.

- ماذا حدث؟

أحسّت بالغضب وظنت أنه يريد أن يشتكي عليها.

- المرة القادمة عندما آتي سأسأل عنك. شكراً لك!

حاول بشقّ الأنفُس الجلوس، لكن فجأةً راح يبكي بكاءً حاراً، والسماء وحدها هي التي كانت تعرف لماذا يبكي؛ فقد تذكر الأماكن الفخمة البعيدة التي زارها، وكل الأيام والليالي الطويلة والساعات المبكرة وهو يركض في كل مكان وقبعته تقطر بالعرق، ويحتمي تحت الإفريز من المطر مثل كتكوتٍ صغير، ويظل يسير على البحيرات الصناعية بالمشاية مثل مهرج، وفي بعض الأحيان كان يتصرّف مثل الأحمق ويلوح بيديه، ثم ارتسم أمامه المشهد الليلي في غرفته وهو يشرب حتى يتقيأ. هذا المشهد كان يتكرّر كل ليلة، لكن هذه المرة

جاءت فتاة إلى غرفته ولم تضع يدها على أنفها أو تشعر بالاشمئزاز أو هاتفت مدير الوردية مفتول العضلات، أو حتى طلبت منه دفع أي مبالغ تعويضية عن التلفيات التي أحدثها في الغرفة.

عندما نظر إليها أحسّ كأنها حورية من الحوريات، وعيناها كأنهما مصنوعتان من الذهب الخالص، بينما هو كان مثل كتلة عديمة الجدوى لا يقوى حتى على مسك عيدان تناول الطعام. وعندما رأت دموعه التي تفوح برائحة الخمر، سرعان ما فطنت إلى طبيعة هذه الدموع، فعندما كان يستفيق أبوها من حالة السكر، كان يذرف مثل هذه الدموع؛ كانت وظيفة جسدية مثلها مثل إخراج البول والعرق، وقبل أن تجيبه على سؤاله فكّرت للحظات ثم قالت:

- رقم عملي: ٩٦١٧

وفكّرت أنه سينسى الرقم بمجرد مغادرتها.

فسحب لسانه المخدّر وحاول أن يكتب به الأرقام الأربعة على صفحة ذهنه. وحاول بشق الأنفس أن يفتح عينيه على وسعهما ليحفر صفحة وجهها الصبوح على عينيه، حتى لا ينساها إلى الأبد. ارتعدت تشن تشن وفجأةً أحسّت أن قلبها ينتفض في صدرها.

ماذا يحدث؟! أحسّت أن جزءًا صغيرًا في جسدها يتحرك، وسألت نفسها: هل هذا الشيء موجود بالفعل في الحياة؟ وكادت تنفلت منها ضحكة تجلجل في الأنحاء.

(٤)

أعادت تشن تشن التفكير في مشكلة أخيها وفطنت أن علته هي الحب، فصفقت وأرخت لخيالها المحدود العنان، وشرعت تفكر في محيط الفتيات حوله، والفتاة التي في مثل عمره وتناسبه. ومثل شرطي يستعرض أدلة الاتهام أمامه، إذا بالدليل يقع أمامها مثل قملة وقعت على رأس أصلع، وراحت تعمل فكرها وتبحث عن المزيد من الأدلة.

وفجأة، أمالت رأسها وصرت على أسنانها، وتذكرت أنه ذات يوم عندما كانت العلاقة طيبة بين العائلتين، خرج الأربعة في مرة غير مسبقة للتسوق واشتروا الكثير من الأغراض الرخيصة، فكم كانت تشن تشن تعشق الفصال عند الشراء، وتذكرت تفاصيل هذا اليوم بوضوح كأنه الأمس.

كان يوم سبت في أواخر الربيع، وبعد تناول العشاء كان قمر السماء ساطعًا ومشرقًا، والهواء الدافئ كان يندفع من النافذة وكأنه يُغريهم للخروج والاستمتاع بهذه الأمسية الدافئة.

ليلتها أمسكت تشن تشن بكوب ماء دافئ، وراحت تنفخ فيه وذرعت الغرفة ذهابًا وإيابًا، وهي لا تحيد عينيها عن شياو لان، وكانت الثانية تمسك بكتاب يقلب النسيم صفحاته. رن صوت في

أغوارها: هل الناس مختلفون إلى هذا الحد؟ تبدو شياو لان مذهلة وهي ترتدي سترةً مستديرة العنق، ويطل منها عنقها الشامخ كقطعةٍ من مرمر، وشعرها بلون الحبر الثقيل! كانت بارعة الحسن تشبه كعكةً ناضجةً أو ثمرة خوخ يانعة أو بطيخة حلوة، فكيف لا يسيل لعاب الشباب عليها؟ نظرت إلى شياو باي الذي كان منهمكًا بتناول الطعام ثم ألقت نظرةً على أخيها.

كان يجلس إلى المائدة ويبدو عليه بعض التوتر، لكن بعد أن تسلم عمله، صار أكثر مرونة عن ذي قبل واعتاد تبادل الحديث معهم، كما شرع يدخن بعد تناول العشاء، وبتلقائيةٍ شديدة سحب سيجارة وكأنه يدخن منذ مائة عام. لم تكن السيجارة من النوع الفاخر، لكن طريقته في التدخين كانت رائعة، الرأس مائلة بزاوية واليد تمسك بالسيجارة بكسل، ودوائر من الدخان ترتجف في الهواء وتلتمع تحت ذقنه القصيرة السوداء. تأثرت تشن تشن وأحسّت أن طريقة تدخين أخيها من أروع ما رأت في حياتها.

وفجأةً استوى تشنغ جونغ واقفاً ووضع يديه في جيبي بنطاله، ودار نصف دائرة في الغرفة ثم قال:

- شياو باي، ما رأيك في الذهاب إلى شارع مفترق الطرق، سأدعوك لتناول الآيس كريم!

فنظرت تشن تشن إلى شياو باي بذهول، وكان سرعان ما نهض حتى كاد يسقط الكرسي، فقد زادت حماسة هذا الصغير البدين عندما سمع كلمة طعام!

- أريد الذهاب معكما، ولنذهب أيضًا إلى السوق الليلي.

لا يمكن أن تفوّت تشن تشن فرصة الخروج، وسرعان ما اتجهت إلى غرفتها وبدّلت ملابسها، فبدأ الحزن على شياو باي، وغمغم قائلاً: أرغب في أن أخرج معه وحدي! ارتدت تشن تشن تنورة قصيرة من الجينز، ووضعت الأبيض والأحمر والأسود على وجهها ثم خرجت إليهم، وإذا بها تنظر إلى أخيها وهو ينظر إلى شياو لان نظرة لم ينظر مثلها من قبل، حتى أبوها السكّير لم ينظر يوماً إلى أمها مثل هذه النظرة. يا له من شاب مسكين طيب القلب! وراح يقول لها بتوسّل:

- لماذا لا تأتي معنا ولو مرة واحدة، أنا أدعوكم الليلة!

انتبهت تشن تشن أن الحمرة اعتلت وجه شياو لان، لكنها حافظت على هدوئها، واستدارت لشياو باي وقالت:

- أمي، لن تطمنن إذا خرجت بمفردك، سأذهب وأخبرها!

أليس ما قالته هو موافقة على دعوة تشنغ جونغ؟

لم يشعره ردّها بسعادة، فأطرق وراح يصلح من ياقة قميصه، وأخرجت تشن تشن امرأة صغيرة وراحت تفحص نفسها، فأحسّت برضا كبير عن أحمر الشفاه الصارخ، لكن ما ضايقها هو تجاهل أخيها لها وعدم دعوتها للخروج معهم، فلماذا يدعو شياو باي لتناول الآيس كريم ويوجه دعوة صريحة إلى شياو لان ويتجاهل أخته الصغيرة! فقالت في نفسها: لا يهم، فلا داعي لمزيد من التساؤلات، فلتخرج وتتجوّل في السوق الليلي!

كان شارع مفترق الطرق هو المكان الأثير لتشن تشن، لأنه شارعٌ يشتعل به الضجيج، وقد بني العديد من الأكشاك على الجانبين، حيث

الأغطية البلاستيكية الممزقة ترفرف في الهواء تحت أضواء المصابيح الساطعة، التي تشابكت مع الأسلاك الكهربائية، وكان أصحاب الأكشاك يبيعون العديد من البضائع مثل الجوارب والملابس الداخلية وأحمر الشفاه والبطاريات والتوفو المقلي وأحذية الأطفال، وكان هناك أكشاكٌ مخصصة لوزن الجسد بالميزان الرقمي وثقب الأذنين، الذي يستغرق ثلاث دقائق دون ألم، فبدأ المشهد فوضوياً، وكأن منطقة المصانع تجمعت في هذا الشارع بعشوائية، وفجأةً حاصرتهم الروائح وطوّقتهم الألوان.

وأمام كشكٍ صغير توقّف تشنغ جونغ وحيّا البائع بعينه، بشيءٍ من الغطرسة وهو يفرق أصابعه، وطلب لكل واحد منهم شطيرة آيس كريم، ثم أخرج سيجارةً وأشعلها وهو يهزّ رأسه ويمدُّ بصره صوب الشارع المعتم، ثم وضع يده في جيب بنطاله، وراح يمعن النظر في الشارع المعتم، فبدأ هو والشارع في غاية الانسجام! نظرت تشن تشن إلى أخيها وهي تلعق الآيس كريم، فأحسّت أنه شابٌ وسيم جداً يشبه رجل العصابات الصغيرة، وبدأ مختلفاً تماماً عما يكون عليه في البيت، وإذا به يقول بفخر:

- من يرغب اليوم في شراء أي شيء سأتكفل بالدفع! وإذا نفدت النقود معي، سأذهب وألعب مبارتين وأحصل على ضعف المبلغ!

ففطنت تشن تشن أنه يتحدث عن البلياردو، فهي اللعبة الوحيدة التي لا يمكن أن يخسر فيها، وكانت النقود التي يشتري بها علب السجائر يتحصّل عليها من الفوز في لعب البلياردو.

وسرعان ما انتهت تشن تشن من الآيس كريم، وحسّت -بعينها- شياو لان للانتهاء منه بسرعة، لكنها كانت تأكل كما لو أنها تبتلع دواءً

مرًا، فقد عقدت حاجبيها وكأنها تشعر بالاستياء من شيء ما، فرنَّ صوتٌ في أعماق تشن تشن: ما هذه الفتاة الغريبة! ما الشيء الذي لا يروقها!

قادهم إلى الطريق وتحدّث في أثناء مرورهم بكشك البنادق الهوائية وشرائط الفيديو والألعاب، وكشك كان صاحبه ينادي ويقول: "اشترِ واحدة واحصل على الأخرى مجانًا!"، وبمجموعة من الشباب الواقفين على جانب الطريق، وعندما مرَّ بجانب سيارة الشرطة ذات الثلاث عجلات مضاءة الأنوار قال:

- هنا يمكن أن يخدعوك والشرطة تعرف ألاعيبهم، لكن لا يستطيعون اتخاذ إجراء صارم معهم. انظروا هناك؛ إنهم يقامرون على لعبة البلياردو، وكل ضربة تعتبر مكسبًا، ويمكن المقامرة على السجائر أو تذاكر شرائط الفيديو أو الوجبات الخفيفة، لكن أنا أقامر فقط على المال.

وبعد أن قادهم لبعض الوقت، لم يعد يرغب في أن يلعب دور القائد، واستعاد مرةً أخرى لطفه وبساطته، وأومأ برأسه في حرج قائلاً:

- لا يمكن اصطحابكم إلى صالة البلياردو، الصالة صاحبة جدًّا! هل شاهد أحدٌ منكم فيلم "كازبلانكا*" أو "الخطوات التسع والثلاثون**" أو "المترو الأخير***"؟ اصطحبني صديقي ذات ليلة وشاهدتها.

* فيلم رومانسي صدر عام ١٩٤٢ خلال الحرب العالمية الثانية في الدار البيضاء، المغرب.
[المترجمة]

** رواية مغامرات للكاتب الإسكتلندي جون بوكان وتحولت فيما بعد إلى مسلسل تليفزيوني وفيلم سينمائي. [المترجمة]

*** فيلم فرنسي تاريخي وصدر عام ١٩٨٠. [المترجمة]

لم يرق لتشن تشن حديث أخيها، لأنها كانت تعلم أن كلامه كله موجةٌ إلى شياو لان، لكن شياو لان كانت تنظر بوجهٍ متغضن، كما لو أن شخصًا يراقبها، وكأنها أقسمت ألا يكون لها صلة بهذا المكان! أحسَّت تشن تشن بالغضب ورنَّ صوتٌ آخرٌ في أغوارها يقول: حتى لو كنت تحصيلين على أعلى الدرجات، وحتى لو أنكِ سيدة الحسن والدلال، فلا يحق لك أن تتصرفي بهذه الطريقة!

وقبل أن تشتعل ثورة الغضب داخلها، لفت انتباهها شجارٌ على زاوية الشارع، وقد اعتاد الناس الشجار في شارع مفترق الطرق، فإذا كنت محظوظًا يمكن أن ترى شجارين أو ثلاثة كل يوم. واحتشدت جموع المارة حولهم، وكان الجميع يقف مشدوهاً فاتحاً فمه.

وقف تشنغ جونغ يراقب الشجار ليميز من العدو ومن الصديق، وإذا به فجأةً يخلع قميصه ويندفع عاري الصدر يشق الجموع، ويدافع عن رجل قصير كان يتلقى اللكمات، فأصابته لكمةٌ على ظهره، فركله الرجل، قصير القامة، في قدمه بغضب، قائلاً: "أنا أستطيع الدفاع عن نفسي!"، فربت تشنغ جونغ على ظهره قائلاً: "ستموت من الضرب!"

استغرق هذا المشهد مدة دقيقتين ثم انفَضَّ الشجار وتفرقت الجموع، وسرعان ما ارتدى تشنغ جونغ قميصه وانتبهت تشن تشن أنه تناول القميص من شياو لان وشكرها بصوتٍ هامس، ثم شرع يغلق أزرار القميص، وقال بجدية كما لو أنه يلحن شياو باي درسًا:

- وقت الشجار لا بدّ أن أخلع قميصي، وفي بعض الأوقات أخلع سروالي إذا شعرت أنه سيتمزق. لا بدّ أن تتشاجر وأنت عاري الصدر. نظرت تشن تشن إلى شياو باي، فألفت عينيه تتألقان وقد تغيّر

مزاجه، بينما تنهّد شياو باي ومرر يده الهزيلة على جسده المترهل.

تجول الأربعة في السوق، ولم تكن البضائع فاخرة كما كانت تبدو، لكن الأسعار كانت مغرية جداً! وكان السوق الليلي هو المكان الوحيد في المنطقة الذي يحفز على الشراء ببذخ، فاشترى الآيس كريم وتسعة أسياخ من لحم الضأن المشوي، ووزنوا أنفسهم على الميزان الرقمي (رفض شياو باي أن يستعمله)، ولعبوا لعبة البنادق الهوائية (لم تلعب شياو لان)، ومضوا إلى كشك الألعاب* (لم يلعب تشنغ جونغ)، واشترت تشن تشن علبة ظلال الجفون، ذات الأربعة ألوان، واشترى شياو باي "مكعب سودوكو" وكيسين من الفول السوداني المحمص، وبعد إلحاح كبير من تشنغ جونغ، اضطرت شياو لان أن تقبل شراء كشاف يد صغير، لونه أخضر، فوضعه في يد شياو باي قائلاً:

- استعمله عندما تنقطع الكهرباء أو إذا استيقظت فجأة في الليل!

وعند اقتراب المساء عادوا إلى دراجاتهم محملين بأكياس الهدايا، وكان الصخب بدأ يقل في شارع مفترق الطرق، وبدأت الأكشاك تغلق أبوابها، وحمل أصحابها وراءهم حقائب جلدية ثقيلة، وتجمعت أمامها قصاصات الورق والأكياس البلاستيكية الممزقة، أما صالونات الحلاقة المشكوك في أمرها والفنادق الصغيرة، كانت أنوارها لا تزال تكافح من أجل البقاء في هذه الساعة المتأخرة.

ظل تشنغ جونغ يقرع جرس الدراجة على طول الطريق، وكأنه يقوم بدورية في هذه المنطقة الخربة، بينما جلس شياو باي خلفه

* لعبة كلاسيكية بسيطة وهي رمي الحلقات فوق الزجاجات الموضوعة أو أشياء أخرى، ومن يصب الهدف يفر بجائزة. [الترجمة]

عاقداً قدميه، وكالعادة قادت شياو لان دراجتها بصمت، وظل الهواء يحرك الكشاف الصغير الملفوف بكيس بلاستيكي أحمر، وكانت ألقت به في سلة الدراجة.

وعندما عادت ذكريات السنين التي ولّت وهم يتسوقون من السوق الليلي في شارع مفترق الطرق، أحسّت تشن تشن كما لو أنها ترتدي التنورة الجينز الضيقة ذاتها، وتكافح على دراجتها لتلحق بهم وهي تنظر إلى ظهورهم من الخلف، لكن الآن صارت الرؤية أكثر وضوحاً، وانتبهت إلى التفاصيل الصغيرة والأشياء التي لم ترها ليلتها، وربطت خيوط الأشياء بعضها ببعض، وتكشفت أمامها أستار الحقيقة! فصفعت على فخذاها بعد أن أدركت الحقيقة الغائبة.

وعندما كشفت تشن تشن مشكلة أخيها، لم تبال بمدى صحة تكهناتها، لكنها أحسّت بالخوف وأشفقت على أخيها المسكين، وسألت نفسها: لماذا من بين كل الفتيات يقع أخوها في غرام شياو لان؟ هذه الفتاة التي دوّما تصدّه وتقابل به بوجه عابس وتعامله بمتهمى الفتور، وناهيك على أنها قد التحقت بالجامعة وصارت مثل نجمة لامعة بعيدة، لن يقدر على قطعها. وبلا شك أن هذا سيجعله يتألم وهي لا تريده أن يتألم، إذًا ينبغي أن تتحرك وتقطف النجمة الساطعة من أجله!

استولى عليها القلق وأحسّت بخطورة الموقف وضرورة إيجاد حلٍّ للمشكلة، أليست هي النور الروحي في هذا البيت؟ أليس من واجبها أن تجد حلاً لمشكلته، مثلما فعلت مع أبيها عندما شربت مكانه الخمر؟ فدوّمًا كانت تحاول أن تتقمص هذه الروح العظيمة.

وبينما كانت تفكر في أمر أخيها، كانت تمرّ مصادفةً بالقرب من مركز تسوّق فاخر في المدينة، ونادرًا ما كانت تدخل هذا المركز، فقد اعتادت الشراء من السوق الليلي، في شارع مفترق الطرق أو من أسواق بضائع الجملة، حتى إنها كانت تندهش من ارتياد البعض على مثل هذه المراكز وإنفاق مثل هذه المبالغ لشراء الأغراض، لكنها نوت الدخول هذه المرة، ومضت إلى متجر الحلبي واختارت وشاحًا مطرّزا من الحرير الخالص، وتظاهرت بأنها لم تنظر إلى ثمنه، رغم أنها لمحتة في البداية. وكانت قد عقدت العزم على أنها ستقطف نجمة السماء لأخيها وسوف تذهب وتحدّث معها بصراحة، فإذا كان هناك فرصة أمام هذا الحب لينمو ويشق عنان القلب، فلن تقف في سبيله، أما إذا باءت المحاولة بالفشل، فعلى أخيها أن يرفع راية الاستسلام. ستذهب إليها وبطريقة رومانتيكية أنيقة ستظاهر أن أخاها يريد أن يهديها هذا الشاح!

(٥)

وضعت تشن تشن خطتها وسرعان ما بدأت بالتنفيذ. ولأن شياو لان فتاة متميزة بين فتيات منطقة المصانع، فكان من السهل معرفة أحوالها والوصول إلى مكانها. وسرعان ما بدّلت زي عملها، الأحمر الداكن، وانطلقت إلى جامعة المعلمين، وكانت المرة الأولى التي تزور مثل هذا المكان الأنيق، ومن أجل أخيها لم تحس أي رهبة.

في عام ١٩٩٧ كان الحرم الجامعي لا يزال تحيطه أجواء من القدسية والطهر والبراءة. جلست تشن تشن وسط نسيم النهار بالقرب من سكن الفتيات وهي تقلّب بصرها فيما حولها، فرأت فتيات جامعات بعضهن يرتدين سراويل، وبعضهن يرتدين تنورات ويتأبطن الكتب ويمضين بشعر قصير وبعضهن بشعر طويل، بعضهن يسرن في مجموعات وبعضهن يسرن بمفردهن، وبمجرّد النظر إليهن تستطيع أن تعرف أنهن طالبات جامعات!

ظلت تراقبهن باهتمام شديد، وفي الوقت نفسه راحت تقيّم أخاها في عقلها، نعم، أخوها يمتلك عينيّن رائعتين، لكن لا شك أن هذا الدرب وعمرٌ جدًّا! نعم، هو عامل زجاج ماهر جدًّا في مهنته، وهذا الحرم الجامعي الكبير لا يوجد به شخصٌ واحد يمتلك مهارته في نفخ الزجاج، وهذه هي نقطة قوته، كما إنه خبيرٌ في لعب البلياردو،

ويستطيع أن يجلس على كرسي قابل للطي في شارع مفترق الطرق ويضرب أي شخص هناك. فلم يسعها إلا أن تبتسم، وأحسّت أنها انفصلت عن العالم حولها حتى كادت تفقد شياو لان وسط الفتيات اللاتي يمررن من أمامها.

لم تلتقيا منذ ثلاث سنوات، وجاءت وهي تمضي بكسل وسط الفتيات، ولم يكن يبدو على هيئتها أنها قادمة من منطقة المصانع، بل كانت تبدو وكأنها فتاة قادمة من العاصمة بكين أو من شنغهاي!

وعندما أوشكت الفتيات على دخول مبنى السكن عادت إلى رشدها، وبأعلى صوتها نادت اسم شياو لان. كان صوتها مثل نيران ملتبهة شقّت الجموع، فتسمّرت شياو لان وسط حشد الفتيات في ذهولٍ وغضب، وطلبت من زميلات الصعود.

اتجهت تشن تشن نحوها وقد ارتدت تنورة حمراء ضيقة قائمة:

- هذا الوشاح لك!

وتجاهلت كل العيون التي كانت تطلّ من سكن الفتيات، وعيون الطلاب والأساتذة المارين بجانبهما، وبحركة رشيقة أخرجت كيسًا ورقيًا، وبحماسة بالغه مزقته، ثم أخرجت وشاحًا مطرّزا بألوان كثيرة وقدمته لها.

- حصلت على دوام كامل في الفندق وتقاضيت راتب الشهر الماضي!

قالت تشن تشن وعلى شفيتها ابتسامة حلوة، وكان من المفترض أن تمضي الأمور على نحوٍ وردي بعد أن تعطيها هذه الهدية الغالية.

التمعت عينا شياو لان واستدعت ذكريات راحت منذ زمن بعيد، حتى إنها تذكّرت ذلك الحوار الرتيب الذي دار بينهما عن فتيات الجامعة والعلوم الإنسانية، فمدّت يدها لكنها توقفت في المنتصف واكتفت فقط أن تحييها بشفتيها.

فأنزلت تشن تشن يدها، ولفتت الوشاح حول عنقها مرتين، مثل بائع متجول يحاول بيع بضاعته، قائلة:

- انظري، الوشاح يليق ببشرتك البيضاء! وشاح من الحرير الخالص ومطرّز من الجانبين. من الأفضل أن تلفيه أنت، فلن تصدقي جماله، انظري إليه!

ثم وضعته مرة أخرى أمام عينيها.

أحسّت شياو لان بالحرّج واضطرت في النهاية إلى قبوله، وقالت وهي تطوي الوشاح الذي كان يتطاير في مهبّ الريح:

- لا شك أنه كلفك الكثير من المال!

- لن أضيع وقتك! أعلم أن لديك الكثير من الواجبات ووقتك محدود! أريد أن أتحدّث معك في أمرٍ مهم وسرعان ما أغادر.

فعضّت على شفتيها وضغطت على حافة ملابسها، وكانت شياو لان قد شاهدت منذ سنوات المسلسل الأمريكي "اكذب علي" عبر الإنترنت، وكان المسلسل يحتوي على الكثير من التحليلات والاستدلالات للغة الجسد، فأحسّت أن إيماءتها تتطابق تمام المطابقة مع القواعد الأساسية للغة الجسد، فكان عضّها لشفتيها وإمساکها بحافة ملابسها يبرهnan على القلق والتردد.

ولا شكّ أن شياو لان في ذلك الوقت لم تكن فتاة تأبه بمشاعر الآخرين، فأحسّت بالغضب ولم يرقها منطق تشن تشن الغريب في أن هذا الوشاح سيمنحها قوةً خاصة، علاوةً على أنه وشاحٌ كثير النقوش وغير أنيق!

فقالت بلهجة تُشي بعدم اللياقة:

- ما الأمر؟

- الأمر يتعلّق بك، أنتِ وتشنغ جونغ!

كانت تشن تشن تشعر بالحرج والتوتر، فتلعثمت الكلمات على شفيتها وراحت تنظر حولها يميناً ويساراً، وكما جاء في المسلسل التلفزيوني "الكذب علي" كانت تعبيراتها تدلّ على التردّد والقلق، لكنها أجبرت نفسها على الكلام وأخيراً قالت:

- لا شكّ أنك تعرفين هذا الأمر!

- أعرف ماذا؟

ضاقت ذرعاً بكلامها وراحت تسأل نفسها: ما المفترض أن تعرفه؟ ما هو الموضوع الذي يجمعها بتشنغ جونغ؟

- أنتِ لا تعرفين؟

وفجأةً نفرت عروق جبينها واتسعت عيناها، ونظرت إليها بسعادة، وكما الماء ينسكب من وعاءٍ كبير قالت:

- أخي يحبكِ.. يحبكِ بشدة! هذا المسكين منذ أن انفصلت العائلتان وهو حزينٌ شارد الذهن لا يبتسم! أنا لا أستطيع رؤيته على هذه الحال، لذا جئتُ إليك لأحدّث معكِ!

وعندما وصلت إلى هنا كاد لعباها يخرج من فمها.

جالت شياو لان ببصرها في كل مكان، ثم وضعت يديها على أذنيها، وقالت:

- اسكتي! كفى!

فتوقفت تشن تشن عن الكلام، وانتظرت حتى ترفع يديها عن أذنها ثم استطردت:

- نحن لسنا غرباء! هل يمكن أن تبادلوه الحب، فهو لا يستطيع أن يعيش من دونك. أخي الآن يعمل في نقابة العمال وترك عمله في نفخ الزجاج، ما رأيك؟

مدّت ذقنها إلى الأمام وبدأت في غاية السعادة مثل تلك الليلة وهي تشتري أحمر الشفاه من سوق الجملة وتساهم في ثمنه!

وقد بلغ غضب شياو لان ذروته، فسألتها بحدة:

- هل طلب منك أن تأتي وتحدثني معي؟

فقالت، وهي تصفع صدرها بقوة، وكأنها محاربة بأسلة:

- بالطبع لا! أنا جئت من نفسي ولا أريد أن أعلم أحدًا بالأمر. لا تظني أنه ذلك الرجل القوي الذي يتشاجر في شارع مفترق الطرق، هو أضعف مما تتصورين، ولا بد أن ينوب عنه أحد في هذا الأمر المحرج. ما رأيك؟ هل توافقين أم لا؟

- حسنًا سأجيبك: هذا شبه مستحيل!

فجأةً فقدت شياو لان حماستها وسرعان ما غادرت، لكنها لم تلحظ أنها عندما أجابت على السؤال، مسحت شحمة أذنها وهي علامة مؤكدة على الكذب!

فقالت تشن تشن في عجلةٍ وهي تتبعها:

- لماذا ترفضين؟ حتى لو التحقت بالجامعة فلا فرق بينكما!

- التحاقي بالجامعة لا يعني شيئاً، هذه الخطوة الأولى، سأدرس إلى الأبد وسأتقدم لامتحان الماجستير والدكتوراة وما بعد الدكتوراة! ولا أنوي أن أقع في الحب أبداً، حتى لو أحببت فهل سأحب أخيك؟

أسرعت شياو لان من خطوها، لكن ليس صوب سكن البنات بل سارت في طريق صغير يؤدي إلى دورة المياه، وتبعتها تشن تشن وهي تحت من سيرها في تنورتها الضيقة حتى سارت إلى بعيد، وانتبهت أنها لا تزال تحمل الوشاح، فاستدارت لها ولوحت به إشارةً على أنها ترغب في أن تعيده، فارتعدت تشن تشن وفرت هاربةً من أمامها.

لم تبطئ تشن تشن من سيرها إلا عندما اجتازت البوابة الرئيسية للجامعة، فأحسّت بخدرٍ في ساقها وأن الأرض تميد من تحت قدميها. كان شعوراً بالانبهار أكثر من مجرد شعورٍ بخيبة المسعى، وإذا بصوت يرن في أغوارها: ما هذا الطموح الجامح الذي يملؤها! وما هذه الإرادة الفولاذية التي تمتلكها! قد أعلنتها بكل صراحة أنها لن تحب حتى لو جاءها وريث العرش! قالت إنها ستصنع فرقاً مذهلاً وكانت على درايةٍ بكل خطواتها، تمضي في الحياة واثقة الخطى وتعرف طريقها تمام المعرفة، أنها فتاةٌ مذهلة بمعنى الكلمة!

أخي المسكين حتى لو أهديتها مائة وشاح فلن تحبك! فأنت في عينيها لا تساوي شيئاً! لا شيء على الإطلاق! تنهّدت تنهيدةً طويلةً وتركت عواطفها وحماستها تتبخر في الهواء، والآن أيقنت أنها عاجزةٌ عن مساعدة أي شخص.

وفي هذه الحالة البائسة مضت إلى داخل بهو الفندق، المعلق في منتصفه مصباح أسود على شكل أزهار البرقوق، وإذا بها تجد خي بي أمامها، فلم تعرفه في البداية، فقال مبتسمًا:

- أنتِ رقم ٩٦١٧ جئت لأبحث عنكِ!

ثم قال وهو يصفع صدره بيديه:

- سُرقت حقيقتي!

- لماذا تبحث عني؟

وعندما انكشفت أسنانه البيضاء بسبب بشرته الداكنة، فطنت أنه ذلك السكير الذي كان يبكي بسبب الإفراط في شرب الكحول في ذلك الصباح، لكنه بدا في هيئة أفضل من تلك المرة، فجاء وهو يرتدي معطفًا جديدًا وكان به بعض الثنيات من الخلف بسبب ركوب الحافلة فترة طويلة.

- جئت لأشكركِ! لكن ضاعت حقيقتي ولم أعد أملك شيئاً لأعبر لك عن شكري.

ثم ابتسم ابتسامة تنمُّ عن خجل، كأنه ممثِّلٌ صعد على خشبة المسرح، وعندما سطعت الأنوار فجأةً اكتشف أن الديكور غير موجود!

ضحكت تشن تشن وأحسّت بارتياح كبير، لأنها شعرت أنه مثلها، فقد حقيته ولم يعد يملك شيئاً وأصبح أمامها شخصٌ يمكنها مساعدته، كما أن هذا المسكين فقد حقيته، ورغم أن لا صلة له بها، إلا أنه جاء من مكانٍ بعيدٍ ليشكرها.

عربت السعادة في كل خلجة من خلجات نفسها وتهللت أساريرها بالبشر قائلةً:

– ألن تأتي هذه المرة لتبيع المشاية المائية؟

انقضت خمس سنوات ونسى خي بي المشاية المائية، واعتمد على تجارة الخردة وحقق مكاسب خيالية، لكنه لا يزال يتذكّر تعبيرات وجه تشن تشن وهي تقول له: ألن تأتي هذه المرة لتبيع المشاية المائية؟ فأحسّ بالرهبة وودّ لو يصفع وجهه ويصرخ في أعماق نفسه ويقول: أنا أريد الفتاة رقم ٩٦١٧!

لكن لم تكن هذه خطته، فهو لم يأتِ إلى هنا من أجل أن يشكرها فقط، فقد نوى أن يعود إلى تلك المنتزهات المائية ويواصل محاولة بيع المشاية، لكنه فقد حقيته لذلك لم يجد أمامه سوى حجة أن يخبرها بأنه جاء ليشكرها، وكان فقدان حقيته شيئاً في صالحه، فلو لم تُسرق حقيته لما قابل حماه دينغ بوه جانغ وجمع هذه الأموال الطائلة. وفي كل مرة يتذكّر زواجه من تشن تشن يشعر بأنه رجلٌ ذو حظٍ عظيم، ويشكر من أعماق قلبه اللص سارق الحقيقة.

(٦)

في مساء تلك الليلة تبعها إلى البيت مثل ذيل أسود طويل، وكانت الفكرة وليدة اللحظة، فجأة رق قلبها واصطحبت معها لتناول الطعام. ولو لم يرق قلبها في تلك الليلة لما حدث كل هذا، فقد كان لتعاطفها معه تأثير كبير على الأحداث المستقبلية.

كانت تشن تشن من نوعية الفتيات البسيطات؛ تتحدث على سجيتها من دون أن تحسب حساباً للأشياء، وفي الطريق سألتها:

- إذا لم تفقد حقيبتك، هل كنت ستعود لتشكرني؟

فحمل عنها كيس المشتريات، ومن داخل الكيس الشفاف ظهرت بعض المعجنات التي يبيعها الفندق بسعر مخفض للموظفين، ورغم أنها لم تكن بحالة جيدة، إلا أنه لم يهتم بشكلها. ومنذ تلك اللحظة حتى أضحي ملك الخردة، حتى وهو يواعد فتيات أخريات، دومًا يكن لها كامل الاحترام.

جال ببصره في شارع مفترق الطرق، وكان وقتها في مقدرة أن يتسم ويكشف عن أسنانه ناصعة البياض، وينسج لها حديثاً معسولاً يعبث بقلبها، لكنه أبى أن يكذب عليها فهز رأسه وقال:

- أنا لم أجلب لك شيئاً، فضلتُ أن أسألك في البداية لأعرف ماذا تحب لأشتره لك.

- حقًا؟ هل ستشتري لي ما أحبه؟

اعترتها الدهشة فلم يسبق وفكر أحد في سؤالها هذا السؤال، فكل الحب ادخرته عائلتها من أجل أخيها الطفل المعجزة، سؤاله جعلها ترقص فوق السحاب.

- أنا أحب الآيس الكريم ولا أشبع منه، وأحب مستحضرات التجميل وأشتريها من أي متجر، وأستعمل جميع الماركات. أحب الحقائق الجلدية والأحزمة والمظلات الصغيرة والتوفو المقلي، أنا أحب أشياء كثيرة!

أخذت تشير بيديها هنا وهناك، فأشارت إلى أشياء كثيرة ورغم أن ثمنها لم يتجاوز الخمسين يوانًا، إلا أنها أحسّت بفيض من السعادة لم تشعر به من قبل، ولم تكن تعلم أن هذا هو الحب!

نظر إلى أصابعها وهي تشير بها هنا وهناك، مثلما فعل في لقاءهما الأول في ذلك الصباح، وقال بجدية:

- سأشتريها كلها لك!

وكان هذا الوعد الثاني الذي قطعه على نفسه، فأحسّت برجفة في قلبها ورأت ألوان الحياة المبهجة.

وبعد اتباعه توجيهات دينغ بوه جانغ، وهو شبه غائب عن الوعي، للعمل في تجارة الخردة وجمع الأموال، مدفوعًا بحب صادق ورغبة قوية في أن يحيا حياة رغيدة، تحسنت قدراته وإمكانياته بطريقة ملحوظة، وكان يبدو أنه جاء إلى الدنيا ليغدو ملك الخردة، خاصة في منطقة مثل منطقة المصانع العشوائية. وبينما كان العمال يصرخون لإنقاذ حياتهم بسبب خطابات التسريح عن العمل وعمليات شراء

الورش والشركات، غاص هو في كل شبر وفي كل زاوية بمنتهى الجراءة، فكان يتظاهر بالفقر أمام الأغنياء ويتباهى بالغنى أمام الفقراء، ولجأ إلى كل حيلة لتذليل العقبات التي تسبب فيها نواب المديرين وعمال الغلايات وزوجات أمناء المخازن، وأصدقاء الحراس الذين يشربون الخمر، وأحال كل هذه العقبات إلى دروب يحصل منها على قطع الخردة مثل: الخزائن المعدنية وإطارات المخارط، وأكوام من الملفات الورقية، وأنابيب ومضخات المياه، وقاعدة فحم وقفايات العمال الواقية، وقصاصات وإطارات احتياطية، وقطع فحم وبقايا طعام وأشياء أخرى.

كان يقضي طوال النهار وسط الخردة والنفايات، وفي المساء يعود إلى البيت ويغتسل ويبدل ملابسه، لكن رائحةً دوماً كانت تفوح منه ولم يكن يعرف مصدرها الحقيقي، هل كانت رائحة صوته أو عرقه أو أسنانه أو مفاصله أو لحمه؟ كانت رائحة كريهة تنتشر في كل الأرجاء.

وعلى غير المتوقع أحبت تشن تشن هذه الرائحة! أليست نقطة قوتها تكمن في تنظيف الأماكن المتسخة! وكلما رأتها يخرج من كومة النفايات، كانت توبخه بسعادة وتطلب منه الاغتسال بالماء الساخن الذي غلته منذ وقت، وتجهز قطعتين من الصابون؛ إحداهما ذات رائحة كريهة والأخرى معطرة، وتنتظر حتى يخرج ثم تمضي وتنظف الأوساخ في دورة المياه التي تجدها على المناشف وقطع الصابون والبلاط، وقطع الأوساخ العائمة في حوض الغسل، ووسط الشكوى والضجر كانت سعادتها تفيض وتتدفق.

وفي نهاية هذا العام تحوّل بائع المشايات المائية الفاشل، رويدًا رويدًا، إلى ملك الخردة في منطقة المصانع، وبدأ يحقق ثروة صغيرة، وكأنه يبذل حذاءً قديمًا ويشتري آخر جديدًا، فترك الغرفة الصغيرة التي كان يسكن فيها وانتقل إلى شقة جديدة، تطل على شارع مفترق الطرق، وتقع بين ورشة إصلاح السيارات ومتجر الأجهزة، وعلّق بمنتهى الفخر على وجهتها لافتة مكتوبًا عليها: "شركة لوشي للموارد العالمية"، والطابق العلوي كان محل نومه وإقامته، وفي هذا الوقت عرف الجيران أن اسمه ولقبه هو "لوه" وأنه مجرد تاجر خردة!

وسط الرائحة الكريهة لملك الخردة، كانت تشن تشن تعيش أجمل ربيع حياتها. وعلينا أن نقرّ بحقيقة أن كلّ الأشياء والأشخاص في الحياة لها نقطة ذروة تبلغها في وقتٍ محدد، حتى لو كان الشخص قبيحًا أو رائحته كريهة أو معاقًا أو طباعه سيئة، حتى النملة يمكن أن تظفر بأضخم قطعة سكر وحينها ستعيش أحلى لحظات حياتها. ويبدو أن قطعة السكر التي تنتظرها تشن تشن كانت موجودة وسط خردة خي بي.

وفي الليلة التي مضى فيها يطلب يدها للزواج، وهو يحمل خاتم الزواج، وبعد موافقة دينغ بوه جانغ اصطحبها للخروج ووقفًا معًا في شارع مفترق الطرق، وقف في الجهة التي كانت تشير فيها بيديها عندما كان شابًا معدّمًا، وقالت إنها تحب قراطيس الآيس كريم والمظلات والمكياج والجوارب والتوفو المقلي ذا الرائحة النفاذة.

وقف خي بي في المكان ذاته واعترف لها بحبه وقال:

- سأشتري لك كل ما تتمنيه! سأشتري لك خمسة من الآيس كريم تأكليها وخمسة أخرى نتركها حتى تبردا! واشتري كما تشائين

من المكياج ولا تبال بالعدد، والمظلات سأشتري لكِ واحدة فردية وأخرى ثنائية، والجوارب أنا أعلم أنها تتلف سريعًا، فهل يكفيك مائة جورب للعام؟ وماذا أيضًا؟ نعم، التوفو اللذيذ ذو الرائحة النفاذة، سأحجز لك المطعم الليلة وتأكليين فيه وحدكِ!

كانت هذه إمكانيات خي بي ومهاراته، ولا شك أن هذا سيكلفه بعض النقود، لكنه يعلم أن هذه الأشياء تجعل الفتاة تصاب بدوار من السعادة. احتبست أنفاسها في صدرها وأحسّت أنها لا تقف على أرضٍ راسخة، حتى إنها رغبت في أن تقرع الأرض بقدميها لتتيقن أن ما تعيشه حقيقةٌ وليس خيالًا!

وفي تلك الليلة المجيدة اعتلت معه فراش الهوى، ولم تعلم أن أباهما في تلك الليلة أصيب بالذعر بسبب غيابها عن البيت، لدرجة أنه تقبّل أمر فقدان الذاكرة الذي كان يعانيه منذ وقتٍ طويل. لكن كيف لا تفعلها تشن تشن؟ فقد تأثرت حدّ البكاء، حتى لو تركها خي بي بعدها، فلن تبالِي.

ولا شك أن خي بي لم يتخل عنها بمثل هذا السرعة، بل استغرق الأمر منه ثماني سنوات، ولم يتركها بل لجأ إلى طريقةٍ أكثر أناقة وهي الاختفاء، لكن تشن تشن تعترف أنها أخطأت عندما بالغت في المزاح معه.

(٧)

جلست تشن تشن في إحدى زوايا كابينة الصراف الآلي للبنك الزراعي وراحت تفكر في حياتها، وتوصلت في النهاية إلى نتيجة، وهي أنه ينبغي أن تكون ممتنة لخي بي؛ لأنه لم يتخل عنها إلا بعد ثماني سنوات، لكن شيئاً واحداً كان يحيرها، فقد أدركت عندما حاولت أن تحد من إدمان أبيها للكحول ومساعدة أخيها لتجمع بينه وبين حب عمره، شياو لان، أنها فتاة عديمة الجدوى، لكن لم يكن يوماً في نيتها أن تغدر بخي بي، فلماذا تنتهي الأمور هذه النهاية الأليمة؟

لفت ذراعيها حول بطنها التي كانت تبدو وكأنها في الشهر الثامن، لكنها كانت طوال هذه الأشهر مثل صحراء جرداء!

كم كرهت هذه البطن العقيمة! كانت ترى أن النساء ينجبن بمنتهى اليسر وكأنهن دجاجات يضعن البيض! وخلال هذه الفترة راح خي بي ينتظر ابناً بفارغ الصبر، وكان منطقته في رغبته الشديدة في الإنجاب هي: "أنا أبقي طوال الوقت وسط النفایات، فطالما أعمل وأشقى، فلماذا لا ننجب ابناً وأنفق عليه وأوفر له حياةً كريمة. سأشتري له الحليب المستورد وسيلتحق بروضة دولية وبمدرسة ثنائية اللغة ثم يكمل دراسته في جامعة بالخارج. أليست طبقة النبلاء تتكون من ثلاثة أجيال: نحن الجيل الأول وابني الجيل الثاني وحفيدي الجيل

الثالث، فينبغي أن تسرعى وتنجبي صبيًا. " ولم يكن يعلم أين سمع مثل هذا الكلام عن هذه الحياة المترفة ليردده بمثل هذه الطلاقة!

تزوّجا منذ أكثر من عامين ولا شيء كان يحدث، فسكن وجهه مسحة من الحزن، ولم يكن حال قلبه يختلف كثيرًا عن وجهه، وفي المساء راح يخرج ويشرب ويلعب الورق ويبقى في الخارج طوال الليل، حتى وصلت الأمور بينهما إلى حلقة مفرغة، فشعرت أنها لا بدّ أن تحمل في أسرع وقت، فإذا بها تعتلي خشبة المسرح وتقدم أكبر عرضٍ يمكن أن تقدمه على الإطلاق في حياتها!

لكن قبل تمثيل المسرحية وقعت حادثةٌ صغيرةٌ عندما التقت بسو تشين التي لم تلتقها منذ سنواتٍ طويلة، وكان لها الفضل في أن تلعب تشن تشن هذه اللعبة وتدعي أنها حامل!

في ذلك اليوم ذهبت تشن تشن إلى مكتب لجنة الحي في شارع مفترق الطرق لبحث مشكلة أبيها مع الحي، وفجأةً وقفت مشدوهةً عندما رأتها تعمل بالمكتب، وشرعت تسأل نفسها: أليست هي سو تشين؟ كيف جاءت إلى هنا؟ ألم تكن محاسبةً في المصنع؟ هل تقاعدت أم رُقيت في المنصب؟ أنا سعيدة الحظ، لا شك أن سلطتها كبيرة للسيطرة على شارع بأكمله!

فهتفت بصوتٍ منخفض ونادتها، وعندما وقعت عينا سو تشين عليها لاقتها بفتور.. بفتورٍ شديد.

- أنا تشن تشن! ألا تعرفيني؟ لم نلتق منذ ثمانية أعوام! تزوّجت منذ فترة وبدنت كثيرًا.

فجالت ببصرها ولم يكن أحدٌ بجانبها وقالت:

- أتذكرك!

وقالت بخنوع:

- قررت لجنة الحي إدخال أبي مشفى الرعاية، ماذا أفعل؟ أنه يعاني فقدان الذاكرة وإدمان الكحول وحاله مثل الماضي كما تعرفين!

- نعم حاله لم يتغير، يتجول في الشوارع ويسب ويشتتم هنا وهناك، ويؤثر على منطقة التطوير الجديد في حين أننا نحاول جذب المستثمرين إليها، جاءتنا شكاوى كثيرة ضده لذا أرجو منكم...

- أنا أفهم هذا، طلب مني خي بي أن آتي وأسأل: كم يمكن أن تصرفوا له إعانة لنحل هذه المشكلة؟

فقالَت سو تشين باندهاش:

- نصرف إعانة؟

فقالَت ببراءة:

- قال خي بي إذا صرفت لجنة الحي مبلغ إعانة له سنودعه في أفضل مشفى للأمراض العقلية، ولو امتنعتم عن الدفع ستسوء حالته. هذا ما قاله، أنت تعلمين أن الرجال يعشقون تهويل الأمور.

فسألَها بلهجة غريبة:

كيف يعاملك خي بي؟

فقالَت بفخر:

- انظري إلى هذا الخاتم وإلى هذه السلسلة، أنهما من الذهب الخالص.

- قبضنا على خي بي الشهر الماضي في حملة مفاجئة، بالتعاون مع إدارة الأمن العام، قبضنا عليه في غرفة صغيرة بالملهى الليلي.

- كيف تعرفين خي بي؟

تردّدت ثم قالت:

- ذهبت إلى بيتكم مرتين عندما رغبت لجنة الحي الاستفسار عن أحوال أبيك، ورأيت مصادفةً صورة زفافك.

فسألت بحماسة:

- ماذا؟ هل عرفك أبي؟ عن أي شيء تحدثتما؟

- هل سمعتِ ما قلته لك، خي بي يواعد فتاةً أخرى ويخرج معها!

وفجأةً، انحسرت أسارير الفرح عن وجه تشن تشن وقالت:

- أنا أعلم منذ فترة طويلة، فلا سرّ يدوم طويلاً في شارع مفترق الطرق! الجيران يعرفون كل شيء لذلك أرجوكِ عمتي سو، إذا التقيت به مصادفةً مرةً أخرى فلا داعيَ لتحرجيه وتعاملتي كأنك لا تعرفيه!

فقالت سو تشين بنبرة تُشي بالغضب:

- هل أنتِ مدينةٌ له بشيء لتركه يتعامل معكِ بهذه الوقاحة؟ هذا غير أخلاقي! المرأة لا بدّ أن تكون مستقلة وقوية وتحب نفسها، هل تفهمين؟

فانفلتت ضحكةً منها وقالت:

- ماذا تقولين؟ أحب ذاتي؟ أكون امرأةً قوية ومستقلة؟ نعم أنا مدينةٌ

له!

ووضعت يدها على بطنها وهي تقول:

- لا يمكن أن أشكو أفعاله، وكيف لي أن أمنعه من أن يواعد فتيات أخريات؟ خي بي لم يلمسني منذ عامين، وهذا أمرٌ جيد حتى لا يكون العيب مني!

فقالت باستياءٍ شديد:

- ماذا؟ لم يلمسكِ منذ عامين؟

- من الأفضل ألا تحرجه عندما ترينه، دعيه وشأنه، فهذا أفضل لي.

- لم تنتظر أن تجيبها، وسرعان ما سألتها سؤالاً آخر:

- كيف أحوال عائلتك؟ هل عاد شياو باي من الجنوب؟ هل ارتبط؟ هل تزوجت شياو لان؟ هل أنجبت؟ هي أصغر مني بثلاثة أشهر ونصف.

وكانت ترغب في معرفة أحوال شياو لان لأن أخاها المتيّم كان لا يزال أعزب!

أزعجتها أسئلتها وأحسّت بالإساءة، فتوقّف صوتها في حلقتها، وعندما همّت تشن تشن بإلقاء المزيد من الأسئلة، رفعت سو تشين يدها قائلة:

- اذهبي واسألي أباك، فقد أخبرته بأحوالنا عندما زرته!

ضحكت وقالت بضجر:

- عمتي سو، لا تهزئي بي، أنتِ تعلمين أنه لا يتذكّر شيئاً، في كل مرة أزوره يسألني هل أنجبت؟ وفي كل مرة أخبره أنه لم يمض على

زواجي وقت طويل، فكيف أنجب بهذه السرعة، فيتيقن من صدقي ويهز رأسه.

فركت سو تشين وجهها وكأنها تزيل عنه أي آثار للحزن، وبنبرة رسمية أنهت الحديث وقالت:

- يكفي الحديث اليوم، أما بشأن أبيك، سوف نفكر في اقتراح صرف إعانة له آخر العام. ومن ناحيتك اطلبي منه أن يكون لطيفاً مع الناس ولا يفتعل معهم المشكلات في الشارع. وأما بخصوص حملك فلا داعي للقلق، فعليك أن تبذري البذرة أولاً، وسأحاول أن أجد فرصةً لأتحدث مع خي بي، لكن لا يمكن أن تدعيه يظلمك، علينا أن نفكر بحالنا ونهتم بأنفسنا. كلامي صحيح أم لا؟

فنظرت إليها ولم تستطع أن تغالب دموعها.

وعندما همّت بالانصراف أطرقت سو تشين وواصلت عملها، وإذا بتشن تشن تعود وتقول بخجل:

- عمتي سو، كنت أرغب في زيارتك منذ فترة، في تلك الليلة عندما تحدثت عن أمر زواجك من أبي، لم أقصد الإساءة إليك ولم أتمنَّ أبداً أن تنفصل العائلتان.

وسرعان ما أدارت سو تشين دفة الحوار قائلة:

- أنا واثقة أنك ستحملين في أقرب وقت!

(٨)

لم تعلم تشن تشن ما إذا كانت سو تشين قابلت خي بي مرةً أخرى أم لا، لكن لم يمضِ على لقائهما وقتٌ طويلٌ حتى التقتا مرةً أخرى لترتيب مراسم دفن دينغ بوه جانغ، وبادرت هي بالذهاب لوضع الترتيبات اللازمة للجنائز، فقد أحسّت أنها ترمّلت للمرة الثانية، لكن ما من أحدٍ كان يعلم بما تحسّه في قرارة نفسها.

وبعد موت دينغ بوه جانغ عاد خي بي يحسن معاملة تشن تشن من جديد، أو بالأحرى صار يوليها عنايةً يوميةً باستثناء فترة الطمث. وفي الليلة الأخيرة، ووسط أنفاسه اللاهثة، سألها وهو يتنهد:

- هل أحصيتها؟

- أحصيت ماذا؟

فأحسّت بتوترٍ شديد فقد تم تحقيق كل ما يتطلبه الحمل، لكن الشيء المقلق؛ ماذا لو فشلت في الحمل هذه المرة أيضًا؟

- كم مرة ضاجعتك فيها؟ ثلاثين مرة وهذه مهمتي وأتممتها على أكمل وجه. أخبرني صديقٌ أنه من المهم ضمان عدد المرات ومدى كفاءتها، وأنا الآن أتممت مهمتي وحن دورك أنت!

فعمدت لسانها عن الكلام وأدركت أنه قابل سو تشين، لكن كيف قابلته وتحدثت معه في هذا الأمر؟ فقد أعطته تعليمات، في غاية

الدقة، ونفذها بمنتهى الدقة طوال شهرٍ كامل. برهنت سو تشين على أنها امرأةٌ طيّبة، كما برهن خي بي على أنه زوج مستقيم، والآن حان دورها لتبرهن على أنها زوجةٌ خصبة.

استلقت عاريةً في الفراش، وفجأةً خالطها شعورٌ بأنها مصلوبةٌ على مقصلة الجلاّد، حتى إن رائحة نصل السكين الصدئة مسّت أنفها! -زوجتي، سأنتظر هذا اليوم من الشهر المقبل، من المؤكد أنك ستكونين حاملاً ويتحرك الجنين، وربما لا! لكن لا بدّ أن تحملي. وسرعان ما أعطى لها ظهره وغطّ في نومٍ عميق.

ووسط هذه اللحظات العصبية من الذعر والتأثر، وطّنت تشن تشن العزم على أن تحمل، وانتظرت حتى انقطع صوت شخيرها، وسرعان ما احتضنت بطنها وشعرت بمنتهى اليقين، اليقين الكامل بأن هناك شيئاً يحدث داخلها. منذ قليل التقيا وتعانقا وحدث اللقاء العظيم المنتظر داخلها، وبذرت البذرة ولا شكّ أنها ستنمو مع الأيام. وفي سكون الليل المهبب عانقت تشن تشن بطنها.. عانقتها بمنتهى الحذر!

ومنذ بداية الشهر الثاني لم يعد لديها ما تفعله سوى الانتظار، وانشغلت بصبرها الجميل بقدوم المولود السعيد، وباتت تتردّد بانتظام على المشفى التخصّصي لرعاية الأم والطفل لتفحص حالتها وتخبر الطبيب بالأعراض التي تحسّ بها، وتستفسر عن الاحتياجات اللازمة لحدوث حملٍ مبكر، وكيفية التعامل مع بعض الأعراض الجسدية المصاحبة للحمل، مثل الغثيان والدوخة والنعاس وفقدن الشهية، وحملت رزمة النقود التي أعطاها لها خي بي، وذهبت تشتري

الملابس الصغيرة والألعاب وأدوات الاستحمام، كما أعدت قائمةً طويلةً من المشتريات في أثناء فترة الولادة: السكر البني وأحذية مريحة وأغطية رأس وملابس نوم بأكمام طويلة، وحمالات صدر مخصّصة للرضاعة وشراشف واقية من البقع وأشياء أخرى كثيرة. كان الجميع في انتظار هدايا ومكافآت لكن ما حدث لم يكن أبدًا في الحسبان!

أما خي بي فكاد يفقد عقله من فرط السعادة حتى إن ملامح وجهه تبيّست، فأخيرًا ستجب له تشن تشن ابنه المنتظر، الابن الذي سينعم بحياةٍ كريمة ويغدق عليه بالأموال. فأحسّ أنها فكرةٌ عظيمةٌ ولم يحتمل سماع هذه البشرى السارة، وراح يشتري الهدايا واتفق مع تشن تشن على زيارة سو تشين، وسألها ماذا يناديها، هل حبيبة أبيك القديمة؟ أم صديقه؟ فلها عظيم الفضل في هذه النتيجة المذهلة. وقبل هذه المقابلة كان يمكن لتشن تشن أن تعترف بأن حملها مجرد كذبة اختلقته، لكن بعد الزيارة وعندما أحسّت أن سو تشين تشعر وكأنها حصدت ميداليةً ذهبية، فقدت فرصتها في الاعتراف. تأثرت سو تشين كثيرًا عندما علمت بخبر الحمل وقالت:

- خبر سعيد جدًا! أخيرًا صار لي فائدة في هذه الحياة! خي بي، تعهد أمامي أن تحسن معاملة تشن تشن مدى الحياة! تشن تشن، وأنّ عاهديني على أن تنجبي طفلًا بصحة جيدة!

وظلت سو تشين تعرب عن سعادتها بخبر الحمل حتى أوشكا على المغادرة، لكن كانت لهجتها تحمل بين طياتها شيئًا من الأسى وشيئًا من المرارة وهي تقول:

- كما تعلمان أنا امرأةٌ عديمة المنفعة! ودومًا أرتكب الحماقات
لكن أنتما السبب في أن أشعر بالسعادة مرةً أخرى، شكرًا لكما!
اعترت الدهشة تشن تشن بسبب تأثر سو تشين، وراودتها رغبةٌ
ملحةٌ في السؤال عن أحوال شياو لان وشياو باي، لكن عندما تذكرت
ردّة فعلها في الزيارة السابقة، بلعت السؤال وودعتها بحزن، وفكرت
إذا لم تحمل بالفعل، حينها لن يكون لديها ذرة من الشجاعة لتكرّر
هذه الزيارة.

أما بشأن أحوال شياو لان، فسوف تعرفها تشن تشن بنفسها عن
قريب، وسوف تزداد الإثارة بشأن حملها الكاذب.

رسمت حاجبيها تمام الرسم ووضعت أحمر الخدود وارتدت
ألوانًا صارخة من الأحمر والأخضر، وتأهّبت لعملها على مستوى
عالٍ من الاحترافية.

(٩)

يومها التقت تشن تشن وشياو لان في غرفة الانتظار، وجلست كل منهما تنتظر الممرضة حتى تنادي اسمها.

ومن بين عدد كبير من النساء جلسن ببطون منتفخة، تشبه حبات البطيخ والقرع، وقعت عينا تشن تشن على بطن صغيرة مثل بطنها، وصاحبتهما ذات جسد نحيل وبشرة شاحبة، وعندما دققت النظر هتفت قائلة: يا للسماء، إنها هي! إنها النجمة الساطعة! فجفّ حلقها من فرط المفاجأة، ونهضت ومضت وسط الوجوه المنتفخة والأرجل المتورمة، وكأنها تمضي وسط غيطان قمح يانعة، وكأنها عثرت على أحد أقاربها، كان ضائعاً منها، وصاحت قائلة:

- يا للسماء! يا لها من مفاجأة! أنتِ حامل! وأنا أيضًا حامل منذ ثمان وخمسين يومًا! وأنتِ؟

وجهك ليس جميلًا كالعادة! هل تعانين القىء مثلي؟ ألا تقدرين أن تشمي رائحة الدخان؟ هل تعانين انخفاض السكر؟

قابلت شياو لان حماستها المتقدمة ونيرانها الفائرة بفتور شديد. في هذه اللحظة كانت السيدتان الجالستان على المقعدين المستندين إلى الحائط قد غادرتا، وبخفة حركة مثلما تفعل تشن تشن في الحافلة حجزت المقعدين، وأشارت إليها كالدجاجة الأم لتأتي وتجلس بجوارها، ثم سبحت بعينها في جسدها فتنهدت قائلة:

- أنتِ نحيلة جدًّا! هذا ليس في صالحك ولا في صالح الجنين
لن تنجبي بسهولة! يجب أن تأكلي كثيرًا حتى لو تقيأت! انظري إلى
جسدي!

وأشارت إلى وجهها المتورّد وبعض الدهون المتجمّعة حول
خصرها. ويبدو أن شياو لان لم تكن في حالة مزاجية جيدة، كما لو
أنها تقبر الكثير من الألم في أعماقها، فلوت عنقها وحرّرت يدها من
تشن تشن، وقالت وقد أجبرت نفسها على الابتسامة:

- عرفت تَوًّا أنني حامل وجئت لأتأكد.

تبدلت أحوال شياو لان ولم يظهر هذا التغيير على الجسد الهزيل
فقط، بل لاح أيضًا في روحها المعنوية التي كان تشبه رايةً عالية ترفرف
عاليًا مع الريح. فاستبد القلق بتشن تشن وراحت تلقي بسيلٍ آخر من
الأسئلة على رأسها بدهشة:

- ماذا حدث لك؟ لماذا تبدين بهذا الشكل؟ أتذكّرين عندما زرتك
في جامعة المعلمين لأهديك الوشاح الحريري، وقتها كنت متألّقة
وروحك في السماء! ولولا أخي ما جئتُك. ماذا حدث لك؟ هل
تزوّجت؟ أين زوجك؟ كيف يتركك تأتين وحدكِ إلى الطبيب؟

وكلما ألقت بسؤال ساءت حالة شياو لان أكثر، فربطت لسانها
عن الكلام وتدنّرت بالصبر وانتظرت بفارغ الصبر أن تنادي الممرضة
على تشن تشن.

لم تلحظ تشن تشن استياءها من أسئلتها، فألقت عليها بسؤالٍ آخر
وهي تمعن النظر فيها:

- هل أخبرتِ عمتي سو؟ إذا علمت بخبر حملك ستعني بك!

فهزت شياو لان رأسها بالنفي، ولاح في وجهها استياء شديد.

- زرتها منذ يومين وأخبرتها بخبر حملي، لكنها لم تخبرني عنكِ! يبدو أنها أيضًا لا تعرف! لماذا لم تخبريها؟ لو كانت أُمي لا تزال على قيد الحياة، لكانت أول شخص يعرف بخبر حملي!

فاستوت واقفةً من شدة الضيق، واضطرت تشن تشن أن تصمت ثم قالت:

- من حسن حظي أنني قابلتك اليوم! أنا مثلك لا أفهم شيئًا، أنا أركز هذه الفترة فقط على الإنجاب! سأساعدك وأنتِ ساعديني.

ابتسمت تشن تشن عندما عرضت عليها المساعدة من دون أن تدري كيف ستساعد تشاو لان، وكيف ستكون طبيعة هذه المساعدة.

وأخيرًا خرج التمثال عن صمته، وقالت حتى تتركها وشأنها:

- لا تتعبني نفسك! ليس في خطتي الإنجاب!

- ماذا؟

حملت تشن تشن بها بدهشة وأحسّت بمزيج من الإعجاب والألم، وراحت تسأل نفسها: بخلاف شحوبها وذبولها، فلا تزال كما كانت وستظل مروعة كالعادة، لا أحد يستطيع كشف نواياها الخبيثة أو يعرف فيما تفكر! لماذا لا تريد الإنجاب! كيف تجحد بهذه النعمة الكبيرة؟ كم هي فتاة محظوظة! كيف تتكبر على النعمة!

أحسّت تشن تشن بثقل في كتفيها، وفجأةً اشتعلت حماسها مثل شعلة كبيرة، فكان في بطنها الوهم الكاذب، بينما الحقيقة الساطعة

تسكن في بطن شياو لان. وتحت أي ظرف كان عليها أن تجعل شياو لان تعدل عن هذا القرار.

ومن هنا نشأت علاقة غير متناغمة بين الفتاتين، الأمر تمامًا كان مثل مغنيتين تغنيان أغنيتين مختلفتين في آنٍ واحد!

والآن صار لدى تشن تشن خطة مفصلة بكل بمظاهر الحمل وكل التغيرات الفسيولوجية للمرأة الحامل، وشرعت تقلد شياو لان بإتقانٍ شديد مثلما كانت تفعل في عشاء السبت، وهي تقلدها في تناول العشاء، فأخذت تقلدها في كل حركة وفي كل إيماءة، حتى عندما عادت إلى البيت وغابت عنها أيقونتها التي تحاكيها، لعبت الدور بحرفية شديدة ومثل ممثلة مسرحية تبالغ في الأداء، لكن كان الأداء مقبولاً من حيث الحركات والتصرفات كامرأة حامل، وكان الجمهور يتكون من شخص واحد يتييم وهو خي بي، هذا الرجل صاحب البطن المستوية لا يمكن أن يتصور أن تشن تشن تحيك له الوهم وتجعله يحيا في أكبر وأحلى كذبة! أو ربما لهفته لقدوم ابنه جعلته يغض الطرف عن هذه الأشياء، حتى أنه صار يضاعف ساعات العمل، ومن أجل ابنه المنتظر ظل يحوم طوال اليوم حول منطقة المصانع الخربة لجمع قطع الخردة والنفايات، وعندما يفرغ من عمله يصطحبها ويتمشيان في شارع مفترق الطرق ويتحدثان عن مستقبل ابنهما وخطة تعليمه (ولا مانع من أن تأتي صبية فسيبحث لها عن عريس، ولا بد من إنجاب صبي في المستقبل فلا يمكن الإخلال بخطة الأجيال الثلاثة!)

احتضنت تشن تشن بطنها ببالغ الهدوء، ومنذ ذلك الوقت وهي لا تتوقف عن تناول الطعام (الآن تأكل لشخصين!) وكانت النتيجة

مذهلة، استدار النهدان أكثر وأكثر، وتكوّرت البطن أكثر وأكثر، وعندما كانت تمضي مع شياو لان كان الجميع يظنون أنها حامل في شهرها الرابع، حتى أن شياو لان بجوارها شعرت أن حملها مجرد كذبة! ومنعت بمنتهى الفخر أن يقترب منها خي بي حتى أنها منعت أن ينام بجوارها، ولم يكن مسموحًا له الدخول إلى غرفة النوم، متذرعةً بأنه كلام الطبيب الذي نصحها بالراحة التامة؛ لأن نبض الجنين ضعيف جدًا ولا يمكن أن يحتمل رائحة رجل! وكانت بالفعل رائحة خي بي تشبه رائحة الخردة المعدنية ولم يكن يرغب في أن يُزعج الابن المنتظر!

كانت قد استوحت فكرة نبض الجنين الضعيف من شياو لان، فقبل ثلاثة أسابيع ذهبت معها لزيارة الطبيب، وعندما رآها الطبيب بجسدها الذي كان مثل حبة فاصوليا خضراء وبوجهها الطويل الشاحب، غضب بشدة من شكلها الذي يفتقر إلى الأمومة، وقال:

- نبض الجنين ضعيف جدًا! إذا أردت أن تنجبي فعليكِ بالعناية بالتغذية. من الأفضل أن تبقي في المشفى لنعلق لكِ المحاليل ونهتم بتغذيتك!

غادرت شياو لان المشفى بوجهٍ واجم قائلةً:

- انظري، هذه هي إرادة السماء! أنا لا أصلح لأكون أمًا، فأمر منطقي أن أجهض الجنين، كم كنت عنيدة ودومًا أتشبث برأيي طوال هذه السنوات، لكن لا يمكن أن نعاود الحياة!

لم تفهم تشن تشن نصف حديثها الثاني، لكن كل ما فهمته أنها لا ترغب في الاحتفاظ بالجنين!

بدت تشن تشن كأن أحداً ألصق بها تهمة، فسرعان ما حزمت التقارير الطبية والبيض والتفاح وغلاية المياه (أحضرت هذه الأغراض معها من أجل طعامها وقد نوت أن تضاعف الكمية في المرات القادمة لتطعم شياو لان.)، ثم قادتها إلى إحدى الزوايا الهادئة وراحت تنصحها بفصاحة بالغة، وكأنها تحوّلت إلى كاتبة بارعة ومتحدثة لبقة، واستعارت كل الكلمات الرنانة والشعارات الطنانة، وقالت:

- هذه إرادة السماء عليك أن تقبلي بمشيئتها! أنت لا تعلمين كم من النساء يحسدونكِ لأنكِ حامل.

ولسوء حظهن لا يستطعن الحمل حتى لو فعلن المستحيل! إذا كنت لا ترغبين في الجنين سأتركك لهؤلاء النساء البائسات؛ ليلقنوك درساً وربما يضربوك!

ثم قالت بطريقة فلسفية:

- ما فائدة النساء؟ الشيء الوحيد الذي يميزنا نحن النساء هو الإنجاب، فكّري كيف جئنا إلى الدنيا؟ كيف كنت ستأتين إلى الدنيا إذا لم تلدكِ أمكِ؟ ومن كان سيأتي بشياو باي؟ وتشنغ جونغ؟ إذا اختفت النساء اختفى سائر بني البشر! هذه هي مهمتنا وعلى كل أنثى أن تنجب وهذا أمرٌ غير قابل للنقاش أو للتفاوض!

والشيء الذي يدعو إلى التفكير بجدية، هو أن الموت أمرٌ حتميٌ ولا مفرّاً منه، لكن إذا أنجبت طفلاً ستعيشين، ستعيشين إلى الأبد... ستعيشين في مكانٍ ما وفي ذاكرة شخصٍ ما، سيتذكر عينيك والأطعمة المفضلة لك وستوارثها الأجيال جيلاً بعد جيل! مثلاً أمي كانت تعشق

تناول "الكاكا المجففة"، وأنا مثلها أعشقها وأظن أن ابني سيحبها أيضًا مثلنا. في كل شتاء أجهز "الكاكا المجففة" وأحسب حساب أُمِّي منها وأنا أعلم أنها ستروقها، وفي المستقبل سيفعل ابني مثلما كنت أفعل لأُمِّي. بإنجابك هذا الطفل ستحقّقين مكسبًا كبيرًا، ليس عليكِ إلا أن تحتلمي تسعة أشهر من العذاب ثم تتراحي إلى الأبد!

لم تترك تشن تشن حيلةً إلا واستخدمتها في الحديث، وبينما هي تتحدّث دفعت باللبن الرائب والبيض أمام شياو لان، وبعينين نصف ناعستين أضافت:

- حبيبتي، هذا الجنين هو الشيء الوحيد الذي نمتلكه في هذا العالم، فكّري معي ما هو الشيء الحقيقي الذي تملكينه في هذا العالم؟ رجل؟ بيت؟ أموال؟ الكتب التي تحبينها؟ التوفو الذي أعشقه؟ كل هذه الأشياء مزيفة وفارغة وليست ملكنا! هذا الجنين هو الشيء الوحيد الحقيقي الذي تملكينه!

كانت تتحدّث وهي تبلع ريقها فبدت فتاة سوقية فظة، لكن الشيء الرقيق الذي بدر منها هو يداها الحانيتان، وهي تربت بهما على بطن شياو لان بحنانٍ دافق، وكأن بطنها تحوي أغلى كنوز العالم!

شيءٌ ما لمس شغاف قلب شياو لان بل جعل رأسها تدور، فدفعت بكوب اللبن الرائب من أمامها وقالت بنفاد صبر:

- أنا مقتنعةٌ تمام الاقتناع بكل ما قلته، لكن المشكلة ليست في الجنين، المشكلة عندي أنا!

انتظرت تشن تشن حتى تخرج عن صمتها، فدنّت منها حتى تلامست ركبتهما، وقالت:

- ماذا بك؟ هل تعانيين من مرض القلب أم من اضطراب في الدم؟
هل تأكدتِ من التشخيص؟

فحدّقت النظر بها وقالت:

- الأمر ليس كما تظنين، أنا لم أكن زوجةً مخلصةً!

فضيقت تشن تشن عينيها، وأرخت كتفيها وضحكت بمكر قائلة:

- فهمت الآن هذا الطفل ليس ابن زوجك! لكن من أبوه؟

فقال بغضب:

- لا! لا! أنه ابنه! أنا لم أقم علاقةً مع أحدٍ من قبله. أنا أقصد هنا في قلبي! أنا أحب شخصًا آخر!

- رجل آخر في قلبك!

أشارت تشن تشن إلى قلبها وقهقهت عاليًا، وأحسّت أنه على الرغم من أن شياو لان فتاة مثقفة ومستنيرة، إلا أنها لا تزال محدودة الأفق!

- بحسب ما تفكرين فأنا أيضًا زوجة غير مخلصة، فأنا أحببت مئات الشبان! أحببت ليو ده خوا وتشو جيه لون وغيرهما كثيرين! ما هذه السخافات التي تقولينها! لا أستطيع أن أتوقف عن الضحك، لن أضحك أكثر حتى لا أفقد الجنين!

اعتادت شياو لان صخبها وانتظرت حتى تهدأ فورتها، وشرحت لها قائلة:

- أنا أعلم أنني أخطأت عندما تزوّجت، ولم يتركني الندم يومًا واحدًا، وطوال أربع سنوات وأنا لا أفكر إلا في هذا الشاب. عانيت

كثيرًا، هل تفهميني؟ وعندما علمت أنني حامل كان عليّ أن أتخذ القرار وأجد حلًا. أنا الآن انفصلت عن زوجي ولم أخبره بخبر الحمل، فيجب أولًا أن أحسم قراري وإلا سأعيش حياتي وكأنني ميتة، وهذه الحياة غير العادلة لا يستحقها زوجي خوانغ شين ولا يستحقها ابني في المستقبل!

فقاطعتها قائلة:

- كفالكِ سخافات! أنتِ لم تلتقي بزوجي خي بي، رجل رائحته كريهة بسبب عمله في الخردة، انظري كيف يعاملني؟

وكشفت عن ذراعها وعنقها ومدّت يدها وأظهرت كاحلها، وكانت الكدمات الزرقاء قد ملأتها ثم قالت:

- حتى هذا الرجل المستقيم يخرج ويبحث عن ورود الليل!

وقد استخدمت كلمة ورود الليل الأنيقة حتى تلفت نظر شياو لان.

- لكن أنا لا أبالي بتصرفاته! نحن في عصر أكثر انفتاحًا، فماذا يعني الإخلاص؟ فيمَ تفكرين؟ هذه كلمة لا وجود لها في عصرنا! حتى لو أقمت علاقةً محرّمة مع رجل فلا تحسبي نفسك خائنة! هل تفهمين كلامي؟ لا تقيمي وزنًا لهذه الكلمة ولا يمكن أن تفقدي طفلك من أجلها، أنتِ تثيرين سخرיתי!

غرقت شياو لان في أفكار تشن تشن وأحسّت بغضبٍ في أعماقها، فلماذا لم تسألها عن اسم حبيبها الذي تعجز عن أن تلفظه إلى ذاكرة النسيان؟

وما عادت تشن تشن تبالي بالحديث فقد أحسّت أنه حديثٌ لا طائل منه، وشرعت تغسل السكين الصغير الذي أحضرته معها، ثم قشرت تفاحة ووضعتها في طبق ورقي، وقسمتها ووضعت فيها سواك الأسنان، وكانت تتصرّف بتلقائية وعفوية وكأنها تجلس في بيتها وليس في المشفى ثم قالت:

- كما تعرفين إن لثة المرأة الحامل ضعيفة ودومًا تنزف، لذا لا يمكن أن أقضم التفاحة فقطعتها إلى شرائح!

فجأة، تغيّر صوت شياو لان لكن تشن تشن سمعته دويًا في أذنيها وهي تقول:

- لماذا لا تسألينني عن اسمه؟ هل تعلمين منذ أن أهديت لي ذلك الوشاح الحريري حتى من قبل أن أتزوج من خوانغ شين ونحن دومًا نلتقي، منذ العام الثالث في الجامعة حتى تخرجت وعملت وتعرّفت على صديق وتزوجت ونحن دومًا نجدد اللقاء.

وفجأة تهدج صوتها وامتزج بالشجاعة والأسى ثم قالت:

- كل ما حدث كان بسببك، منذ أن أهديت لي الوشاح ورغبت في أن أعيده إلى أخيك!

فتوقفت تشن تشن عن تناول التفاح وابتلعت ريقها مرتين، وأحسّت بمرارة في حلقها، وسرعان ما فرغت من تناول التفاح حتى الشريحة الأخيرة وكان لديها من القدرة على تناوله. وفجأة نظرت إليها بعينين ملأهما المكر قائلة:

- لم أكن أتوقع أن تأخذي الأمر على محمل الجدّ، لا أصدق! أنت وأخي كنتما على علاقة؟

ارتبكت تشن تشن حتى إنها لم تجد ما تقوله، ومدّت يدها وتناولت طبق التفاح الذي قشرته من أجل شياو لان وشرعت تأكل.
- كان ينبغي أن آخذ الأمر على محمل الجدّ، لكن كنت أتسلى وألهو مع أخيك، فأذيتَه وأذيت نفسي وفي النهاية تزوّجت من رجلٍ آخر!
ثم قالت ضاحكة:

- وحملت من دون أن أدري!
- لا تتحدّثي عن الطفل، فليس له صلة بهذه العلاقة، ألا تستوعبين ما قلته لك منذ قليل؟

تعثرت كلماتها ثم نظرت إليها بذعر وقالت:

- لو كنتِ بالفعل جادة في مشاعرك نحو أخي لكنتِ الآن زوجته! لكن تركته وتزوّجت من خوانغ شين وعشت حياة حلوة معه، هل تعرفين أحوال أخي طوال هذه السنوات؟ استقال من وظيفته وفتح متجر زجاج، لا يكسب منه يوانًا واحدًا، تخيلي لو كنتِ تزوّجت منه لعانيتِ أشد معاناة! أعلم أنه لا يصح أن أتحدّث عنه بهذه الطريقة المهينة، فقد عاش طوال حياته وحيدًا وحزينًا.
فقالت ضاحكة:

- أنا عرفت كل أخباره من شياو باي عندما عاد من الجنوب وزاره في متجر الزجاج. أنتِ تعلمين شياو باي كيف يهوى القيل والقال وإضافة البهارات إلى الحديث.

- ماذا تنوين؟ هل تريدين أن تضحّي بحياتك وتعودين إلى أخي؟
- ماذا أنوي؟ هل نسيت أن أباك وأمي انفصلا بعد علاقة طيبة، فكيف بعد ما حدث أجرو وأتزوج من أخيك! ما هذه السخافات؟

ومنذ أن انفصلت العائلتان وأمي تخرج على أن ألتقي بأخيك. أنت تعلمين كم هي صارمة، فكيف أعود إليه؟!

فقالت وهي تتنهد حسرة:

- انفصلا لأنني طلبت منهما أن يتزوجا، أشعر بخيبة أمل وبحمل ثقيل، حملته على ظهري طوال هذه السنوات، ودومًا كان أبي مستاءً من هذا الفراق.

انتظرت شياو لان حتى تنتهي من حديثها ثم قالت بهدوء بالغ:

- كما إن شياو باي عاد من الجنوب حاملاً معه كارثة كبيرة، وأمي لم تعد تحتمل مشكلاتنا، فكيف أعود إلى أخيك! هذا أمرٌ محال. أنا الآن حائرة؛ لا أقدر على العودة إلى أخيك ولا أقدر على مواصلة حياتي، عالقة في نقطة لا تجعلني أتحرك، كما إنني حامل.

ثم ضحكت بمرارة وقالت:

- وأنتِ تنصحينني بأن أنجب الطفل!

لم تفهم تشن تشن ما هو الخطب الكبير الذي عاد به شياو باي من الجنوب، لكن من أجل أن تجعل شياو لان تمحو من ذهنها فكرة عدم الإنجاب، فجأةً التمعت عيناها وسرعان ما قالت أنا أريد أن أخبرك بأمرٍ عظيم لا يقل أهمية عما قلته، وتلفتت حولها مثل لصٍ وأمسكت بيدها ووضعتها على بطنها قائلة:

- أنا لست حاملاً! بطني فارغة! كنت أرغب في المزاح مع خي بي، لأنه يتشوق إلى طفلٍ ويريد أن يكون لديه ثلاثة أجيال فكذبت عليه كي أجعله سعيداً!!

فسحبت شياو لان يدها وكانت في حالة من الذهول التام، ولم تنتظرها تشن تشن حتى تتحدّث فغمزت لها وقالت بحماسة:

- الآن عرفتِ سري الكبير، فعاجلاً أم آجلاً سينكشف السرّ لكنني لا أخشى شيئاً، وأنتِ لا تقلقي وفكري على مهل، لدينا ثمانية أشهر نفكر فيها ولا شكّ أننا سنجد حلاً، فإما أن تعودِي إلى أخي أو تواصلِي حياتك، أما أنا فلا أعلم لماذا اخترعت كذبة حملي؟ على أي حال، مهما كانت العواقب ستنجيبين الطفل، فلا يمكن أن نخسر نحن الاثنين، على الأقل واحدة منا تربح وتفعل شيئاً له قيمة!

وخلال فترة الحمل الطويلة الحقيقية والمزيفة، خاضتا الكثير من النقاشات وحاولتا الوصول إلى حل.

وفي أثناء هذه الفترة زارت شياو لان منطقة المصانع، لأن المنطقة كانت على وشك الإزالة. لم تعرف تشن تشن ماذا جرى في أثناء هذه الزيارة، لكنها لاحظت أنها تغيرت وصار قلبها رقيقًا كوشاح من حرير، وخشيت أن تسألها واكتفت بأنها قد أقلعت عن التفكير في إجهاض الجنين.

ووصل الوضع إلى نقطة الخطر، فجميع النساء اللاتي أجرين فحوصات ما قبل الولادة وحملن ملفًا كبيرًا يشخص الحالة بمن فيهن شياو لان، لم يكن أمامهن سوى شهرين على الوضع، وصار من الصعب على تشن تشن أن تتظاهر بأن بطنها تكبر، وكان الأمر مثل طالبٍ يسلم ورقة الامتحان فارغة، والنار التي كانت تلعب بها صارت على وشك أن تحرقها!

وأخيرًا سنحت الفرصة لشياو لان، وجاءت اللحظة الحاسمة التي كانت دومًا تنتظرها طوال هذه الأشهر، فتنهّدت وقالت:

- كنت أفكر طوال هذه الأيام ووجدت أن أفضل حل هو قول الحقيقة، ولا داعي للكذب أكثر من هذا. دعي السماء تفعل ما تشاء في أمرك. ثم حملقت فيها وقالت:

- اذهبي واعترفي لخي بي بالحقيقة وأنا سأذهب إلى أخيك
وأعترف له، فلم أعد أخشى شيئاً ولا أحداً ولا حتى أمي، فهيا نعترف
بالحقيقة، هل تجرئين على الاعتراف؟

وفجأة التمعت عيناها فألقت بالخوف في قلب تشن تشن،
فصفقت تشن تشن بسعادة، قائلةً:

- اتفقنا! سأعترف له بالحقيقة وأكون مثلك شجاعة!

فأحسّت شياو لان بفيضٍ من السعادة بعد أن نالت عين المراد،
فلم يكن هناك حلٌّ آخرٌ أمامهما!

تذكّر تشن تشن أنها كالعادة تركت شياو لان عند وحدة العيادات
الخارجية للمشفى، وكان قد راق مزاجها وتورّدت وجنتاها، وقالت
وهي تبسم:

- سأذهب في الغد إلى متجر الزجاج وأضع الوشاح الحريري،
ورغم أنه لا يروقني إلا أنني سأبحث عنه، ما زلت أتذكر عندما ذهبت
إليه لأعيده إليه!

وقفت تشن تشن تنظر إليها من بعيد وقد أوشكت على بلوغ
شهرها الثامن، فبدت سمينّة من الخلف وهي ترتدي ملابس فضفاضة
وتسير مثل بطّة بدينة، تتمايل يميناً ويساراً. كانت تسير مثل امرأة حامل
حقيقية تروق من يراها. اندهشت تشن تشن عندما انتبهت أنها تذرف
الدمع، فأحسّت بال ألمٍ ينخر روحها وتمنّت لو تصبح مثلها وتسير مثل
البطة!

وسرعان ما وأدت أحزانها وفكّرت في شيءٍ آخرٍ إيجابي، وهو
أن شياو لان ستذهب في الغد لزيارة أخيها، وتجلب لقلبه السعادة

التي طالما كان محروماً منها، أخوها المتعطش للسعادة كصحراء عطشى للماء. وإذا بفكرة تلحُّ على عقلها وهي الذهاب إليه لتخبره بقدوم حبيبة الفؤاد شياو لان في الغد، لم تكن فكرةً عظيمةً، لكن بلا شك إنه خبرٌ مُفرح. ستذهب وتخبر أخاها الوحيد المعذب طوال هذه السنين بقدوم نجمة السماء العالية، ولم تكن تعلم ما إذا كانت ستعجبه هذه الفكرة أم لا؟ وهل شياو لان بالفعل صادقة في قرارها وستذهب إليه؟ وكما كانت رسول الغرام عندما زارتها في جامعة المعلمين وأهدتها الوشاح الحريري، ستكون أيضًا هذه المرة رسول الغرام بين العاشقين.

ولا شك أن فرصة الربح هذه المرة أفضل من المرة السابقة. في البداية ستمهّد لأخيها حقيقة مشاعر شياو لان، كما أن وجود الطفل سيقوّي الرابط بينهما ويجعل السعادة ترفرف على حياتهما.

هرعت إلى متجر الزجاج كسهم مارق وقد التصق شعرها بجبينها بسبب العرق الغزير، وفكرة واحدة قد استولت على رأسها طوال الطريق، وهي هل يمكن أن تصير العائلتان عائلةً واحدةً؟ فلم تخطر هذه الفكرة على بال أبيها يومًا وهو على قيد الحياة.

تذكرت أنها كانت تركز طوال الطريق لاهثةً، مبهورة الأنفاس، حتى وصلت إلى المتجر، ومن شدة التوتر رفضت الجلوس وشرعت تخرج الكلمات من بين شفثيها كقذائف تأبى أن تتوقف، فجذبت قطعة القماش البيضاء التي كان يمسح بها الزجاج وقالت:

- ستصبح أبًا! صار لك ابن! ستنجب شياو لان ابنًا لك وتصبحون عائلةً واحدةً، ستأتي في الغد على أقصى تقدير كما وعدتني، ستأتي لرؤيتك، أخيرًا ستعرف السعادة الطريقَ إلى قلبك يا أخي.

تذكّرت هيئته وهي تتحدّث عن ندم شياو لان وحملها وانفصالها عن زوجها، فظلت تتحدّث وهو لا يبالي بما تقول وكأنه صم أذنيه عما تقوله، فقط أحنى رأسه وما لبثت أن مرّت لحظات حتى غطى عينيه بيد واحدة كعادته.

لم تفهم تعبيرات وجهه الغريبة وساورتها الشكوك، فلكرته قائلة:
- ماذا بك؟ لماذا لا تكثرث لأمر الطفل؟ هل أنت شخص رجعي؟
أخبرك أنها ستنجب لك طفلاً يقول لك أبي، هل هذا لا يساوي شيئاً عندك؟

وعندما وصل الحديث عن الطفل، زادت حماسها كالعادة حتى أنها استعارت الحديث الذي تحدّثت به مع شياو لان، لكن مع بعض التغيير في بعض الكلمات، فهزّ رأسه بقوة وكشف عن وجهه وواصل تلميع الزجاج، فانعكس ضوء الزجاج المصقول على جميع زوايا المكان، وإذا به يقول بوجه عابس:

- لن أقبل هذا الوضع! لن أدع هذا يحدث!

ثم سكب لها كوب ماء ووضع كرسيًا في مكان بارد لتجلس ثم تابع عمله. فجأة أحسّت بالعطش وأحسّت أنها ارتكبت خطيئة، فأمسكت بالكوب ورغبت في ملئه مرة أخرى، وإذا بها تتذكّر أباه الذي كان يحب أن يرشف رشفتين من الكأس، فأحسّت أنه من الأفضل أن يرشف مرتين وليس مرة واحدة. وفكرت في شياو لان التي تبني قصورًا من رمالٍ وأحلام، وتظنّ أنه سيقابلها بذراعين مفتوحتين ويرتمي في حضنها بعد غياب السنين، وتعود ليالي الربيع من جديد بعد أن راحت إلى بعيد.

فاشتعلت ثورة الغضب في جوفها وقذفته بكوب الماء. ولم يكن غضبًا من أجلها أو من أجل شياو لان، بل كأنه عقاب السماء له! وراحت تسأل نفسها: كيف يرفض الخير العظيم الذي يأتيه إلى باب بيته؟ هل سيمكث بقية حياته وحيدًا بائسًا، يعاني عذاب الحب من طرف واحد؟ وتمنّت أن يكون أبوها على قيد الحياة ليكون بجانبه في هذا الموقف.

استسلم حتى تدحرج الكوب الورقي على الأرض، وذهب وسكب لها بعض الماء الساخن وخلطه بماء بارد وقدمه لها، وبنبرة تشي بالحزن قال:

- تشن تشن، لا تغضبي مني اعتني بنفسك وأنجبي لنا طفلًا بصحة جيدة، أنجبي طفلًا معجزة يستطيع العد في العام الأول وفي عامه الثاني يطالع أشعار باي، وفي العام الثالث يحفظ أشعار تانغ، وفي العام الرابع يطالع الصحف ويلتحق بامتحانات قبول الجامعة حتى يصير طفلًا معجزة مثل خاله في الصغر.

وعندما سمعت ما قاله لم تمالك نفسها من الضحك الممزوج بدموع الأسى، وفطنت أن ذكرى أبيها ارتسمت أمامه أيضًا في هذه اللحظة، لأنه يتحدث بلسان أبيه كما اعتاد أن يتحدث عن أسطورة الطفل المعجزة. وقد أخبرها أنه ذهب منذ فترة لزيارة بيتهم القديم وكان على وشك الهدم. ذهب وصبّ لأبيه كأسًا من الخمر وظلّ يتحدث مع صورته طويلًا.

وبينما كان يسترسل في حديثه عضّت على شفتيها لتمنع نفسها من أن تخبره بالحقيقة، فأثناء ركضها وهي في الطريق إليه فكّرت في

أن تخبره بحملها الكاذب، لكن الآن لم يعد الوقت مناسبًا، فحديثها الطويل معه جعلها تتعرق وتشعر أنها غير قادرة حتى على إعانة نفسها، وفي الغد ستأتي شياو لان وتحل مشكلتها بنفسها، والآن عليها العودة إلى البيت وتلتقي بخي بي وتكشف له كل أوراقها.

استدارت بجسدها فرأته يلوح لها من خلف زجاج المتجر، ورأت ظله من خلف طبقات الزجاج الشفافة المصقولة، فبدأ بصور متكررة وهو يقف بخصرٍ منحني ينفذ الغبار عن المشغولات الزجاجية، ويعمل بمتهى الجد وبمتهى الإلتقان من دون توقف، وكأن هذا المشهد سيبقى حاله إلى أبد الدهر، وسيظل طوال حياته عالقًا وسط الغبار ووسط الزجاج.

أحسّت بحزنٍ عميقٍ ينخر قلبها، فلوت عنقها وركضت في طريقها إلى البيت، ولم تكن هذه الفتاة، طيبة القلب، تعلم أن عودتها إلى البيت ستُفضي بها إلى قلب موازين حياتها، قلبها رأسًا على عقب!

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الرابع

طريق الشرف والفضيلة

(١)

"إن غريزة الأمومة مثل أسدٍ رابضٍ في العرين، يزأر عندما يشم رائحة الخطر!"، ورغم أنه من الكليشيهات القديمة المستهلكة إلا أنه حقيقي وواقعي.

في ليلة الثالث عشر من نيسان عام ٢٠٠٦، عندما وقع الانفجار في شارع مفترق الطرق وتناثرت أشلاء الكثير من الناس، أحسّت سو تشين، بقلب الأم، بشيء من عدم الارتياح وأن شيئاً خطيراً سيحدث.

في ذلك اليوم ذهبت إلى سوق الجملة لشراء بعض المستلزمات لصنع مشابك وأطواق الشعر الكريستالية، كورية الطراز، من أجل شياو باي. وفي العام الذي عاد فيه من الجنوب، راجت التجارة عبر الإنترنت رواجاً كبيراً، ولأنه كان يشعر بالملل فأدار عملاً خاصاً عبر الإنترنت مكّنه من إخفاء جسده، وعاش في شرنقة خلف شاشة الحاسوب يبيع ويشترى من دون أن يراه أحدٌ، وفي الربيع كان يبيع منتجات العناية بالبشرة ومستحضرات التجميل بأسعار مخفضة، وفي الصيف يبيع وسائل مائية وملابس داخلية مثيرة، وفي الشتاء يبيع الأوشحة ودفايات الأطفال وأشياء أخرى. دعمت سو تشين عمل

ابنها وساندته حتى أنها توصلت إلى فكرة ترويجية للبضائع بأن تمنح الزبائن مشابك الشعر الكريستالية هدايا مجانية. وتولت مسؤولية الذهاب إلى السوق لشراء إكسسوارات مشابك وأطواق الشعر وتركيبها عند العودة إلى البيت، وكانت التكلفة زهيدة جدًا.

في تلك الظهيرة التي لا تنسى كانت تتسوق من سوق الجملة الرخيصة والمبهجة، في منطقة المصانع، وإذا بها تشعر بألم رهيب في صدرها، فظنّت في البداية أن السبب هو زحام المكان، فأشرت -في عجالة- حقيبتين من إكسسوارات مشابك الشعر وغادرت، لكن حالتها ساءت في الخارج وشرع قلبها يخفق بشدة لدرجة أنها اضطرت إلى التوقف عن السير، وأحسّت أن الأرض تميد من تحت قدميها، والحقيبتان تسحبانها إلى أسفل. وقد عاشت مثل هذه اللحظات المربعة من قبل، وإذا بها تفكر في شياو لان، على الرغم من أنها تزوجت ولم تعد إلى المنزل منذ سنوات.

انتشر القلق في أرجائها ونوت أن تسلك طريقًا آخر للعودة إلى البيت، فتعثرت خطاها على الطريق، وبشكل غريزي اتجهت إلى شارع مفترق الطرق، وباغتتها شعورٌ مفاجئٌ أن شياو لان تمر في هذه اللحظة من هناك، وربما تراها فتوقفها وتتحدّث معها بهدوء، فمنذ ذلك الخلاف الذي وقع يوم العاصفة المطيرة انقطعت حبال الوصال بينهما.

لم تكد تسير بضع خطوات حتى انبعثت انفجارات نارية في الهواء، اختلطت بشرارات اللهب، وكان مصدرها الأنابيب المارة تحت الأرض، فألقت هذه الانفجارات بالحقيبتين الكبيرتين من يديها، وتبعثرت محتوياتهما وحلقت عاليًا في الهواء، وتساقطت على

رأسها إكسسوارات الشعر الكورية اللامعة وورق التغليف الملون، ولم تستطع سو تشين أن تشهد جمال المشهد، فقد شحب وجهها وأحسّت أن شيئًا خطيرًا وقع لابنتها ولطفلها. وسرعان ما سلكت زقاقًا ضيقًا يقودها مباشرة إلى الجنوب ثم انعطفت يمينًا عند تقاطع على شكل حرف "T"، وكانت خطواتها دقيقة وكأن بوصلةً تقودها، وفجأةً وصلت إلى شياو لان التي كانت مستلقيةً على الرصيف مغمضة العينين وشعرها منفوش، يغطي وجهها، وجرح غائر على خدها الأيسر، وقد عقدت يديها بإحكام على بطنها والدماء قد تجمعت عند ساقها.

لم تصب سو تشين بأذى وقت وقوع الانفجار، وسرعان ما جلست بجانب ابنتها على الرصيف ووضعت ذراعيها حولها برفق، وضمّت إليها تمامًا كما اعتادت أن تفعل عندما كانت طفلة، وأسندت رأسها على ذراعها. كان هناك شخصٌ على مقربةٍ منها يطلب سيارة إسعاف، لذا جلست هناك وانتظرت. أحسّت سو تشين بقيمة هذه الدقائق الثمينة القليلة، لأنها لم تكن قريبة من ابنتها منذ فترة طويلة، كما منحها الانتظار الوقت للشعور بالذنب وتأنيب الضمير فأقرّت أن كل ما حدث كان بسببها، فهي لم تكن أمًا جيدة، ورغم هذا لم تكره نفسها، بل كرهت رغبات جسدها المجنونة وجموح عاطفتها. كان جسدها وعقلها في حالة حربٍ مستمرة، وتلييتها لنداء الجسد جعل عقاب السماء يحل على رأسها! فمِنذ وفاة زوجها تملّك الشيطان من جسدها، ورغم أنها باتت أرملة في التاسعة والثلاثين، إلا أن شيطانها كان حديث العهد وفي أوج نشاطه وقوته. في النهار كان يتركها تعمل بدقة وتحقق من حسابات المصنع والنفقات والدخول، وكانت

حساباتها في غاية الدقة، لكنه كان يحضر في المساء بكل طغيانه. اعترتها الدهشة عندما شعرت أنها صارت عبدةً لرغبات جسدها، فلم تعد تطبق النظر إلى سريرها ولحافها ووسادتها، أو حتى ملابس النوم أو أي شيء له صلة بالليل، حتى العتمة والمصاييح والأنوار أزعتها بشدة. تملكّت منها رغباتها وأردت بها إلى الهاوية وأغرقتها في الوحل، ورغم أنها فعلت كل ما في وسعها؛ فبسطت ذراعيها وساقها وضمت ذراعيها وتكوّرت على نفسها، لكن ما من جدوى ولم يفلح معها شيء.

في البداية لم تولّ شيطانها اهتمامًا، بل سخرت منه وهي تتذكّر النكتة القديمة: "كان هناك أرملة وحيدة جافى النوم عينيها، فنهضت وألقت بحفنة من الفول الأخضر على الأرض وقضت طوال الليل تحاول جمعها، وعندما اقترح عليها أحد من الجيران أن الأمر سيكون سهلًا لو أشعلت نور الغرفة، فقالت مازحة: "هل تظنون أن الأمر أسهل في النور؟"

ولم تكن سو تشين تنوي قضاء ليالي العمر وهي تجمع حبات الفول والفاصوليا الخضراء، فكانت تعيش في فترة التسعينيات ويمكنها أن تتزوّج مرةً أخرى، كما كان الجميع في منطقة المصانع ينصحها بأن تخوض علاقةً أخرى وتبدأ من جديد، فلماذا تبقى وفيّة لرجل ميت، وما جدوى هذا الوفاء؟! فلتذهب وتبحث عن شريك جديد، لكنها اكتشفت أنها لا ترغب في أن تسلك الطريق اليسير.

لم تمنح ذكرى وفاة زوجها من رأسها وظلت تكنّ له كل مشاعر الحب، وبالفعل حزنّت عليه حزنًا حقيقيًا نابعًا من عمق القلب، وكانت الكتب والقواميس الضخمة وألبومات الصور الستة والطوابع

التي تركها بعد رحيله وأحاديثه والساعة التي ابتاعها لها تثقل كاهلها، فكانت الذكريات مؤلمة لا تتركها لحظة واحدة، ورغم هذا لم تكن من نوعية النساء التي تترك نفسها للأحزان تنهش روحها، بل كانت تقبر أحزانها في قلبها وتغلق روحها عليها. حتى عندما كانت تزوره في عيد تشينغمينغ أو تحل ذكرى وفاته، لم يكن أحد يصدق أنها بالفعل حزينه عليه، حتى ابناها كانا غير واثقين من حزنها الصادق على أبيهما.

وباعتبارها أمًا أرملة واجهت الكثير من المتاعب؛ فكانت تفعل كل شيء بنفسها من أجل ولديها، فكانت تفك مروحة السقف لتغسلها، وتصلح الصنبور التالف وتغير فلتر شفاط المطبخ. وفي المواسم والأعياد كان تشعر بقلق شديد حيال ولديها، فقد تبدل حالهما منذ وفاة أبيهما وتغيرت طباعهما، وفقدت الثقة بها وتقديرهما لها، وهذا جعلها تشعر بوحدة قاتلة.

وعندما نظرت إلى نفسها في المرأة، وجدت صورة امرأة رزينة ووقور، بعينين هادئتين وفم مغلق، صبورة على تعب الأيام. كانت حياتها مثل نهر دافق يقف في طريقها بلا رحمة، وقد اختفت كل الجسور وكل الزوارق التي تجعلها تعبر إلى مرفأ الأمان، فتحتم عليها أن تضع قدميها في النهر وتجتازه، وتطلب هذا العثور على رجل يجلب شيئًا من الدفء إلى حياتها الباردة.

لقد طلبت من صديقة أن تبحث لها عن هذا الرجل، ولم يكن دينغ بوه جانغ هو الخيار الأول. قابلت في البداية رجالًا حملوا بعض أوجه التشابه بينهم وبين زوجها الراحل، وعلى الرغم من أنها كانت تبحث من دون أن تدري عن تشابه في أوشحتهم ومعاطفهم والطريقة التي

يتحدّثون بها عن التصوير الفوتوغرافي، وغناء الأغاني الشعبية الروسية وجمع الطوابع وإلقاء النكات، إلا أنها رفضتهم جميعاً، فرؤيتهم أحييت ذكرى زوجها من جديد؛ كان لا يزال حياً نابضاً في قلبها وأحسّت أنه قريبٌ منها ويراقبها، فرفضتهم واحداً تلو الآخر، فأحسّت صديقتها بخيبة أملٍ كبيرة، وبذلت سو تشين بعض الجهد لشرح متطلباتها الغريبة، فكانت تريد رجلاً لا يشبه زوجها قدر الإمكان.

اعتقدت صديقتها أنها تبالغ في شروطها، فشعرت بالغضب وبدأت حماسها تفتّر، فقدمت سو تشين إلى دينغ بوه جانغ. كان أصلع بأنفٍ أحمر وكان يعتقد أن الكتب عبارة عن كومة من القاذورات، ويتجول دوماً وهو يرتدي بدلة زرقاء أو رمادية ولم يكن متحدثاً جيداً، إلا عندما كان يسبّ ويشتم، وكان دوماً غائباً عن الوعي بسبب شرب الخمر، لكن سرعان ما وافقت عليه وفكرت أنها تستطيع أن تخمد رغبات الجسد النائر مع رجل مثله، من دون أن تقلق أنها يمكن أن تقع في غرامه في يومٍ من الأيام.

لم تخبر سو تشين أحداً عن هذه العلاقة، فمن يمكنها أن تخبر؟ ومن أين ستبدأ؟ كانت العلاقة مريبةً جدّاً، فمن كان سيصدق أن هذا الرجل هو نهاية صبرها الجميل؟! علاوةً على ذلك أليس من حق كل إنسان أن ينعم بمساحةٍ من الخصوصية؟ فلماذا تحتاج لتفسّر لأحد ويتفهم موقفها؟! فلم تشعر بالخزي يوماً ولا تزال تعتبر نفسها زوجةً وفيّة، تعيش على ذكرى زوجها لكن بطريقتها الخاصة. وأينما ذهبت كانت ترفع رأسها عالياً، وقد نوت ألا تكشف الستار عن علاقتها بدينغ بوه جانغ، وقطعت عهداً على نفسها ألا تقع في شرك حبه حتى لو قضّت بقية حياتها وحيدة.

وكم كانت امرأة غبية ومنتهكة بفعلتها كل الأعراف والتقاليد؛ إذ إن مطالبتها السخيفة بالخصوصية والطريقة التي تصرفت بها وتعتيمها المتعمد على علاقتهما، قد أساءت بشدة إلى أهالي منطقة المصانع بطبيعتهم المنفتحة وصراحتهم المطلقة، فكان مجتمعًا صناعيًا يولي الأهالي فيه عنايةً كبيرةً للعلاقات بين الرجال والنساء الذين يعيشون معهم، وخاصة أولئك الذين يعيشون وحدهم. وكلما كان هؤلاء الأشخاص أكثر يأسًا وكلما كانوا أكثر استعدادًا، زاد تشجيع الناس لهم على أن يكونوا جريئين ويفعلوا ما يحلو لهم، حتى لو كان ذلك يعني التصرف بشكل مشين، لكن المهم شيء واحد فقط، وهو أن على الرجال والنساء أن تكون علاقتهما في النور، وأن تكون علاقات واضحة وضوح شمس النهار. لم يكن أحدٌ يتسامح مع أي شخص يدعي الشرف والفضيلة، فأدى انعزال سوتشين ورفضها الاعتراف بما كانت تفعله إلى جذب الكثير من العيون إليها، ولم يتوقف الناس عن القيل والقال عن علاقتها السرية بدينغ بوه جانغ ومتابعتها ومحاولة كشف أسرارها، فحامت الشائعات المشينة حولها وانغمست في الوحدة أكثر وأكثر.

ولم تأبه سوتشين بما يقال، فقد جعلها يأسها لا تعرف معنى للخوف، وعندما انتبه الأهالي إلى زياراتها السرية يومي السبت والأربعاء، غضت البصر عن أصابع الاتهام الموجهة إليها، وكانت لا تزال عند رأيها بأنه يجب احترام خصوصية الآخر، وكانت على يقين تام بأن ما تفعله لا يتنافى مع إخلاصها لزوجها الراحل، ولم يكن لديها النية لمشاركة أو شرح أي شيء لأي شخص، وفي النهاية تخلت عن آمالها في عيش حياة كريمة كامرأة شريفة.

وسرعان ما أدركت أن الظل الذي سقط عليها قد بلغ أيضًا شياو لان وشياو باي، وزاد الضرر الواقع عليهما حتى كاد يدمرهما.

ابتسمت سو تشين ابتسامةً ساخرة إلى نفسها وقالت: أيتها الوقحة، أين هذا الوفاء وأين هذا الإخلاص لزوجك؟ افتحي عينيك لترى الثمن الذي دفعته من أجل نزواتك؟

من الصعب معرفة من أين نبدأ هذه القصة. كانت سو تشين جالسةً في شارع مفترق الطرق تحتضن شياو لان الهزيلة، وعلى الرغم من أنها كانت فتاةً ناضجة ذات بطنٍ كبيرة في ذلك الوقت، إلا أنها كانت بالنسبة لأمها لا تزال طفلتها الصغيرة الغالية، وراحت تسأل نفسها متى بدأت علاقتهما تسوء وتفتقر؟

ربما حدث هذا في أيام الأربعاء، فتاة مثل شياو لان، هذه الفتاة المتحفظة ذات الشخصية الصارمة والتي لا تتسامح حتى مع أدنى أخطاء في الحياة، لا بد وأن تلك الليالي كانت وصمة عار لا يمكن محوها من تاريخ أمها، فكيف تتوقع سو تشين منها أن تفهم ما كانت تعانيه؟

في الواقع لم يكن لدى سو تشين سوى ذكريات مرهقة عن تلك الليالي، في كل أربعاء كان الإحساس بالخزي يزحف إليها في منتصف النهار، فتقول لنفسها: "لن أذهب"، لكن جسدها كان مثل كرة تطفو على سطح الماء عجزت عن السيطرة عليها، وكانت تقاوم حتى الساعة التاسعة مساءً، وتسرع في ترتيب أمور ولديها ثم تُخرج دراجتها وتسلل إلى بيت دينغ بوه جانغ ثم تصعد إلى فراشه. وفي الخامسة والنصف من صباح اليوم التالي، حتى لو كانت تشعر

بالموت ومهما كان الجو باردًا، كانت تعود مسرعةً إلى البيت وتسلك مثل اللصوص، على أمل ألا يكون أحدٌ من الجيران انتبه إليها. لم تستطع أبدًا الاعتراف بأنها كانت تسرق هذه الساعات القليلة في الظلام، ولم تستطع شياو لان أن تفهم الآلام التي كابدها، ولم يستوعب واحدٌ من الأبناء الأربعة مشاعر أرملةٍ كادت تجف الدماء في عروقها، لكنهم تكاتفوا ضدها وتناوبوا على إثارة المتاعب كل أربعاء. وفي النهاية أحسّت أنها مثل كلبةٍ تهرب، وسط عاصفةٍ مطيرة، من الحجارة التي تقذف بها، فلم يحترمها أحد، حتى هي فقدت احترامها لنفسها وصارت المرأة المهووسة بالخصوصية امرأةً ساقطة غارقة في الوحل.

وكانت قادرة على تحمّل كل هذه الاتهامات، فهي تستحقها، لكن الشيء الوحيد الذي لم تكن قادرةً على تحمّله هو فكرة أن الحب يجمع بين شياو لان وتشنغ جونغ. والسماء وحدها تعلم أنها لا ترغب في أن تتحدّث عنه بسوء، لكن هذا الشاب حتى لو كان مهذبًا ولطيفًا، فكان يقضي أيامه عاري الصدر يعمل في ورشة زجاج، وفي الليل يلعب البلياردو وينفق نقوده على السجائر، وكانت رائحته كريهة مثل رائحة جميع شباب شارع مفترق الطرق، فلم تستطع سو تشين أن تصدّق أن ابنتها مغرمة به.

لا تزال سو تشين تتذكّر تلك الليلة المروعة، وكانت السنة الثالثة لشياو لان في المدرسة الثانوية وحينها كانت قد بلغت الثامنة عشرة. اعتادت أن تذهب لحضور الدرس الخصوصي بعد المدرسة، وتعود إلى البيت قبل الثامنة والنصف، وفي إحدى الليالي دقت التاسعة والنصف ثم العاشرة ولم تعد شياو لان إلى البيت.

استولى عليها الخوف، فقد شاعت القصص حول ما يفعله شباب المنطقة، وإذا حدث أي شيء لابنتها، كانت ستتيقن أنه عقاب السماء لامرأة مذنبه مثلها! ولم تستطع الذهاب وطلب مساعدة دينغ بوه جانغ علناً، ولا التظاهر بأن ما من شيء حدث، فخرجت في ساعة متأخرة تتجول بدراجتها لتبحث عنها، والدموع تنهمر على خديها، وتتضرع إلى السماء وتطلب منها أن تحمي ابنتها من الخطر، وشرعت تقول: "سأفعل أي شيء إذا كانت بخير.. سأقف في منتصف شارع مفترق الطرق وأعتذر لأهالي المنطقة بمكبر صوت وأعترف بخطئي، ولن أرى دينغ بوه جانغ مرة أخرى، سأعيش وحدي بقية حياتي، سأفعل أي شيء طالما ابنتي بخير!"

وفي طريقها نحو الشارع المظلم، وفي ضوء مصابيح الشارع المتباعدة، إذا بها ترى شيئاً في غاية الغرابة، رأت تشنغ جونغ وكأنه يلعب ألعاباً بهلوانية في الهواء. كان يقود الدراجة بيدٍ، وباليد الأخرى يدفع دراجة فارغة وفتاة كانت تركب خلفه.. من هي الفتاة؟ لا أحد سواها، كانت شياو لان! بدا الاثنان وكأنهما طائران يحلقان على الطريق.

وفجأة، تحول حزن سو تشين إلى غضب، وتمنت لو تسقط ابنتها من فوق الدراجة، وراحت تسأل نفسها: ماذا كانت تفعل مع هذا الشاب؟ ربما يتلاعب بها؟ ماذا كان يفعلان في هذه الساعة المتأخرة؟ فاتجهت نحوهما بصمت، وكلما دنت منهما زاد عبوس وجهها وأحسّت أن السماء تسخر منها.

لاحظت أن وجه تشنغ جونغ كان ينزف ومليئاً بالكدمات، وهذا شيء متوقع من شابٍ عرييد مثله؛ دوماً يتشاجر ويتقاتل وينتهي به

الأمر مصابًا، ولا شك أن الحال ستفضي به ويكون مثل أبيه ويغرق في بحور الخمر. عندما رآها نزل من على الدراجة، وسرعان ما قفزت شياو لان من فوقها وأحست بذهول عندما رأت أمها، فاقتربت من تشنغ جونج ممسكةً بذراعه اليسرى، متجاهلةً القلق الذي انتشر في أرجائه.

أسقطت سو تشين دراجتها، وألقت بنفسها على ابنتها وصفعتها على وجهها صفعتين قائلة: "يا وقحة!"، وكانتا صفعتين قويتين مرضيتين. كانت المرة الأولى التي تضربها فيها، لكن ما إن هبطت راحة يدها حتى أدركت أنها ارتكبت خطأ فادحًا، فبهذه الفعل ستزيد الفجوة بينهما أكثر وأكثر.

لم ترجف شياو لان، بل أومأت برأسها قليلاً وكأنها تقول: "هل ترى؟ ضربتني أمي بسببك." وكأن الصفعة تعني أن مصيرها سيرتبط بمصيره إلى الأبد. كانت عيناها محتقتين بالدماء وبدت في غاية التمرد، وتشبثت بذراع تشنغ جونج، ولم تنتبه أن جسده صار ساخنًا مثل شمسٍ تكافح لتسطع وسط الغيوم.

وبعد مضي السنين، بينما كان تشنغ جونج وسو تشين يقفان أمام نعش دينغ بوه جانغ، اعترف لها أنه قبل تلك الليلة على الرغم من أنه كان يشعر بأنه معجبٌ بشياو لان، إلا أن عاطفته لم تكن قد نمت، لكن كانت هاتان الصفعتان هما سبب وقوعه في حبها بصدقٍ وعناد.

وعندما عادتا إلى البيت، كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة، فانتهزت سو تشين فرصة نوم شياو باي، ونوت الحديث مع ابنتها لوضع حدٍّ لهذا الأمر.

- لا يمكن أن يكون تشنغ جونغ فارس أحلامك في يومٍ من الأيام،
أليس كذلك؟

- وهل دينغ بوه جانغ هو فارس أحلامك؟

وجدت سو تشين نفسها تقول كما لو أنها تخبرها بأنها ستغيّر قصة
شعرها.

- سأقطع علاقتي به الأسبوع المقبل.

فتردّت شياو لان قليلاً ثم قالت:

- لم أقصد هذا!

- لن أفعل ذلك بسببك!

تحدّثت سو تشين بهدوءٍ بالغ وكانت صادقةً في كل كلمة تقولها،
وأحسّت أن هذه فرصتها لتحرر نفسها من رغباتها الجسدية وتعود
امرأةً شريفة كما كانت، فقد سئمت مما وصلت إليه من أحوال،
وتذكّرت الوعود التي قطعتها للسماء عندما خرجت للبحث عن
ابنتها، وربما يكون هذا ما تريده السماء منها أن تفعله.

- لم أحاول إغضابك بالخروج مع تشنغ جونغ!

لم تفهم سو تشين حقيقة نواياها، هل بالفعل كانت تحاول
إرضاءها أم أنها تكذب؟ بعد سنوات عديدة أخبرت شياو لان تشنغ
جونغ عن تلك المحادثة القصيرة، وأنها لا تزال تشعر بالذنب، فما
كان ينبغي أن تستخدمه لتهديد سو تشين، فلو ما ضغطت على أمها
بهذه القسوة، لربما بقيت العائلتان معاً، فرد تشنغ جونغ بهدوءٍ شديد،

وقال: "لكن هذا لن يدوم أبدًا"، منذ اليوم الأول وأنا أعلم أنه من المستحيل أن نكون عائلةً واحدةً أبدًا.

تجاهلت سو تشين ابنتها وراحت واغتسلت بصمت، بينما واصلت شياو لان الدفاع عن نفسها وقالت:

- هل تعتقدن أنني لا أعرف أحوال تشنغ جونغ؟ لكنني لن أتخلّى عنه، أنا لا أحقره كونه ليس لديه وظيفة مناسبة؛ فلا فرق بيننا، وقد ولدنا أحرارًا!

جعلت شياو لان الأمر يبدو وكأنه إعلان عن حقوق الإنسان.
فقالت سو تشين:

- دعك من هذا الحديث! سأقطع علاقتي بدينغ بوه جانغ الأسبوع المقبل. أقسمي لي أنك لن تقابليه مرةً أخرى!

- أُمي لا تتحدّثي بهذه السخافات، لم أقل إنني مغرمة بتشنغ جونغ.
هل منطقة مثل منطقة المصانع تستحق أن أبقى فيها!

قالت وهي تضع حقيبة المدرسة على النضد لتبدأ رحلة المذاكرة الليلية، ثم استدارت وجالت ببصرها في أركان الغرفة الضيقة قائلةً:

- أنا طموحاتي كبيرة! ألا تقولين دائمًا أنني مثل أبي؟

أحسّت سو تشين بارتياح كبير، وكانت على يقين أن ابنتها تقول الصدق، فدومًا كانت محلّ ثقتها وتعتمد عليها، لأنها تعلم أنها فتاة لديها طموحات كبيرة وآمال عريضة. وكان قرارًا صائبًا بأن تقطع صلتها بدينغ بوه جانغ، وكان عليها أن تحتذي بابنتها وتكون مثل زهرة عبّاد الشمس، وتبذل قصارى جهدها من أجل مستقبلٍ واعد لها ولولديها!

(٣)

وقبل أن تخبره بقرار الانفصال راحت تتفرّس في ملامحه، فقد أضاء ضوء المصباح الأصفر وجهه، فلاح حاجباه الخفيفان وتجاعيد وجهه الغائرة، والجلد المتقشّر على زوايا فمه والرؤوس السوداء على طرف أنفه الأحمر وكانت تبدو مثل بذور السمسم، وكلما نظرت إليه استبدّ بها شعورٌ بأنه رجلٌ غريبٌ لا تعرفه.

وصوتٌ ساخرٌ يرنُّ في أعماقها: هل كانت تعاشر هذا الرجل طوال عامين وسبعة أشهر؟! كيف تعاشر مثل هذا الرجل صاحب الجسد المخيف؟

وكالعادة أفرط في الشراب حتى احمرّت عيناه، وكأن ريحًا عصفت بهما وغامتا بضبابٍ كثيف، ولم يستطع أن ينظر إليها وتبيّست ملامحه أو ربما أفقده الكحول التمييز، وفي النهاية خرج عن صمته قائلاً:

- ماذا بك؟ لماذا تحدّقين بي؟

- الليلة ليلتنا الأخيرة على هذا الفراش.

كانت سو تشين تتحدّث بمنتهى الصدق فقد وطّنت النفس على اتخاذ القرار من دون رجعة، حتى أنها حسبت عدد مرات لقائهما على فراش الحب، ووجدت أنها خلال عامين وسبعة أشهر، أي ما يعادل مائة واثنين وثلاثين أسبوعًا، وباستثناء بضع مرات مثل العطلات

الرسمية ومضايقات الأبناء الأربعة وأيام الطمث، في النهاية كانت
الحصيلة ثمانين يومًا!

هل هذا الرجل من كانت تعاشره؟! أحسّت أنها كانت مثل فتاة
ليل ساقطة، بلا قلب وبلا مشاعر، مزّقت قلبها من أجل رغباتها. هل
كان يمكن أن تقع في غرام هذا الرجل؟ فلا داعيَ لتمتحن كرامتها أكثر
مما فعلت... كفى!

ربما تكون اقترفت خطأ بشأن علاقتهما، لكن قرار الانفصال هو
عين الصواب وبداية لتصحيح المسار، وخاصةً أنه بعد الانفصال
بوقتٍ قصير التحقت شياو لان بجامعة المعلمين، فارتاح قلب الأم
الواجف وأحسّت بامتنانٍ كبير، فلو لم تنفصل عن دينغ بوه جانغ،
لكانت شياو لان لا تزال على علاقةٍ بتشنغ جونغ وتحطّمت حياتها!

ولا تبرح ذاكرتها اليوم الذي جاءها فيه خطاب قبول الجامعة،
وشاع الخبر في منطقة المصانع، فأحسّت بفيضٍ من السعادة وخرجت
وقادت دراجتها على الطريق، ونسيت ليالي الأربعاء الحالكة، تلك
الليالي المهينة التي امتهنت فيها كرامتها، وفي النهاية أشرقت شمس
الحرية. قادت الدراجة وهي مرفوعة الرأس وملؤها عزة وشرف.

وكانت هذه هي المرة الوحيدة التي ترفع فيها رأسها منذ وفاة
زوجها. وراحت تتبادل التهاني والتحيات على طول الطريق حتى
إنها أوقفت الدراجة وتبادلت بعض الأحاديث القصيرة مع الأهالي
بمتمهى الشكر وبمتمهى التواضع.

وفي كل مرة كانت تقود فيها الدراجة على الطريق، كان الأهالي
يحملقون فيها من الخلف، وكانوا قد غفروا لها زلتها وتعتيمها على

علاقتها بدينغ بوه جانغ، وراحوا يتهامسون فيما بينهم بأنه ليس من السهل على امرأة مثلها أن تعتني بولدين، لكنها الآن تستطيع أن تفعلها، والمستقبل أمام ابنتها فاتحٌ ذراعيه لها ولا داعي للقلق عليها! وكانت بداية رائعة في حياة سو تشين، وتغيرت الأحوال ولم تعد الشائعات تحوم حولها، بل صارت مثالاً للأخلاق الرفيعة ومثالاً للشرف وللفضيلة، وبلغ بها الأمر أنها صارت تتولى العناية بشؤون الآخرين الخاصة في منصبها الجديد.

(٤)

في عام ٢٠٠١ حصلت سو تشين على وظيفة جديدة بعد تسريحها من عملها في المصنع عدّة سنوات، وإذا بالمرأة التي كانت رغبات الجسد تخزها وخزاً تتقلد مهمةً سامية في لجنة الحي وتؤدي مهمةً إنسانية نبيلة.

وربما يكون انفصالها عن دينغ بوه جانغ أعطاهها نقاط قوة إضافية وغير نظرة الأهالي إليها، وخلصوا إلى أنها امرأة قوية متزنة، إذا رغبت في أن تقيم علاقة مع رجل ستفعل، وإذا رغبت في أن تكون عزباء ستغدو، امرأة تمتلك زمام عواطفها وتند أي رغبة تؤرقها، كما أنها عانت التسريح من العمل وواجهت الكثير من المتاعب، ومثل هذا النموذج كان الأهالي يحترمونه وينظرون إليه نظرة تقدير وتوقير، علاوةً على ابنتها التي التحقت بالجامعة وابنها الذي يعمل في الجنوب، فزاد تقديرهم لها، كما أنها تخلّت عن ملذات الحياة ومتعها، فصاروا يحبونها ويحترمونها أسلوبها في الحياة.

ولا شك أن هذه الآراء منحتها شيئاً من الإيجابية، فقد أحسّت أنها مزقت صفحة دينغ بوه جانغ إلى الأبد وألقت بها في سلّة المهملات واستعادت كرامتها الممتهنة، وكلمت أحسّت أن الضعف يهدّ روحها بثّت الأعمال العظيمة، التي تؤديها، فيها قوة وعزيمة، وكانت هذه الأعمال تتمثل في الصلح والتوفيق بين الحموات وزوجات

الأبناء، وأعمال التنظيف في عيد تشينغمينغ، والاختبارات الصحية للنساء العاطلات وتنظيم الأسرة، والوقاية من أمراض الحيوانات الأليفة ومواساة المرضى والمعاقين، والانضمام إلى دوريات الدفاع المشتركة للأمن العام، وإجراء المسح السكاني العام وتحديث لوحات الإعلانات المحلية، وتنظيم الحملات الإعلامية وإعلانات العطلات الرسمية، والمساعدة في العيادات المحلية وتسجيل الأسر وبدلات المعيشة ومراقبة الباعة الجائلين في الشوارع، بالإضافة إلى العمل مع الشؤون الصينية في الخارج وإدارة انتخابات مجلس النواب بالمنطقة، ويمكن القول بأن كل مهمة كانت تتولاها، كانت تقع على عاتق لجنة الحي بالتعاون مع الحكومة المركزية في بكين، كما أنها كانت مهمّات ضرورية للاقتصاد الوطني لتوفير سبل العيش الكريمة للمواطنين.

وقد تكوّم على مكتبها العديد من الملفات، وتعيّن عليها أن تسجّل كل شهر اثني عشر دفترًا، وتقدّم اثني عشر نموذجًا وتضع ستين ختمًا.

ولم تكن المهمّات الكثيرة وتحقيق الأمجاد هما سمات هذه الوظيفة، بل كان سرّها يكمن في القيمة الأخلاقية الرفيعة، وفي الاقتراب من خصوصيات الناس وسبر أغوارهم بلا حدود، على سبيل المثال من أجل تنظيم شؤون العمال المهاجرين كانت تصطحب زوجات العمال لإجراء الفحوصات الصحية وتوزيع "اللولب" ووسائل تنظيم النسل الأخرى، ومن أجل حل النزاعات الأسرية كانت تذهب إلى البيت وتجلس على الفراش الذي تسبب في النزاع، وتسأل بمرتهى الدقة عن طبيعة الحياة الجنسية بين الزوجين.

وعند التصدي لصلوات القمار والمخدرات والبيوت السرية والمتعة الحرام، كان عليها التوغل في تلك البيوت ومواجهة الملصقات الإعلانية على الجدران ومراكز المساج المشبوهة، والقبض على هؤلاء الذين يتقاتلون على أسيرة الحب.

وهل يمكن تخيل تأثير هذه المهمات على سو تشين البالغة الثانية والخمسين؟

وهل بسبب ماضيها صارت معادية لمثل هذه التصرفات المُبتذلة والأفعال المشينة؟ وصارت مثل المحافظين القدامى الذين كانوا يضعون شارة صفراء، ويحافظون على النظام الأخلاقي في شارع مفترق الطرق، ويحاولون التصدي لهذه الممارسات بروح قتالية، ويحتجزون من يرتكب هذه الأفعال المشينة؟

لا لم تفعل سو تشين مثل هؤلاء، بل كانت تتعامل مع هذه الأمور بطريقة سطحية، فكانت تخفي صدمتها وإدراكها المتأخر لوجود مثل هذه الأمور في المجتمع، ولم تخرج هذه الأفعال عن كونها مجرد رغبات جسدية؛ مثل هروب زوج مع عشيقة أو العلاقات المحرمة بين الرجال والنساء أو المثلية الجنسية، وبالمقارنة بما فعلته في تلك السنوات، بدت بجانبهم امرأة مبتدئة مما منحها شعورًا بالراحة ومواساة النفس، لكن في الوقت ذاته، كانت تحسّ بحجرٍ جائم على أنفاسها، فعلى الرغم من مضي السنين لم يتغير شيء، ومثل هذه العلاقات المشبوهة لا تزال تتعرض للمراقبة والمساءلة القانونية، ويُسلط على أصحابها الضوء، فأحسّت بتعاطفٍ شديد معهم، ودومًا كانت في حالة يقظةٍ وحذر، وتمنّت أن يحافظ ولداها على القيم والأخلاق ولا تغريهما الحريات المزعومة والرغبات الوهمية،

وفطنت إلى أن هذا العمل الأخلاقي مهمة شاقة وربما يبدو مرناً، لكنه كان مثل حبلٍ مطاطي يبدو مرناً، لكنه قادرٌ على تضيق الخناق على عنقك حتى تختنق وتموت.

وبصرف النظر عن التدخل في خصوصيات الناس ومراقبة الأخلاق العامة، فقد جلبت لها هذه الوظيفة مفاجأة من العيار الثقيل، ووصلت حبال الوُدِّ المقطوعة بينها وبين دينغ بوه جانغ من جديد.

وكانت قد عثرت على اسمه مدوناً في مجموعة من شكاوى الأهالي، المقدمة إلى لجنة الحي للبت في أمرها، فخلعت نظارتها وراحت تقرأ بعناية، ووجدت الأدلة الدامغة على إدانته. في هذه اللحظة تذكّرت ليلتها الأخيرة وكلمات الوداع الأخيرة قبل أن يغطَّ في النوم:

- إن ذاكرتي سيئة، وربما أنسى كل شيء في الغد!

وإذا بها تعثرُ على رسالةٍ تخصّه، فضّت الرسالة وقرأتها ثلاث مرات. كتبها أحد الكوادر المخضرمين بكلماتٍ مليئة بالسخط، يصف فيها الدراما التي يحدثها كل يوم في الصباح عند منطقة المصانع:

"هذا الكادر فقد ذاكرته! يقف كل يوم وهو سكران يندب حظه العاثر ويرثي الأمجاد القديمة للمصانع القديمة ويُرثي الأصدقاء القدامى المسرحين من العمل.. فهو الوجه البغيض للماضي الذي يشوّه صورة الإصلاح المشرقة، ولا يمكن السماح له بتشويه الوجه الجميل لمصانعنا الجديدة!"

كانت الرسالة أشبه بتقرير صحفي، وأرسل المسؤولون الرسالة إلى لجنة الحي وقد تركوا توصيتهم: "أرجو التعامل مع المرضى

والمعاقين والفقراء بشيء من التعاطف، وتعزيز الوثام والتوافق الاجتماعي بين أهالي المنطقة."

فكرت سو تشين أن تشتري زجاجة نبيذ ماركة "يانغ خه" وتذهب لزيارته. وكان قد مرَّ على فراقهما ست سنوات، وعندما وصلت أمام البيت، رأت كلمة "هدم" مكتوبةً وسط دائرة كبيرة، والشقوق على السلالم الخرسانية لا تزال موجودة، وعندما انعطفت عند الزاوية رأت القنديل المتدلي من السلك الأسود القصير لا يزال موجودًا، فهمس هامسٌ في أعماقها: هل ستعود ليالي السبت والأربعاء من جديد، بعد أن راحت إلى بعيد؟ هل لقاؤهما بعد كل هذه السنين يمكن أن يسبب لها شيئًا من الخجل أو الحرج؟ فلو كان الأمر محرِّجًا لماذا تمضي موظفة الحي إلى بيته بهذا الهدوء؟ لكن سرعان ما حثَّت نفسها على طرد هذه الأفكار من عقلها، وأحسَّت أنها امرأةٌ عجوز وعقلها مثل زهرة خبا عطرها، ثم مضت على الطريق بخطى واثقة وهي تمثل إرادة الأهالي، وقرعت الباب.

بدا أمامها هادئًا مثل طائر كبير عاجز عن الطيران وحيّاها بأدب وقال:

- معذرةً، لا أحدهنا!

ثم أعطاهما ظهره وراح يجول ببصره في البيت ثم قال:

- ذهب ابني المعجزة لأداء الامتحان ومضت ابنتي مع زوجها لجمع الخردة!

وكان خي بي في ذلك الوقت قد فتح شركةً لجمع الموارد، لكنه كان يصرُّ على وصفه بجامع الخردة. اعتذر لها ثانيةً وقال مبتسمًا:

- لا أحد في البيت!

وقفت سو تشين عند الباب للحظات تنظر إلى ردة فعله، فأيقنت أنه لم يتعرف عليها، فبدأ الأمر وكأنها تنظر إليها من وراء مرآة؛ هي تراه وهو لا يراها، ورغم هذا لم تجد أدنى مشكلة في إنكاره لها.

طلب منها الجلوس على الأريكة، وكان لا يزال يحتفظ بالأريكة القديمة وقد تهدلت وصارت أكثر اتساخًا، ثم أشاح بوجهه عنها بعدم اكتراث وانشغل بشيء آخر. كان يفترش المائدة أمامه بصور كثيرة، وأخذ يقلّب النظر فيها صورةً تلو الصورة، ويتأملها بسعادةٍ وطول بال وكأنه يراها للمرة الأولى، ثم رفع رأسه وقدم إليها صورةً بخجل وقال:

- هذه زوجتي، التقطت هذه الصورة بعد مجيئنا إلى هنا بوقتٍ قصير.

كانت الصورة بالأبيض والأسود، وارتدت زوجته معطفًا قطنيًا وحجب شعرها نصف وجهها، وظهر في الخلفية نهر اليانغتسي المهيّب بلونٍ رمادي، كما رأت صورته الشخصية وكان تقريبًا في العشرينيات بصحبة مجموعة من عمال المصنع، بدوا وهم يرتدون ملابس العمل وكانت مليئةً بالتجاعيد، وتجمّعوا أمام النافذة وقد انعكس على وجوههم ضوءٌ ساطعٌ، ولاحت على شفاهم بسمَةٌ خفيفة، وكانوا يحملون قفازات العمل والمفكات والمناشير، ويقفون جنبًا إلى جنب وينظرون إلى جريدة، فإذا به يقول:

- كنا ندرس وقتها الزراعة والصناعة في مدينتي داتشاي وداتينغ عبر صحيفة شينخوا.

وأخذ يستدعي ذكريات الماضي الذي كان، فراقها حديثه عن الماضي وأحسّت أنه يتحدّث عن أفضل فترات حياته خلال عمله في المصنع، ثم التقط صورةً عائلية مليئةً بالألعاب النارية وقصاصات ورقية حمراء، تقف فيها تشن تشن بجانب خي بي وعلى شفّتيهما ضحكةٌ عريضة، وفوق رأسهما تظهر نصف العلامة التجارية "شركة لوشى للموارد العالمية". تردّد في البداية أن يعطيها الصورة وحاول أن يقلبها سريعاً، لكنها مدّت يدها والتقطتها منه ونظرت إليها بعناية. والصورة الملونة باهتة الألوان جعلت خي بي يبدو أكثر دكّانة، وفجأةً انبثقت ينباع القلق في أعماقها وتذكّرت ابتها شياو لان، وأنها فشلت في الالتحاق بالدراسات العليا والحصول على وظيفة مرموقة، وتسلمت عملاً في إحدى المدارس المتوسطة لأبناء الفقراء، لكنها لم تياس وتحلّت بروح معنوية عالية، وسكنت في نزل المعلمين وتحملت أعباء حصص إضافية وأعطت دروساً خصوصية في البيوت، وكانت سو تشين تشعر بالقلق، لأنها لم تكن على علاقةٍ غرامية بأي شاب، فكانت شياو لان تقول مازحةً:

- تمهّلي! ألا ترغبين في أن أصطاد لك أكبر وأسمن سمكة في البحر! حتى الآن لم تلتقط أي سمكة الطعم!

لكن تشن تشن سرعان ما التقطت سمكتها الطعم، وعجزت شياو لان عن أن تكون مثلها. أطالت النظر في خي بي وكأنها تنقش صورته في ذاكرتها من دون أن تدري، وكان قد نفذ صبر دينغ بوه جانغ وسرعان ما مدّ يده وانتزع الصورة من يدها بقوة، وأعاد ترتيب الصور مرةً أخرى على المائدة، وشرع يقلّب النظر فيها مرةً أخرى.

في هذه اللحظة تعكّر مزاجها ونفد صبرها، ونوت أن تنهي المهمة الرسمية التي جاءت من أجلها، وصاحت قائلةً:

- دينغ بوه جانغ!

وفجأةً أحسّت بحزنٍ عميق ينخر روحها وهي تناديه باسمه، وكأن الحياة مثل كرة الريشة، تقذفها تارةً هنا وتارةً هناك.

رفع رأسه في دهشة وتساءل كيف تعرف هذه المرأة التي قرعت باب بيته منذ قليل اسمه! ومثل طفلٍ صغيرٍ أمعن النظر فيها من دون أن يرمش له جفنٌ قال:

- نعم أنا دينغ بوه جانغ، ماذا تريدان؟

- من اليوم لا داعي للخروج وحدك، ولا تجلس في الشارع وتبكي، هذا أمرٌ مخجل!

وفكّرت أنها طوال هذه السنوات لم يحدثت وشعرت نحوه بأي مشاعر حب، بل كانت دومًا تحتقره وفكّرت إذا ما أبدى سلوكًا طيبًا اليوم، ستحاول أن تكون لطيفةً معه وتعوضه عن قسوتها طوال هذه السنوات، لكن كيف تحول إلى شخصٍ أحق إلى هذه الدرجة؟ وبلهجةٍ رسمية قالت:

- أنا الآن أتحدّث إليك نيابةً عن لجنة الحي، لا تخرج في الظهيرة إلى الشارع، فربما تضل الطريق ونقترح أن تودعك عائلتك في دار لرعاية المسنين.

فقال بارتباك:

- وفي النهار ماذا أفعل؟

- قلب في ألجوم الصور.

- أنا أقلب في الصور في الظهيرة، وفي الليل أشرب الخمر، وفي الصباح أذهب إلى منطقة المصانع.

لم تجد سو تشين ما يمكن أن تقترحه ليفعله في الصباح.

فقال بسعادة وهو يبتسم:

- فكّري في شيء وأخبريني.

ثم أطرق وتابع التقلب في الصور، وأمسك بصورة شخصية لتشنج جونج وهو يقف في مكانٍ بعيدٍ أمام هيكل فولاذي صداً، ويعلق بطاقة هوية في رقبته، ويرتدي بدلة العمل الرسمية وعلى شفّتيه بسمّة رقيقة، وكانت سو تشين تعرف هذه الابتسامة، فقد التقطت مثل هذه الصورة لزوجها من قبل، فلم يكن ينظر إلى الكاميرا بل ينظر إلى الشخص الذي يحمل الكاميرا. أحسّت بشيء من الغيرة فحتى نافخ الزجاج وقع في الحب ويشعر بالسعادة، ويبدو على ما يرام، وقلبه يخفق كعاشقٍ ولهان.

قلّبت بصرها في الصورة، وإذا بها تغمض عينيها وتفتحهما من الدهشة، لم يكن هناك أي شائبة في الصورة، كل ما هنالك ظهرت نصف حقيبة قماشية ملونة بالأخضر والبني في أسفل الهيكل الفولاذي، وكانت تعرف هذه الحقيبة لأنها حقيبة شياو لان، اشترتها بعد أن تسلمت عملها ودوماً كانت تحملها عند عودتها في العطلة الأسبوعية.

ارتعدت سو تشين وراحت الأسئلة تنهش رأسها: متى التقطت هذه الصورة؟ ماذا يحدث من دون علمها؟ هل كانت تقصد بأكبر

وأسمن سمكة تشنغ جونغ؟ فدوماً كانت ترفض الحديث عن أصدقائها الشباب، هل كان يتواعدان ويلتقيان رغم أنها نفذت وعدّها وانفصلت عن دينغ بوه جانغ؟ يبدو أنها كانت مثل الضريرة، لا تدري ماذا يحدث من خلف ظهرها.

فقال لها بفخر:

- هذا ابني المعجزة! لم يعد نافخ زجاج بل صار كادرًا في نقابة العمال، لديه مواهبٌ فذةٌ ومستقبلٌ باهر في انتظاره!

ومن دون قصد تفرّس في وجه سو تشين، فجمدت مكانها، فإذا كان قد تعرّف عليها، فلا بدّ أن تسأل عن الصورة وتحدّث بشأن تشنغ جونغ.

وران الصمت بينهما طويلاً ثم قال بأدب:

- متى ستأتين المرة القادمة؟ هل ستحضرين معك النبيذ؟

(٥)

وبعد حوالي ستة أشهر زارت دينغ بوه جانغ مرةً أخرى، لكن لم تشتتر له زجاجة نبيذ، بل ذهبت برفقة شخص وكان خي بي الذي قاده ليلتها من البوابة الخلفية لملهى ليلي، وعندما وقعت عيناها عليه للوهلة الأولى لم تتعرّف عليه، وكيف كانت ستعرفه وهو يقف أمامها عارياً؟ فقد أحسّت بارتباكٍ شديد.

ومنذ أن رأت صورة تشنغ جونغ وبصحبه حقيبة شياو لان القماشية الملونة، تفجّرت ينابيع القلق في أعماقها وصار قلبها كجمرة من نار، وفكّرت طويلاً لكن عقلها لم يهدأ إلى شيء وسألت نفسها: كيف لعائلتين انفصلتا منذ أكثر من سبع سنوات أن يجمع القدر بينهما مرةً أخرى؟ ماذا ستفعل هذه المرة؟ فهي لم تعد قادرةً على الانفصال عن دينغ بوه جانغ بدافع الواجب الوظيفي، وكيف تدنّي سقف طموحات شياو لان رغم أنها تنكر هذا الشيء، وتريد أن تربط مصيرها بمصير تشنغ جونغ؟ وهل ستقدر على الحديث معها؟ وإذا أخبرتها بأمر الصورة ستعرف أنها رأت دينغ بوه جانغ، وسيقتضي الأمر منها أن تشرح وتبرّر، وهو شيء لا يمكن أن تبرّره.

عجزت سو تشين عن فعل شيء، لأنها دوماً كانت ترفع الراية البيضاء أمام قرارات شياو لان.

وفي اليوم الذي التقت فيه بخي بي، كانت تعمل وردية إضافية من أجل التصدي للممارسات المُشينة ومكافحة المنشورات الإباحية. وتعاونت لجنة الحي مع قوات الأمن العام وقامت سيدات الحي بجولات تفتيشية داخل الفنادق وصالات المساج وصالونات التجميل من أجل القبض على فتيات الليل وزبائنهن، وكانت الغرامات المفروضة على المتهمين يشترك فيها هؤلاء النساء، كي تأخذن الأمر على محمل الجد.

وعندما ركل رجل الأمن باب الغرفة الموجودة في نهاية ممر الملهى الليلي، تمكنوا من ضبط رجل وامرأة، وكانت ردّة فعل كل منهما مختلفة؛ غطّت الفتاة نصف جسدها السفلي، بينما غطّى الشاب وجهه، فصاحت قوات الشرطة من الفرحة لأنهم تمكنوا من ضبطهما متلبسين، وقادت الشرطة كل منهما إلى مكانٍ مختلف وراحت تستجوبهما وتسألهما عن اسميهما وعمريهما وعملهما إلى آخر هذه التفاصيل، وأخبروهما أنه إذا كانت الإجابات مطابقة للحقيقة فسيطلقون سراحهما، أما إذا تحايلا في الإجابات، فسيضطحبون كلّاً منهما إلى قسم الشرطة.

غطّى خي بي وجهه وحاول أن يستر الجزء السفلي من جسده بينطاله، ولم يكن البنطال كافياً لستر وجهه والجزء السفلي، وعندما اقتربت سو تشين منه أحسّت أنها تعرف هذا الشخص، فسعلت واقتربت أكثر لتفترس في وجهه، وكان لا يزال يحاول أن يخفي وجهه عن الأنظار، بينما هي تحاول أن تتذكّر من هو، فابتسم لرجال الشرطة قائلاً:

- لا داعي لإحداث جلبة، سأدفع الغرامة ونسوي الأمر!

في هذه اللحظة أيقنت أنه الرجل الذي رأت صورته في بيت دينغ بوه جانغ، إنه تاجر الخردة زوج تشن تشن. راح يساوم رجال الشرطة على الغرامة، بينما وقفت حائرة تفكر: هل ينبغي أن تخبر تشن تشن أم دينغ بوه جانغ؟ أم من الأفضل تخبر تشنغ جونغ؟ فلا بد أن تخبر أحداً منهم ليردعه عن أفعاله المشينة، وأدركت أن هذه الزيجة غير موفقة، وخاب ظنّها في أن تشن تشن عثرت على الصيد المناسب. تشوش عقلها وسرعان ما تقدّمت إلى رجال الشرطة وتهايمست معهم، فاعترتهم الدهشة لكنهم لم يرغبوا في التطرّق إلى مزيد من التفاصيل، ونووا أن يأخذوا منه الغرامة ثم يطلقوا سراحه.

وقف خي بي يعد نقود الغرامة وكانت جيوبه عامرةً بالنقود، ولم يمانع من الدفع مقابل قضاء ليلة حبّ لا تنسى، وبينما هو يعدّ النقود رمق سو تشين فرنّ صوت في أغواره: هل هذه العجوز تريد أيضاً أن تستغلني؟ لم يبال بها، فطالما قطع الخردة متوافرة في كل مكان، فدوماً جيوبه ستكون عامرةً بالمال الوفير.

أخذت منه بطاقة الهوية وكانت مثل الطوق الذي تقوده به طوال الطريق، وكلما سارت على الطريق أحسّت بعدم ارتياح، وسألت نفسها: ماذا تفعل؟ أليست هذه أمور شخصية لا دخل لها بها؟ أليس ما تفعله هو إدانة واضحة لخي بي؟ لو كان رجلاً غريباً أو امرأة لا تعرفها، لتركتهما وشأنهما بل ربما باركت فعلتهما، لكن الأمر يخصّ تشن تشن ولا يمكن أن تترك تلك المسكينة تعيش مغيبة، لا تدري ما يفعلها زوجها الخائن في الظلام. وفي النهاية عقدت العزم على أن تقدّم يد العون إلى تشن تشن.

وكلما تقدم في السير أدرك إلى أين هو ذاهب، وإذا به يتوقف عند عمود الإنارة مثل جرو صغير ويأبى أن يواصل السير قائلاً:

- ماذا ستفعلين؟

- سنذهب لزيارة شخص؟

خمن أنها ربما تكون من الجيران القدامى لتشن تشن فقال:

- هي لا تسكن هنا، تزوّجنا وانتقلت للعيش معي في شقتي فوق مقر شركتي، فقد رفضت عملها بعد الزواج.

فواصلت السير وقالت بعدم اكتراث:

- لن نذهب إليها!

فجأة، أحسّ بالعجز وفطن أنه ذاهب لرؤية ذلك الرجل المخمور، فلم يستوعب تصرفات هذه العجوز الغريبة، وأحسّ بالعجز وشعر بأن خطواته باتت ثقيلة على الأرض، ولم يكن يخشى مقابلة دينغ بوه جانغ، بل كان يخشى لقاءه وهو يشرب، مما جعله يتذكّر تلك الليلة التي كان مخموراً فيها وتقيأ بشدة، وجاءت تشن تشن لتنظف الغرفة، والتقى بها للمرة الأولى وكانت الغرفة مليئة بالقيء والمشايات المائية، وفجأة انبثقت الدموع من عينيه، وبكى هذا الرجل الذي لم يذرف دمعاً واحدة منذ زمن طويل!

فتردد قليلاً ثم قال:

- عمتي، أنا أعلم أنني اقترفت خطأ، لكن الرجال جميعهم على هذه الحال ويواعدون أكثر من فتاة، لكن يبدو أن اليوم ليس يومي، فجميع أصدقائي يفعلون ما أفعل.

كانت سو تشين تعلم أن هذه هي أخلاق معظم الرجال الآن، فأحسّت بالحزن ولم توقف السير، وما إن وصلت عند باب بيت دينغ بوه جانغ حتى قالت:

- اطمئن، لن أخبره شيئاً، أنا فقط أريدك أن تراه.

قرعت الباب وانتظرت طويلاً حتى فتح دينغ بوه جانغ، فحدق بها ومن زاوية عينيه رمق خي بي، وقد تجمّعت حبات العرق الغزيرة على جبينه وملامحه قد تبدّلت، فأغمض عينيه ثم فتحهما ثانية، وأخذ يحملق في سو تشين وسألها بتردد:

- أنا أعرف أنك تعرفيني وتعرفين ابني تشنغ جونغ، فهل تعرفين أيضاً ابنتي تشن تشن؟ قد نسيْتُ شكلها. أشعر بالقلق لغيابها وأريدها أن تعود إلى البيت، الآن ذال كثيرون في الخارج وأنا أخاف عليها منهم، وقلبي غير مطمئن. أذكر أنني وضعت صورتها هنا لكني لا أجدها... فلوّحت بيدها وقالت:

- لا تقلق، ستأتي لزيارتك، وأنا سأتي في الغد وأساعدك في البحث عن الصورة.

فقال بارتباك:

أي صورة؟

ظلّ خي بي صامتاً ثم قادته سو تشين إلى الطابق السفلي، فسمعت دينغ بوه جانغ يصيح قائلاً:

- لا تحضري معك غرباء في المرة القادمة، أحضري فقط زجاجة نبيذ!

وكيف لهذا الرجل فاقد الذاكرة أن يتذكّر في حياته شيئاً سوى
الخمير!

- خذ بطاقة هويتك.

- أنا أحسن معاملة تشن تشن.

- لا يهمني هذا الشيء. يمكنك الذهاب الآن!

- من أنت؟

- أنا موظفة من لجنة الحي!

(٦)

لم تف سو تشين بوعدھا إلى دينغ بوه جانغ ولم تذهب لتبحث معه على الصورة، ولم تزره إلا بعد فترة طويلة. وكان شغلها الشاغل في ذلك الوقت هو شياو لان، ولم تعد تلك الصورة التي ظهر فيها تشنغ جونغ ومعه الحقيبة القماشية الملونة تؤرقها، لأنه قبل عيد ميلادها السادس والعشرين بوقت قصير، حدث أمرٌ قلب كل الموازين.

زارت شياو لان أمها برفقة شاب لتعرفها عليه.

كان اسمه خوانغ شين، وقالت إنه مهندسٌ معماري ولديه شركةٌ خاصة يديرها. كان شاباً ميسور الحال، وبالفعل كان مثل سمكة كبيرة سمينه، وأخبرتها أنهما سيتزوجان ولن يقيما حفل زفاف وسيكتفیان بالسفر إلى ماليزيا وسنغافورة وتايلاند لقضاء شهر العسل.

كان هذا الخبر مثل مطرٍ سقط على رأسها، فأطفأ لهيب الأرض وخفف من وطأة النيران في قلبها وسألت نفسها: لماذا تعاملها شياو لان بمثل هذا الفتور؟ لكن سرعان ما تجاوزت الأمر وواست نفسها بأن الشاب وسيمٌ وصاحب خلقٍ رفيع، ويكفي أنها لم تكن جادةً في علاقتها مع تشنغ جونغ.

وعندما خلصت إلى هذه الفكرة بأنه العريس الموعود تبددت ظلال الغضب، بل وتظاهرت بأنها امرأةٌ واسعة الأفق وعصرية،

ورحبت بصهرها أحرَّ ترحيب، وحاولت أن تجد فرصةً لتحدّث مع شياو لان، لكن حماسة شياو لان قطعت عليها كل السبل، فشرعت تحكي لها عن بيتهما الجديد في وسط المدينة، وحملت لهجتها الفرحة شيئاً من السخرية، وكأنها تقول لها: ما رأيك، أليس هذا العريس سمكة كبيرة وسمينة؟ أليس هذا ما كنت تمنين واصطدت لك الصيد الثمين؟ هل أنت راضية الآن؟ كل شيء صار كما كنت تحلمين به وأكثر. وراحت تلمّ أغراضها من المنزل في عجلةٍ وكأن شخصاً سيموت في الثانية المقبلة، فأمسكت بقاموس إكسفورد، الصيني الإنجليزي، وكان القاموس الذي أهداها إياه دينغ بوه جانغ كرشوةٍ لتكفّ هي وشياو باي عن مضايقتهما في أيام الأربعاء، فقالت مبتسمة:

- هذا القاموس ثقیل جداً ولم أعد أريده! لا تغضبي مني!

فأسبلت سو تشين جفניה ولم ترغب في أن تخوض في الأمر، وكان ما يصبرها هو أن الحياة تفتح ذراعيها لها، فدوماً كانت قلقة على ابنتها وتمنّت أن تطمئن على أحوالها.

وبعد مضي بضعة أشهر اكتشفت من خلال تقرير الضرائب المحلي لأهالي شارع مفترق الطرق، أن شخصاً جديداً أضيف إلى كشف مستحقي دفع الضرائب، وكان صاحب متجر زجاج، وكالعادة تحققت من المالك واعترتها الدهشة عندما وجدت أن المالك هو تشنغ جونج، وراحت تسأل نفسها: هل ترك عمله؟ ألم يخبرها أبوه أنه انتقل للعمل في نقابة العمال؟ من أين حصل على المال ليترك الوظيفة؟ وعلمت أن تاريخ افتتاح المتجر هو تاريخ شهر غسل شياو لان وخوانغ شين.

يا لها من صدفةٍ عجيبة! حدثان مهمّان يحدثان في التوقيت ذاته!
فأحسّت بشيءٍ من عدم الارتياح!

وشرعت تخرج عدّة مرات خلال اليوم من دون وعي، وتدور حول متجر الزجاج، فانتبهت أن المتجر لا يتردّد عليه سوى عددٌ قليلٌ من الزبائن، ولم تكن هناك حركة بيع وشراء دائرة، كعادة المحالّ والورش، فقط يجلس شابٌ خلف الزجاج لا يتحرك، وأحياناً كانت تراه يمسك بقطعة قماشية بيضاء يلمع بها الزجاج، ويبدو أنه كان لا يهتم بشؤون المتجر بقدر ما يهتم بأن الوقت يمرّ سريعاً. ومن وراء طبقات الزجاج شعرت سو تشين أنها تنظر إلى راهبٍ صغير فتأثرت بالمشهد، لكنها لم تترك نفسها للتفكير، وكان من المستحيل أن تخبر شياو لان بهذه التطورات، واحتفظت وحدها بهذه الشكوك، ومشاعر الندم، حتى التقت بتشنغ جونغ في جنازة دينغ بوه جانغ.

(٧)

وبعد زواج شياو لان أحسّت سو تشين لفترةٍ من الوقت بأنها وحيدة، لكنها أحسّت بشيءٍ من الهدوء. تردّدت شياو لان على زيارتها بضع مرات، وساعدها عملها في لجنة الحي على تخطّي ملل الحياة، ولم تستمر هذه الحياة الهادئة طويلاً، فبعد مضي ثلاث سنوات ذهبّت إلى محطة الحافلات لاستقبال شياو باي، الذي رفض العودة طوال عشر سنوات. وعندما رأت أنه أحسّت بشيءٍ من عدم الارتياح، وساورها القلق القديم مرةً أخرى. وعلى ما يبدو أن السماء لا تقدر لهذه المرأة أن تعيش في سلام طوال حياتها!

كان حينها قد فقد الكثير من وزنه وعاد من الجنوب وهو يرتدي ملابس أنيقة واختلط حديثه بكلمات من الجنوب، لكن كان لا يزال عفويًا وتصرفاته صبيانية كما كانت في تلك السنوات البعيدة، فراودتها رغبةٌ قوية في أن تعانقه لكنها لم تطعها، وأحسّت أنها قد تسبب له بعض الحرج، لأنه لم يعتد عناقتها، كما كانت تعلم تمام العلم أنها في نظره مجرد أم سيئة، ولا يمكن أن يراها أبدًا أمًا حقيقية، ولم تكن تلومه بل توافقه هذا الرأي!

ولا تبرح ذاكرتها ذلك اليوم عندما استدعتها المعلمة عندما كان في الصف الثالث الإعدادي ووبختها بشأن البيان الشخصي لشياو باي. كانت المعلمة تعلم أنه يتيم الأب، فأحسّت أن لديها واجبًا نحو

هذا الفتى المسكين، وراحت تنظر إليها بقسوة، كأنها تشير إلى أنها أمٌ غير كفء، وقالت:

- هل سألتَه لماذا لا يريد الالتحاق بالمدرسة الثانوية؟ إذا التحق بمدرسةٍ فنية، فالفرص أمامه في المستقبل ستكون محدودة، حتى لو التحق بمدرسةٍ فنية، فلماذا يرغب في الالتحاق بمثل هذه المدارس المغمورة التي لا يسمع عنها أحد من قبل؟ مدارس من دون مستقبل مثل تربية الحيوانات ورعاية الغابات ورسم الخرائط، إنها عديمة الجدوى ومضيعةٌ للوقت!

قالت سو تشين وقد علقت على وجهها ابتسامة وكأنها تعلم رغبات ابنها:

- سأحدث معه عندما أعود إلى البيت وأنصحه بتغيير رأيه!

ودّعت المعلمة وعادت إلى البيت بقلبٍ مكلوم حزين، وهي تفكر وتتساءل: هل ستستطيع بالفعل إقناعه بالعدول عن رأيه؟ وهل هناك جدوى للحديث معه؟

كبر شياو باي ودخل مرحلة المراهقة وصار فتى متمرّدًا، وفي السنوات الماضية قد صبت كل اهتمامها على رأس شياو لان ظنًا منها أنه لا يزال صغيرًا، ولا يمكن أن يتعرّض لأي مضايقات أو أي أضرار، وكل ما كانت تفعله هو إعداد المزيد من الطعام له، حتى إنه لم يعد لديها طاقة أو بال لتوليّه عنايته، لكن بالفعل كان الخطر يحوم حوله وتذكّرت عندما حكى لها عن تلك اليد التي تسللت من النافذة في الظلام وتحسست جسد شياو لان، وعندما تظاهر بأنه محموم، وتذكّرت عندما ضربته ذات ليلة، فاستشاط غضبًا وراح وملاً كل

الأواني والأوعية وعلب الألوان بالماء، فكان عليها أن توليه عنايتها في ذلك الوقت، وبسبب إهمالها نشأ منطويًا على نفسه، وتعرض لتنمر الجميع بسبب بدانته، فكيف يستطيع أن يترك البيت ويسافر ويعيش وحده؟

وكلما مضت على دروب الحياة وهنت قوتها وصارت روحها المعنوية في الحضيض.

كان هذا بعد انفصالها عن دينغ بوه جانغ، وفي أثناء هذه الفترة كانت دومًا تردّد في نفسها وكأنها تتمم تعويذة:

"كان لا بدّ من الانفصال، الانفصال هو عين الصواب من أجل شياو لان ومن أجلها ولا شكّ أنه أيضًا من أجل شياو باي."، لكن كان عليها أن تقرّ بأن شياو باي لم يكن على ما يرام، فمنذ العشاء الأخير للعائلتين وقد تدثّر بصمتٍ مريب حتى عندما علم بخبر التحاق شياو لان بالجامعة، لم يعلق على الأمر ولم يبد أي ردة فعل.

وتذكّرت الليلة التي سبقت تسجيلها في الجامعة، يومها راحت تذرّع الغرفة جيئةً وذهابًا وعيناها تتألقان ببريق السعادة، وكادت تطير فوق السحاب وقالت:

- لن أعود إلى هذا البيت مرةً أخرى، سأنتهز كل لحظة من وقتي، حتى في أيام العطلات والإجازات، وأذهب إلى المكتبة حتى أحصل على منحةٍ دراسية مجانية، وأتقدم لامتحان اللغة الإنجليزية، وربما أيضًا أتقدم لامتحان تحديد مستوى اللغة الإنجليزية (توفل)، وسريري لم أعد في حاجة إليه، أعطه لشياو باي فقد كبر وصار في الصف الثالث الإعدادي.

ارتعدت سو تشين من حديث ابنتها، واعترتها الدهشة من رغبتها القوية في أن تقطع كل علاقة أسرية تربطها بهما، وأن تتخلّى عنها وعن أخيها، لكنها تمالكت نفسها ومررت يديها على ملابس شياو لان الموضوعة على الفراش وقالت:

أنا أتفهّم الوضع، إذا كان لديك متسعٌ من الوقت تعالي لزيارتنا، كما ينبغي أن تصطحبي شياو باي معكِ في رحلتكِ إلى المدينة.

كما تذكّرت ردة فعل شياو باي نحو ما قالته شياو لان، يومها نظر إلى الفراش ثم إليها، وقال بنبرة غريبة:

- أنتِ تودعيننا الآن؟ أنتِ وأمي لستما هيتينين؛ تفعّلان ما ترغبان به وتنفّذان ما تقولانه، فإذا قرّرت الذهاب تذهبين، وأنا أيضًا سأكون مثلك، من الآن لن أهتم بأحدٍ، شكرًا لك! من اليوم لا أحد سيمنعني من السير على الدرب الذي اخترته وسأتصرّف كما يحلو لي، ولا أحد سيقف أمامي!

في هذه اللحظة أيقنت أنه قد اتخذ قراره بالفعل، ولا يمكن أن تقنعه بأن يعدل عنه، وصارت أرملة وحيدة ولا بدّ من أن نقرّ بأنها في تلك الفترة اشتاقت إلى دينغ بوه جانغ، وربما لأنها كانت وحيدة، فالإنسان في أوقات الوحدة يفكر أكثر مما اعتاد.

في ذلك المساء أبدت سعادتها نحو رغبات ابنها وطموحاته وقالت:

- لم أتوقّع أن لديك مثل هذه الطموحات الكبيرة! أنا أدعمك في قرارك! التحق بأي مدرسة تريدها وأنا معك.

فهزّ رأسه وأطلق تنهيدةً تنمُّ عن ارتياح، لكنها رأت الحزن يكسو وجهه وهو يغالب دموعه، وتصور أنها سترجوه أن يعدل عن قراره، ويبقى معها، وأنها ستعده بأن تحسن معاملته.

ورغم أنها رأت دموعه التي حبسها لكنها أبدت عدم اكتراثٍ رهيب، وبعد أن غادر كانت دوّما تتذكّر هذا المشهد، فتحسُّ بهزيمةٍ ساحقة، فقد تركت دينغ بوه جانغ من أجل شياو لان ثم استبعدتها ابتنتها عن حياتها ونحتها جانبًا، والآن عندما توّسل إليها ابنها ليبقى معها تخلّت عنه، وتركته يذهب وهو في أكثر الأوقات احتياجًا لها، حتى إنها لم تعانقه، بل أرخت له الحبل على الغارب ليمضي بعيدًا. وكانت على يقين تام بأنها مدينةٌ بشيءٍ إلى شياو باي.

وعندما التقت به في محطة الحافلات لم تعانقه، ومنذ أن وقعت عيناها عليه تبددت مشاعرُها الحائرة، وشعرت بصدمة، وأخذت تنظر إليه بعينين ملؤهما الدهشة، فقد أحسّت أن هناك شيئًا غريبًا في ابنها.

حمل حقيبةً أرجوانية وراح يمضي بحذر، في شارعٍ مفترق الطرق المتألق بالأنوار، وكأنه يسير على جسرٍ معلقٍ في الهواء وفي أي لحظة ستزلق قدماه. أخذ يدور ببصره في كل ما حوله ويغمض عينيه ثم يفتحهما وكأنه لا يصدق أن منطقة المصانع لم يعد لها وجودٌ، فقد اختفت المستودعات التي كان يمرّ عليها وهو في طريقه إلى المدرسة بأسقفها المصنوعة من الصفيح الأحمر، ومحطات المحولات الرمادية العملاقة والشاحنات العالية، والمصارف المسدودة بالأحذية والأكياس البلاستيكية، لم يعد لها أي أثر، وطُمست كل معالمها.

فتظاهرت بالراحة وقالت:

- اختلفت معالم كل شيء، مثلك تمامًا، لماذا نحفت إلى هذه الدرجة؟

كان صوتها يشي بالاتهام وكأنها تفتقد شكل ابنها البدين.

ولم يلفت نظرهما نحافته فقط، فلم ترقها أيضًا طريقة مشيته؛ في الماضي كان يمضي ملتصق الفخزين بسبب بدانته، لكن الآن لماذا يمضي وفخذه ملتصقتان ويضع يديه بينهما، وعندما يضحك يخرج لسانه أو يضع يده على فمه ويظل يتلفت حوله وعيناه زائغتان في كل نحو من الأنحاء.

وفجأة أحسّت بصداع وألم في خذها الأيمن ثم انتقل إلى الأيسر وباتت عضلات وجهها ترتعش. واستدعت ذاكرتها ذكرى وقعت منذ ثلاث سنوات، في أثناء جولات التفتيش للجنة الحي، عندما ضبطوا أحد الرجال تحت أنوار كشافاتهم الصارخة، وكان مثل أرنب جبان يرتعد من الخوف واستسلم بخنوع للعقاب.

أحسّت أن قدميها ما عاداتا تحملانها على الأرض، وكان أول ما خطر على بالها هو أنها ستترك عملها في لجنة الحي؛ فلم تعد ترغب بتأدية دور المصلح الاجتماعي، والتدخل في شؤون الغرباء والتطفل على حياتهم الخاصة

كان يسير على مهل وإذا به يستدير ليرى أنها لا تزال بعيدة جدًا عنه، فانتبه إلى أن أمه التي حفر صورتها على صفحة ذاكرته، تلك المرأة القوية صارت واهنة وهزيلة، بل وتحتاج إلى الدعم من الآخرين وكأنها تحمل أثقالًا على عاتقها، والغريب أنه عندما رأى نديها المترهلين وخصرها المنحني، أحسّ بما كان يتوق إليه في فترة

الصغر. في هذه اللحظة شعر بأنه يريد أن يأكل المصاص، فوضع إصبعه في فمه وشرع يمصّه مثل المصاص، لكنه انتبه إلى أن إصبعه لم يعد بديناً كما كان فلم يشبع رغبته.

تبعته سو تشين ووضعت يدها على كتفه وسحبت إصبعه من فمه، فشعرت بالراحة ونوت أن تقدم له يد العون، لأنها بالفعل مدينةٌ لهذا الصبي بأشياء كثيرة، وتخشى أن يكون الوقت قد فات لتعويضه، لكن على أقل تقدير ستحافظ على خصوصية ابنها، ولا شك أن لديها صولات وجولات في هذا المجال.

ساعدته في حمل أمتعته، وقد عاد من الجنوب بحقيبة كبيرة بسحاب لا تزن أي شيء، وعندما سأله عما تحويه الحقيبة، شرد قليلاً ثم أجابها إجابةً منطقية قائلاً:

- بها ملابس صغيرة مستعملة. ليست ملابس لي لكنها تخصني!

فعقدت لسانها عن الكلام خشيةً أن تقول شيئاً يضايقه، ونوت ألا تتحدّث معه في هذا الشيء الذي يؤرقها، وترك له كامل الحرية، ولن تخترق حدود خصوصيته.

وعندما استشعر صمتها ورأى تعبيرات الخجل على وجهها، ابتسم ابتسامةً تنمُّ عن فهم، فكثيراً ما كان يتعرّض لسوء الفهم. مضى سريعاً وعندما اقتربا من البيت سألهما: هل أبدو بالفعل مثل هؤلاء الشباب؟ وفي كل مرة كان الناس يسيئون فهمه، كان يريد أن يعرف هل بالفعل يشبه هؤلاء الشباب؟

فجالت ببصرها ونظرت إلى الشباب والفتيان الذين يمرون أمامها، فارتبكت وعجزت عن الإجابة، وتساءلت لماذا يصرّ على

الحديث في هذا الموضوع؟ فأحسّت بالذعر وراحت الأفكار تطنّ في رأسها كالمنبه، لكن سرعان ما تجاهلت هذه الأفكار ولملمت شتات نفسها وقالت:

- أنت لا تشبه هؤلاء! ودومًا كنت ألتقي بهم في العمل، على كل حال هم أشخاص رائعون يحملون كل معاني الإنسانية!

فكاد يضحك وأحسّ بخيبة أمل لأن إجابتها كانت مثل الآخرين، الذين يظنون أنه ينتمي إلى هذا النوع من البشر، لكن في قرارة نفسه لم يكن يدري هل بالفعل ينتمي إلى هؤلاء أم لا؟ لم يكن يعرف أضحك أم يبكي على حاله. كان الأمر مثل طابور يصطف فيه الرجال، وطابور آخر تصطف فيه النساء، وهو يقف حائرًا لا يعلم أين يقف، فالجميع يحتشدون ويرحون ويأتون كأنهم جماعة واحدة، لكن هو لا يعرف قبلته ولا يدري هل ينضم إلى طابور الرجال أم إلى طابور النساء؟ لكن بعد مضي السنين تحتمّ عليه أن يحدّد مكانه، وخاصةً بعد سفره إلى الجنوب.

وشرع يفتح الحقيبة وهو يقول:

- وضعت في الحقيبة دفاتر يومياتي، هل تريدان قراءتها؟

حاول أن يفتح مجالًا للحديث معها، ورغب في أن يخبرها عن لاو شان، وعن الملابس الصغيرة وعن كل التفاصيل الصغيرة، وعن علاقة شياو لان وتشنغ جونغ.

لكنها تصرّفت مثل أمّ متحضرة واسعة الأفق وقالت:

- يوميات؟ لا يمكن أن أطلع عليها، ابني لا داعي للحديث عن أشياء سواء حدثت في الماضي أو الحاضر أو حتى الحديث عن

المستقبل، أنا معك حتى النهاية ولن أتركك، أنا سندك في الحياة، هل تفمهنى؟ أنت ابني وسأظل دائماً بجانبك.

كانت تتحدث معه وكأنها تُلقي خطاباً دبلوماسياً، ثم هرعت إلى المطبخ لتعدّ الطعام كما لو أن إعداد الطعام هو أهم شيء في هذه اللحظة الحرجة.

فطن أن أمه لا تزال خائفة، فدوماً كانت تخشى من خرق القواعد وانتهاك الأخلاق العامة، فكانت تخشى على شياو لان والآن تخشى على ابنها أن يكون تردى إلى الهاوية، فأحس أنه لا داعي لإقحامها في صراعاته ومشكلاته، فحزم دفاتر اليوميات والملابس الصغيرة القديمة ووضعها بحذرٍ تحت الفراش كما كان يفعل وهو في الجنوب، فانتشرت الرهبة في صدره وأحس أنه جاء وجلب معه مشكلاته وراح يفكر: هل العودة إلى البيت القديم ستحل مشكلته؟

وعلى مائدة العشاء أدار دفة الحديث إلى حديث مقبول لأمه وقال:

- متى ستعود أختي؟ لم ألتق بزوجها؟ هل يمكن أن نجتمع على مائدة الطعام؟

وفجأة انتبه أنه لا يزال كما كان في الصغر يشعر بسعادة عظيمة والجميع يتحلقون حول مائدة الطعام.

فتبدلت ملامحها وأدارت صحن الطعام وغمغت قائلة:

- لم تأت منذ وقتٍ طويل، حتى في زيارتها الأخيرة أساءت معاملتي وأسمعتني كلاماً جارحاً! هل تعلم أنها كانت تلتقي بتشونغ جونج قبل زواجها؟

فاعترته الدهشة واحتبست أنفاسه في صدره، وراح يفكر؛ هل
بذور الحب التي كان يحاول أن يبذرهما في قلبيهما نبتت وشقت عنان
القلب؟

وسرعان ما غيرت الحديث وراحت تشني على زوج شياو لان
أطيب ثناء وقالت:

- زوج أختك رجلٌ طيب.. رجلٌ مستقيم وعلى خلق كريم، واسع
الأفق ونشيط، عندما تراه ستشعر أنه رجلٌ بمعنى الكلمة، لا يمل ولا
يكلُّ من العمل وشركته تتطور بسرعةٍ كبيرة.

(٨)

بعد استقالتها من وظيفتها في لجنة الحي زارت دينغ بوه جانغ، ولم تكن الزيارة لها صلة بعملها، بل ذهبت إليه لتطلب منه شيئاً، لكن ماذا يمكن أن يقدم لها دينغ بوه جانغ؟

اشترت النبيذ والخضراوات، ولم تنس طريقة طهيهِ وولعه بطهي أشكال وألوان من الطعام، فدخلت وبحث عن المئزر القديم، المليء ببقع الزيت والسمن، وانتهزت فرصة انشغاله بالتقليب في ألبوم الصور، وأخذت تعدّ الطعام ثم سكبت له كأس نبيذ كما سكبت واحدة لها، وراح ينظر إليها بدهشة ويتساءل كيف لامرأة غريبة أن تمضي إلى البيت وتتجول به على حرّيتها وتتعامل معه بكل هذا اللطف؟ وقبل أن تحتسي كأسها كان قد سكب كأسه في جوفه.

رشت رشتين من الكأس وأحسّت بطعمه المر، وقد اعتاد دينغ بوه جانغ أن يشرب هذه الماركة من النبيذ منذ سنوات. وشرعت تضع الطعام في صحنه وبعد أن عاملته بمنتهى اللطف وبمنتهى الرقة، فتحت عليه النيران وكشفت له عن الحقيقة المرّة، وقالت:

- لا بدّ أن تتذكّر شياو لان، قد تزوّجت من شابٍ له مستقبلٌ عظيم لكن علاقتها صارت فاترة مع زوجها وصارت مثل دمية خشبية، مثل صنمٍ بلا روح... صارت فتاةً مزيفة حتى أنها لم تعد تطبق الحديث

معي. هل تعلم لماذا تبدّلت حالها؟ هل تعلم أيها السكّير العظيم لأنها كانت على علاقةٍ بابنك، عرفت الآن لماذا تركتك؟

وفجأةً ارتعشت يده وانسكبت قطرات من النبيذ على صدره، فأحنى رأسه وابتسم قائلاً:

- ستعود تشن تشن وتوبّخني لأن ملابسي اتسخت، لكن بعد كل مرة توبّخني فيها تشتري لي زجاجة نبيذ.

- سأنظفها لك! لا تغيّر الموضوع! اسمعني جيداً!

قالت وهي تلوح بيديها، فكان لديها الكثير من الكلام، الجاثم على صدرها، وأرادت أن تبوح به لترتاح.

- عاد شياو باي وتشن تشن وخي بي وابنك المعجزة صاحب متجر الزجاج...!

تحدّثت طويلاً حتى برد الطعام وكان صوتها يرنُّ في أرجاء البيت مثل خفّاشٍ يطير في كهفٍ من الصمت ومن الظلام.

- أنت الوحيد بيننا الذي يعيش حياةً هادئةً، أنت لا تعرف شيئاً عن أي شيء، أنت بالفعل رجلٌ سعيد الحظ!

كان يستمع إليها وهو يشرب ويهزّ رأسه عابس الوجه، كما أنه نشر على المائدة ورق البوكر، وانشغل عنها بلعبة السوليتير، ولم يتفوّه بكلمةٍ واحدة منذ بداية الحديث.

وقد فعل عين الصواب أنه عقد لسانه عن الكلام، بينما جلست تحدّق في الطعام من دون أن تضع في فمها لقمةً واحدةً، ثم مضى

نحو النافذة ووقف وأعطاهما ظهره، وشرع يدندن أغنية شعبية شائعة بين طبقة العمال القدامى الكادحين، وبعد لحظات استدار وأشار لها بحركة غريبة لتأتي.

وطلب منها أن تقف بجواره أمام النافذة وتنظر إلى المشهد في الخارج، تنظر إلى بناية شاهقة، بنيت حديثاً، كانت أنوارها تضيء في العتمة وتحجب الرؤية عن الأفق، ثم رفع ذقنه وطلب منها أن تلقي نظرة فاحصة، وقال:

- انظري جيداً! هذه هي محطتنا الفرعية ومستودع الحديد وقاعة المناسبات ودورة المياه وكافيتريا العمال والموظفين، وهناك على الناحية الأخرى توجد مدخنة مصنع المنتجات الإسمنتية وبرج المياه، المبني بالطوب الأحمر، ثم مذي بصرك قليلاً سترين الشعلة الكبيرة لمصنع البتروكيماويات!

وقفت سو تشين تنظر إلى المشهد في الخارج، وهي تحاول جاهدة أن ترى بعين خيالها الأشياء التي لم يعد لها أثر، وفجأة أمسك بيدها وأخذ يداعبها برقة، وكانت لفظة رائعة منه، فجمدت مكانها ورنّت إليه بحنان، لكن سرعان ما عاد إلى حماقته المعهودة وأشار خارج النافذة قائلاً:

- أقف كل مساء وأنظر إلى الخارج، وكلما نظرت أحبيت المشهد، فلا شيء اختلف عن الماضي!

فطفرت الدموع من عينيها، وحررت يدها من يده الخشنة، ونوت في هذه اللحظة ألا تزوره مرة أخرى، وأنها لن تتحدث معه أبداً، فقد عادت كما كانت، امرأة تلتزم بالأخلاق الرفيعة وتحترم العادات

والتقاليد، ورغبت في أن تكون زوجةً مُخلصةً لزوجها الراحل،
مخلصةً إلى الأبد حتى لو أن هذه القيود تدميها وتفقدتها شعور
السعادة إلى آخر العمر.

وكانت صادقةً في الوعد الذي قطعه على نفسها في ذلك اليوم حتى توفي دينغ بوه جانغ، وفي يوم الوفاة ذهبت إلى البيت القديم، وكان حضورها أمرًا لا بدّ منه، فلم يحضر تشنغ جونغ إلا في ساعة متأخرة، وعلى الرغم من تواجد خي بي لكنه كان منشغلًا بإجراء المكالمات الهاتفية بشأن صفقات الخردة، وحاولت تشن تشن القيام بأشياء مُجدية، لكنها تعثرت ولم تعرف من أين تبدأ، ولم تجد أمامها أي سر من البكاء والنواح، فكان المشهد يليق بموت مدمن خمر، أفقده الخمر عقله وذهب به مع الريح.

لكن الأوضاع تحسّنت بعد مجيء سو تشين، فشرعت توزع المهمات بشأن شراء الطعام وإعداده، وإطعام المعزين القليلين، الذين حضروا لتقديم واجب العزاء، وتسديد نفقات المشفى وتكبير صورة الفقيد وإبلاغ أصدقائه القدامى. وعندما وصلوا بالحديث إلى مكان دفن رماد دينغ بوه جانغ، تغصّن وجه تشنغ جونغ واضطربت أعصابه، وقد نوت سو تشين أن تغيّر موقفها معه وتحيزها ضده، لكنها الآن تشعر بالضيق، فقد مات أبوه ولا يزال كما هو يثير المتاعب.

اقترح خي بي شراء قطعة أرض كمقبرة وتعهّد أن يدفع ثمنها، وكأنه يرد الجميل إلى حماه الذي كان سببًا في الخير الذي يعيش فيه، لكن تشنغ جونغ الذي كان يشبه السائرين نيامًا عارض بشدة

الفكرة، فكان عليهم أن يجدوا مكانًا لا يمكن أن يتعرض للإزالة حتى لا ينقل رماد أبيه في يوم الأيام، وتنفيذًا لوصيته حتى لا يكون مصيره مثل مصير أمه التي لا أحد يعرف أين هي، بعد أن نقلوا مقبرتها من مكانها.

أحسّ تشنغ جونج ببالغ التأثير وتدققت ينباع من المشاعر داخله، وارتسمت أمامه ذكرى معركة أبيه لنقل مقبرة أمه، فضحك عاليًا واعترت الدهشة خي بي، بينما انفجرت تشن تشن بالبكاء وقالت: "مات أبي، من سيصطحبنا في عيد تشينغمينغ لزيارة أمي!"، ورغم أن منطقة المصانع المتهذمة استحالت إلى مجموعة من المشروعات العملاقة المحاطة بالسقالات، إلا أن الوحيد الذي كان يعلم مكانها هو دينغ بوه جانغ، فكان يتجول هنا وهناك، ويسير في طريق معين ثم فجأةً يتوقف ويحدث نفسه، ويقول: "إنها ترقد هنا!" ثم يحرق العملات الورقية لكنه لم يعد قادرًا على شراء الأطعمة لها.

أحسّت سو تشين بعدم الارتياح، فلم يخيّل لها أن دينغ بوه جانغ كان يفكر بهذه الطريقة المثالية، فربت على كتف تشن تشن وقالت:

- لم يتبق من العائلتين سوى فتاة ناضجة وعاقلة!

وعندما اقترب المساء اكتظت الغرفة بالقصاصات الورقية والشموع الخافتة، وكان الجميع قد فقد قدرته على إبداء المزيد من الحزن والأسى، فتشاءبت تشن تشن وسرعان ما غطت في نوم عميق، وإذا بصوت شخيرها يتناهى كالرجال، فوضعها خي بي جانبًا وظل بجوارها حتى انتصف الليل، بينما نام تشنغ جونج لفترة ثم ظل ساهرًا حتى انتصف الليل.

بقيت سو تشين في غرفة المعيشة وهي تجلس حول المائدة، حيث اعتاد دينغ بوه جانغ الجلوس وهو يشرب الخمر، وأمّنت النظر في المائدة وفي الشقوق التي ملأتها، وأصوات من الماضي أخذت تنسكب في أذنيها مثل قعقة الأواني وخشخشة الصحون وعيدان الطعام التي كانت توضع على المائدة في عشاء السبت ثم ترفع بعد الانتهاء من الطعام، وتظل طوال الليل تملأ وتفرغ وتملأ وتفرغ.

جلست مدة ما يستغرقه تناول وجبة، ثم استوت واقفةً ومشّت اتجاه النافذة حيث اعتاد الوقوف والنظر إلى المشهد في الخارج، واستعادت مشاهد الماضي التي وضعها أمام عينيها وهو يتظاهر بفقدان الذاكرة، وظهرت مرةً أخرى المستودعات القديمة والمدخنة المتهدّمة وكافيتريا العمال والموظفين، وقاعة المناسبات والمصانع القديمة التي نقلت، والعيادة الصحية ودورة المياه، والشعلة القديمة التي لا تنطفئ طوال اليوم، وكانت منطقة المصانع قد غرقت في ظلامٍ مقيم، لكن كان كل شيء موجودًا كما كان يتراءى له.

ظَلَّ خي بي يراقب سو تشين من بعيد، والآن عرف حقيقة وظيفة لجنة الحي، التي التقاها في تلك الليلة المشؤومة، وفهم علاقتها بحماها، فحاول أن يواسيها ويخفف من حزنها، لكنه توخى الحذر؛ فقد رآته في موضعٍ مخلٍ وهو عارٍ، وبعد تفكيرٍ طويل ألقي عليها التحية وأحضر لها مقعدًا لتجلس.

فاستدارت له واستبدلت حزنها البادي على صفحة وجهها بشيءٍ من العجرفة، وظلّت في هذه الليلة الكثيرة تتحدّث مع خي بي بشأن حمل تشن تشن، ولم يكن مجرد حديثٍ عادي، بل كان أشبه بدرس وعظ، يحمل في طياته لهجة تحذير، وكأنها أحد أفراد

العائلة الكبار أو وليّة أمر تشن تشن وتنوب عن أبيها وأمها المتوفين. ولم تكن ترغب في الحديث عن حياته الخاصة أو تُلقِي باللوم عليه لما يفعله من وراء ظهر زوجته، بل كانت تريد أن تتحدّث معه بشأن الإنجاب والمسؤولية التي تقع على عاتقه، فالأمر يحتاج إلى جهدٍ مشترك، وإذا ظلَّ يلعب بذيله ويرافق فتيات الهوى وينفق عليهن ماله، سيقصّر في بيته ومع تشن تشن وسيتعذّر حدوث الحمل، فقالت:

- كل شيء بيدك أنت، وإذا لم يحدث الحمل ستكون أنت المسؤول!

وبصفتها موظفة سابقة في لجنة الحي، استخدمت لغةً شبه رسمية، وكأنها تدافع عن حقوق المرأة وهي تتحدّث معه، فأحسّ خي بي بغضبٍ شديد، وتساءل لماذا عليه أن يستمع إلى حكم ومواعظ هذه العجوز مرةً أخرى؟ وما أثار حنقه هو أنه كان يستمع إليها، وهو يهزّ رأسه متجهماً كما كان يفعل مع حماه، فكانت سو تشين مثل رجلٍ وامرأة في آنٍ واحد.

فهزّ رأسه وقال:

- اطمئني، سأفعل ما طلبته مني وسأجعلها تحمل! أنا أكثر رغبة منها في إنجاب طفل، وإذا حدث الحمل سأتي لأبشرك وأشكرك!

وفي الواحدة والربع صباحاً، سلم خي بي المهمة إلى تشنغ جونج، وجاء وركع أمام الشموع المضاءة متجاهلاً سو تشين، فتفرّست به ثم مضت إلى المطبخ، وما كانت سوى لحظات حتى عادت وهي تحمل صحنًا من الأرز الذهبي الشهى وقدمته له، فلاحظ تشنغ جونج أن

الأرز مرشوش فوقه حفنة من قطع البصل الأخضر، فتذوقه وأحس أن هذا المذاق يشبه الأرز الذي كان يطهوه أبوه، فشعر كما لو أنه عاد مرة أخرى إلى الحياة، ومضى إلى المطبخ يطهو الأرز.

جلست بجانبه وأخذت تُلقِي بالعملات الورقية في الموقد، ورقة تلو ورقة، وهي تنظر إلى صورة دينغ بوه جانغ ولم تدر في أي عام التقطت له هذه الصورة، فلم يكن أصلح وكان أنفه عاديًا بلا حمرة، وبدا في غاية الوسامة، ثم فركت يديها فأحدث حفيفًا مثل حفيف الشجر، وأخيرًا قالت:

- عندما أفكر في أبيك، شيء واحد فقط يجعلني أتألم من أجله ومن أجلك، وهو أنني لم أستطع أن أتحدث مع أحد بشأن البحث لك عن عمل مناسب، رغم أنه كان في استطاعتي أن أفعل ذلك، وربما لم تستطع أن تتفهم موقعي، فوقيتها كنت أفضل الموت على أن أكشف عن علاقتي السرية بأبيك.

اندهشت سو تشين من صوتها وهي تعتذر منه، ويبدو أنه أيضًا لم يعتد منها الاعتذار، فقال وفمه ممتلئًا بالأرز:

- انسي الأمر! لولا وظيفتي في نفخ الزجاج، لما عرفت أنني أعشق الزجاج.

ثم دس في فمه بضع ملاعق أخرى وقال:

- ونحن أيضًا كنا نتصرف بحماقة في أيام الأربعاء؛ لم نتفهم الأمر وقتها!

فهزت رأسها قائلة:

- لا داعيَ لتحدث عن هذه الأمور. أنا فقط أريد أن أسألك عن شيء، هل استقالتك من وظيفتك وفتح متجر الزجاج لهما صلة بزواج شياو لان؟ أنا فقط أتمنى أن يعيش الجميع حياة هادئة وسعيدة.
فقاطعها قائلاً:

- لا داعيَ للقلق، وأنتِ أيضًا محقة فيما تقولينه.
وإذا به يضحك ويشير إلى الخدوش في وجهه ويقول:
- أنا بالفعل على علاقة مع فتاة، بالأمس كنا معًا، انظري إلى هذه الخدوش!

فأشاحت بوجهها عنه ولم تتخيل أنه يمكن أن يخبرها بهذا الشيء، وشردت تفكر؛ عندما مات أبوه هل كان مع هذه الفتاة فتأخر عن حضور الجنازة؟ احتارت في أمره ولم تعد تدري هل تغضب منه أم تشفق على حاله وترأف به؟!
فتابع حديثه وقال:

- هل تعرفين لماذا؟ لأنه منذ تلك الليلة التي صفعت فيها شياو لان وأنا لم أستطع أن أحب فتاة أخرى غيرها، أخشى ألا تصدقيني!
فنظرت إلى صورة دينغ بوه جانغ وقالت:
- لا! أنا أصدقك.

- ربما لا تعلمين أننا كنا نلتقي قبل أن تتزوج!

- أنا أعلم.

- هل أخبرتك؟

- التقيت بأبيك ورأيت الصورة التي التقطتها لك شياو لان.

فرمقها بدهشة وكأنه يراها للمرة الأولى، وتلعثمت كلماته وكأنه ابتلع لسانه وسعل عدة مرات ثم قال:

- هل يمكن أن تخبريني عن أحوالها طوال هذه السنين، أنا فقط أريد أن أطمئن على أحوالها.

كانت تعبيرات وجهها غريبة، فلم يستطع أن يسبر أغوارها، وإذا بها تقول:

- انس الأمر!

فبدت وكأنها لا تريد أن تطلعه على أحوال ابنتها، فهي لا تريد أن تعيد الحكاية القديمة، وتوقظ الحب الخامد من جديد، وكانت لا تزال تلقي بالنقود الورقية في النار وتنظر إلى صورة دينغ بوه جانغ، التي كانت لا تمت له بأي صلة، ثم قالت:

- كان أبوك دومًا يقول إنك شابٌ رائعٌ، وأنت بالفعل شابٌ رائعٌ! فاعترتها الدهشة عندما رآته يبكي بكاءً مكتومًا، وكأنه أدرك حقيقةً ما، وكان لا يزال يحشو فمه بالأرز.

وكانت النهاية وشيكةً لأهالي منطقة مصنع الألكيل بنزين، فبمجرد انتهاء موجة الصيف الحارة ستختفي المنطقة السكنية وتهدم بالكامل. وصار الهدم مثل العدوى لا أحد ينجو منها، وانتقلت العدوى إلى منطقة مصنع الألكيل بنزين حيث تعيش سو تشين.

كان الزقاق المقابل لنافاذة بيتها يعجُّ بالانفجارات المدوية، وقف يومها شياو باي في النافذة ينظر وهو يتنهد قائلاً:

- يا للسماء! صدفةٌ عجيبةٌ أن أعود في هذا التوقيت وكأن القدر يريدني أن أعيش هنا للمرة الأخيرة!

وراحت سو تشين تتلمس أركان البيت كضريبةٍ تتخبط في العتمة، وأدركت الآن خوف دينغ بوه جانغ من ألا يجد مكاناً يدفن فيه، وقالت:

- هذا السكّير كل ما قاله كان صحيحًا، فلا يوجد هنا مكانٌ آمنٌ يمكن أن يؤوينا!

- لا تقولي هذه الكلمات العقيمة، لديك حنينٌ غريبٌ إلى الماضي، فالانتقال من بيتٍ إلى بيت يشبه تقشير البشرة، في النهاية أي مكان سنعيش فيه سيكون بيتنا!

ثم عبث بالحاسوب وفتح لها واجهة متجر ذات لون أزرق ووردي قائلًا:

- انظري إلى متجرني على الإنترنت، مهما كنت هنا أو في الجنوب، أو في أي مكان على وجه الأرض فما من فرق، العنوان هو العنوان ولا يمكن أن يتغير، يفتح أبوابه دومًا في الساعة الواحدة ودومًا يعجُّ بالزوار.

كانت حياة شياو باي أشبه برقم ثمانية في الرياضيات، الذي يمثل متناهية الكبر أو متناهية الصغر. كان يهرع إلى متجره عبر الإنترنت مثل مزارع يتفصّد عرقه وسط ظلام الغيطان. بدأ المتجر صغيرًا ثم كبر وتوسّع نشاطه، ولم يستطع إدارة كل هذه المجموعات، وفي أقل من عام عمل تحديدًا لجهازه الحاسوب أربع مرات، وصار لديه ستة حسابات بريدية، ومدونته تحتوي على خمسة وتسعين رابطًا، وسجل أربعة حسابات على تطبيق "كيو كيو"، وانضمَّ إلى أكثر من ثلاثين مجموعة، وصار لديه سبعة حسابات مصرفية على الإنترنت، فأنشأ ملفًا خاصًا على الحاسوب ليسجّل به جميع كلمات المرور الخاصة بحساباته.

ألقت سو تشين نظرةً على جهاز الحاسوب، وسرعان ما هزت رأسها بإعجاب، فمنذ تلك الليلة التي أزاحت كل شيء كان جائمًا على صدرها، وكشفت عنه لدينغ بوه جانغ ثم وفاته بعد وقتٍ قصير، وقد تسربل إلى روحها شعورٌ باليأس، لكن سرعان ما نوت أن تعيش الحياة وصار عمل شياو باي مهمتها، وتولّت مسؤولية شراء إكسسوارات الشعر الكورية وتركيبها، لكن كان الحزن ينخر روحها

عميقًا وهي تفكر في أن شياو باي سيظل بعد موتها على هذه الحال،
وحيدًا أمام الحاسوب، سيبقى وحيدًا إلى آخر العمر.

في تلك الظهيرة التي عادت فيها شياو لان إلى البيت القديم،
ساد طقسٌ غريبٌ؛ طقس حار لزج في نصف الساعة الأول، بينما في
نصف الساعة الآخر هطلت الأمطار بشدة.

لم تدخل شياو لان من الباب، بل مضت ووقفت بجوار النافذة
الخلفية، مثل عابر سبيل يستريح من تعب الطريق، وكانت المظلة
تغطي نصف جسدها العلوي، وأخذت تحدّق النظر في الأسلاك
الشائكة الصدئة، وأطالت النظر فيها وكأنها تنظر إلى مسرح صغير
مُظلم، وأخذت الأمطار تهطل مثل ستارة معلقة رأت فيها شبابها الذي
مضى ولا يمكن أن يعود.

فراها شياو باي من وراء النافذة، لكنه كان منشغلًا مع زبون
يعرض له وشاحًا، فلم يستطع الخروج لها، وهتف لها من خلف
السياج الحديدي، وسرعان ما تركت سو تشين عملها وخرجت من
الباب الرئيسي وهي تحمل مظلةً مكسورة، وهرعت نحوها ولم تكن
تصدّق عينيها. وعلى الرغم من غضب الجميع بسبب عمليات الهدم
البشعة، إلا أن عمليات الهدم حملت في طياتها أشياء حلوة، فقد عاد
ابنها من الجنوب والآن جاءت ابنتها لزيارتها.

جمدت شياو لان مكانها ووقفت سو تشين بجوارها وراحتا
تأملان معًا مشهد المطر، وران الصمت بينهما لفترة، لم يُسمع فيها
سوى صوت زخات المطر على الأسطح والأرض الخرسانية وهو
يتدفّق وينساب إلى المصارف والمجاري.

فرقت بسمه على شفتي سو تشين وقالت بعفوية:

- لا أزال أتذكر كم مرة سرنا بالدراجات على هذا الطريق، وكان أسعد أيام حياتي عندما تسلّمت خطاب التحاقك بالجامعة، يومها نزلت من فوق الدراجة لأحيي جميع الأهالي، كان بالفعل يومًا عظيمًا لعائلتنا!

لم تحتمل شياو لان مراوغات أمها فقاطعتها قائلة:

- ألا تلاحظين أنني حاملٌ في الشهر السادس؟

فضاعت منها الكلمات، لكن سرعان ما لملت شتات كلماتها وقالت:

- لاحظت وظننت أنك لا تريدين أن تخبريني، وهذا هو سبب انقطاعك عن زيارتي، لذلك قررت ألا أتحدث معكِ في الأمر. إنه خبر سعيد جدًا ولا شك أن خوانغ شين سعيد أيضًا، فقد مرت أربع سنوات على زواجكما.

- لم أخبره، فقد انفصلنا الشهر الماضي واستأجرت بيتًا، وأسكن فيه وحدي!

بلعت سو تشين ريقها وكادت تختنق، وكان عليها أن تتظاهر بالبرود حتى لا تجعلها تغضب، فهذه هي عادتها، فجأة تزوّج وفجأة تنفصل وفجأة تصير حاملًا، هذه هي طبيعة حياتها الغامضة. واليوم جاءت لتخبرها بحملها وانفصالها، وكم كانت تتوق أن تهزّها وتصيح في وجهها وتسألها لماذا تفعلين هذا؟ أنا أمك ومن حقّي أن تتكلّمي معي وتخبريني بأحوالك، وألا تعامليني مثل الغريبة، لا تظني أنك ستجدين الراحة في الانفصال، أرجوكِ تحدثي مع أمك.

لكنها تمالكت أعصابها وقالت بهدوء:

- للأسف! وهذا الطفل ما ذنبه؟

وكانها تحاول أن تكشف عن نيّة شياو لان بشأن الطفل.

لم تجبها شياو لان وابتسمت فقط، وفجأةً نحت المظلة بعيدًا ووقفت وسط المطر، فارتعدت سو تشين وحاولت أن تحميها بمظلتها المكسورة، وفي هذه اللحظة كانت كلّ منهما قريبة جدًا إلى الأخرى.

رفعت شياو لان يدها ودفعت المظلة بعيدًا عنها ومدّت عنقها لأعلى، وأغلقت عينيها وكان ما يسقط على وجهها ليس حبات المطر بل نور الشمس الأبية وقالت:

- لا تحميني من المطر أريد أن أعيش هذا الإحساس، ماذا سيحدث لو لم أحمل مظلةً وسط هذا المطر الغزير؟ أسوأ تقدير ستبتل ملابسني أو أصاب بنزلة برد أو أرقد في الفراش بضعة أيام، ماذا سيحدث لي أيضًا؟

فلاحت على شفيتها ابتسامةً مربية، وكى يستمر هذا الحديث المتوتر أغلقت المظلة ووقفت من دونها تحت المطر مثل ابتتها، وراحت تستشعر هذا الشعور وقالت:

- دومًا كنت أحمل المظلة وقت المطر، لكن لا بأس أن أقف من دونها لفترة، أنا فقط أخشى أن يبتل شعري!

ثم مدّت يدها وتحسّست بطن شياو لان، وفجأةً أحسّت أنها تشاق إلى قدوم هذا الطفل، فقدومه إلى الدنيا سيضفي الكثير من

السعادة إلى هذه العائلة، فهي لم تحمل طفلاً صغيراً منذ سنوات طوال.

فضحكت شياو لان وقاطعتها:

- لا تأخذي كلامي بالمعنى الحرفي، أنا أقصد أن الإنسان عندما يكون لديه أب، يكون أشبه بوجود مظلة في يوم ممطر، وفي غيابها تبطل الملابس. مات أبي وما زلنا أنا وشياو باي بخير، وأنا على يقين أن طفلي لن يخشى شيئاً، والآن جعلته يبتل لأعدّه للحياة المقبلة!

- ماذا تقصدين؟ هل سيولد الصغير من دون أب؟ هل تريدان الطفل؟

لم تكن تدري ما إذا كانت سعيدة أم حزينة، ولم تستطع أن تبدي رأيها في الموضوع.

- نعم، قررت أن أنجب الطفل وسأربيه وحدي، أنا أستطيع تحمل المسؤولية وحدي.

ثم أخذت تمسح حبات المطر من على وجهها ومن على مرفقها بحركة واهنة وشاعرية وقالت:

اتركينا من هذه التفاصيل، على أي حال هذا قراري!

فركت سو تشين كفيها ويبدو أنها أحسّت بالبرد وراحت تسأل نفسها: هل فقدت ابنتها عقلها؟ لكنها أمسكت زمام نفسها وأوقفت تفكيرها ونوت ألا تتدخل مهما كان قرارها وقالت:

- ما قرره هو عين الصواب وأنا سأربي الطفل بدلاً منك!

فنظرت إلى أمها وأطلقت تنهيدةً تنم عن ارتياح، وأحنت رأسها قائلةً:

- المطر مريحٌ جدًّا، دعيني أبقى تحت المطر لدقائق أخرى، المطر يحاصرني من أمامي ومن خلفي، وأينما اذهب تمطر السماء!

انتظر شياو باي عودتهما طويلاً، وبعد أن نفذ صبره هرع إلى الخارج يبحث عنهما، فرأهما من بعيدٍ وهما يعبثان تحت المطر بسعادةٍ بالغة، فلفه الذهول ويبدو أن هذا المشهد كان أحد المشاهد التي كان يتوق ليعيشها في الصغر، ومثل صبي صغير ركض نحوهما وانضمَّ إليهما.

وجاءت سيارة الإسعاف تطلق صافرة الإنذار فتنحّت الحشود جانباً، بينما كانت سو تشين غارقةً في بحر الذكريات بعينين نصف مغلقتين، وتذكرت شياو باي وهو يركض نحوهما وشياو لان وهي تلوح له ثم أمسكت بذراعه، وانتهى المشهد بأنهم وقفوا ثلاثتهم وسط بركةٍ من المياه، وكأنهم يودّعون بيتهم القديم، يودّعون كل متاعب الحياة ويأملون ألا يكابدوا أية آلام أو أية أحزان أخرى.

فتحت سو تشين عينيها وكان اليوم الممطر انتهى عند هذا المشهد، لكن يومها لم تتمالك أعصابها وتشاجرت شجاراً عنيفاً مع شياو لان أدى إلى عودتها إلى شارع مفترق الطرق لتصبح على هذه الحال.

رفعها اثنان من رجال الإسعاف من ذراعيها، فصاح أحدهما بصوتٍ محموم قائلاً:

- إنها حالة إجهاض واضحة، لا بدّ من عرضها على طبيب نساء وتوليد.

سبحت سو تشين في بركة من دماء شياو لان، وأخذت تضرب جسدها المترهل بقبضة يدها، وأحسّت أنها تشتاق إلى زوجها وإلى دينغ بوه جانغ حتى زوجته التي لم ترها يومًا اشتاقت إليها، فجميع الموتى تحت التراب طيبون، والآثام والخطايا لا يرتكبها سوى الأحياء.

وربما كانت عودة شياو باي السبب في غضب سو تشين التي حاولت أن تخفيه فترة طويلة. راحت تنظر إليهما وهما يقفان تحت المطر من دون مظلة، فشردت تفكر في تشبيه شياو لان الذي تحدّث عنه منذ قليل: هل من فرق بين وجود الأب وغيابه؟ ما الفرق إذا وقفنا تحت المطر ونحن نحتمي بالمظلة أو وقفنا من دونها؟ فغلت الدماء في عروقها وهما يرقصان تحت المطر من دون أدنى اكتراث.

رأت أيامهما القادمة بوضوح؛ الأولى أم عزباء مطلقة والثاني مهمّش وسيعيش وحيدًا إلى الأبد،

لا أحد منهما أفضل من أحد، ودومًا سيتحدّث عنهما الناس بالسوء، شاب وشابة بلا أخلاق! لماذا يكون نصيبها أن يكون ابناها على هذه الحال؟ لم تعد تحتمل هذا المصير البائس حتى صارت الأخلاق مثل حبل يقيد عنقها، لكنها لا ترغب في أن يخنق ابنها. وإذا بها تصيح عاليًا بصوت أجش قبيح وهي تنقض على شياو لان كوحش جريح، وتقول:

- هل تعلمين أنك فتاة أنانية لا تفكرين في أحد غيرك؟ هل تفكرين في خوانغ شين؟ هل فكرت يومًا في أمك؟ هل فكرت في طفلك؟ الآن تريدين أن تصبحي أمًا؟ هل تعلمين معنى الأمومة؟ الأم تتمنى أن يكون أبنائها في أفضل حال! كيف تحرمين طفلك من أبيه؟ كيف

تحرمينه من أن يعيش حياةً كريمة؟ أنتِ لا تستحقين هذا الطفل لأنكِ لا تملكين قلب الأم! هل تعتبريني بالفعل أمك؟ هل تعتبرين شياو باي أخاك الصغير؟ هل تدخلتِ يوماً في شؤونه؟ انظري إلى حالك، انظرا إلى حالكما، ماذا عساي أن أفعل!

مسحت شياو لان حبات المطر من على وجهها، ثم رنت إلى شياو باي وظلت رابطة الجأش وقالت:

- نعم، معكِ كل الحق في أن توبخيني. أنا خمنت أنكِ ستنصحيني أن أعود إلى خوانغ شين من أجل الطفل، هل تعتقدين أن هذا أفضل لي؟ أكثر شيء أكرهه في حياتي كلمة "إنكِ تريدين الأفضل لي"، وهذا هو سبب أنني دوماً أحاول مضايقتك، فهذا يعني أنني ينبغي أن أحسب كل خطوة أخطوها في حياتي، وأنا أكره أن أعيش هذه الحياة!

- هل تتضايقين من الحياة المريحة؟ أظنّ أنكِ تريدين العودة إلى تشنغ جونغ، قد أحسنت الاختيار، أنتِ لا تفكرين إلا في نفسك وتفعلين ما يحلو لك، تروحين وتأتين من دون أن تراعي مشاعر أحد! - شكر لكِ يا أمي، قد أوحيت لي بفكرة رائعة، سأعود إلى تشنغ جونغ!

ونجحت بالفعل في أن تثير غضبها.

لم تخط شياو لان عتبة البيت، وسرعان ما غادرت وودعت البيت القديم إلى الأبد، فركض شياو باي وحمل المظلة من على الأرض وأعطائها لها، فأوقفت السير ولوت عنقها ولوحت بيدها، ولم يكن واضحاً لمن كانت تلوح، هل للبيت؟ أم لأهل البيت؟

فركضت سو تشين خلفها وأمطرتها بكلمات التوبيخ:

- يا لك من فتاة ماهرة، انتظري حتى تكبر بطنك واذهبي لتشنغ
جونغ ليراها، إذا انتظرتِ حتى تضعي الطفل ستندمين، أنتِ لا تعرفين
معنى الأمومة!

فأسرعت في سيرها ومضت من دون أن تلوي على شيء.
فرغبت سو تشين أن تتبعها لتواصل كلمات التوبيخ، لكن شياو
باي أوقفها قائلاً:

- كنت قاسيةً جداً معها، وأنتِ تعلمين كم هي عنيدة، وكلما وبختها
زاد عنادها.

فنشرت يديها في الهواء وقالت بنبرة تشي باليأس وبمنطق صبية
صغيرة:

- أنت لا تعلم شيئاً، هي وعدتني وأنا التزمت بكلمتي ونفذت
وعدي، فلماذا نقضت وعدها معي!

وكان يبدو أن المطر لن يتوقف، فحاول شياو باي أن يقنعها بأن
تمضي إلى البيت قائلاً:

- علاقتها بتشنغ جونغ بدأت بسوء تفاهم وفي النهاية صارت
حقيقةً.

وكانت تعبيرات وجهه توحى بخيبة رجاء أكثر من أمله.

لم تعبأ بما قاله، وتشوشت الأفكار في رأسها وسرت قشعريرة في
جسدها، ورنّت إليه وهي تهزّ رأسها بخيبة أمل كبيرة، وقالت:

- كل شيء كان خطأ! كل شيء منذ البداية كان خطأ! واليوم تعاقبني
السماء على كل أخطائي!

الفصل الخامس

متجر الزجاج

(١)

عجز تشنغ جونج عن معرفة أيهما يحب أكثر؟ هل شياو لان أم الزجاج؟ ولا شك أن كليهما لا يتعارضان، فهما معًا يكملان الناقص في حياته ويمنحانها معنى ويضيفان إليها طعمًا ولونًا، لكن في أوقات فراغه اعتاد أن يعمل تفكيره في الإجابة على هذا السؤال المحير، فكان يجلس ويشعل سيجارةً ووسط حلقات الدخان يظل يفكر ويفكر.

(٢)

لفتت شياو لان انتباه تشنغ جونغ منذ اللقاء الأول، لكن لم يكن حبًا من النظرة الأولى، فلا يمكن أن يقع في غرام ابنة زوجة أبيه المستقبلية من الوهلة الأولى، كما إنها فتاةٌ شحيحة الضحكة ودومًا متجهمة الوجه، ومنذ اللقاء الأول حتى في كل عشاءات السبت، وهي تلتقيهم بوجهٍ عابس، ولم تكن تنظر إليه مباشرةً ولم يكن يجروء على النظر في عينيها، لكنه كان دومًا يشعر بنظراتها، فكانت تلقي نظرها عليه مثل ممثلةٍ تؤدي دور البطولة وتنظر إلى كومبارس، أو بمعنى آخر كانت نظراتها تنطق وتقول: ما هذا الفاشل! ما هذا التافه! ورغم هذا لم تسبب نظرتها الفوقية له إحساسًا بالإحباط، لأن إحساس الإحباط هذا موجود بالأصل.

ولم تكن الأيام قاتمة إلى هذه الدرجة.

أحب تشنغ جونغ منطقة المصانع، ومع مضي السنين اعتادها، وخاصةً خلال العامين الماضيين، ولم يكن لديه أي طموحات كبيرة، كما لم يشعر في يوم أنه في حاجة إلى أن يصبح متميزًا عن غيره من شباب المنطقة، وكان يتساءل ما قيمة كل هذه الأشياء. ربما يكون أبوه منحه اسمًا لا يليق به، "تشنغ جونغ" هو اسم يعني النجاح والفوز والنصر حتى بات الاسم محفورًا على جبينه، وعندما كان يسمع اسمه

كان يحس بالغثيان، في النهاية صار تشنغ جونغ واحدًا من هؤلاء الفاشلين.

كان شارع مفترق الطرق مكانًا رائعًا، يقع في المنطقة الممتدة بين مصنع الألكيل بنزين ومحطة الطاقة الحرارية ومصنع البلاستيك ومصنع الأنابيب الإلكترونية، فكان أشبه بالقلب والرئتين اللذين يربطان سائر المصانع والمستودعات. كانت منطقة المصانع أشبه بمنطقة منهاتن في نيويورك وشارع الشانزلزليه في باريس. كان أهالي المنطقة يذهبون إلى شارع مفترق الطرق للعب والترفيه، ولك أن تتخيل كيف كان يعجّ الشارع بالزوار والمارة ويشتعل بالضجيج طوال اليوم، وكان فيه عددٌ كبيرٌ من المتاجر والفنادق مثل: فندق "دا جه دا" المكون من ثلاثة طوابق والمطلي باللون الوردي، والملهى الليلي "شاطئ شنغهاي" المزدان بأنوار ساطعة وزهور صناعية ورقية، ومتجر "برج الأسد" الذي يقدم الفطائر المحشوة والجايهان (أرز مغطى بالسّمك أو اللحم والخضراوات)، واستديو التصوير "صور عالمية" وقسم المبيعات الذي يبيع الأبواب والنوافذ الألومنيوم واسمه "الأصلي"

ودومًا كان تشنغ جونغ يتجول في شارع مفترق الطرق ويُحصي عدد الشاحنات التي تزن أكثر من خمسة عشر طنًا وتثير خلفها العوادم وتشغل حيزًا كبيرًا على الطريق، بينما تترك الدراجات النارية والدراجات الثلاثية والسيارات تتقاتل خلفها من أجل البحث لها عن موطأ قدم. وكانت المحلات التجارية تصطف على الجانبين بسعادة وبهجة، وكلما زادت حركة السيارات المارة انتعشت حركة البيع والشراء، وكان أصحاب المحلات يتنافسون في صبّ دلاء

الماء العكر على الطرقات، لأنه دليلٌ ساطعٌ على انتعاش التجارة في محلاتهم، وبجانب أهالي المنطقة ظهر أيضًا عددٌ لا بأس به من الأجانب أصحاب اللكنات الغربية وكانوا يسيرون في عجلة. كان الرجال يوبخون النساء، والأمهات يوبخن أبناءهن الصغار ويركل الصغار زجاجات بلاستيكية فارغة ثم يصبونها نحو جرو هزيل... ووسط كل هذا الصخب يقف تشنغ جونغ وهو يستند إلى أحد أعمدة الإنارة ويتأمل في هذه المشاهد.

ووسط وجوه المارة العابسة والغارقة في العرق، إذا به يتذكر شياو لان ويتذكر ابتسامتها في عيد تشينغمينغ أثناء حديثهم عن الموتى، ولم يكن يحسب أن شياو لان يمكن أن تعرف الابتسامة طريقًا إلى وجهها! أسكرته ابتسامتها في تلك الليلة، وفي منتصف الليل استفاق وعاد إلى رشده وقال لنفسه: آه، لو يستطيع أن يجعل الابتسامة لا تفارق وجهها سيكون أعظم شيءٍ يمكن أن يفعله في الحياة!

لكن كانت هذه الفكرة مثل سمٍّ يسري في دمائه، بل جعلته يستشعر مرارة البطالة التي لم تشعره يومًا بشيءٍ من اليأس، وخاصةً بعد أن طلب أبوه من سو تشين أن تبحث له عن عمل، فسأل نفسه: لماذا لا يبادر ويبحث عن عمل؟ وفي يوم رأى مصادفةً إعلانًا مهترئًا لوظيفةٍ شاغرة، وعلى الرغم من أن راتب المتدرب ضئيلٌ جدًا، لكن كان كافيًا بأن يوطد علاقته بشارع مفترق الطرق. وسرعان ما أصبح ملك البلياردو في الشارع، وكلاعب جديد كان عليه أن يمتلك نقاط قوة حتى يصبح ذائع الصيت؛ ففي في النهاية علينا أن نقر بأن البلياردو لعبةٌ لها وزنها!

وكان مشهد طاولات البلياردو في شارع مفترق الطرق مشهداً يدعو إلى الرذيلة، حيث يتدلى مصباح فوق الرأس بضوء باهت مما يُعطي انطباعاً بأنه ملهى ليلي مشبوه، كما يظهر القماش المخملي الأخضر للطاولة، وكانت الكرات مليئةً باللعباب وبعضُات الأسنان، التي لم يكن هناك تفسيرٌ لوجودها، بينما كان "الأسطى" الذي كان يضع طوال اليوم خلة أسنان في فمه، يصيح عاليًا ويقول: "العب بثلاثة يوانات ونصف"، و"العب مرة واربح مرة مجانية"، كان يتحدث بنبرة بها تحدٍ وشراسة إلى الشباب المارين من أمامه، وكأنه يستنفر همتهم على التحدي، وكثير من الشباب مثل تشنغ جونغ كانوا يقفون ليبرهنوا على قوتهم وحظهم السعيد، ويخرجون من جيب بناطيلهم الجينز الضيقة لفافات من النقود الورقية، ويمسكون بعصا البلياردو ويميلون بخصورهم، ويسددون الضربات للكرات بلا أدنى شفقة!

لم يكن تشنغ جونغ عدوانيًّا وشرسًا في أثناء اللعب، بل كان يملك زمام الطاولة ويسيطر على اللعبة وهو يسدّد الضربات للكرات، فتتدحرج وتسقط في الفتحات بمنتهى الدقة. وفي كل مرة يخرج من صالة البلياردو وجيبه عامرٌ بلفافةٍ من النقود المتسخة، فيربت على مؤخرته ويتسم بصمت، ويشعر شعورًا بالإنجاز لا يوصف وبأقل مجهود يمكن أن يبذله.

وفي غضون أسبوعين صار تشنغ جونغ ملك البلياردو في شارع مفترق الطرق، وأظهر جانبًا مختلفًا في شخصيته، وخرج الشيطان الكامن في أعماقه، فشرع يصفرّ للحسنات على الطريق ويفرقع أصابعه، ويفتعل من العدم الشجارات مع الناس.

(٣)

وفي هذا الوقت بدأ ولعه بالزجاج.

ولم يعد يتعجل العودة إلى صومعته في عشاء كل سبت، بل شرع يتحدث عن الزجاج وصار لديه موضوع يمكن أن يتطرق إليه.

- ما هو الزجاج؟

شرع يتحدث إلى الصغار الجالسين في غرفة المعيشة. ضيق عينيه، اللتين تشبهان عيني أمه، وأخذ يتلو عليهم مصطلحات كيميائية مثل: (فوسفات الصوديوم وسيليكات الكالسيوم وثاني أكسيد السيليكون) فحدّق به شياو باي وتشن تشن، ولم يكن أحدهما يفهم هذه الهياكل الجزيئية سوى شياو لان، لكن كالعادة كانت منكبة على الكتاب الذي أحضرته معها.

ثم أدار دفة الحديث وأضاف وجهة نظره الشخصية، وشرع يتحدث عن الزجاج بشغفٍ شديدٍ وقال:

- الزجاج لا يشبه الماء ولا يشبه الزيت، هو شيءٌ خاص بنفسه، ليس لديه نقطة غليان أو تجمد محددة، بل يمرّ بمرحلة طويلة من الذوبان، ويبدأ في حالة من الانسيابية عند درجة حرارة ستمائة درجة مئوية، ويمكن سحبه على شكل خيوط حتى يصل إلى درجة حرارة ألف وثلاثمائة درجة مئوية، ويمكن تشكيله بسهولة على شكل دوائر

أو مربعات ويمكن تحويله أيضًا إلى شكل مروحة، فهو مرّن ومطواعٌ إلى أقصى درجة! أشعر أنه يشبه حلوى التوفو.

ضحكت تشن تشن وأحسّت بالحسرة؛ لأن من المستحيل أن تأكل هذه الأشكال المصنوعة من الزجاج.

- كلنا نعرف أن درجة حرارة الجسم الطبيعية هي سبعة وثلاثون درجة مئوية، وأنا أعرف إحساس المائة درجة مئوية عندما تعرّضت للحرق بسبب الماء المغلي!

تحسّس شياو باي ذراعه وأبدى تأثّرًا، وكان أفضل مستمعي تشنغ جونغ، وشرع يفكر فيما قاله تشنغ جونغ عن درجات حرارة الزجاج، فأحسّ بحسرة في حلقه، وكان شخصًا سكب زجاجًا درجة حرارته ألف وثلاثمائة درجة مئوية في حلقه، ثم بحث تشنغ جونغ في أهمية الزجاج وشرع يتعمق في أهميته، فكان يرى أن الزجاج يأتي في المرتبة الرابعة بعد الهواء والماء والشمس، وقال:

- أطلقوا العنان لخيالكم وفكروا في استخدامات الزجاج، فهو يدخل في صناعة زجاجات صلصة الصويا وزيت السمسم، والمزاهر في غرف الضيوف وواجهات ساعات الحائط وساعات اليد والراديوهات، مدوا أبصاركم وانظروا إلى أعمدة الإنارة في الشوارع ونوافذ البيوت والسيارات وإشارات المرور، وزجاجات الدواء وزجاجات المياه والترموتر... نعم، العالم بدون زجاج لا قيمة له! ولا أحد يستطيع أن يُنكر أن الزجاج هو أهم شيء في الوجود.

أحسّت تشن تشن بحماسةٍ بالغة بسبب حديث أخيها، وراحت تجول ببصرها في الأشياء حولها لتضيف إلى القائمة أشياء أخرى وقالت:

- وهناك أيضًا زجاجات الحبر والنظارات وإطارات الصور وكرات البلي وزجاجات نبيذ "يانغه" وزجاجات طلاء الأظافر...

فقاطعها تشنغ جونغ قائلاً:

- هل فكر أحد في سبب أهمية الزجاج؟

كان الجميع حاضراً، وجلس دينغ بوه جانغ مثل معطفٍ متسخ في حالة سكرٍ شديدة، وسو تشين في مكانها المعهود في المطبخ تجلي الصحون التي لا تنتهي، وشياو باي وتشن تشن لا يفهمان شيئاً، فبدأ السؤال وكأنه موجهٌ إلى شياو لان، لكنها كانت مثل فتاةٍ صماء، تنكب على الكتاب من دون أن تحرك ساكناً.

وكم كانت تشن تشن فخورةً بأخيها فقالت بمرح:

- أخبرنا أنت ما أهمية الزجاج؟

- فكر طويلاً في الإجابة وأخيراً توصل إلى إجابة ربما لا تكون صحيحة، فعقد يديه وأغلق عينيه مثل رجلٍ مثقف متحذلق، وقال:

- الزجاج مهم جداً لأنه شفاف!

قال وهو يتكئ على الكرسي فجاءت إجابته مخيبة للآمال. "مهم لأنه شفاف" يا لها من إجابة عميقة!

وكانه كان يتوقع ردة فعلهم فقال:

- كما يمكن أن ترى عبر الزجاج كل شيء! فكروا معي ماذا في الحياة يشبه الزجاج؟ أنا أعرف أنتم لا تفهمون منطقي. ماذا تعني الشفافية؟ الزجاج شيءٌ منفصل ولا يمكن لمسه على الإطلاق!

حلّق السؤال البلاغي عاليًا في الهواء وران الصمت لفترة، ثم قال:

- أنا أحسّ أن العلاقات الإنسانية بين البشر تشبه الزجاج!

وبعد مضي أربع سنوات عندما كان يلتقيان سرًا، أثارت شيوا لان هذه المحادثة صدفة، وتمنى يومها أنها تكون تمزح معه أو تسخر من حديثه، لكنها كانت جادة وهي تطيل النظر إليه، وكأنها تعلن موافقتها على أن علاقتهما تشبه الزجاج؛ يرى كلّ منهما الآخر لكن لا يمكن أن يتلامسا على الإطلاق! مكتبة سرّ من قرأ

ورغم أنه ترك عمله منذ وقتٍ طويل في ورشة نفخ الزجاج، إلا أنه كان لا يزال مخلصًا للزجاج، فتظاهر بالهدوء أمامها وهزّ رأسه ضاحكًا، فلم يندم على علاقته بشيوا لان التي كانت تشبه الزجاج، وكان سبب سعادته أنه صار لديه ما يقوله وهي ترهف إليه حواسها... كل حواسها، فيستعرض أمامها ثقافته وموهبته الفذة في الثرثرة، وكان كل ما يفعله من أجل أن يجعلها تبتسم.. فقط تبتسم!

فضّل تشنغ جونج عدم الحديث عن العملية الفعلية لنفخ الزجاج، وتصرف كما لو أنه ليس عامل نفخ زجاج، بل مجرد شخص عادي جاء إلى ورشة زجاج ليعمل عقله في التفكير في الأسئلة المجردة عن الزجاج، وكانت هذه عادة الرجال في منطقة المصانع، لا يفضلون الحديث عن تفاصيل عملهم لأنهم لم يجدوا في مثل هذه الأحاديث شيئًا من المتعة أو شيئًا يثير الفضول، فأجسادُ لا تفوح منها سوى رائحة المطاط والحديد ووجوه دهنية محتقنة بالدماء، كيف سيتحدّثون عن أشياء مثل المنافخ والأفران ذات درجة الحرارة العالية والخلاطات وخزانات التبريد والجرارات؟

أحسّ شياو باي أن الحديث عن الزجاج شيق جدًّا، وتشنغ جونغ يحتاج إلى إلقاء المزيد من الأسئلة، لذلك ضغط عليه للحديث عن تفاصيل أكثر عن عملية نفخ الزجاج، فألقى تشنغ جونغ نظرةً على شياو لان وكانت لا تزال تطالع الكتاب بوجهٍ عابس، فأجاب بصوتٍ خفيض:

- كل عامل لديه فرن وأنبوب نفخ الزجاج، يوجّه العامل الزجاج إلى القالب ويلفّ الأنبوب وهو يواصل النفخ.

- لكن كيف تحتملون درجة حرارة بين ستمائة وألف وثلاثمائة درجة مئوية؟

ومرةً أخرى نظر إلى شياو لان ثم قال:

- من خلال الموقد، كما إننا نعمل من دون أن نرتدي قمصانًا، نعمل وكأننا ماكينات بشرية!

ثم أشار بيديه بطريقةٍ غير مفهومة علامةً على انتهاء الحديث.

وفجأةً رفعت شياو لان التي كانت تجلس مثل التمثال رأسها ورنّت إليه، لكنه التزم الصمت وأدرك أنها فطنّت أنه حتى لو كان الزجاج يمثل هذا الجمال وبمثل هذه الروعة، لكن في النهاية هو زجاج! والأمر لا شأن له بأنه يعمل عاريًا وعرقه يتفصّد منه، في النهاية قد عثر على وظيفةٍ بائسة حتى لو لم يكف عن التغرّل في جمال الزجاج وسحره، وكان هدفه من الحديث هو أن يوارى خجله من هذه المهنة المتواضعة!

أحسّ في هذه اللحظة بشيءٍ من الحرج وبشيءٍ من سلوى النفس، فعلى الأقل استطاعت شياو لان أن تفهم ما يعتمل في صدره.

فضحكت تشن تشن عاليًا وهي تضرب فخذها بقوة، ثم نظرت إلى تشنغ جونغ وقالت:

- أخيرًا نظرت إليك يا أخي! أنا أنتظرُك طوال الليلة لتفعلها! نجحت يا أخي في أن تحرك التمثال! أنت عظيم جدًا!

فعَضَّت شياو لان شفيتها واعتلتها حمرة الخجل، وظلت وقتًا طويلًا لا تجرؤ على أن تنظر إلى تشنغ جونغ.

ومنذ هذه الليلة ولم يجتمع الأربعة معًا ولم تتكرّر مثل هذه الأحاديث، فكانت شياو لان تستعد لامتحانات القبول بالجامعة ولم تعد سو تشين تحضرها إلى عشاء السبت، لكن تشنغ جونغ خَمَن في قرارة نفسه، ربما يكون هذا لأنه اصطحبهم ذات ليلة إلى السوق الليلي، لكنه لم يرغب في إيجاد تفسيرات، فلم يحدث شيء، وليس من المنتظر أن يحدث شيء في المستقبل.

ولم يدر في حسابان تشنغ جونغ أن شياو باي له صلةٌ بهذا الأمر.

(٤)

نشأت العلاقة بين تشنغ جونغ وشياو باي منذ تحالف الأربعة وفي أثناء زيارتهم للسوق الليلي، لكن لا يمكن وصف العلاقة بأنها كانت علاقةً وطيدةً أو أنهما كانا صديقين مقربين، فدومًا كان تشنغ جونغ يحس أن شياو باي يتبعه مثل جرو صغير بعينين مشرقتين ملؤهما الانبهار واللهفة، ودومًا كان يخجل من أن يبادر بالحديث معه. لكن ماذا كان يريد أن يفعل؟ وماذا كان يريد من هذه العلاقة التي جمعت بين أمه ودينغ بوه جانغ؟ وماذا سيفعل بعد انفصال العائلتين؟ غابت تشن تشن أيضًا عن حضور عشاء السبت، لأنها بدأت التدريب في أحد الفنادق، كما إنها طلبت من رئيستها أن تكون أوقات عملها الإضافية يوم السبت. وبعد العشاء جلس تشنغ جونغ يدخن سيجارة وينفث دخانها في الهواء، وجلس قباله شياو باي وسادت أجواءً رتيبةً كثييةً، ثم قال:

- لا تنشغل بتناول الطعام، قل شيئًا!

فجمد شياو باي واعترفته الدهشة، وأحس أن دهون جسده ذابت تحت جلده، ونظر إلى المطبخ ولم يقل شيئًا.

فأحس تشنغ جونغ ببعض الفضول، فهو في النهاية الأخ الصغير لشياو لان فقال:

- هيا بنا نمضي إلى غرفتي!

- هل تسمح لي بدخول غرفتك؟

اندهش شياو باي واعتلت الحمرة وجهه فهزّ رأسه موافقًا.

كانت غرفته لها نافذة زجاجية ووضع بها سريرٌ ومكتبٌ صغيرين، ولم يكن هناك مكانٌ لكرسي، وبني فوق السرير سقفٌ وهميٌ يشبه الممرات، وغطيت النافذة قبالة الشارع بجريدة قديمة (جريدة المصنع)، فحجبت دخول نور الشمس إلى الغرفة، فما إن تدخل الغرفة حتى تشغل بالضيق وأن شيئًا ما يجثم على صدرك.

أحب تشغل جونغ غرفته الصغيرة الضيقة، فكان يقف والسقف يكاد يلامس رأسه، وراقه انبهار شياو باي بالغرفة فقال:

- اجلس! أنت أول شخص يدخل إلى هنا بعد وفاة أمي، كنت تريد أن تقول لي شيئًا منذ قليل!

فدار ببصره حوله وسعل بهدوء ثم قال:

- نعم هناك شيء أريد أن أخبرك به، لكنني لا أعرف هل يجب أن أقوله أم لا؟ هل تعرف أن أختي أحببت كثيرًا الكشاف الصغير الذي أهديته لها ونحن نتجول في السوق الليلي، أنها تعتز به كثيرًا ودومًا تضعه بجانب وسادتها، وعندما تشعر بالأرق لا يفارق يدها، كما إنها تستعمله وهي ذاهبة إلى دورة المياه.

كانت لهجته تشي بالكثير من الصدق، فاعتزته الدهشة وقال:

- ماذا؟ أحبته؟ لكنها لم تكن سعيدة عندما أهديته لها، أنا معي نقود كثيرة وأستطيع أن أشتري لها نصف شارع مفترق الطرق.

- أنت تعلم هي لا تحب أن تفصح عن مشاعرها، لا أكذب عليك،
أختي معجبة بك!

قال من دون تردد؛ فعلى أقل تقدير كان النصف الأول من الجملة
صحيحًا مائة بالمائة.

- لكنها دائمًا تُبدي عكس ذلك؟

تشكك تشنغ جونج فيما قاله شياو باي، لكنه فكر في أن كتمانها
لمشاعرها ربما يكون مفتاح شفرتها والوصول إلى قلبها. وبعد أن
تواعدا والتقيا وبعد أن توقفت اللقاءات السرية حتى بعد مضي كل
هذه السنين، كان تشنغ جونج يستدعي هذه الكلمات الرقيقة عندما
يتسلل البرد إلى قلبه، فيحس بالدفء وتنتشله من أحزانه.

ثم قال:

- هي طالبة مجتهدة وأنا...

كان لا يزال يشعر بأن ثمة فروقًا كبيرة بينهما.

فقال شياو باي البالغ من العمر الثالثة عشر بلهجة تشي بالخبرة
والحكمة:

- أنت لا تعلم أن هؤلاء الفتيات حمقاوات! هؤلاء المجتهدات في
الدراسة، الصنف المفضل لديهن هم الشباب المستهترون؛ لأنهن لا
يجرؤن على أن يكن فتيات مستهترات، ضع هذا في اعتبارك.

- وماذا قالت أيضًا؟ ألم تقل عني شيئًا آخر؟

كان لا يزال متشككًا في مشاعرها وطلب المزيد من البراهين،
وفجأة تحسنت حالته وأحس أنه منذ وقتٍ طويل لم يكن رائق المزاج
إلى هذه الدرجة.

- تشعر أنك شابٌ بقامةٍ مديدة وتتمتع بأناقةٍ بالغة ورائحة دخانك عطرة، غير منفرة! وتحدث عن الزجاج بعمقٍ شديد وكأنك عالم أو فيلسوف.

راح يعدد نقاط قوته من دون توقف، بينما جلس تشنغ جونج وكان غيبوبة طافت به، وفجأةً أحس أنه يرتدي معطفًا أنيقًا وصار نبيلًا من النبلاء. ورنَّ صوتٌ في أعماقه: ماذا يعيب نافخ الزجاج؟ أليس هو نافخ زجاج؟ لكنه يبدو كما الفيلسوف!

وراح شياو باي يصب الزيت فوق النار ويضيف التوابل الحارة إلى الكلام، وكانت كلها أشياء من وحي خياله وقال:

- أنت أيضًا تجعلها تشعر بالأمان، هل تذكر عندما ذهبنا إلى المقابر وقدتنا في الطريق واعتنيت بنا!

- هل ما زالت تتذكر؟ يا للسماء كان هذا منذ عام ونصف العام!

فانعقد لسانه عن الكلام وجلس على مقعدٍ من الدهشة، ولم يعد قادرًا على أن يصدق أذنيه، لكن سرعان ما تبددت ظلال السعادة وظهرت غمامة من الحزن، وأحس أن الحزن صار مثل حبل يضيق الخناق عليه ويلتف حول عنقه رويدًا رويدًا، وقال وكأنه أدرك حقيقة نفسه:

- لا داعيَ لتقول المزيد، أنا ممتن جدًا لها! لو كنت بالفعل الطفل المعجزة! آه، لو كنت ذلك الطفل النابغة!

ثم أشعل سيجارةً أخرى وبدا عليه الارتباك الشديد.

وهنا أحس شياو باي أنه ليس في حاجةٍ ليقول المزيد، فقد أصاب الهدف في المرمى، ثم قال:

- أنا كنت أففضض معك، لو علمت شياو لان أنني أخبرتك ستقتلني!

- اطمئن، انظر إلى شكلي البائس! أنا لن آخذ ما قلته على محمل الجد! أقسم لك أنني لن أخبرها!

فأحسّ شياو باي أن قلبه ينتفض بين ضلوعه، لكنه حاول أن يهدئ من روعه، وقال في نفسه: ما الضرير فيما قلته؟ ربما لم أخطئ فيما قلته، فربما تكون شياو لان بالفعل تفكّر فيه وتحركت مشاعرنا نحوه!

ثم استقرت عيناه على الجريدة الملصقة على النافذة، ورغم أنها كانت صفراء ذابلة، إلا أن العناوين الرئيسية والفرعية تسنّى له قراءتها بوضوح، وشرع يقرأ:

- اشتراكٌ مميز في عضوية الحزب. وريّات وساعات عملٍ إضافية في العيد الوطني من أجل زيادة الإنتاج.

- زيارة رئيس نقابة العمال تشانغ دينغ بي إلى العمال القدامى في عيد العمال (الأول من مايو).

- رائحة أزهار البرقوق الحلوة بعد مرارة الشتاء.

- تقرير عن مسابقة الفنون القتالية للعمال الشباب.

وجد نفسه يقرأ هذه العناوين خلّسةً، وكأنه يحاول أن يتحرر من الأكاذيب الملفقة التي كانت تحلق مثل فراشات زاهية. وفجأةً طفق تشنغ جونج يغمغم قائلاً:

- إذا قالت، فيما بعد، أي شيء أرجوك أخبرني على الفور، أعلم أنها أوشكت على الالتحاق بالجامعة، تعال وأخبرني بأحوالها، فقط أريد أن أتسلّى لا شيء آخر.

- لا شك أنني سأخبرك بكل شيء عنها، وسأتحدث عنك كثيرًا أمامها!

كان هذا ما يمكن أن يفعله شياو باي بمنتهى السهولة، ومضت الأمور مثلما نسجها بخياله، فقد عثر على ثغرة لأخيه الكبير وارتبط به ارتباطًا متينًا!

فقال تشنغ جونغ:

- إذا احتجت أي شيء فأنا موجود! أنا أتناقضى راتبًا شهريًا كما إنني أحصل على النقود من لعب البلياردو!

- كل ما أريده هو أن تكون أخي الكبير وتحميني دائمًا وتحسن معاملتي.

فلطالما كان يتوق ويتحدث إليه مثل هذا الحديث، وأخذت كلماته تتطاير وترت على وجهه برفق.

أحس تشنغ جونغ بالذهول وسرعان ما أشعل سيجارة أخرى وأعطاها لشياو باي قائلاً:

- دخن، لا تتصرف مثل فتاة صغيرة، ألسنا إخوة!

فأمسك السيجارة بخوفٍ ممزوج بفرح وشرع يدخن، فاختنق حتى دمعت عيناه. ومرت لحظات وكان تشنغ جونغ يفكر في شيء ما، وإذا به يقول:

- سأريك بعضًا من أغراضي!

مد يده وأزاح إحدى ألواح السقف وراح يتحسس شيئًا على الرف وكأنه يحصي عدد أسنانه، وأخرج صرة قماشية ثم مد يده وأخرج

أخرى، حتى أخرج في النهاية ست صرّات ووضعها كلها على الفراش، وقد بهتت ألوانها وتعدّرت تميز نقوشها لكنها كانت نظيفة. وقف تشنغ جونج يمعن النظر في الصرر القماشية ويستمتع بمنظرها ثم ابتسم وفتحها، فصاح شياو باي قائلاً:

- ملابس! ملابس أطفال!

وقف شياو باي في ذهول تام وكاد يصرخ، وأحس أنه يرغب في التبول.

فتح تشنغ جونج الصرة القماشية الأولى وكان تحوي سترة قطنية صغيرة، طُبعت عليها كلمة "السعادة" داخل دائرة، وهتف قائلاً:

- هذا أول شيء ارتديته عندما جئت إلى الدنيا! انظر كم هو جميل! ثم فرد بنطالاً لونه بيج بطول اليد وسترة زرقاء مخططة و"سالوبيت" وزوجاً من المرايل. وفتح الصرة الثانية، وكانت ملابس لطفل في عمر عامين، وأخرج قبعة صوفية وسترة مبطنة بالقطن، مطرزة من الصدر بكلمة "زهرة الوطن"، وراح يفتح صرة تلو الصرة، حتى أنه نزل تحت الفراش وأحضر بعض الصرر القماشية الأخرى. وامتلاً الكهف الضيق المظلم بملابس طفل صغير، وكأننا نرى طفلاً صغيراً يحبو ويجلس ويمضي ويركض، وقد تجسدت كل مراحل النمو في هذه الملابس. أثار هذا المشهد مشاعر شياو باي حتى إنه أحسّ بخوفٍ ممزوج بسعادة، وتخيل أن هذه الملابس كانت ملابسه وكان يرتديها وأنه عاد بالزمن من سن المراهقة إلى صبي في العاشرة والسابعة حتى بلغ الرابعة أو الخامسة من عمره، وأن تشنغ جونج احتفظ بهذه الملابس واعتنى بها أشدّ عناية. وكم وتمنى في أعماق قلبه أن يكون هو صاحب هذه الملابس!

لم يكف تشنغ جونغ عن الحديث، لكن شياو باي كان في عالم آخر ولم يسمع من حديثه شيئاً حتى لكزه في كتفه وقال:

- شياو باي، أين ذهبت؟

أضاء نور المصباح نصف وجه تشنغ جونغ، فلم يستطع شياو باي رؤية ملامحه بوضوح ثم قال:

- هل سمعت ما قلته؟ كانت أُمِّي تحتفظ بهذه الملابس من أجلي، كانت تظنّ أنني سأكون شخصاً له مستقبلٌ واعد، عندما أشتاق إليها أفتح الملابس وأظل أتأملها، فأحسّ أنني عدت بالزمن إلى هذه الأيام الحلوة. هل تصدق أنني بالفعل كنت هذا الطفل المعجزة وكنت أمهر من أختك، بالفعل كنت أفضل منها، وكان من المفترض أن ألتحق بالجامعة!

ربط شياو باي لسانه عن الكلام وأحسّ بعدم ارتياح، ولم يستطع أن يعبر عن غضبه الشديد، لأنه يعلم أن تشنغ جونغ رسب في الامتحان في العام الذي توفيت فيه أمه.

وبعد فترة بدأ تشنغ جونغ بجمع الملابس وطيّها مرة أخرى وإعادتها كما كانت، وكما تكبّد عناء فتحها طواها مرة أخرى بمهارة شديدة، واتبع الثنيات وكأنه يعيد شريط فيديو من البداية، حتى عادت كما كانت في الصرر القماشية، ثم وضعها في أماكنها فوق الفراش وتحت الفراش، وعادت الغرفة إلى حالتها الأصلية.

والآن ينبغي الحديث عن مصير هذه الملابس.

وبعد انقضاء ثماني سنوات وقبل أن يستقيل ويفتح متجر الزجاج، أعاد ترتيب هذه الملابس وأغراضه الخاصة، وكأنه يودّع

حياته القديمة بكل ما فيها، وفكر في أن يتخلص منها لكن لم تطاوعه يديه، فماذا يفعل؟ وكان أول شخص يخطر على باله هو شياو باي؛ فهو الشاهد الوحيد على هذه الملابس. لم يشعر بالندم وهاتف شركة الشحن، وبعد بضع دقائق جاء موظف الشحن وكان يلوك العلكة، وأخذ يحزم الملابس في صناديق ورقية وهو يلقي بنكاتٍ عن اليمين وعن اليسار، فاستشاط تشنغ جونغ غضبًا مما أجبر موظف الشحن على الاعتذار، حتى كاد الأمر يصل بينهما إلى حد القتال، وبعد أن جمع الأغراض وغلفها وهم بالانصراف قال بغضب:

- ستظل منطقة المصانع كما هي، اللعنة عليها، لا يمكن أن تتغير هذه المنطقة الموبوءة!

وفي الجنوب استلم شياو باي من دون سابق إنذار طرد شركة الشحن، فوقف في حالة ذهول تام وسرعان ما فتح الطرد، فهتف قائلاً:

- شكرًا لكم! أنتم لا تعلمون ماذا أحضرتُم لي! أعطوني رقم مديركم لأهاتفه وأطلب لكم مكافأة!

لم ينته الأمر هنا... وبعد مرور عامين حمل شياو باي الملابس الصغيرة ودفاتر اليوميات، وعاد إلى منطقة المصانع، وبعد فترة قصيرة أهدى هذه الملابس إلى طفلة حديثة الولادة، ولم يغير شيئًا أنها ملابس صبي وليست ملابس صبية، فلا فرق في هذه السن الصغيرة، كما أنه ليس هذا الشخص الذي يكثرث إلى مثل هذه الأشياء الصغيرة. وقد نشرت الجرائد تاريخ ميلاد هذه المولودة السعيدة، وكان يوافق الثالث عشر من نيسان عام ٢٠٠٦ في الساعة الثانية واثنين وأربعين دقيقة.

(٥)

في هذه الفترة انغمس دينغ بوه جانغ في الشرب وحطّم رقماً قياسياً، وعلى العشاء كان تشنغ جونغ يجلس ليتناول الطعام، فيرى أباه وكأنه يمارس تمارين رياضية، ويشرب بعنقه ويميل على جانبه ثم يرتطم بالمائدة محدثاً دويّاً عالياً، فينحي تشنغ جونغ الصحون جانباً وزجاجة النبيذ والكأس، ويواصل تناول طعامه. وبينما كان يستمع إلى صوت الطعام وهو يلوكه تحت أسنانه نظر إلى رأس أبيه الصلعاء اللامعة، فأدرك أن أباه أدمن الكحول بسبب سو تشين وبسبب عمله في نفخ الزجاج، وبسبب هدم منطقة المصانع والتغيرات التي طرأت عليها، فقال لنفسه إذا كان وقت شربه للخمر هو أسعد أوقاته قبل النوم فليحظّ به. وعندما نظر إلى رأس أبيه الأصلع، أحسّ أنه لم يعد يشعر بالغضب نحوه، بل كان يشفق على حاله ويشعر أنه رجلٌ مسكينٌ غارقٌ في الوحل، وسأل نفسه: هل سيقدر أبوه على الخروج من الهاوية؟ ولم يدر بخلده يوماً أنه سيضربه بسبب إسرافه في الشرب.

ولا يتذكّر تشنغ جونغ على وجه التحديد المرة الأولى التي وقعت فيها حادثة الضرب، لأن الأمر تكرر عدّة مرات، وكان عليه أن يعفو ويغفر وإلا من غيره كان سيحتمل هذه الضربات! ولم يكن هو من يضره بل كان تأثير الكحول ويد الشيخوخة التي زحفت إليه زحفاً ونالت من شبابه وعقله.

ولم يفارق ذاكرته أنه بسبب هذه الضربات، كان يلتقي بشياو لان في الليل، وكانت هذه الفرصة مثل ومضة برق، أضاءت بغتةً وأشعلت فتيل الحب الذي أضاء كل حياته، لذلك كان دومًا ممتنًا لأبيه، لأنه كان يضربه وتمنى ألا يكفّ عن ضربه، لا يكفّ أبدًا!

وفي تلك الليلة سرعان ما خرج من البيت من دون أن يغسل وجهه أو يغير ملابسه، وغادر مثل لصٍ ينسلّ في خلصة، وقفز على دراجته وانساب في الطريق المؤدي إلى شارع مفترق الطرق، وكان يعلم أنه حان وقت السوق الليلي الذي سيبتلع في جوفه كل ضربات أبيه مثل مستنقع عفن يبتلع النفايات.

اتجه إلى صالة البلياردو وتحت ضوء المصباح الأصفر الشاحب تحسّس فكّه وخديه المتورمتين، ثم ثبت نظره على الكرات الملونة، وكان وحده الذي يتحكم في مصيرها عندما يضربها بالعصا ويتركها تتدحرج وفي النهاية تقع في الثقوب السوداء. لم يكن يعلم ما إن كان يحب بالفعل لعب البلياردو أم لا، لكن الشيء الوحيد الذي كان يعرفه هو أنه ما من أحد سيهتم بأنفه الدامي وعينه المتورمتين، بل وما من أحد سيسأله: ماذا حدث لك يا أخي؟ وكان هذه أعظم ميزة في شارع مفترق الطرق، لا وجود لهذه المشاعر بين الناس ولا يتعاملون بمثل هذا اللطف، فحمد السماء كثيرًا على حظه السعيد!

لعب على جميع طاولات البلياردو وعمرت جيوب سترته وبنطاله الجينز بالنقود، لكن في النهاية بدأت الحشود في الشارع تتضاءل ويسود الهدوء وتنتشر الوحشة في أرجاء المكان، فلم يكن الشارع مثل شوارع المدن الكبيرة الصاخبة، بل احتفظ بإيقاع العمال البسطاء الذين يفضلون الذهاب إلى النوم سريعًا لينعموا بآخر لحظات اليوم.

ولم يرغب في العودة إلى البيت، وراقه الشارع في هذا التوقيت أكثر من أي وقتٍ آخر، وأراد أن يبقى أطول فترة ممكنة في هذا الشارع المهجور، فجلس على الرصيف حيث تمكن من رؤية كل شيء حوله مثل الدراجات المكسورة وصناديق القمامة وأعمدة النور وفضلات الكلاب والجرائد القديمة وأشياء أخرى، ومن نظرة واحدة استطاعت عيناه أن تلتقطا كل هذه الأشياء، وبدا وهو جالسٌ على الرصيف وكأن الرصيف ابتلعه.

وكان العيب الوحيد في هذه الخلوة الروائح النفاذة، فقد انتهت كل مخلفات اليوم هناك، وتجمعت كل روائح النهار من عوادم السيارات والحيوانات والبشر، وتركزت واختلطت برائحة الهواء، ورغم هذه الروائح المزعجة، إلا أنه لم يحفل بها وأراد أن ينغمس في هذا الهواء الذي يفوح بروائح كريهة، لأنه سيجعله يفكر بطريقة أفضل.

وخلال الأسبوعين الماضيين أخبره شياو باي بالكثير من المعلومات عن شياو لان:

سألت شياو باي عن شكل غرفته وعن الرياضة التي كان يمارسها في المدرسة الثانوية، وكتبت اسمه ذات مرة على ورقة، وفي أحلامها تنغمم بمصطلحات كيميائية عن الزجاج، واعتذر إليه قائلاً: لا تغضب مني، ظلت تسألني عنك ولم أجد ما أقوله لها، فاضطرت أن أحكي لها عن ملابسك الصغيرة التي تحتفظ بها، وخمن ماذا فعلت؟ فجأة، بكت وعندما سألتها لماذا تبكي تجاهلت سؤالني.

كان كل شيء مدروسًا ومثاليًا لدرجة جعلته لا يصدق ما يسمعه. لكن لماذا كان يتشكك في صدق حديثه؟ فماذا يعنيه؟ ولماذا يتكبد شياو باي كل هذا العناء ليخترق مثل هذه الأكاذيب؟ فهو يتحدث

بمتهى الصدق وبمتهى الطلاقة ولا يمكن أن يكون ما قاله أو هامًا كاذبة! لكنه لا يستطيع أن يتخيل أن الحب يمكن أن يجمع بينه وبين شياو لان. لا! ينبغي أن يطرد هذه الأفكار من رأسه، لكن لماذا لا يفكر في الأشياء الحلوة وربما يكون هذا الحب من ترتيبات القدر العطوف! وعندما لان القلب العاصي وبدأ يشعر بحلاوة الحب، أعاده ضرب أبيه إلى الأرض وأعاده إلى توازنه، وعلمه أن الأشياء لا يمكن أن تسير على نحوٍ وردي، وأنه لا يستحق أن ينعم بالخير في أي شيء!

ووسط هذه الأفكار المبعثرة أشعل سيجارةً وكان وميضها مثل منارةٍ تهدي بحرًا غارقًا في الظلمات.

وجذب ضوء السيجارة شياو لان، وكانت الشرارة التي أشعلت الحب في قلوبهما. ولا يمكن أن ننكر أن تحفيز شياو باي وعناد سو تشين ورغبة تشن تشن الصادقة وعنف دينغ بوه جانغ غير المتعمد، كل هذا لعب دورًا ليولد هذا الحب، لكنه لم يكن الدافع الأساسي، لأن التنويم الإيحائي الذاتي هو أهم شيء في الحب.

في تلك الليلة كانت شياو لان عائدةً من درسٍ خصوصي مدته ساعتان، وكانت في السنة النهائية من المدرسة الثانوية، ومن المفترض أن تكون عادت إلى البيت منذ وقتٍ طويل، لكن لسوء حظها انقطعت سلسلة الدراجة بالقرب من شارع مفترق الطرق، وكان من الصعب أن تجد ورشة إصلاح دراجات على جانبي الشارع المهجور، ورغم قلقها إلا أنها شعرت ببعض الاسترخاء، فعلى الأقل استراحت من عناء الواجبات المدرسية. وفي سكون ليل الشارع

الهادئ راحت تردّد بعض أبيات الشعر وددنت بأغنية بوب، وطار
تنورتها في مهبّ الريح، وإذا بضوء سيجارة تشنغ جونغ يضوي مثل
يراعة مضيئة في ظلمة الليل، وخلف الضوء تبدى وجهه النحيل وكأنه
بورترية رسمه فنان.

وبينما كان يحملق في الأرض غارقاً في بحر الأفكار، إذا به يرى
حذاءً أنيقاً ونصف سلسلة دراجة، فتوقف عن التدخين، فكان يعرف
هذا الحذاء الجلدي المزدان بإزيمه بزهرة صغيرة، وكانت زهرة إحدى
الفردتين فقدت إحدى أوراقها، فدوماً كان يراه في عشاء السبت. ولم
يصدق أن يظهر الحذاء في شارع مفترق الطرق، ولم يكن يرغب في
أن تراه صاحبة الحذاء وهو في هذه الحالة المزرية، فواصل التدخين
وأغمض عينيه وخيّل له أنه يحلم، وعندما حاول أن يفتح عينيه رأى
عيني صاحبة الحذاء وكانت جالسة بجواره على الرصيف.
لم يرها في عشاء السبت منذ ستة أشهر.

كان يعلم أن وجهه متورّم ومصطبغٌ بالسواد والزرقة وتملؤه
الندبات والجروح، فكيف يشرح لها ما حدث؟ ويخبرها أن أباه السكير
ضربه هذا الضرب المبرح، وعليه أن يحتمل من دون أن يتضجر، أو
ربما يتركها تظنّ أنه تشاجر في الشارع. يا لها من ليلة ليلاء! ولن يكون
هناك داع لتسأل شياو باي عنه مرة أخرى، بعد أن رأت بعينها أنه أشبه
بقطعة من فضلات الكلاب وشاب عديم الجدوى.

وظلت صاحبة الحذاء الأنيق ترنو إليه حتى دنت عيناها من وجهه،
فرأت الكثير من الجروح في رأسه، فغضبت وأحسّت بالارتباك،
وسرعان ما نوت أن تأخذ بيديه وتنتشله من الحضيض، فأشاح بوجهه
عنها وأحسّ أنه لا يستحق أن ينظر إلى تلك العينين.

وعندما نفكر في هذا اللقاء الذي حدث بمحض الصدفة، تقر شيائو لان أن نظرات تشنغ جونغ البائسة وحالته المزرية منحته شعورًا بضرورة مساعدته وانتشاله من الوحل الغارق فيه، لكنها تمهلت وفكرت قليلًا، فلم يكن التوقيت مناسبًا، لأنها بعد أسبوعين ستقدم لاختبار قبول الجامعة، ولو مدت له يدها الآن، سيأخذها معه ويترديان معًا إلى الهاوية، فكان عليها أن تترث وتنتظر، وفي هداة الليل قطعت على نفسها وعدًا بعيد التنفيذ.

نظرت إلى الطريق أمامها وهي تزم شفتيها، وظلت جالسةً بجانبه من دون أن تنطق بكلمة، ورغم الصمت المريب كان كل شيء يبدو طبيعيًا وهادئًا.

وعندما وصل إلى نهاية السيجارة، أسبل جفنيه وظل يدخن بشراهة، وكأنه يريد أن يظل يدخن إلى الأبد، فمدت يدها وأخذت عقب السيجارة، ثم استوت واقفةً وألقت بالعقب على الأرض ودهسته تحت حذائها، وهزت دراجتها فرنت السلسلة المقطوعة، فوقف تشنغ جونغ طواعيةً وكان لا يزال يتحاشى النظر إلى عينيها، وفجأةً أحس أنها ليلةٌ مجيدة، فقد تعرض للضرب المبرح وهي التفتة وشهدت على الواقعة، فأحس ببالغ الرضا.

دفع دراجته بيد وترك شيائو لان تجلس في المقعد الخلفي، وأمسك باليد الأخرى دراجتها، وفجأةً تحول الوهن في جسده إلى قوة غاشمة سرت في ساقيه ومعصميه حتى تشنجت عضلاته. ومضى على الطريق دراجتان وشابٌ وفتاة في طريقهما إلى بيتها. ورغم أنهما كانا يركبان دراجةً واحدة، وربما لأنه كان شديد التركيز، أو ربما لأن أفكاره تشتت، فلم يتحدث معها كلمةً واحدة حتى بعد أن رأتهما سو

تشين وصفعتها على وجهها وحتى اللحظة التي تعلقت فيها بذراعه،
وطوال هذه الليلة لم يقل شيئاً.

تقابلا مرة أخرى على العشاء الأخير، وليلتها سكت أيضاً عن
الكلام، فقط أطلق صافرته للعصفور الصغير، واستمع إلى حديث
تشن تشن وشياو لان الرتيب عن الفتيات والعلوم الإنسانية، ولم
يبادلها أي حديث، بل جعل كل حديثه مع العصفور ولم يحس أي
يأس أو إحباط، بل على العكس كان مطمئن القلب مرتاح البال واثق
النفس.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(٦)

وبعد فترة قصيرة ترك عمله في الزجاج، وبضربة حظ استلم وظيفةً في نقابة العمال، وكان يُكلف بمهامٍ غريبة، مثل تسليم خطابات التقاعد المبكر وتسريح العمال، ويقوم ببعض الوظائف المكتبية، ولم يكن لديه أي مؤهلات أو محسوبيات، فاختار الجميع وراحوا يتساءلون كيف حصل على هذه الوظيفة؟

وبحلول عام ٢٠٠٢ أدمن دينغ بوه جانغ الكحول، وتهدمت منطقة المصانع بالكامل وأعيد هيكلتها من جديد، وبعد عمل تشنغ جونج في الوظيفة الجديدة لمدة خمسة أعوام قدم استقالته. في ذلك الوقت ترقى القائم بأعمال نقابة العمال إلى نائب رئيس نقابة العمال، وفي اليوم الذي قدم فيه استقالته ضحك نائب الرئيس عاليًا حتى اهتزت كتفاه وسمع صوت طقطقة رقبته وقال:

- هل تريد أن تعرف لماذا اخترناك لهذه الوظيفة؟

فهز تشنغ جونج رأسه موافقًا، وكان دومًا على هذه الحال منذ أن التحق بالعمل في المصنع، لا يتحدث قدر الإمكان.

- اخترناك لأنك لا تتحدّث، فمهما ضغطوا عليك تظل صامتًا وتستطيع أن تتحكم في نفسك. أنت تعلم أن مثل هذه الخطابات تثير الغضب والضيق، وموظفو المصانع القدامى أجسادهم قوية لا يعرفون معنى التفاهم، فكيف كنا سنقدر على مواجهتهم! لذا كان

علينا أن نبحث عن شخصٍ صبور، يستطيع التصدي لهم بصبره وبرود أعصابه، ولم نجد في المصنع غيرك يمكنك أن نعتمد عليه ونوكل له هذه المهمة الصعبة، فنحن نعلم أحوال عائلتك وأنتك تتعرض للضرب المبرح على يد أبيك السكير، أليس كذلك؟ على حد علمي يضربك كل يومين أو ثلاثة أيام ويعطيك علقة ساخنة كل أسبوع، هذا ما قاله الجيران. وعندما سمعنا هذه الأخبار شعرنا بالسعادة لأننا أخيرًا وجدنا الشخص المناسب في المكان المناسب! وعليك أن تشكر أباك لأنه لولاه، لما جلست هنا في هذا المكتب المريح في نقابة العمال!

أحسن تشنغ جونج بتورم في حلقه وبألم في رقبته، فلم يكن يتخيل أن هذا هو سبب اختياره لهذه الوظيفة، وتذكر أن أباه كان يظن أنه بالفعل طفلٌ معجزةٌ ويستحق مستقبلًا واعدًا، وهذا هو السبب في حصوله على هذه الوظيفة وفكر في أن من حسن حظ أبيه أنه فقد الذاكرة.

استمع إلى نائب الرئيس بأدبٍ جم، ورغم أن الألم كان ينخر روحه عميقًا وتمكن منه تمامًا، إلا أن وجهه كان لا يزال هادئًا مثل نهر يترقق على مهل، فقد اكتسب خبرات كثيرة من العمل في هذه الوظيفة.

- أعلم أن هذا الحديث لا يصح أن أقوله لك لكنها الحقيقة. الجميع تقاعد عن العمل ولم يتبق غيرك، في كل مرة أراك فيها أرغب في أن أخبرك بالحقيقة، وعندما جئت اليوم لتقدم استقالتك شعرت أن الفرصة سنحت لأكشف لك الحقيقة.

ويبدو أن نائب الرئيس لم يكن من السهل عليه أن يكشف المستور لأنه كان يخشى أن يثير ضيقه.

عانى تشنغ جونغ في وظيفته خاصة خلال الأشهر الستة الأولى، بعد أن وصلت فترة إعادة الهيكلة إلى الذروة، فكان الذهاب إلى العمل أصعب من الذهاب إلى جبهة القتال، فكان عليه أن يكون الدرع الواقي البشري لمنطقة المصانع ونقابة العمال، ويتعامل مع حب الأهالي لمنطقة المصانع وكراهيتهم للمسؤولين وللسلطات وللعجز وللألم بسبب التغيرات الجديدة، فهاجمته كل هذه الإحساسات مثل جبل يرتطم بالبحر. في البداية كان الرجال يسبونه ويسبون كل عائلته، والنساء يبكين ويتجنبن وتسيل أنوفهن، بينما العجائز من الرجال ترتعش تفاحة آدم في حناجرهم وتتغصن وجوههم وتتفخ عيونهم ثم يسددون له الضربات واللكمات ويمطرونه بالسباب والشتائم ثم يطرحونه أرضًا. فكان الذهاب إلى العمل كل يوم مثل جولة من الشجارات الدموية التي لا تنتهي.

وبالفعل كان الشخص المناسب في المكان المناسب.

وبعد الانتهاء من العمل يعود إلى البيت ليواجه كابوسًا آخر، ويرى أباه يجلس على الكرسي مثل كيسٍ مقطوع من فرط الشراب، بينما كانت تشن تشن تتجول في البيت وبين الحين والحين، تتوقف لتبادل خي بي نظرات الحب والغرام.

جلس تشنغ جونغ وكان منهك القوة، فأعطاه خي بي سيجارة وطلب له الطعام، وشرع يسأله عن يومه وفي أي منطقة وزع خطابات التسريح عن العمل والتقاعد المبكر، وفي أي مصنع وورشة عمل. لم يرغب تشنغ جونغ في الإجابة على أسئلته، لكنه فكر في تشن تشن

وأحسّ بمدى تعلقها به، ورغبتها الشديدة في الاستقرار وتكوين أسرة، فحتى لو كان يشبه قطعة فحم إلا أنه في نظرها كان أجمل رجال الكون!

تنهّد تشنغ جونغ وأحسّ بالنعاس وحاول جاهداً الإجابة على أسئلة خي بي، كان خي بي مثل الجاسوس يسأل عن كل التفاصيل بدقة متناهية، لأنه في اليوم التالي سيذهب ليجمع الخردة من المناطق التي سلم فيها تشنغ جونغ خطابات التسريح عن العمل والتقاعد المبكر، كما أن هذا سيمكنه من التكهّن بالمشروعات التي ألغيت والورش التي أدمجت في مصنع الأنابيب الإلكترونية.

لم يكن تشنغ جونغ يكره خي بي، بل كان هناك شيء في هذا الرجل يجعله حزيناً ويحس أن حياة تشن تشن وحياته فقدتا قدرتهما على الصعود والارتقاء إلى الأبد، وسيبقيان دوماً يتمرغان في الوحل، لكن على حين غرة ظهر في حياته الجمال والأناقة والحذاء الجلدي ذو الزهرات الصغيرة، والسترة الخضراء الأنيقة وصاحبته التي كانت دوماً تدفن رأسها في الكتف. متى حدث هذا؟ وكأنه حلمٌ بهيج لن يتكرّر، والآن صارت حياته من دون شياو لان ومن دون الزجاج، فماذا تبقى له لتكون الحياة حياة؟

في تلك الفترة نحل جسده وذبل، وسؤال واحد فقط كان يتردد دوماً على عقله: ما هو دليل بقائه في الحياة؟ هل الطعام والشراب والنوم؟ أم الأشياء التي تروقه ولا تروقه؟ فإذا كانت الأشياء الأولى فلماذا يستوجب على الإنسان أن يشعر ويفكر؟ وأما إذا كانت الأشياء الثانية، فهل يمكن أن يضع نهاية لحياته التي يعيشها كشبح هائم على وجهه؟

ولا شك أنها كانت مجرد أفكار مبعثرة راحت تصول وتجول في رأسه وليس أكثر من هذا!

ولم يكن يعلم أن أخته العزيزة ذهبت يومًا إلى شياو لان وأخبرتها أنه يحبها، وأهدتها وشاحًا من الحرير الخالص، لكنها سرعان ما شعرت بالذعر من ردة فعلها ورفضها القاطع له.

ولسوء الحظ أنها لم تلتفت ورائها، لأنها لو التفتت لرأت شياو لان واقفة في ظل الأشجار المديدة وقتًا طويلًا. وفي الوقت الذي رفضت فيه حب تشنغ جونغ، تذكّرت تلك الليلة التي التقت به وهو جالسٌ على الرصيف في شارع مفترق الطرق، ووجهه المتورم وأنفه الملطخة بالدماء حتى كادت لا تعرفه، وتذكّرت ذلك الوعد الذي قطعه على نفسها سرًا بأن تمد يدها له وتخرجه من محنته، وقد تغلغل في عقلها بل راح يحثّها على الذهاب لمقابلته. وما الضير من مقابلته؟ على الأقل تشعره بالسعادة ولو مرة واحدة! حتى لو كان اللقاء من أجل إعادة الشاح إليه.

وألقى وشاح من الحرير سهام الحب في قلوبهما.

كانت السماء تمطر مطرًا خفيفًا عندما ذهبت لتعيد الوشاح إلى تشنغ جونغ. سلكت يومها شارع مفترق الطرق وكانت تسير مثلما كانت تسير في الحرم الجامعي بخطى رزينة وتحتمي بمظلة تغطي نصف جسدها العلوي، وكان هذا الطريق هو الطريق ذاته الذي سلكته بعد ثماني سنوات عندما وقع الانفجار المدوي.

مرّت بالمحلات المكتظة بدءًا بورشة إصلاح الدراجات ومتجر الأجهزة وكعك السمسم المحشو، كما مرّت من أمام "شركة لو شى للموارد العالمية" التي تأسست في الطابق الثاني من المبنى، وكان خي بي يجلس يستنشق رائحة الخاتم الذهبي وهو يتنسم ويتأهب لتقديم عرض الخطبة هذا المساء.

ووقف المارة على جانبي الشارع تحت لافتات المحلات يحتمون من رذاذ المطر، ويحدّقون في مشهد المطر الذي يكاد لا يُرى، وكأنهم يتأملون مستقبلهم ضبابي الملامح، وقد اعتادوا رؤية هذا المشهد من الصغر عند سقوط المطر والثلوج، وعند هبوب الرياح وطلوع الشمس، كانوا يقفون دومًا ويطلون النظر في المشهد من أمامهم. عندما رأت هذا المشهد، شعرت بالفرحة لأنها التحقت بالجامعة وتركت هذا المكان، ونوت ألا تعود مرةً أخرى إلى هذا المكان المُوحل الفقير.

اتجهت إلى المنعطف الرابع حيث طاولة البلياردو، وتصورت أن تشنغ جونغ لا بدّ أن يكون هناك، يسيطر على طاولة البلياردو، وهو يقف مرفوع الكتفين وسط حشود اللاعبين، لكنها احتجرت عند المنعطف الثالث وأعيق سيرها بسبب شجارٍ عنيف، فحاولت السير لكن حشود الناس منعوها وواصلوا التحرك للأمام، ووسط الحشود تبادت وجوه أشخاص في منتصف العمر يُمسكون بأشياء ويلوحون بها مهددين، فأنزلت المظلة على وجهها لتحتمي بها، وفي هذه اللحظة رأت الوجه الغائب عنها منذ وقتٍ طويل.

ولم تكن صورته كما رسمتها مخيلتها، فكان يقف هزياً محني الظهر مثل لصٍ جبان، يُمسك بيد بعض الدفاتر وباليدين الأخرى يحمي رأسه، كان يبدو لها عاجزاً وكأنه فقد شجاعته المعهودة، وكلما تلقى ضربةً بالخطأ تجهم وجهه، وصاح قائلاً: "ليس أنا، إنه هو!"

وقفت في ذهول تام، فلم يكن هذا تشنغ جونغ الذي لم يكن يسمح لأحد أن يضربه.. وقفت تستمع إلى سيل الشتائم الذي كان ينهال على رأسه حتى أدركت أن ما أخبرتها به تشن تشن عن أمر ترقية وتسلمه وظيفة في نقابة العمال له علاقةٌ بهذا الشجار، فصار هو رسول الأخبار السيئة ونذير الشؤم لأهالي المنطقة، وختم الشرور الأسود الذي طُبع على جباههم. وكانت هذه الهجمات احتجاجات جماعية وتنفيساً عن غضبهم، لكنها كانت غير مجدٍ بالمرة. سقط رذاذ المطر على وجوههم وملابسهم فالتصقت شعورهم بجباههم وترك بقعاً على أكتافهم مثل بقع البول. ووسط رذاذ المطر سقطت على رأسه الكلمات النابية مما جعل المشهد يبدو وسط المطر مثل تمثيل مشهد صامتٍ بلا حوار. وكان هذا هو حال شارع مفترق الطرق

في نهاية القرن العشرين وفي منطقة المصانع المتضررة الغارقة في
الذل والمهانة.

أحسّت شياو لان برعشة خفيفة، وفجأة استحال الألم إلى إحساس
من الرقة والعذوبة، وتحتم عليها أن تحب تشنغ جونغ وتعامله كأحد
أقاربها وتحميه من أي خطر يهدده.

رفعت المظلة مرةً أخرى لتحمي نفسها وتحمي تلك الصورة
التي في مخيلتها.

وعلى مهلٍ عرجت إلى منعطفٍ آخر، وكان الطريق الذي سيسلكه
تشنغ جونغ للعودة إلى البيت.

وبعد مضي السنين، وبعد أن تركت منطقة المصانع وتزوجت
وصارت حاملاً، حاول بكل ما أوتي من قوة أن ينسى لقاءهما عند
زاوية الشارع في تلك الليلة وحوارهما تحت المطر. ولم يتخيل أن
هذا اللقاء من الصعب أن يزول أو ينمحي من ذاكرته، وقد برهنت
الأيام على صدق هذا.

في مساء تلك الليلة تقدم خي بي لخطبة تشن تشن ثم اصطحبها
للخروج معه، كما أنها كانت الليلة الأولى التي يعاني دينغ بوه جانغ
فيها فقدان الذاكرة، لكن تشنغ جونغ لم يبال بهذه الأشياء وكأنه
شخص لا يرى ولا يسمع، ولم تحرك شيئاً في مشاعره، بل كل ما فعله
أنه مضى إلى غرفته وأغلق الباب في وجه أبيه، وبدأ شريط سينمائي
يدور في رأسه، وأخذ يستحضر المشاهد ببطء وبسرعة، وبالأبيض
وبالأسود وبالألوان، ويدفعه لأعلى ليعرض لقطات قريبة مثل مشاهد
بانورامية متتالية.

وعندما تفرّقت الحشود الغاضبة، رأى نفسه مثل دجاجة هزيلة ترتعد، وألقى بكومة الدفاتر وخطابات التسريح عن العمل والتقاعد المبكر بعيداً ثم مضى عائداً إلى البيت.

في هذه اللحظة اقتربت الكاميرا من صورة شياو لان وهي تقف عند المنعطف، فتجاهلها وسرعان ما أشاح بوجهه عنها، لكن الكاميرا اقتربت أكثر وأكثر، فانتبه أنها كانت تراقبه وفطن من تعبيرات وجهها أنها تنتظره، ثم استحال كل ما رآه إلى اللونين الأبيض والأسود وأحس أنه فقد بصره، فلم يحسب أنه سيراها مرةً أخرى، وفجأةً شعر بالألم في ذراعه الأيسر مثل الألم الذي أحسّ به عندما ضربه أبوه للمرة الأولى، ومثل ما ضربت سوتشين شياو لان وسرعان ما تعلقت بذراعه، فجعلت ذراعه تستحيل إلى شمسٍ لاذعة وصار مثل شمس النهار لكنها شمسٌ لم تبلغ ذروتها وحرارتها، شمس رحلت وقت الأصيل وغابت وسط شفق المساء الدامي.

وخلال هذه الفترة التقى بهؤلاء المسنين البائسين الذين يشبهون جذوع الأشجار الذين هاجموا ووبخوه بكل ما ذاقوه من مرارة الأيام وقسوة الليالي، وعاملوه على أنه شخصٌ دنيءٌ شريرٌ، لكنه احتمل كل هذه الإهانات وتعلم من هذه التجربة المريرة، فقد علمه هؤلاء المسنون أن كل ما تتمناه وكل ما تصبو إليه نفسك من الصعب أن تناله أو تدركه، وكل الأحلام والآمال والأمنيات عليك أن تتخلّى عنها وتقر أمامها بالهزيمة وترفع راية التسليم، وتحضّر نفسك دوماً على أنك لن تنال خيراً ولن تدرك شيئاً!

وكان هذا هو مبدأ عالم الزجاج الذي ولع به.

وعندما بدأت علاقتهما تخطو المرحلة الأكثر صدقًا والأكثر رقة،
تجراً أن يسألها عن شكوكه التي دوماً كان يوارىها عنها، وقال:
- ماذا تحبين فيّ؟

فكرت طويلاً ثم أجابته وهي تبتسم بمرارة وقالت:

- ربما يكون الإحساس بالاستسلام والفشل الذي يملأ كيائك
وكأنك لن تحصل أبداً على ما تريد. لا أدري كيف وأنا التي أعشق
النجاح وأسعى وراء حياة أفضل، لكن عندما أراك أحسّ بالحزن
والقلق، وفي الوقت نفسه أحسّ أن كل الأشياء الأخرى زائفة وغير
موثوق بها!

وقف يستمع إليها بصمت والسعادة تعربد في كل خلجة من
خلجات نفسه، لكنه أحسّ بشيء من الضيق، فقد جعلها تنتظر طوال
هذه السنوات وتعاني عذابات الحب وحدها، لأنه هسّ لم يجرؤ أن
يصارحها بحبه الكبير. وهذه قصة لن أتحدث عنها الآن.

في ذلك الوقت على الرغم من أن قلبه كان ينتفض بين ضلوعه
كجناح يمامة، إلا أنه كبح زمام مشاعره، وبحكم خبراته وفارق السن
بينهما تحتم عليه أن يتعامل مع الموقف بحكمةٍ وبعقلانية. وعلى
الرغم من أنها أخذت الخطوة الأولى في هذه العلاقة، إلا أنه قيد زمام
نفسه وهو يخطو نحوها، فابتسم وراح يسألها عن حياتها الجامعية،
وكان قد ملأه الفضول في أن يعرف كل شيء عن هذه الحياة الغامضة،
وكانه يريد أن تشعر بأنه يحسّ بغموضٍ نحو هذه الحياة وأنه مهووسٌ
بالجامعة التي لم يدخلها ولا يعرف ملامحها، وحاول قدر الإمكان
أن يعطيها هذا الانطباع حتى لا يترك لها فرصة كي تسأله عن حياته.

لم يسعها إلا أن تجيب على أسئلته، وكلما أجابت عن سؤال زادت حماسها، حتى بلغت ذروة حماسها وحكت له عن أشجار الجنكة في كلية الآداب، وفجأةً أحسّت بشيء من الخجل وأدركت أنها بالغت في مشاعرها، فقد سألها فقط عن الجامعة! فوقفت تلوم نفسها وتنظر إليه وعيناها ملوَّهما حزنٌ شديد.

نظر إلى المظلة ففطن أنها رآته وسط الحشود، فقد لفتت مظللتها نظره وقت الشجار، وأيقن أنها كانت تقف وتنظر إليه منذ فترة، فلم يشعر بالحرج فقد رآته في المرة التي ضربه فيها أبوه ضربًا مبرحًا، وخرج هائمًا على وجهه إلى الشارع في حالة بائسة. وشعر بالحزن لأن حديثهما العذب قد انتهى، لكن عندما كان يختلي بنفسه في متجر الزجاج ويمسح الزجاج بقطعة القماش البيضاء، وترسم ذكريات الماضي الذي كان أمام عينيه، لا شيء كان يشعره بالفرحة سوى الصمت البليغ الذي ران بينهما في تلك الليلة وعينيها اللتين تعلقتا بعينه. آه! لو ترنو إليه مرة أخرى، لرأت أنه أسكنها في قلب القلب!

وكادت الدموع تطفر من عينيها وقالت:

- أنت تجعلني أشعر بالقلق عليك!

- لا داعي للقلق! أهم شيء أن تكوني بخير! كوني بخير من أجلي!

فدنت منه حتى كادت تلتصق به، وكم تمنى لو يقدر أن يربت بحنانٍ على شعرها الذي بللته حبات المطر!

- من أجلك؟

فقال مبتسمًا:

- نعم من أجلي! افعلني كل شيء من أجلي. التحقي بالجامعة من أجلي! اتركي هذا المكان من أجلي! ابحثي عن وظيفة مرموقة من أجلي! عيشي حياة حلوة من أجلي!

وفي هذه اللحظة تذكر تشن تشن وأباه السكير وشياو باي البدين الذي هرب إلى الجنوب وسو تشين، صاحبة تعبيرات الوجه المفتعلة، تمنى لو تفعل كل شيء من أجلهم جميعًا، فكانت هي الأمل الوحيد المشرق وسط كل هؤلاء البائسين!

فجأة انبثقت الدموع من عينيها، وأحسّت بأن طموحاتها مثل أجنحة ثقيلة، وشعرت بالامتنان نحوه لأنه يراها بهذه الصورة الرائعة، وطلب منها أن تفعل كل شيء من أجله.. من أجله فقط!

لم يقل شيئًا آخر واكتفى بأن ينظر إليها فقط، وكانت المشاعر والعواطف التي تختفي وتظهر وقدر له في النهاية أن يخسرهما مثل عاصفة عاتية تهبّ في جنح الليل.

توقف المطر الذي حاصرهما، فغابت الحجة لوقوفهما على جانب الطريق، وخيم الظلام ومضى كلُّ منهما في طريقه بعد أن توصلا إلى اتفاق جعلهما يشعران بالرضا والسكينة، سار أحدهما في اتجاه مصنع الألكيل بنزين، والآخر في اتجاه المبنى السكني لمصنع الأنابيب الإلكترونية، بينما ظلّ الوشاح الحريري في حقيبتها.

لم يتواعدا على اللقاء لكنهما وفيما في كل المرات، حتى صار اللقاء عادة لا تنقطع، لذا لم يكن هناك ضرورةً للاتفاق على موعد مسبق.

(٨)

وبدأت اللقاءات السرية منذ أن تقابلا مصادفةً تحت المطر على زاوية الشارع، وكانت اللقاءات مثل نباتاتٍ تزهر وتنمو مع مضي الأيام، واستمرت مدة أربع سنوات حتى عشية ليلة زفافها. ودومًا كان يتجنبان اللقاء في الأماكن المزدحمة، وكانت لقاءات رتيبة غارقة في الأحزان.

ذات مرة طلبت منه أن يقابلها في جامعة المعلمين، ووقتها كانت تؤدي التدريب العملي للكلية وطلبت منه أن يحضر لها بعض الأغراض، لكنه أحسّ بشيءٍ من عدم الارتياح في ذلك اليوم.

وكانت المشكلة في ذلك اليوم مشكلة تشنغ جونغ، فعندما كان يتبعد عن منطقة المصانع كان يشعر بعدم ارتياح، وعندما خطت قدماه عتبة الجامعة أحسّ أن هذا المكان ليس مكانه (وربما تكون شياو لان تشعر أيضًا بهذا الشعور). وعلى الرغم من أنه كان يرتدي سترة وبنطالًا من الجينز، إلا أنه كان يحس نفسه عاملاً من عمال المصانع ويرتدي ملابس العمل الرسمية الزرقاء، ونعل حذائه تلتصق به الأوساخ ونشارة الحديد والبلغم ومثل هذه الأشياء العالقة في شارع مفترق الطرق، فكان يشعر أن حركاته وإيماءته وخطواته ونظرات عينيه وطيات ملابسه حتى لعبه يشي بشيءٍ يجعله يبدو كعاملٍ صغير، قادم من منطقة المصانع، ولاعب بلياردو محترف، وخبير كبير في الشجارات والمعارك، ولا يليق أن يظهر مع شياو لان داخل الحرم الجامعي!

أحسّ بالإرهاك الشديد طوال اليوم، ولم يشعر بالراحة إلا بعد تناول الطعام في كافيتريا الطلاب. وفجأة وهو يهبط في الدرج انزلقت قدمه، فسرعان ما مدت شياو لان يدها وكادت ترتمي بين ذراعيه، فأحسّ أن يدها ممدودةٌ بالكثير من الغضب والضيق لدرجة صدمت كلاّ منهما، ولكي تخفف من حدة الموقف أشارت إلى الملعب الرياضي المجاور حيث كان الطلاب يلعبون كرة القدم ويتصايحون، فالتفت إليهم وقد أجبر نفسه على الابتسامة.

تحدّثت الفتيات في السكن بشأن أخيها الكبير، وهكذا قدمت تشنغ جونغ إليهن، فعادة كان لدى الفتيات في الجامعة أبناء عم وإخوة من أصدقاء العائلة وإخوة كبار ومسميات من هذا القبيل، لكن كان من الواضح أنهم أحبة وليسوا إخوة حقيقيين.

قالت الفتيات:

- أخوك وسيّم جدًا لكن...

ولم يجرؤن على مواصلة الحديث؛ لأن ردة فعل شياو لان كانت جليّةً على صفحة وجهها، فكانت تستطيع أن تتعامل مع شعورها بالإحباط ونفاد صبرها نحوه، لكنها لم تكن تسمح لأحد بالحديث عنه، وكانت تحس بالحزن بسبب هذه العلاقة المريبة والمخزية لاثنين من عائلتين مختلفتين يعيشان في منطقة المصانع، وكانت وحدها من تستطيع أن تفهم طبيعة هذه العلاقة ولا أحد غيرها.. وماذا كانت ستقول عنه، أنه بالفعل وسيّم جدًا لكن...

في نهاية اليوم تركا الحرم الجامعي ووصلا إلى محطة الحافلة المتجهة إلى منطقة المصانع، فأحسّ تشنغ جونغ براحةً كبيرة، وجلس

على الرصيف وأخرج سيجارة وأشعلها، وأخيرًا ارتخى جسده بعد أن عاش ساعات طويلة من التوتر، وأخرج من جيبه حفنة من السجائر وعرضها على شياو لان.

في هذه الفترة تبذرت أحزانه، ولم يعد يوزع خطابات التقاعد المبكر والتسريح عن العمل على المرضى وكبار السن، بل صارت وظيفته الحالية تستهدف الطبقة المتوسطة وما فوق المتوسطة، وبات يوزع نماذج شراء الأسهم وكان ذلك يتم على أعلى درجات من السرية، وكان مفهومًا أنها مسألة تجارية بحثية والغاية تحقيق الأرباح. وعلى الرغم من أن مستلمي نماذج الشراء لم يعتادوا شكره أو إعطاءه إكرامية ولو حتى يوانًا واحدًا، إلا أنهم عرفوا كيف يتعاملون مع هذا الموظف الصغير، فكانوا يلقون له بالسجائر قائلين: "أخي، دخن سيجارة!" فظهرت السجائر في فمه ووضعها خلف أذنيه وفي جيب سترته وبين أصابعه، وصار مثل مطفأة سجائر كبيرة، ولم يكف هؤلاء الأشخاص من الطبقة المتوسطة الذين حققوا ثروات هائلة من شراء الأسهم عن تزويده بالسجائر ولم يكف عن قبولها بأدب جم والابتسامة لا تفارق وجهه، وبعد أن كان يتلقى السباب والشتائم والضربات واللكمات، صارت جيوبه عامرةً بالسجائر حتى إنه كان يظل مدة أسابيع لا يشتري سجائر، وكانت جميعها من ماركات فاخرة مثل "تشونغخوا"، و"يونيان"، و"يوشي"، و"جين نانجينغ"، و"فورونغ وانغ"، وغيرها من الماركات الشهيرة الأخرى.

أحس تشنغ جونج براحة كبيرة في أثناء جلوسه على الرصيف حتى أنه لم ينتبه إلى نظرات شياو لان. جاءت الحافلة وسرعان ما

صعدت وهي مطبقة الفم، بينما ألقى بالجزء الذي دخنه من السيجارة واحتفظ بالجزء الآخر ثم حمل حقيبتها الكبيرة وصعد، وسرعان ما شقت الجموع حتى وصلت إلى مؤخرة الحافلة، بينما علق في المقدمة بسبب الحقيبة الكبيرة، وبات الركاب يوبخونه لأنه أعاق الطريق، فتجهمت ملامحها ونوت ألا تصطحبه معها مرة أخرى إلى المدينة، فقد جعلها تشعر بالحزن والمرارة، ولم تكن تلومه على عدم تمدنه وتعامله بكياسة، لكنها تشعر بالحزن لأنها لا تقبله على حاله ولا ترضيها تصرفاته، ودوماً تعامله بقسوة وحدة رغم أن مستواها الاجتماعي لا يختلف عنه.

ولا شك أنها فكرت في نفسها، فطوال هذه السنوات وهي تحاول أن تبتعد عن هذه المنطقة وترتقي بحياتها، لكن طوال هذه الفترة لم تكن أفضل من تشنغ جونج في أفعالها وتصرفاتها.

وبعد لقائهما في الجامعة اعتادا اللقاء في منطقة المصانع.

مرا بالصخب الدائر في شارع مفترق الطرق، وسارا بجانب المحلات المتهدمة ثم اصطحبها إلى عمق منطقة المصانع، فمرا بجانب السينما المغلقة وحمام السباحة المهجور المملوء بالمعدات القديمة حتى وصلا إلى الباب الخلفي للمستودعات، وجلسا أسفل جبل رماد الفحم الواقع بين غرفة الغلايات والمعدات وبين دورة المياه، ووسط رائحة الصداً والبخار المتصاعد. كان المكان هادئاً فلا يعكر صفو الحبيين أحد ولم يشعرا بوحدة أو بغربة.

وبعد ان انقطعت هذه اللقاءات العاطفية، كانت ذاكرته تستحضر كل الأحاديث التي دارت بينهما وتستعيد كل لقاء جمعهما، فأحسّ

بامتنانٍ كبير نحو ذاكرته الحديدية، وربما يكون الطفل المعجزة لعب دورًا هنا. وخلص إلى نتيجة وهي أنهما تحدثا طويلاً، وارتسمت أمامهما ذكريات كثيرة كلها عن الحاضر، ونادرًا ما كان يتحدثان عن المستقبل، فكانا مثل مسافرين يستقلان القطار، وبمجرد وصولها المحطة سيحملان أمتعهما ويفترقان.

أحسّت شيوا لان بالقلق بسبب تعرّضه للضرب على يد أبيه، وفي كل مرة تلتقيه حتى لو كان الجو باردًا، كانت تطلب منه أن يخلع قميصه لتفحص الكدمات على ظهره وعنقه، فتشعر بالحزن لكنها كانت تواسيه وتسدي إليه النصائح للتعامل مع أبيه. ودومًا كان ينصاع لها ويخلع قميصه وهو يرهف إليها كل حواسه، ولم يخبرها أن أباه بدأ يفقد قوته في الضرب، وفي بعض الأحيان كان هو من يبادر ويضايقه ليشير غضبه ويضربه.

وفي بعض الأوقات كان يحدثها عن العصفور الصغير، وحكى لها أنه ينمو ببطء شديد وعندما يراه يشعر أن الوقت واقفٌ لا يتحرك! وينام طوال النهار ويستيقظ في الليل ويظل يقفز ويغني، وكأنه يصاحبه في ليله الطويل الحالك. وعندما كان يحسّ بالأرق ولا يستطيع النوم، ويرى الطائر يقفز ويغني، يطلق صافرته بصوتٍ هامس.

وإذا بها تسأله:

- هل تدندن لحناً معيناً أم أنك تصفّر بشكلٍ عشوائي؟

ارتبك قليلاً فكيف سيخبرها أن صافرته تدندن اسم شيوا لان، فلم يجبها وراح يصفّر بصوتٍ خفيض جداً، فوقفت أمامه مثل العصفور تمنع النظر فيه وتستمع إلى صفيره.

في هذه اللحظة كان يحاول أن يقتل هذه اللحظات السعيدة بالتفكير في الزجاج، فتوقف عن الصغير وألقى به بعيداً وكأنه يلقي بحجر، وحاول أن يفتح موضوعاً جديداً مثل ذلك الشاب الذي يعرفونه يبحث عن وظيفة أو ذلك الشاب يفعل أفعالاً مشينة. لم تعبه شياو لان وراحت تنظر إليه وكانت نظراتها مثل سكين تغرسه في قلبه الولهان، وفجأةً همس هامساً في أعماقه: لماذا دوماً يبدو هشا وبائساً؟ لماذا يشعر دوماً بأن هناك حاجزاً بينهما كما لو كان لوحٌ من الزجاج يحول بينهما؟!

ذات يوم كشفت له عن رغبتها في أن تفصح عن علاقتهما، لكنه كان يعلم أنها ليست جادة في هذا القرار. وفي العام الأخير في الجامعة، ترددت بين السعي للحصول على الماجستير أم قبول وظيفة في إحدى المدارس؟ لكنها عجزت عن أن تحسم أمرها، فأمسكت بسيخ حديدي صدي وراحت تمسحه بيدها فلطخ الصداً يدها، ثم مسحته بكم سترتها ناصعة البياض، وشرعت تبث له شكاواها المريعة بأنها ليست طالبة متميزة في الجامعة، ولا يختارها الأساتذة لتقديم العروض والحفلات، حتى إنها لا تجيد العزف على أي آلة موسيقية ولا تجيد لعب أي رياضة ولا يمكنها المشاركة في المسابقات.

- انسي الأمر، فقط اجتهد في دراستك واحصلي على درجات عالية ولا تصعبي الأمور على نفسك!

أحسّ بفرحة عارمة، لأنها فتحت له قلبها وبثت له مخاوفها، فعلى الأقل يستطيع أن يواسيها ويحنو عليها، حتى لو كان يشعر أنها تبالغ في إحساسها وأن الأمور ليست بهذا السوء.

- الدرجات أهم شيء؟ هذا نظام الكليات القديمة ولا جدوى منه الآن. في جامعة المعلمين المهارات الفنية والتطوير الشامل أهم شيء يسعى إليه الطالب أو الطالبة حتى تترك أثراً طيباً في نفوس الأساتذة وينظرون إليك بعين الاحترام. كل ما أخشاه وقت توزيع العمل أن لا

أحصل على وظيفة في إحدى المدارس الإعدادية فيلقوا بي في مدرسة من الدرجة الثانية أو الثالثة حينها سيتدمر مستقبلي، كما إن الحصول على درجة الماجستير ليس سهلاً لكنني سأبذل قصارى جهدي.

كشفت شياو لان هذه المرة عن مخاوفها في الحصول على درجة الماجستير، رغم أنها كانت تتحدث من قبل عن الماجستير أو الدكتوراه وكأنه شيء سهل المنال.

لم يجد ما يقوله لها فالحصول على درجة الماجستير ليس مثل لعب البلياردو، في شارع مفترق الطرق، فلم يستطع مساعدتها، بل كل ما كان في وسعه هو أن ينظر إليها وهي تركض في مضمار السباق الشرس.

فواصل التدخين بصمت، ومرت لحظات ثم سمعها وهي تقول بنبرة تشي بالغضب وعدم رضا عن الواقع الذي تعيشه أنها ستصطحبه إلى سكن الفتيات في الحرم الجامعي وتأخذه ليقابل سوتشين. "نحن الآن نعيش في كذبة كبيرة، ألا نفعل مثل ما كان يفعل والدك وأمي؟ ينبغي أن نكشف عن علاقتنا للجميع، هل توافق؟ هل تستطيع؟

فنظر إليها وقد اعتلت الحمرة وجهها. آه، لو كان شخصاً عنيماً لضمها إلى صدره بقوة وقال:

- أنا موافق! هيا نذهب إلى أبي وأمك، هيا نذهب إلى شارع مفترق الطرق ونقابل العالم بأسره، ونقابل عصفوري الشاهد الوحيد على صفيري الذي دوماً يكون أنت!

لكنه عاجز على أن يفعلها! فدوماً كان يحذر نفسه ويتذكر العمال القدامى الذين عانوا ظلم الأيام وانتهت حياتهم إلى عدم. وعليه أن

يقر بأن الحياة قاسية، وعليه أيضًا أن يحترم هذه الحقيقة، فقد أوشكت على التقدم لامتحانات الدراسات العليا، والجسر بينهما يطول ويمتد، والفجوة بينهما تتسع أكثر وأكثر.

وشرع يصفرّ وفي هذا اللحن أعلن لها عن رده!

فهمت نيته، فخفّ اندفاعها الشرس وابتسمت، وأخبرته بحصولها على المركز الثاني في مسابقة كتابة المقال، وقد أدلى بالحكام بأصواتهم من دون أن يفصحوا عن هويتهم، وكان المركز الأول يسبقها بصوتين فقط.

فألقي السيجارة من يده وشرع يصفق لها نيابةً عن جمهورٍ غير مرئي، وعلى الرغم من أنه كان تصفيقًا أجوف، إلا أنه كان مفعماً بعاطفة صادقة، فكان يتمنى في أعماق قلبه أن يجعلها سعيدة لأنها تبذل قصارى جهدها حتى تصبح شيئاً له قيمة، ولا يمكن أن تشعر بمثل هذا اليأس!

أطلقت غرفة المعدات من خلفهما نفساً مرتعشاً بسبب تصاعد أدخنة البخار الأبيض، وكأنهما على وشك أن يذهبا في رحلة سحرية على متن قطارٍ بخاري يحملهما إلى عالم مسحور، وأشعرهما الحزن بثقة المحبوب ودعم الحبيب.

وإذا بها تقول بوعيٍ شديد:

- أنت تعلم أنني أرغب في المغادرة! أنا لا أطيق العيش هنا!

- بلا شك لا يمكن أن تبقي هنا! أنا لا أحتمل أن تكوني صورةً مكررة منا!

فقالت وكأنها تغني لا تتكلم:

- وهذا يعني أننا سنفترق ولن أكون لك في يوم من الأيام!

فأجابها بحزم وكأنهما يغنيان معًا:

- أنا لا أوافق أن تكوني معي! سأمنعك بكل ما أملك!

فتح كل منهما باب القلب للآخر، فأحسا براحة كبيرة، وكأنهما توأمٌ روحيّ.

ومنذ ذلك اليوم وقد خطت علاقتها مرحلة أكثر وضوحًا، وأزيح الستار عن الحب المقبور في القلب، وبدت أفكارهما تنفصل مثل لوح من البلور.

وفي مرة يتيمة تحدث كل منهما عن شكل حياتهما في منتصف العمر، فرأت شياو لان بعين خيالها أنها متزوجةٌ من رجل متعلم مثل أبيها الأنيق، وفي نهاية الأسبوع تذهب العائلة الصغيرة المكونة من ثلاثة أفراد إلى المطعم والسينما، بينما تشغ جونج تخيل أنه متزوج من إحدى عاملات المصنع المشاغبات، وأنجب طفلًا بديئًا وأنجبت شياو لان طفلة وتعلقت بها كثيرًا. وساعدتهما هذه التخيلات على التحلي بالإرادة والعزيمة وانطفاء جذوة المشاعر الملتهبة ودفنها في بئر عميقة بلا قرار.

هكذا مرّت أجمل أيام وسنين العمر، واحدة تبلغ السادسة والعشرين والآخر يبلغ التاسعة والعشرين.

مضت أربع سنوات حلوة، لكنها لم تكن حلوةً بما يكفي، فقد أحسّا فيها بالرضا لكن في النهاية لن يصلا إلى شيء، فالأمر كان يشبه: نحن معًا ولسنا معًا. كان حبًا بلا أمل، كان ينبغي لهذا الحب

الذي ألف بينهما أن يكون كافيًا ليكملا حياتهما القادمة وكل واحد منهما بعيدٌ عن الآخر!

راح تشنغ جونغ ينتظر مثل زبونٍ في مطعمٍ فاخر، ينتظر بصبرٍ كبير الطبق الأخير على مائدةٍ عامرة بأشهى الطعام والنبذ الفاخر.

لم يكن تشنغ جونغ يدري أن طبقه الأخير على المائدة الفاخرة سيكون في ذلك اليوم.

كالعادة راحت تفحص الإصابات في ظهره وعنقه، وفي الأيام الأخيرة استهوى أبوه أن يجذبه من شعره وينشب أظافره في جسده، فبدأ الأمر وكأنه مثل شجارات النساء التي لا تتطلب جهداً كبيراً. فتحت علبة الدهان الأرجواني الذي أحضرته معها وشرعت تدهن له بحرص، وهي تمزح، وتقول:

- لن تخشى بعد الآن ضرب النساء ونشب أظافرهن في جسدك!

ورغم مزاحها إلا أن مزاجها لم يكن رائقاً، فلم توفق في امتحانات قبول الدراسات العليا، وجاء توزيعها على مدرسة في غاية السوء. كانت مدرسة إعدادية تقع بين منطقة المصانع والمدينة، وكانت سمعة المدرسة في الحضيض والطلاب مشاغبون وأولياء الأمور يفتقرون إلى العقل والحكمة، والزملاء لا يحتملون وأحوال السكن في غاية التدنّي. وتلك الفتاة التي دوماً تتفاخر وتتباهى أمام الغرباء، كانت أمامه تنهار كل حصونها المنيعّة وتقرّ بالهزيمة وما فعلته بها الأيام. ذات مرةٍ توّسّلت إليه أن يحتقرها ويوبّخها بعد أن ذهبت أحلامها وآمالها أدراج الرياح وصارت هشةً رقيقةً مثل المعكرونة الإسباغيّتي.

أغلقت علبة الدهان الأرجوانية بإحكام وأعطتها له، وقالت:

- عليك أن تدهن لنفسك بعد الآن!

كانت نظراتها تشي بفتور شديد وأشاحت بوجهها عنه قائلة:

- قد بذلت كل ما في وسعي واغتنمت كل الفرص المتاحة وماذا كانت النتيجة؟ صرت مثل البقية مستوى متوسط! إنه شيء مثير للسخرية! هل تعلم أنني أكره بشدة جرس الحصص وهو يطن في أذني؛ إنه يثير أعصابي وكأنه يذكرني بأنني ضيعت فرصتي الأخيرة، ولم تعد أمامي فرص أخرى في الحياة. هل ترى شيئاً آخر؟ هل ما زلت تريدني أن أكافح من أجلك، في النهاية لا فرق بيننا!

راحت ترنو إليه وكأنها تريد أنه يكون شاهداً على هزيمتها، فتحاشى نظراتها الشرسة وقال مراوفاً:

- ماذا تقولين؟ على كل حال أنتِ أفضل من كل الأشخاص هنا، على الأقل أنتِ تركتِ المنطقة!

كانت لا تزال تشعر بعدم الرضا، وأحسّت أنها لا تستطيع طوال حياتها أن تتخطى الحاجز بينهما أو تكسره، لكنه كان يحبها كما هي، فتغصن وجهها، ففطن أن ما قاله لم يرقها فقال:

- الشجرة تحتاج عشرة أعوام حتى تنمو، والمعلم يحتاج مائة عام حتى يربّي أجيالاً، فهم مهندسو الروح!

أحسّ أنه قال كلاماً مستهلكاً وخشى أنه لم يرقها.

- انس ما قلته ودعك منه. اسمع أريد أن أستشيرك في أمرٍ خاص!

وفجأةً رفت بسمّة حلوة على شفّتيها وبدت في غاية الجمال. وبعد مضي الأيام عندما استحضر تشنغ جونغ هذا الحديث، أدرك أنها خطّطت له منذ وقتٍ طويل.

- تحدثني، أنا اسمعك! سأساعدك بلا شك!

وأحسّ بسعادةٍ بالغة عندما رآها تبتسم!

- ساعدني في اختيار شريك حياتي! لا أريد أن أستشير أمي، فنحن دائماً لا نتفق كما أن شياو باي ليس هنا، وأحتاج إلى شخصٍ يقيم الأمور بعناية.

- هل لديك خيارات؟

سألها في ذهول وقد أحسّ بخوفٍ شديد. لكن لماذا يندهش؟ ولماذا يرتعد؟ فستزوّج عاجلاً أم آجلاً، لذا تتحدّث ببرودٍ شديد.

- لدي بلا شك، أنا أهتم كثيراً بهذا الأمر ولم أضيع وقتي طوال سنوات الدراسة، ولا تنس أنا أيضاً جميلة، وبالمقارنة مع ما بذلته من كفاح على المستوى الشخصي فلم يكن البحث عن شريك حياتي أمراً شاقاً.

وبينما هو يستمع أحسّ أنه مثل ضريّر وأصم وأبكم، فكان يلتقيان وفي الوقت ذاته تلتقي بشباب آخرين من دون أن تخبره، بل وترى أنه أمرٌ طبيعيّ. لكن لماذا يشعر بالغيرة تنهش صدره؟ لماذا تأكله الظنون والأوهام وهو مجرد أخ كبير ولا بدّ أن يكون سعيداً من أجلها؟ ومن دون جدالٍ أو ريبةٍ زواجهما من شابٍ مستقيم أمرٌ لا بدّ منه، ليعوضها عن إحساس الهزيمة الذي تمكن منها.

فقلت وهي تخرج من حقيبتها القماشية كاميرا تصوير:

- هل أنت غاضب؟

وكان هذا هو اليوم الذي التقطت فيه صورة الوداع، وعندما وقعت
عينا سو تشين على الصورة أحسّت بالحب الساكن في قلوبهما.

- لا! لا! لست غاضبًا! لماذا أغضب؟ أنا أفكر بالنيابة عنك لأحدد
من هو الشخص المناسب لك.

وأرغم نفسه على الضحك ليواري غيرته.

فقلت بهدوء بالغ:

- لا يهمني ما إذا كانوا مناسبين أم لا! أهم شيء أنهم سيجعلوني
أصل إلى عتبة أخرى من الدرج، أنه مجرد زواج لا شك أنك تفهمني!
- أنا أفهمك!

ثم لوح بيديه في إشارة لتتوقف عن الكلام، لأنها كلما تكلمت
أحسّ بتفاهتها وكان هذا الشعور فوق كل احتمال.

- احسم الأمر اليوم واختر لي واحدًا!

قدمت شياو لان له خيارين وكأنها تعرض قطعتي أثاث، وراحت
تعدد مزايا كل قطعة منهما. الأول كان زميلها في الجامعة، وهو أستاذ
مساعد في قسم الفيزياء بجامعة المعلمين، وبمجرد الحصول على
الشهادة سيتسنى له الحصول على بيت ثم قالت:

- كان يلاحقني من بين جميع الفتيات، ولم تعجبه أي فتاة غيري،
وحتى الآن لا يزال يرغب في الارتباط بي.

أما الثاني فهو مهندسٌ معماري، عمل في كلية الهندسة المعمارية، ثم استقال وعمل مع أحد أصدقائه وفتحاً معاً شركة ديكور صغيرة، متخصصة في تصميم ديكورات المنازل. عرفني به أحد الأصدقاء وهو ميسور الحال وفي غاية الكرم، كما أنه من أهل المدينة ويمتلك بيتاً جديداً في وسط المدينة.

كان تشنغ جونج يحدّق النظر في الكاميرا عالية المستوى التي كانت بجوار يدها، ثم أمسك بها وأخذ يفحص أزرارها بعناية، رغم أنه لم يكن يفهم في كاميرات التصوير، إلا أنه تذرّع بها ليشتت تفكيره عن العريسين اللذين ظهرا فجأةً من حيث لا يدري، ورأى بعين خياله حياتهما مع كل واحد منهما، فأحسّ أن قلبه تحطم، وكان هذان الشابان مثل نيزكين هبطا أسفل قدميه وكادت الأرض تبتلعه.

- هل تسمعني؟

- ليس لديك خيارات أخرى؟

سألها وكأنه غير راضٍ عن المرشحين، كما لو أنه يستعرض سلعةً في السوق ويفاضل بينها.

فأسبلت جفنيها ولم تجبه على الفور. وكان أمر الزواج ليس بالأمر الهين، فعلى الرغم من أن سو تشين كانت دوماً تحثها على الزواج، إلا أنها كانت تحاول التسويف قدر الإمكان، لأنها كانت تستشعر سعادةً في علاقتها بتشنغ جونج ولم ترغب في أن تعجّل بالفراق، فراحت تنتظر حتى تلتقي بشخصٍ تعجب به، إلا أنها كانت تخشى إذا طال بها الوقت، أن تقل الفرص وتصعب الخيارات، لكنها أبت أن تصرح له عن هذه الأفكار.

- خيارات أخرى؟ أخشى أن أحكي لك عنهم جميعًا، فالحديث سيطول وستظل ساهراً معي طوال الليل، لكن على أي حال جميعهم متشابهن، اختر لي واحداً من بين هذين الشابين.

كانت تتحدّث وهي تنقر بأظافرهما على لوح معدني خلفهما، وكان اللقاء في ورشة سيارات تهدمت بالكامل، وقد اعتادا المجيء إليها، وعلى الرغم من أنها ورشة ضيقة ومتهالكة، إلا أنهما شعرا فيها بشيء من الحميمة.

- أيهما تفضلين؟

سألها بصوت هامس، وكأن الصوت ليس قادماً من حلقه بل قادماً من جرة فخارية. ذات مرة أحضرت جهاز تسجيل صغيراً وظلا يغنيان ويسجلان صوتيهما، وعندما سمعت صوته الآن أحسّت أنه يشبه ذلك الصوت الخارج من جهاز التسجيل.

- أنت تسألني؟ من أحب أكثر؟ هل هذا السؤال ينبغي أن تسأله؟ وهل عليّ أن أجيبك؟

قالت بحنانٍ دافق وكأنها تغني لا تتحدّث وهي تنقر على اللوح المعدني من خلفها، وكم كانت كلماتها زاخرةً بالحب والحنان!

وبعد سماع هذه الكلمات الرقيقة، أليست الحياة تستحق كل هذا العناء وكل هذا الشقاء؟ والآن اختفى النيزكان وعادت الأرض مستوية من تحت قدميه وعادت السكينة إلى قلبه الكسير، وسرى خدرٌ لذيذ إليه، وملأت كلماتها خواء الروح، ورغب في العودة إلى البيت حاملاً كلماتها الحانية ليمضي بها إلى غرفته ويحتفظ بها داخله لتكون خير زاد في ليالي الحياة القاسية.

فأمسكت بالكاميرا وعادت إلى الخلف بضع خطوات وقالت:
- تعال سألتقط لك صورة.

فأطاعها واتكأ على اللوح المعدني المليء بالصدأ ورفع رأسه ونظر إليها، تاركًا خلفه صورةً يتيمة، مليئةً بالحب والحزن. عندما نظر إلى الكاميرا كان مثل ضريح لا يرى شيئًا وغامت عيناه بضباب كثيف وكأنه صار معزولاً عن العالم، ولم يكن معه سوى عذاب هذا الفراق وشياو لان وهذا العالم الصغير.

خرج من عدسة الكاميرا وبصوتٍ قادمٍ من جهاز التسجيل الصغير قال:

- أنا أرى أن الشاب الذي قدم استقالته من الجامعة وفتح شركة هو الأفضل!

عاد كل شيء إلى طبيعته وكان شيئًا لم يكن، وصار مرةً أخرى أحد أفراد العائلة، الأخ الكبير العارف القدير! ونصحها بحكم خبراته الكثيرة وبات يحلل الأمور على أرض الواقع وحسم الأمر. فلطالما كان يتعامل مع موظفين لديهم طموحات عالية قدموا استقالتهم بمحض إرادتهم ليستغلوا بأعمال حرة، وبالفعل حققوا ثروات وقاموا بأعمال مذهلة، وكان دومًا يكنُّ لهم كامل الاحترام والتقدير. أما أستاذ الفيزياء سيبقي أستاذ فيزياء وسيعلو شأنه في المستقبل وحينها سيشعر أنه مثقفٌ كبيرٌ ويكون محط أنظار الفتيات...

فقالت وهي تبسم:

- اتفقنا! سأفعل مثلما قلت!

بعد شهر تقريبًا أحضرت تشن تشن إلى أبيها حلوى زفاف شياو لان التي أهدتها لها سو تشين، وقد اعتادت في الفترة الأخيرة زيارتها والقيام بدور الوسيط العائلي.

غمغم دينغ بوه جانغ ببعض الكلمات وهو يرفع كأسه، وفتح الحلوى وألقى بقطعة في فمه ثم رشف رشفة من الكأس، ويبدو أنه أحسّ بطعمٍ لاذعٍ في فمه لأنه عبس بوجهه، فنظر إلى تشن تشن وقال:

- حلوى زفاف شياو لان؟ اسمها شياو لان؟ أم شياو تشينغ؟ أم شياو خوانغ؟ هل هي زميلتك في الفندق؟ تزوّجت بعدك بسنوات، فلا شكّ أنها فتاةٌ كبيرةٌ صعبة الطباع، لا شكّ أنها سئمت العيش بمفردها فتزوّجت في النهاية!

انتهى من حديثه، ثم فحص تشنغ جونغ بعينه.

أعطت تشن تشن الحلوى إلى تشنغ جونغ وراحت ترقب تعبيرات وجهه، فأبدى سعادةً كبيرة وهو يتناولها منها حتى أنه أخذ قطعتين، فقالت:

- يكفي قطعة واحدة، ستسمن لو أكلت قطعتين! ينبغي أن أترك قطعة لأعطيها لخي بي.

مضى تشنغ جونغ إلى غرفته وأغلق الباب وكأنه يريد أن يأكل الحلوى على انفراد. وكان بالفعل تذوق حلوى الزفاف في الأمس، لكن كان لا يزال يشتهيها وكأنه لم يأكل في حياته حلوى! أخذ يضع قطعة تلو القطعة ولم يستطع الانتظار فألقى بها دفعة واحدة في فمه.

تقابلا أمس وسرعان ما دخلت في لب الموضوع، وبمزاج رائع قالت:

- حصلت أنا وخوانغ شين على الشهادة واتفقنا ألا نقيم عرسًا، سنسافر ونتزوج هناك، ومنتظر حتى تنتهي بعض المعاملات المالية في شركته ثم نسافر على الفور إلى تايلاند وماليزيا وسنغافورة. تخيل أنا سأسافر إلى الخارج!

- نعم ستسافرين إلى الخارج!

وبيرود شديد قالت:

لكن لم أتِ اليوم لأخبرك بالسفر، بل جئت لأخبرك أننا لن نلتقي بعد اليوم، فلقاءاتنا ستكون عديمة الجدوى ومضيعة للوقت.

فغضب بشدة من نبرتها الباردة في الحديث، وقال بعصبية:

- مضيعة للوقت؟ ماذا تقصدين؟

مضيعة للوقت... لم ترغب في أن تخوض أكثر في هذا الحديث، فقالت:

- دعك من هذا، نحن لن نلتقي مرة أخرى، أنا أعدك أنني لن ألقاك وأنت أيضًا عدني!

كان يعلم أنها ستفي بوعدھا وستحافظ على كلمتها ولن تقابله مرةً أخرى.

فوضع يديه في جيبي بنطاله وقال:

- ربما نلتقي مرةً أخيرة، قد جهزت لك هدية.

وقد بدا عليه الضيق والاستياء مما قالته، وأحسّ أنه لا ينبغي أنه تعامله مثل هذه المعاملة القاسية، ولام نفسه على حبه لهذه الفتاة بعد أن فضلت رجلًا آخر عليه وستزوّجه، ثم تحدّثه وتطلب من أن يفترقا بمثل هذا البرود، وكأنها غرست سكينًا في قلبه ثم سحبتة من دون أن تراق نقطة دماء واحدة.

- هدية؟ سأخمن ما هي، من المؤكد أنها قطعةٌ فنية مصنوعة من الزجاج، ستخبرني وأنت تعطيها لي أن أضعها في بيتي وأين أضعها، وسيسألني خوانغ شين عنها وسأظل أحكي له أيامًا وليالي عن القصة وسأبدأ الحكاية من عند أمي وأبيك...

قالت ببرودٍ بالغ وهي تضحك وكأنها صعدت بالفعل سلّم المجد وتغيرت شخصيتها وحياتها، وأوصدت باب قلبها إلى الأبد ولن تفتحه مرةً أخرى.

فأخرج يديه من جيبيه وقد أحسّ بشيءٍ من الضيق، لم ترقه كلماتها الباردة عن الهدية، لكنها كانت محقّة، فقد كان بالفعل يفكر في أن يصنع لها مرآةً أو مزهرية أو قطعةً فنية على شكل بجعة أو برواز صورة، ولم يفكر في أي هدية سوى الزجاج. فما الشيء الذي يمكن أن يقارن بالزجاج؟ فعلى الرغم من أنه سهل الكسر، لكن هل يوجد شيء في الحياة لا يتحطم أو ينكسر!

ونظر إلى السماء العالية وقال:

- الطقس اليوم جميل، ليس حارًا وليس باردًا!

ثم تناهت أصوات الناس من بعيد وكانوا يتشاجرون ويتصايحون وحياتهم تعجّ بالضجيج.

- عشنا معًا سنوات حلوة وعندما نتذكرها سنشعر بالفعل أنها أيام حلوة، وعلينا الآن أن نفكر في المستقبل، وعلى كل واحد منا أن يمضي في حياته ويعيشها بفرح.

ثم قلبت في حقيبتها وأخرجت كيس حلوى أحمر وفضته وقالت:
- خذ واحدة:

وسرعان ما دستها في فمه، وكان هذا أكثر شيء حميمي فعلته طوال هذه السنوات، وكان بسبب زواجها من خوانغ شين. تذوق الحلوى وشعر أنه لم يذق في مثل حلاوتها من قبل، وكان قبوله لهذه الحلوى اعترافًا صريحًا منه على أن يديه من المستحيل أن تطولا شيئًا في يوم من الأيام.

لكن سؤالًا واحدًا ظل يتردد على ذهنه طوال الليل ومنعه من النوم فسألها:

- شياو لان، أريد أن أسألك لو لم تتقابل العائلتان، لو كنا زميلين في الدراسة أو مجرد معارف والتحققت بامتحان قبول الجامعة، وصرت زميلك في الجامعة ولم نكن جيرانًا في شارع مفترق الطرق وكنا نسكن في مكان آخر، هل كان من الممكن أن... أقصد... هل كان الوضع سيتغير؟

وكانت قطعة الحلوى لا تزال في فمه، فخرجت كلماته متلعثمة
وتشتت نظراته وأحسّ بارتباكٍ شديد وهو يطرح عليها السؤال.

لم تقل شياو لان شيئاً وراى الصمتُ بينهما فترةً طويلة، وكان
أحدًا هزها من ذراعها أو من كتفها أو صرخ في أذنها، فتردّدت قليلاً
ثم دنت منه وكانت قطعة الحلوى لا تزال في فمه، ووسط القبلية
الخاطفة ذابت قطعة الحلوى الأخيرة، فطغت حلاوتها على المرارة
التي كانا يشعرا بها.

في هذه الليلة انتظر تشنغ جونج حتى غادرت تشن تشن مع خي
بي وخلد أبوه إلى النوم، وظل ساهراً حتى طلوع الفجر، وكان لا يزال
بملابسه فحمل قفص العصفور ومضى إلى شارع مفترق الطرق،
وكان في هذه الساعة يخلو من المارة، وفي الهواء المغبر في منطقة
المصانع المهجورة أطلق سراح العصفور، هذا الرفيق المخلص
طوال ثماني سنوات.

ولم يتغيّر حجمه وكأنه اشتراه اليوم، وأدهشه شعوره بالتوق
إلى الحرية، وظل بجوار تشنغ جونج ثم طار في الهواء على شكل
دوائر، ونظر إلى ظل صاحبه النحيل ثم حرك رأسه وأطلق صافرته
المعهودة بصوتٍ خفيض ومن دون كلمات رفرف بجناحيه، ومثل
لهيب الدخان اختفى في عتمة الليل.

وعندما اختفى العصفور عن ناظريه، كان قد وطن النفس على
تقديم استقالته من عمله في نقابة العمال في اليوم التالي.

مكتبة (١٢)

t.me/soramnqraa

في خريف هذا العام وفي الوقت الذي كانت شياو لان تلتقط فيه صورًا من أمام المعبد الذهبي في تايلاند مع زوجها خوانغ شين، كان تشنغ جونغ يقضي يومه في متجر الزجاج.

وفي واجهة شارع مفترق الطرق استأجر بيتًا، وقد أنفق كل مدخراته من العمل على تجهيز بيت مصقول من الزجاج. وفي نهاية المطاف لم يتخل عن الزجاج فكان ملاذه الوحيد بعد الفراق.

وكان للبيت قاعدة غير مرئية خاوية تعطي انطباعًا لمن يراها أن البيت وهمي وسيختفي في أي لحظة.

وبدا جليًا أن لا صلة له بالهندسة المعمارية أو بالديكورات (فلم يكن خوانغ شين!)، تمامًا مثل شخصٍ أميٍّ شرع بكتابة كتاب، ومثل المجنون هدم المبنى الأصلي بالكامل وأحاله إلى بيت من الزجاج وقسمه إلى قسمين.

كان الطابق الأرضي من أعلى إلى أسفل ومن اليمين إلى اليسار مصنوعًا من أبواب زجاجية امتدت من الأرض حتى السقف، ومن نوافذ زجاجية حتى الطوب كان من الزجاج، والرفوف والكراسي والطاولات والمعروضات كلها مصنوعة من الزجاج، وجعله ورشة عمل، وإذا نظر أحدٌ من المارة من الأمام سيتسنى له رؤية كل محتويات المتجر بوضوح.

كان يقضي يومه في الطابق الأرضي، حيث غرفة صغيرة بلا نوافذ وكانت تشبه صومعته في بيت أبيه، وفي الليل يصعد إلى الطابق العلوي حيث غرفة النوم الخاصة. وبدأت حياته تنغمس في حالة من الحزن والفراغ.

أما بالنسبة لحركة البيع والشراء، فمنذ أن حصل على الترخيص وهو يبيع المنتجات ذاتها، وهي الزجاج المصقول والمزركش والمصنفر والمنحني والرملي والمعزول والرقائقي والمنحني الساخن والسلكي وجميع المنتجات الفنية الزجاجية. ولسنوات طوال وهو يكبت كل طاقته الإبداعية في فن الزجاج، وعندما أطلقها كانت طاقات استثنائية وكأنه علق اكتتابه طوال هذه السنوات على الزجاج، وفجرت أحزانه قدراته ومواهبه المكنونة. وفي شارع مفترق الطرق حيث كل البضائع رخيصةً وجميلة، بدا متجر الزجاج وكأنه غير حقيقي ومعزولٍ عن العالم.

وأهم ما كان يميز المتجر اللافتة الموضوع في الخارج، وكانت على هيئة مرآة كبيرة، يغمرها المطر في الشتاء، وفي أيام الصيف يملؤها الغبار، وانعكست عليها أعمدة الإنارة وظلال الأشجار.

ما هو المكتوب على هذه المرأة؟ كيف لا يحمل المتجر اسمًا؟ سأله الكثيرون هذا السؤال.

وكان جوابه رتيبًا جدًا:

- لأنني لم أجد اسمًا مناسبًا للمتجر، كنت أرغب في وضع لافتة زجاجية كبيرة لكنني خشيت أن تنكسر، فوضعت مرآة من الزجاج.

واكتفى بهذه الإجابة ولم يرغب في الكشف عن المزيد من التفاصيل.

ومع مضي الوقت لم يعد أحدٌ يحفل بالسؤال مرةً أخرى، فليضع ما يضعه ولا يعنيه في شيء، وقد أطلقوا عليه "بيت الزجاج"، وكان مثل نكتة رومانسية في شارع مفترق الطرق، وعندما كانوا يرغبون في إدانة أحد بأنه شخصٌ غير عملي كانوا يقولون: ماذا تفعل؟ أليس هذا يشبه بيت الزجاج الذي فتحه تشنغ جونغ؟ أنه عديم الفائدة ولا جدوى منه!

ولا شك أن شياو لان لم تكن تنظر إلى بيت الزجاج، كما كان الأهالي ينظرون إليه بسخرية وازدراء، فبعد فوات أربع سنوات سارت على الطريق المؤدي إلى بيت الزجاج وهي حامل، وكانت على يقين أنها ستجد الراحة الكاملة في هذا المكان، ولا شك أن أيامهما في المستقبل ستكون حلوةً مثل عصير فواكه طازج.

لم يعرف تشنغ جونج رأي أبيه بعد استقالته وتأسيسه لمتجر الزجاج، فقد أفقدته الخمر ذاكرته وساءت حالته إلى حد كبير، حتى إنه فقد قيمته ودوره كأب. فلم يعد يهتم أن يسأل عما يفعله ابنه، ولم تخط قدماه عتبة المتجر. وكل صباح كان يتجول في شارع مفترق الطرق، وصار يذهب أبعد قليلاً عن ذي قبل ويمر من أمام البيت من دون أن يرمقه حتى ولو بنظرة من طرف عينيه.

في ذلك الوقت عادةً يكون المتجر مغلقاً، وبسبب الأرق كان يستيقظ مبكراً ويهبط إلى الطابق الأرضي ويجلس يرقب المارة، ومن خلف الزجاج كان يرى أباه العجوز وهو يسير في حالة مزرية بوجه متيس، خالٍ من أي تعبيرات، فيظل يراقبه في كلل ولسانه يردد تلك الكلمات التي اعتاد أبوه أن يرددتها مثل المهرج وهو يلقي بالنكات: يمكن لابننا أن يتعلم العد وهو في العام الأول، ويمكنه أن يطالع أشعار باي في العام الثاني، ويحفظ أشعار تانغ في العام الثالث، وفي العام الرابع يطالع الصحف، وفي العام الثالث يدرس مناهج العام الرابع، ويمتحن امتحانات الصف الثاني الإعدادي وهو في الصف الأول...

ولم يخرج مرةً لياخذ بذراعه أو يُلقي عليه التحية، فلم يعتد هذه التصرفات، كما كان يعلم أن تشن تشن تتبعه أينما ذهب مثل ظله لا

تفارقته، وعندما كان يرقد في مشفى الطوارئ بسبب السكر، حتى عندما لفظ أنفاسه الأخيرة، كانت تجلس أمامه وهي تغطّ في نوم عميق وتودعه إلى مثواه الأخير.

وفي ليلة وفاته لمّح تشنغ جونغ لسو تشين أنه مرتبطٌ بفتاة، وقد جعلته محاولاته البائسة طوال الليل في إثبات رجولته أن يغطّ في نوم عميق من دون أن يدري أن من جاء به إلى هذه الحياة قد فارقها، فارقها إلى الأبد.

هل تتذكرون المرأة الموضوعة أمام المتجر؟ المرأة التي لا تحمل أي لافتة وتعكس ظلال المارة وظلال الأشجار والأوراق الخضراء والصفراء، وتعكس ليالي الخريف والشتاء التي تخلو دومًا من وجود شياو لان، وتعكس الوقت الذي يركض كمهرة جامحة، كما كانت تعكس ظل فتاة. هكذا هي الحياة شئت أم أبيت تأتي دومًا بأشياء لم تكن أبدًا في الحسابان.

وكان قبالة المتجر متجرٌ يبيع كل شيء بخمسة يوانات، وبجواره متجر هواتف محمولة، وعلى مقربةٍ منه متجرٌ يبيع الملابس الرياضية بأسعار باهظة حيث كانت تعمل تلك الفتاة، وما إن تقع عينك عليها ستعرف على الفور أنها فتاة من ريف خينان أو أنهوي، وكان هؤلاء الفتيات أقل في المستوى الاجتماعي من عاملات المصانع. ويبدو أنها طمحت إلى حياة أفضل في منطقة المصانع، وكان لديها أسلوبٌ خاص مثير للاهتمام، كانت تأتي كل يوم في الظهيرة وتنظر إلى نفسها في المرأة الكبيرة أمام متجر الزجاج، ولا تستخدم المرأة الموضوعة في المتجر الذي تعمل به.

وكان لديها طريققتها الخاصة فكانت تمرر يديها على شعرها ثم تجعد خصلاته أو ترفعه إلى أعلى، ثم تفحص وجهها وعينيها والنمش المتناثر على وجنتيها والرؤوس السوداء المنتشرة على أنفها، وأسنانها لتتأكد أنه لا يوجد بقايا طعام عالقة بها، ثم تمرر يديها على جسدها وخصرها ثم تنظر إلى قدميها وحذاءها.

وكان تشنغ جونغ، الجالس خلف الزجاج، يستطيع أن يرى بمنتهى الوضوح كل حركة وكل إيماءة لفتاة المرأة، فأحسّ بحزنٍ شديد وسأل نفسه: هل يقف على أعتاب حياة جديدة؟ لكنه لم يكن يتطلع ليحيا حياةً جديدة.

وبعد فترةٍ وجيزة جاءت الفتاة وفي يديها منديلٌ ورقي وشرعت تمسح المرأة، وكان تشنغ جونغ أول ما يفعله في صباح كل يوم هو مسح الغبار عن المرأة، فلم تكن متسخة لكنها أخذت تمسحها بقوة.

فاضطر إلى الخروج إليها ووقف بجانب المرأة قائلاً:

- كفى!

فرفعت الفتاة وجهها المليء بالنمش، وكانت عيناها الصغيرتان تبسيمان مثل الهلال، وتبدت نيتها على صفحة وجهها، فتحرّكت مشاعره، فمنذ عام ٢٠٠٢ حتى اليوم يكون قد مضى ثلاث سنوات على الفراق ولم ير ابتسامة فتاة، فابتسامتها جعلته يتذكّر تلك الابتسامة التي رآها في المقابر في عيد تشينغمينغ، تلك الابتسامة الزاخرة بالجمال والحزن.

وكيف يمحوها من حياته وهي مصدر سعادته وسرّ حياته الوحيد!

وفجأة قال:

- لا تمسحها مرة أخرى، المرأة غير ثابتة وربما تنكسر!

فارتعدت الفتاة من ردة فعله وسرعان ما تداركت الموقف وقالت:

- لا بدّ أنها غالية جدّاً! لم أر امرأة في مثل حجمها منذ أن كنت صغيرة، هذه المرأة هي أكبر امرأة في شارع مفترق الطرق بل في منطقة المصانع بأكملها وربما تكون أكبر امرأة في المدينة بأسرها!

عجز عن الكلام وشعر بالحزن من أجلها فهي تشبه شياو لان، كلتاها تبحثان عن عريس كي تتزوّج منه حتى لو كانت لا تحبه!

فسألته:

- هل هي غالية؟ كم سعرها؟

- راتبك مدة شهرين!

وفجأة ركلت المرأة بقدمها فتهشمت، وإذا بالمرأة التي ليست في المدينة أكبر منها تضيع سدى!

وقالت:

إذا سأعمل لديك طوال شهرين لأسدد ثمنها!

وقف أمام المرأة المحطمة وهو ينظر إلى الفتاة بصمت كبير وحزنٍ مرير، فكان كل ما يدور في عقلها يرتسم على وجهها، جاءت تبحث عن المتعة، لكنها الفتاة الخطأ، وقد جعلته الفتاة الخطأ يحنّ إلى الفتاة الأخرى. يحنّ إلى الفتاة الحقيقية الوحيدة في حياته.

فقال ببرود:

- لا داعي لذلك!

- لا يمكن! لا بد أن أدفع ثمنها!

كانت فتاةً متمرسَةً تعرف ما تفعله تمام المعرفة، فهي فتاةٌ ريفية نزحت إلى المدينة لتغير حياتها، فهي تعلم لو عملت هنا شهرين أو حتى أسبوعين، لن تصبح خبيرة وعاملة ماهرة في بيع الزجاج فقط، بل لا شك أنها ستصبح زوجة صاحب المتجر ورئيسة العمل. ربما يحدث كل شيء! رئيسة عمل حزينة وبائسة أو عاملة سعيدة ونشيطة، هنا في هذا البيت الزجاجي المرفوع عن الأرض، كل منا يختار حياته ويحدد مصيره، وهذا حق مشروع للجميع.

دعونا لا نقف كثيرًا عند هذه الأشياء الدقيقة والتفصيلات الصغيرة. وفي الليلة التي ثمل فيها دينغ بوه جانغ، بقيت تلك الفتاة في المتجر ونوت أن تمنح نفسها للمرأة ولتشنغ جونغ دفعةً واحدة.

وإذا تطورت الأمور بسلاسةٍ وعلى نحوٍ طبيعي، لربما تزوجا وكونا أسرةً من ثلاثة أفراد، تمامًا مثلما رأى بعين خياله في تلك الليلة مع شياو لان. لكن ثمة أمور عندما تحدث تبرهن على سخافتها وتثير الحزن في النفوس، حزن على حب فقدناه أو على عزيزٍ غاليٍ فارقنا وفارقناه!

تهيأ تشنغ جونغ وحاول التجاوب معها، فخلع ملابسه وقد تحرّكت مشاعره، لكن جسده كان كأن خدرًا سار فيه، فأحس أنه منهك القوة حتى أنه لم يقو على عناق الفتاة، فسرعان ما حمل ملابسه وترك الفتاة عارية، ولاذ بالفرار إلى الطابق الأرضي، وجلس في زاوية وطبقات الزجاج تنعكس على جسده في جوف الليل الأسود.

راح ينظر إلى ملابسه غير المهندمة وإلى حياته الخالية من طعم
الفرح، فأحسّ بحزنٍ لا مثيل له واحتقر نفسه وسأل نفسه: ماذا فعل
بحاله؟ ما هذه الفوضى التي يعيش فيها؟ وفكر في شياو لان وكيف
امتلك الشجاعة لتغلب على الصعاب وتحيا حياةً أفضل من أجله
ومن أجلها، لكن لماذا يصرُّ على العيش في هذه الفوضى وعلى
الرضوخ للهزيمة؟ لماذا لا ينعم بالاستقرار؟ لماذا لا يحس سكينه
ولا هدوءاً؟

حاول أن يجد طعم السعادة مع فتاة المرأة، وكأنه يحاول
الصعود إلى جبل إيفرست. لماذا لا يتزوجان وينجبان ويكبران معاً
ويتشاجران، وفي يوم الأحد يذهب مع ابنته إلى حديقة الحيوان،
ويعيش هذه الحياة الطبيعية التي يعيشها الأهالي في شارع مفترق
الطرق، ولم تكن حياةً سيئة كما إنه مهياً ليعيش مثل هذه الحياة.

وبينما هو يعيش صراع العقل والقلب ويحاول أن يضع حدًا لهذه
التعاسة الأزلية، أدرك أنه من المستحيل أن تحلَّ أي فتاة محل الحبيبة
الغائبة، شياو لان، أو تأخذ مكانها في قلبه حتى لو وقفت جميع فتيات
الكون عاريات أمامه، فلا يساوين في نظره شعرةً واحدةً من رأس
شياو لان! فلا يمكن أن يتكرّر ما أحسه نحوها مع أي فتاةٍ أخرى،
وبهذا القرار يكون دمر نفسه وحكم على قلبه بالهلاك.

وظل مثل راهبٍ يعيش في شرنقته يخشى ارتكاب الذنوب وفعل
الآثام.

كم كره وحدته القاتلة! وكره مستقبله ضبابي الملامح، وحياته
التي بلا طعم وبلا لون!

ومع خيوط الفجر الأولى راحت كلمة الموت تتوهج في عقله مثل نيران تستعر في جنح الظلام، فأحس أن الموت أفضل من هذه الحياة البائسة، وبينما هو غارق في التفكير في الموت إذا بتشن تشن تقف في الخارج وتصيح قائلة:

- أخي، أسرع إلى مشفى الطوارئ، أبي يحتضر!

وعلى الرغم من أنه كان أول شخص يتلقى الخبر، إلا أنه كان آخر شخص يصل إلى الجنازة، فركع أمام الجثمان وقد ظهر على وجهه آثار خدوش وطاشت خصلات من شعره على وجهه، وبدا وكأنه على أهبة الاستعداد لحضور جنازة أبيه.

وقبل أن يغادر المتجر، صعد إلى الدور العلوي وأيقظ الفتاة وطلب منها ألا تأتي مرة أخرى إلى هنا، فأغضبها حديثه وشرعت تضربه، فوقف ساكناً ولم يقاومها وكأنه كان في أمس الحاجة إلى الضرب ليكرم ذكرى أبيه.

وبينما كانت تصرخ وتسب وتلعن، كانت تركل وتسدد اللكمات في كل اتجاه، فأدرك في هذه اللحظة كم كان أبوه رجلاً مسكيناً! فبعد أن باءت كل محاولاته بالفشل لمعاملته بالحسنى، راح يسب ويضرب ويركل على أمل أن تتحول أسطورة ذلك الطفل المعجزة إلى حقيقة ويحيا حياة أفضل.

والآن بات من المستحيل أن يركع أمام أبيه ويتوسل إليه أن يضربه مرة أخرى، فأغمض عينيه ووسط العتمة الجارحة أحس بأن نهديها يكبران شيئاً فشيئاً، والضربات تشتد رويداً رويداً حتى أحس بالألم، وتخيل رائحة النبيذ وحاول أن يستحضر تلك الآلام الموجعة التي كان يشعر بها على يد أبيه.

انقضت عشر سنوات ولم يستطع تشنغ جونغ أن يتعرّف على شياو باي عندما رآه بعد عودته من الجنوب.

لم يكن يتردّد على المتجر زبائن كثيرون، ولم يكن محلّ ترحيب الأهالي، لأنهم لم يألفوا وجود هذا المتجر الذي كان أشبه بقطعة ثلج كبيرة، وكانوا دومًا يحسون أن الأشياء الزجاجية المصقولة المضاءة لا تناسب طبيعتهم على الإطلاق.

لكن تشنغ جونغ لم يتزعج من المكان، بل أحب هذه الحياة الهادئة الرتيبة، فاعتاد أن يُمسك بقطعة قماش بيضاء، ويمسح الغبار عن القطع البلورية النفيسة. مات أبوه ولم يعد أحد يبالي به أو يشعر بحزنه فيما عدا تشن تشن التي كانت تأتي بين الحين والآخر، وتتحدّث معه عن ضرورة أن يتزوّج ويكوّن أسرةً ويبدأ عملاً تجاريًا مربحًا.

مضى شياو باي إلى الداخل حتى وصل إلى الجزء الخلفي من المتجر، فظن تشنغ جونغ أنه واحدٌ من المارة دفعه الفضول للدخول ليستكشف المتجر، وكان منشغلًا في تلميع سلّة من البلور مليئة بالزهور ذات أغصان وأوراق هزيلة جذبت إليها الغبار بسهولة.

وقف شياو باي خلفه من دون أن يتحرك وقد شكل خلفه ظلًا نحيلًا، فمد تشنغ جونغ بصره، واستغرق الأمر منه لحظات حتى

تعرّف عليه بعد أن استطالت قامته وصار نحيفًا، فتحرك شياو باي ووقف في الزاوية وتراجع بضع خطوات إلى الوراء ثم تقدم إلى الأمام، وجال ببصره في أرجاء المكان، وكانت نظراته زاخرة بالرضا والخوف، وعلى وجهه ترتسم علامات التوقير، وقال:

- لا أصدق، قد فعلتها وبنيت بيت الزجاج، أنت عظيم جدًا!
ثم عقد يديه أمام صدره من شدة التأثر.

نظر إليه تشنغ جونغ وهو يحدث نفسه ويقول: جاء شقيق شياو لان، شياو لان ذلك الحلم الذي كان أشبه بنجم الثريا ولا يمكن أن يطوله في يوم من الأيام، هذا الاسم الذي قلب حياته رأسًا على عقب وأفنى قلبه، وعاد الماضي الذي كان وكأنه ركب قطار الموت في مدينة الملاهي، وجلب معه أفراحًا وأتراحًا ولّت وانقضت. لكن أنا الآن في الثلاثين وصرت رجلًا ناضجًا، فكيف لا أستطيع التحكم في عواطفني؟ وفي مثل لمح البصر اعتلت البسمة وجهه ومضى وأحضر كوبين زجاجيين وشرع يعدّ الشاي.

كان شياو باي يضع يده في جيب بنطاله، وباليد الأخرى يمسك بقصاصة ورقية متهاكة كان تشنغ جونغ وضعها في طرد الملابس الصغيرة التي أرسلها له، وظل يقرأها مرات لا تحصى على الرغم من أن محتواها كان عاديًا: "شياو باي: هذه ملابس الطفل المعجزة والآن هي ملكك، افعل بها ما تشاء. أتمنى لك حظًا سعيدًا! دينغ تشنغ جونغ."
وقد أحضرها معه وكأنها السبيل الوحيد للشم، حتى إنه ظل طوال الطريق يتدرب على ما سوف يقوله: افترقنا منذ عشر سنوات وثمانية أشهر، هل تتذكر؟ أمام باب بيتكم افترقت العائلتان، افترق ستة أشخاص مثل سرب من النمل ومضى كل في طريقه.

جهّز هذه الكلمات المؤثرة ليقولها له، لكن عندما استقبله تشنغ جونغ بفتورٍ شديد، ومن دون ترحيب، فترت حماسته.

جلس شياو باي وقد التفت ساق بساق (ولم يكن يدري أن هذه الحركة أثارت دهشة تشنغ جونغ حتى إنه لم يرغب في أن يدقق النظر في طريقة جلسته)، وبدأ يتحدث وكأنه ذلك الطفل البدين في تلك السنوات وقال:

- ملابسك القديمة، التي أرسلتها لي منذ عامين، دومًا كنت أحتفظ بها من أجلك، وكلما غيرت محل سكني أحملها معي، وأحضرتها معي هذه المرة كاملةً من دون أن ينقص منها قطعةً واحدةً!
فهزّ رأسه وقال بفتور:

- لماذا أتعبت نفسك وأحضرتها معك؟ أنا نسيت أمرها، الآن لا يشغلني شيء سوى الزواج!

فأحسّ شياو باي بحزنٍ شديد، فمن الهولة لأولى وهو يشعر ببرود تشنغ جونغ، وأحسّ أنه تغيّر ولم يعد ذلك الأخ الكبير العطوف، ولم يعد ذلك الملاك الحارس كما كان، وسأل نفسه: كيف تحول إلى هذه الدرجة وصار عديم المشاعر؟ حتى قامته المديدة تبدلت وهو لم يتجاوز الثانية والثلاثين، فكيف نال منه الزمن إلى هذه الدرجة؟

- هل أنت أعزب؟ لم تتزوج؟ كيف صرت هكذا؟
فقط هزّ رأسه ولم يتحدث، ونفض قطعة القماش البيضاء فتطاير منها الغبار.

فكوّر القصاصاة الورقية وحاول أن يفتحها في جيبه ويفردها عدّة مرات، وفي النهاية استجمع شجاعته وقال:

- أنا عدت لأخبرك شيئًا، ما قلته لك بشأن شياو لان وغرامها بك وحديثها عنك، كلها كانت أكاذيب، ولم تخبرني يومًا أنها تحبك أو معجبة بك، وشعورها بالأمان معك والهدية ووسامتك كلها أشياء اخترعتها أنا من وحي خيالي.

فربط لسانه عن الكلام وكعادته القديمة غطى عينيه بيد واحدة، بينما الغبار الذي تطاير من قطعة القماش كان لا يزال يلف في الهواء.

ثم توالى كلماته كشلالٍ هادر:

- اخترعت أشياء من وحي خيالي، وأخبرتها أنك تحبها وحكيت لها عن معاناتك حتى يرق قلبها وترأف بحالك وتهتم بك، كنت وقتها صغيرًا ووحيدًا وكم كنت أرغب في أن ترتبط العائلتان ولا تفرقان أبدًا! لكن القدر حسم الأمر وضاعت كل جهودي سدى وافترقنا. وعلمت مؤخرًا أن هناك شيئًا بينكما، وأن الحب دقَّ باب قلبيكما وخاصةً أنت، لكن شياو لان كانت ذكيةً تعرف ماذا ينبغي أن تفعل، والآن هي حامل، لكن أنت تحيا شبه ميت. جئت اليوم لأخبرك، أرجوك لا تجعلني أشعر بالذنب تجاهك وانس شياو لان، والتفت لنفسك وحاول أن تعيش حياتك.

- شياو لان حامل؟

كان خبر حملها هو أول خبر يعرفه عنها بعد زواجها. ففي يوم الجنازة لم تخبره سوى تشين شيئًا عن أحوالها، وتعبيرات وجهها جعلته لا يفهم شيئًا حتى صار قلبه مثل صخرة صماء، لكن عندما أخبره شياو باي بهذا الخبر، لم يجعل هذه الصخرة تتحرك فقط، بل تفتت إلى قطع صغيرة. ما هذا الخبر العظيم أوشكت شياو لان أن تصبح أمًا!

- أنت تسألني عنها بدلاً من أن تلتفت لحياتك!

فأحسّ شياو باي هو الآخر بأن قلبه يتفتت كالصخرة، وشعر بتأنيب الضمير وبحزنٍ مرير، وفكر للحظات ثم قال:

- كل ما أخبرتك به في الماضي كانت أكاذيب، وفلسفتك عن الزجاج وهمٌ كبير، أرجوك حطّم هذه الأوهام، وإلا سأحيا طوال حياتي بعذاب الضمير!

فأزاح يده من على وجهه وقال:

- أنت تحدثني عن الزجاج! أنا لست غيباً لأصدق هذه الأكاذيب، كنت أعلم أن شياو لان لا يمكن أن تعيرني اهتمامها، لكنني أعجبت بالكذبة، فلا تتأسف ولا تشعر بالذنب نحوي، حتى لو بدأت أنت القصة، فلا يمكن أن نكملها نحن فالنهاية معروفة. أنا أشكرك شياو باي، أشكرك من كل قلبي!

- إنها حامل.

هزّ شياو باي رأسه وأحسّ أن تشنغ جونغ تشتت أفكاره، فقد أوشكت شياو لان أن تضع طفلها وهو لا يزال يهيم بها حباً ولا يفارقه طيفها. فسأل السؤال بطريقةٍ أخرى ليوقظه من غفلته:

- ماذا ستفعل شياو لان لو علمت أنني كذبت عليك وعليها؟

فارتعد تشنغ جونغ من الخوف وتفصّد عرقٌ غزيرٌ من جبينه وقال:

- شياو باي، أرجوك لا تخبرها شيئاً، دعها تظنّ أن كل ما كان بيننا كان حقيقياً من دون تدخل منك! عدني شياو باي ألا تخبرها.

فلو ما رأسه موافقاً من دون أن يقول شيئاً، فبعد عودته من الجنوب نوى أن يخبر شياو لان بالحقيقة، لكن في كل مرة كان ينعقد لسانه عن

الكلام؛ لأنه يخشى أن تفعل وتثور ولم يكن يأمن ردة فعلها، لكن الآن عليه أن ينسى الأمر تمامًا، فقد وعد تشنغ جونج ألا يخبرها ولا يمكن أن ينقض عهده معه.

فأسبل جفنيه وقال:

- هل يمكن أن نغير الموضوع ونتحدث عن شيء آخر؟

فقد عاد من أجل الحديث عن موضوع آخر.

حاول أن يتكلم وكلما هم بفتح فمه تعثر، وفي النهاية وبصوت خفيض وكأنه يرسل رسالة نصية عبر تطبيق "كيو كيو*" قال:

- حتى الآن وأنا أعزب، ليس لدي صديقة، لكني لا أعلم هل أريد بالفعل التعرف على شاب أم فتاة؟ لا أعرف على وجه التحديد، فما رأيك؟

غمغم تشنغ جونج ببعض الكلمات، وشرع يسكب الشاي ويشرب، وبدا وكأنه لا يرغب في الإجابة، ثم تناول تحفة زجاجية ووضعها تحت الضوء، ثم أعطاها إلى شياو باي لينظر إلى الظلال المنعكسة داخلها، وعاد إلى حديثه المعهود عن الزجاج وقال:

- الزجاج رائع ويمكنه أن يجيب على كل الأسئلة الصعبة، فعل سبيل المثال، إذا أحببت شخصًا أو أحبك شخص، فإن الحسابات في العلاقات العاطفية ومبدأ نجاح العلاقات والأخذ والعطاء والرفض والقبول وكل هذه الأمور، إذا تعذر عليك فهمها، فعليك بالتفكير في الزجاج وسيخبرك بالإجابة الصحيحة ويريحك من الحيرة، وإذا كان هناك شيء يفوق أحلامك، وإذا كان يتحوّل ويتغير، فالزجاج

* تطبيق صيني للمحادثات. [الترجمة]

لديه القدرة ليعطيك رأيا صائبًا في هذه المسألة؛ فهو يحترق عند درجة حرارة ١٣٠٠ درجة مئوية، ويتغير ويتحول اثنتين وسبعين مرة، ويعرف متى يستسلم ومتى يتغير، وإذا تعذر عليه التغير يستسلم ويتهشم.

فتألق وجه تشنغ جونج بالبشر وقال:

- لهذا السبب كرّست نفسي للزجاج. أنا أقترح عليك إذا تعذر عليك أي أمر، فكر في الزجاج وستشعر بتحسين كبير.

وبينما كان يتحدث وقف وأخذ يمسح الزجاج حتى وصل إلى آخر المتجر، ويبدو أنه في أثناء حديثهما امتلأ العالم بطبقة أخرى من الغبار، وانعكست أشعة شمس النهار وسكنت في كل زاوية من زوايا المتجر، ووسط الفوضى راحت ذرات الغبار تطفو كما لو أن كل شيء لا يزال ممكنًا!

مد شياو باي ناظريه ونظر إلى الرجل الذي ينفض الغبار عن الزجاج، والذي كان دومًا يحمل له مكانة خاصة في قلبه، فأحسّ بالحزن ورأى بعين خياله أنه سيقضي طوال حياته في هذا الشارع.. في شارع مفترق الطرق، وهذا جعله يشعر بشيء من السعادة، فعلى أقل تقدير قد ترك هذا الشارع وسار في دروب أخرى ورأى أشياء وعوالم جديدة.

- ألا تفكر في عملٍ آخر؟ تعمل مثلًا على سيارة أجرة أو أي عملٍ آخر؟

فضحك وقال:

- لا أفكر، الزجاج الشيء الوحيد الذي أفهم فيه، أليس هذا شيء مؤسف ويشير الشفقة؟ ربما أكون مخطئًا، فالرزق نعمة والتغيير مطلوب، لكن لا تنصحنى وبخصوص الفتيات تكفينى شيوا لان! فضحك شيوا باي واعتصر الألم قلبه.

وبرضا كبير قال:

- احتفظ بالملابس التي أهديتها لك!

- اتفقنا، إلى اللقاء! أتمنى لك النجاح والتوفيق!
ودعه شيوا باي وغادر.

لم يكن شيوا باي يدري أنه بعد أن غادر المتجر، وقف تشنغ جونغ من خلف الزجاج يرقبه حتى أيقن أنه مضى بعيدًا ولا يمكن أن يعود، فخرج وحمل المرأة الكبيرة إلى الداخل، ورغم أن الوقت كان لا يزال مبكرًا على غلق المتجر، إلا أنه وضع لافتة "مغلق" وصعد إلى الطابق العلوي وتمدد في الفراش. في هذه اللحظة أحسّ بالألم الذي قيده طوال هذا الوقت وكأن شاحنة كبيرة دهسته.

وعلى الرغم من شكره لشيوا باي على أكاذيب الطفولة، إلا أنه أيقن أنها كانت مجرد أكاذيب، فأحسّ بأسى كبير وحزنٍ مرير، ورغم أن الشكوك ساورته وقتها، في أن فتاة مثل شيوا لان لا يمكن أن تقع في غرامه، وكان يحاول البحث عن أدلة تبرهن على صدق كلامه، لكن سرعان ما وأد هذه الشكوك ومحا الظنون من رأسه، بل أحب الكذبة، والآن لا يستطيع أن يحتمل أن يكون ما عاشه هو سراب الحب.

وعلى الرغم من أن علاقتهما تطورت مع مضي الأيام وصارت مشاعر حقيقية وصادقة، وعلى الرغم من أنه لم يعد قادرًا على التمييز

بين الحقيقة والخيال، إلا أنه أحسّ بخيبة أمل وتعذّر عليه أن يقبل أن كل المشاعر الوحيدة الحقيقية التي عاشها طوال هذه السنين في النهاية تصبح مثل سراب خداع.

ضاعت حياته سدى، حتى الشيطان اللذان شغف بهما قلبه كانا كذبةً كبيرة، فالشيء الأول وهو الزجاج كان فارغاً، والشيء الثاني وهو شياو لان كانت خدعةً كبرى ووهماً من الأوهام، حتى صار الموت عنده أفضل من أن يحيا مثل هذه الحياة!

وعادت كلمة الموت تراوده مرةً أخرى. هل تذكرون متى كانت المرة الأولى التي راودته فيها؟

الكثير منا تراودهم هذه الفكرة، وعندما نجتاز الأزمات وتنفرج الهموم نواصل الحياة، وكان حاله مثل حال الكثيرين، وحاول حقيقةً أن يواصل الحياة، لكن عندما راودته الفكرة مرةً أخرى أحسّ بشيء من المتعة، فاستلقى في الفراش وراح يستمتع بفكرة الموت وسط العتمة.

لن أقبل هذا الوضع! لن أدع هذا يحدث!

جاءت تشن تشن مثل ريح حارقة ومميتة، ثم رحلت وتركته يحترق من الألم، وكسرت قلبه المتيّم مثلما فعل به شياو باي عندما زاره، حتى إنه لم يقو على غلق باب المتجر والصعود إلى الطابق العلوي، فجلس مكانه لا يحرك ساكنًا.

سمع صوت المارة في الخارج من خلف الباب الزجاجي، وكانت نسائم الربيع تميل وتتحرك، وكان موسم الربيع هو أفضل المواسم في المدينة، وكان الناس قد خرجوا للسّير تحت شمس النهار الأبية، ومضت طالبات الجامعة مثل شياو لان، ونساء حوامل مثلها أو سكن على الوضع، ونساء عجائز انحنت ظهورهن، فأخذ ينظر إليهن لكن عيناه غامتا بضبابٍ كثيف ولم يستطع رؤيتهن بوضوح.

وراح يسأل نفسه: كيف لشياو لان أن تفعل هذا؟ كيف لا تحترم ذاتها؟ ولا تحترمه ولا تحترم حياتها. ألم يتوعدا على أن يمضي كلّ منهما في طريقه ويبدأ من جديد؟ أليس خوانغ شين هي من اختارته بعناية شديدة من بين كثيرين؟ هل تريد بالفعل العودة إلى هنا مرة أخرى؟ وتتزوج مرة أخرى من صاحب متجر الزجاج؟ وتنجب طفلًا ويكون له أبًا بديلًا؟ ويعيش في شارع مفترق الطرق والناس من ورائه يشيرون إليه ويقولون هذا... هل فكّرت بتروؤ في كل هذه الأشياء؟!

مسح بعينه الشارع ووسط المارة تراءت له شياو لان، وهي تلتفت إليه وتزُم شفيتها وتتحدى القدر، وتلقي بكل الأعراف والتقاليد عرض الحائط، فسخر من هذه التخيلات واستاء من خوفه، ورنَّ صوتٌ في أغواره: لماذا يخاف؟ وماذا يهاب؟ فطالما هي لا تخاف شيئاً ولا تهاب أحداً، فيكفي أنهما معاً ولا يهم أي شيء آخر. أليس هذا هو الحب الذي طالما كان يتوق ليعيشه معها؟

أغمض عينيه وحاول قدر الإمكان أن يشعر بأنه معزولٌ عن العالم، لكنه أحسَّ بقلَّة حيلة وخيبة رجاء، فعجز عن أن يتصوّر أن شياو لان زوجته في المستقبل، فكان الأمر مثل لوحةٍ فنيةٍ فاتنة، وفجأةً خرجت الشخصيات وتجسّدت من لحمٍ ودمٍ أمام عينيه. إن السعادة لا تعني إدراك ما نتمناه ونيل ما نرجوه، بل هي تخيل أننا أدركنا بالفعل ما نتمناه والشعور بسلوى النفس على ما لم يكن من نصيبنا! فلو اجتمع الشمل وكانا زوجين، وصار الوهم حقيقةً وصار الحلم الواهي حقيقةً راسخة، لفقد كل شيء وانتهت الحياة.. انتهت إلى الأبد.

أحسَّ بالخجل عندما فكر بهذه الطريقة، وسار نحو الباب واتكأ على الإطار وأخذ يتأمل الشارع.

وكانت شمس الأصيل أوشكت على الرحيل، وبدأ المارة في الشارع يمضون على عجل عائدين إلى البيوت، وكان صاحب المتجر بجواره يستحم، بينما كانت زوجته تهرش جسد طفلها، فألقى عليها التحية وداعب الصغير قائلاً: الصغير ذو الثمانية صار وكأنه في العاشرة. ورغم المزاح إلا أنه أحسَّ بانقباضةٍ في صدره، فزاد الحزن حزناً، كان ثلاثتهم يجسّدون عائلةً صغيرة سعيدة، وكاد

يرسم له خياله هو وشياو لان وابنها في مشهد مماثل، لكن لم يرقه هذا الخيال الطليق، فلا يمكن أن يتصور أن تكون هذه صورة حياتهما معًا.

وكما قال لتشن تشن أنه لن يقبل بهذا الأمر ولن يدعه يحدث. وعندما تأتيه شياو لان في الغد، سيخرج مشاعرها وينهرها ولن يدعها تحطم حياتها.

استدار بجسده وهو شارد اللب وكأنه مسحور وراح ينظر إلى المتجر، وكان الشفق الأحمر قد ألقى بنوريه الأحمر والبرتقالي على المكان، فبدأ وكأنه كريستالة هائلة نفيسة تتدفق بالجمال، فلم يستطع أن يحيد بعينه عن المشهد رغم أنه كان يراه كل يوم، وحينها أدرك لماذا لا يستطيع أن يقبل وجودها في حياته ولا بدّ من أن يمنعها أن تكون شريكة عمره، لأن حبه لها كان مثل الزجاج؛ يذوب فيها عشقًا لكن من المستحيل أن يلمسها، ودومًا ثمة حاجز يقف عائقًا أمام هذا الحب الكبير. وكان تفكيره يحمل الكثير من العقلانية.

في هذه اللحظة راودته فكرة الموت للمرة الثالثة، فارتعد من الخوف وأبطأ من تفكيره، وإذا بصوت يرنّ في أعماقه: لا بدّ من التعامل مع الصديق القديم بشيء من الرويّة وبشيء من الحذر، وربما تكون هذه هي الطريقة المثلى.

فكّر طويلًا في الأمر لكنه أحسّ بالقلق على شياو لان، بل أشفق على مصير هذه المسكينة، فكيف يتركها وحدها تواجه مصيرها المجهول؟ وتخيلها في سن الشيخوخة واستحضر ذكريات الطفولة، فلا يمكن أن يكون أنانيًا ويتركها وحدها.

لف، عدّة مرات، في المتجر وحاول أن يجمع شتات نفسه المبهورة، ونظر إلى الزجاج وقال: أليس الزجاج موجودًا، فلا شكّ أنه سينقذني من هذا المأزق!

وفي الساعة الثانية واثنين وأربعين دقيقة من ظهيرة اليوم التالي، فقد كل أمل في الحياة بعد أن تحطم متجر الزجاج وصار الزجاج كما البشر، وتهشمت الأبواب والنوافذ بالكامل وصارت أطلالًا مثل أسلحة فتاكة.

وقبل نصف ساعة من تحطّم المتجر، مرّ الوقت عليه ثقيلًا وكأنه عامّ من الزمان، وساورته أفكار شيطانية وتيقّظ الشيطان الكامن داخله، وخشي ألا يستطيع أن يقطع كل صلة له بشياو لان، وخشى أن يكون غليظ القلب معها، فهل من سبيل حتى لا يجرح مشاعرها ويصدها في الوقت نفسه؟ كم تمنى الموت قبل أن تأتبه ويُلقِي بهذا الأمل في عرض الشارع! قد أوشكت على القدوم، أنه يشم رائحتها ويشعر بها تقترب وهي مفعمة بالحماسة وممتلئة بالحب، تأمل أن تقطف عنقود العنب الحلو، أفكارها عذبة وأحلامها رؤى عذاب. كان قلبه ينتفض في صدره كجناح يمامة جريحة، كان يؤلمه أشد إيلام، آه، أنها تقترب ولم يعد يحتمل!

وفي الوقت المناسب كان الزجاج رؤوفًا ورحيمًا به ولم يخذله فلم يكن حبه له يأتي من فراغ! اجتمعت قطع الزجاج معًا ودمرت نفسها بنفسها، وكونت حوله كهفًا مظلمًا وقبرته عميقًا وأهالت عليه نفسها، وفصلته عما يحدث في الخارج من هرج ومرج، ولم يسمع شيئًا وظن أن ما يحدث، يحدث له وحده وأنه الخلاص الوحيد!

ووقت وقوع الانفجار لم يصب إلا ببعض الخدوش، لكن فكرة الموت راودته للمرة الأخيرة وراحت تومض أمام عينيه كومضات البرق، فأمسك بقطعة زجاج مثلثة وكانت رفيقته حتى اللحظات الأخيرة الدموية، وعندما أوشك أن يغيب عن الوعي، تذكر أن يُغطي معصمه بقطعة القماش البيضاء ليواري هذا المشهد الأليم.

الفصل السادس

طريق بلا عودة

"الثالث عشر من نيسان، الساعة الثانية واثنان وأربعون دقيقة عصرًا". ينبغي أن نعيد ذكر هذا التوقيت مرةً أخرى، وإلا سيصبح مجرد توقيت عادي مثل توقيتات أخرى كثيرة. وربما تصرف عشوائي يحدث بمحض الصدفة في توقيت ما، يجعل منه توقيتًا لا ينسى. على سبيل المثال: فجأة يُشعل شخصٌ سيجارة.

في ذلك الوقت، أخرج أحد المارة في شارع مفترق الطرق قداحةً ثمنها يوانين وأشعل سيجارة ماركة "نانجينغ"، ثم دسّ علبة السجائر في جيبه وهو يقول لنفسه: "اللعنة، علبة أخرى أوشكت أن تنتهي.". وكان لهب القداحة مثل يراعةٍ تومض في عتمة الليل، ولم يرَ هذا اللهب أحدٌ سوى السماء، وبرفرقة صغيرة بجناحي هذه اليراعة أشعلت الرائحة الثقيلة التي انتشرت في شارع مفترق الطرق، وقدمت عرضًا مذهلًا من الموسيقى النحاسية الصاخبة، ووقع انفجارٌ هائلٌ بأصوات مدوية تصمّ الأذان صمًا وتزلزل الأرض زلازلًا مدمرًا مثل تنين هائل يشق الأرض ويخرج، ورق الأشجار والنوافذ والأبواب وأكشاك بيع الصحف المغلقة، ولوحات إعلانات النيذ وموقف الدراجات والأرائك القديمة المخصصة للعجائز، والثلاجات التي تحوي أطعمة الليلة الماضية، ودراجات نارية تتدلى منها قفازات

القيادة وعارضات بلاستيكية في متجر الخياطة، كل هذه الأشياء كان لديها قدرات خارقة لإحداث تغييرات، فتساقبت كل هذه الأشياء على الطيران بحركاتٍ رشيقة؛ بعضها حلق عاليًا واختفى من دون أن يترك وراءه أثرًا، وبعضها حلق على ارتفاع منخفض، والبعض الآخر تحطّم وصار أشلاء، وأشياء تدمرت واستحالت إلى عصير وردي، وأشياء أخرى لفت ودارت في الهواء وخلفت وراءها ريشًا أبيض.

وكان أكثر ما يثير الدهشة هو على الرغم من أن الشاحنات وسيارات النقل المارة والمتوقفة كانت جميعها مصنوعةً من الفولاذ وثقيلة الوزن، إلا أنها في غمضة عين تكوّرت مثل ورق الجرائد وتدحرجت على جانبي الطريق، وخرج منها أشخاصٌ تغطّيهم بحورٌ من الدماء وهم يصرخون ويستنجدون، وبدا المشهد وكأنه مشهدٌ في فيلم سينمائي، وصنعت السماء العالية خلفيةً تلائم المشهد المروع، وتبدّى على صدرها عمودٌ هائلٌ من الدخان الرمادي، وامتزج اللون الرمادي باللون البرتقالي وأخذ يرتفعان في الهواء وينتشران على مهل ويستحيلان إلى أشكال تصطبغ بألوان زاهية. ومن كان يخيّل له أن شارع مفترق الطرق في طرفه عين سيعيش هذا المجد العظيم ويحرك المشاعر إلى هذا الحد! ولا شك أن هذه اللحظات المجيدة هي الذروة الوحيدة التي شهدتها هذا الشارع على مر التاريخ!

وجاءت شياو لان وهي في الشهر الثامن ببطنٍ منتفخة، في توقيت مثالي جدًّا، لتقاسم أهالي شارع مفترق الطرق هذا الانفجار المرعب، وإذا بوشاحها الحريري يطير في الهواء ويقع على غصن شجرة، فيقسمه إلى نصفين ثم يدور هذا الغصن اللعين في الهواء ويصل إلى وجهها، ويُحدث به جرحًا متعرجًا ويترك به لونًا أحمر قانيًا.

ولو لم تقض شياو لان وقتًا طويلًا في البحث عن الوشاح الحريري الذي أهده لها تشن تشن في ذلك اليوم البعيد، لسمح لها القدر والتقت بتشنغ جونغ في متجر الزجاج، لكن فكرة راودتها عطلتها عن موعدها، فأحسّت أنها إذا وضعت الوشاح حول عنقها سيكون له دلالة خاصة، وأصرّت على أن تجده مهما كلفها الأمر، فقد عاشت في حزنٍ كبير لسنين طويلة، فما من ضيرٍ إذا تأخرت قليلًا، وراحت تفكر في أن ساعات قليلة تفصلها عن تغيير مجرى حياتها.

فتشت في جميع الخزانات، وفي النهاية وجدت الوشاح وسط سترات صوفية متسخة، كما عثرت على مجموعة من دفاتر الجامعة، وكانت بالفعل نسيت أنها لا تزال موجودة. قلبت بضع صفحات على عجالة، وقرأت بعض السطور ثم فردت طيات الوشاح وشعرت بالضيق من الثنيات الموجودة به، وفكرت في ضرورة كويه بمكواة البخار، فإذا كوت الوشاح ووضعته حول عنقها ستتحول لوحة الرهان وتقف عند رقم آخر، لكنها استبعدت هذه الفكرة ولامت نفسها على تقاعسها، وشعرت وكأنها مسنةٌ تخرج للمرة الأولى في حياتها وحثت نفسها للإسراع والذهاب لمقابلته.

وخرجت في الوقت المناسب، لا ثانية مبكرة ولا ثانية متأخرة.

كان جسدها ثقيلًا وأخذت قدمها تتأرجحان على الطريق مثل سفينة كبيرة تأخرت عن الإبحار، وتضاربت أفكارها واضطربت كل عواطفها وصارت مثل بندول الساعة وراحت تتأرجح بين الماضي والحاضر. تحسّست بطنها وهي تنظر إلى نفسها في نوافذ العرض الزجاجية للمحال على الطريق، فأحسّت أن بطنها لا تحمل جنينًا

فقط، بل تحمل أيضًا ثلاثين عامًا مضت من عمرها، وكأنها حلزونة
مثقلة بسنين ولّت، وحذاؤها ثقيلٌ يقدم قدمًا ويؤخر الأخرى، وبات
قلبها ينتفض في صدرها وهي تفكّر: هل يمكن أن يعود الزمن بنا إلى
الوراء؟

(٢)

وبعد علمها بخبر حملها وبينما كانت لا تزال تفكر هل ستحتفظ بالجنين أم لا، استمعت إلى محاضرة الأستاذ "تشو" وكان عنوان المحاضرة "تحليل أحوال الطبقات الاجتماعية في الصين". كان الأستاذ تشو بقامة مديدة ويتحدث بلهجة أهل الجنوب القوية، ويضع نظارة بإطار رفيع وشعره أبيض، فيجبر من أمامه على أن يبدي له كل الاحترام والتوقير. لم تستطع شياو لان أن تستمع إلى المحاضرة حتى النهاية وتركها في المنتصف، وخرجت من القاعة والدموع تطوف في عينيها، فنبذة الأستاذ تشو الحزينة جعلتها تشعر بحزن كبير، وكأنه يوجه حديثه إليها وأيقظها صوته العالي، فأحسّت أنها لم تجن في حياتها سوى خسارات كبرى، ولم تدر هل كان يقصدها هي وحدها أم مثلها مثل أخريات كثيرات؟ فكانت مثل النماذج المؤسفة الذين حاولوا طوال هذه السنوات أن ينسلخوا عن جلدتهم وينفصلوا عن طبقتهم، وطمحوا إلى الطبقة العليا وتسلق السلم الاجتماعي بأسرع وقت ممكن. فقد وضعت تحت قدميها قلبها وأدت كل مشاعر الحب البريئة، ورفضت أن تطاوع قلبها لتعيش حياة كريمة.

ولا شك أن الطموح لعيش حياة كريمة كان اتجاهًا عالميًا طمح إليه الجميع وكأنه جين الغباء يتقاسمه الجميع، حتى دينغ بوه جانغ ذي الأنف الأحمر، وإلا لماذا اختار لابنه اسم "تشنغ جونغ"،

وتمسك بأسطورة الطفل المعجزة وظل يرددها حتى الممات، كما أن خي بي كان يطمح ليؤسس عائلة عريقة تتكون من ثلاثة أجيال، ولم يكن زوجها خوانغ شين أقل طموحًا منهم، بل تجاوزت طموحاته طموحاتهم وحلم بأن تكبر الشركة الصغيرة وتصير مؤسسة كبيرة، فالجميع يطمحون إلى الأفضل والثري يحلم بثراء أكبر. وسواء كانوا لا يزالون يعيشون في الفقر أم تسلقوا السلم الاجتماعي، فهذه الفكرة كانت تستحوذ على عقول الجميع.

فكانوا أشبه بالجنود في عرض عسكري: تقدموا لتحقيق الأفضل، تقدموا لتحقيق الأكثر، تقدموا لتحقيق الأعظم، تقدموا إلى الأمام. وعلى الرغم من أن الصراعات الطبقيّة وسعي كل طبقة للقضاء على الأخرى كان السبب الأساسي في شقاء العالم، إلا أن صوتها العالي كان دومًا يطن في الآذان.

مشهدٌ من الطفولة لا يبرح ذاكرتها، وهو مراكز التسوق البراقة في وسط المدينة، وأمها وهي تمرر يدها على نوافذ المتاجر المصقولة، فلم تكن تفضل الشراء من أسواق شارع مفترق الطرق، بل دومًا كانت تصطحبهما إلى هذه الأسواق حتى لو كانت ترغب في شراء معطف واقٍ من المطر أو قفازات أو شيءٍ صغير تافه. كان ثلاثتهم يشكلون فريقًا صغيرًا وهم يقارنون بين هذه المراكز ويتقنون السلع. كانت سو تشين تشير إلى الطرق النظيفة المزهرة على الجانبين بأشجار الدلب، والمارة المهذبين ومتاجر الأجهزة الكهربائية باهظة الثمن، لكن حتى لو كانت الأسعار باهظة فكانت تستحق شيئًا من التقدير، وكأنها تقول لهما انظرا إلى هذه الأسواق، هنا يعيش الأثرياء وينبغي أن نعيش أيضًا في هذا المكان!

أما بالنسبة إلى شياو لان فإن الأناقة والفخامة التي رأتها في الأفلام والأخبار وطالعتها في الروايات واستشعرتها في الأغاني الشعبية ومواويل الشعر كانت أكبر تأثيراً، وأدركت أن هذه الفروق لا تقتصر فقط على منطقة المصانع أو على إحدى الضواحي، بل أنها موجودة في كل مكان في العالم ودوماً تظهر هذه المشكلة الأزلية. حتى في نيويورك مركز العالم، نجد أن الجانب الشرقي من مانهاتن مكان مناسب لأعضاء الكونجرس، بينما كوينز هو مكان مناسب للفنانين الفاشلين، وفي كوينز ربما يكون الجيل الأول فقط من المهاجرين سعداء للاعتراف بأنها موطنهم الأصلي، في حين أن سلسلة مطاعم "هيلز كيتشن" في حي كلينتون لديه سمعة سيئة في جودة الطعام حتى الكلاب الضالة، كانت تخجل من أن تتجول أمامه، رغم أن الحلوى في أي مطعم من مطاعمه تكفي لإطعام أهالي مدينة بيونغ يانغ* لمدة أسبوع. على أي حال سواء في الشرق أو في الغرب، وسواء كان الناس من أصول خالصة أو من أجناس عرقية، وسواء كانوا من شنغهاي أو من إحدى المقاطعات، فجميعهم متغطرسون ولا يقنعون بشيء، لكن علينا ألا نسخر من هذا الضعف البشري، فالجميع يعانون هذه المشكلة حتى هؤلاء الذين يعيشون في قاع المجتمع.

لم تنكر شياو لان كراهيتها بسبب نشأتها الفقيرة والتي تولدت بسبب زيارتها إلى المدينة، لكن ما زاد من حدة هذه الكراهية هو منطقة المصانع وشياو باي وأمها التي هي على علاقةٍ برجلٍ آخر ودينغ بوه جانغ السكرير وتشنغ جونغ وتشن تشن، كرهت كل هؤلاء وأحسّت وكأنهم أشواكٌ مزروعةٌ في جسدها ولم تعد تحتل الألم،

* عاصمة كوريا الشمالية وأكبر مدنها. [الترجمة]

وتمنّت لو تستطيع أن تتجاوز كل هذه الخيبات، فصبت غضبها على رأس أمها.

في إحدى الليالي في سكن الفتيات بالجامعة، كشفت الفتيات عن مشاعرهن نحو أمهاتهن وتأثيرهن عليهن، ففاضت المشاعر وتهدجت الأصوات وحكين عن علاقتهن بأمهاتهن وفترة المراهقة الحرجة والمواجهات الحادة بينهن والدموع الكاذبة والأعذار الواهية، وشرعن يحكين بشكل درامي حتى إن بعضهن اختنقت أصواتهن بالبكاء، بينما ظلّت شياو لان صامتة وصامدة، فلم ترغب في أن تبوح بأسرارها وتحكي أدق تفاصيل حياتها لفتيات غريبات.

ومع مضي السنين كثرت الخلافات وسوء التفاهم بينها وبين أمها، ونفست عن الكثير من غضبها وصبته على رأسها، ورغم هذا كانت تنشغل بأحوالها وتهتم لأمرها، فلم تعترض يومًا على أن تجد أمها شريكًا جديدًا يؤنس وحدتها، لكن كان كل اعتراضها لماذا هذه المرأة الراقية الجميلة تكون على علاقة برجل فظّ وسكّير مثل دينغ بوه جانغ؟ وتخفي خبر علاقتهما عن الجميع؟ فقد أساءت إلى زوجها المتوفى وإلى ابنيها وإلى نفسها. أحسّت شياو لان بغضبٍ شديد ونوت أن تحافظ على سمعتها وشرفها وعشقت الاحترام والاستقامة، وفطنت إلى أن ما من أحد سيمد يد العون إليها وينبغي أن تعتمد على نفسها في هذه الحياة، وتكافح عبر الدروب الوعرة والطرق المزروعة بالأشواك ولا تجعل سقفاً لطموحاتها، وتحلم بلا شفقة وبلا رحمة وتحقق أحلامها مهما كانت بعيدة المنال، وأن تبذل قصارى جهدها لتغادر منطقة المصانع حتى لو كان الدرب طويلًا جدًا ومرهقًا جدًا ونهايته هو الفشل.

وكان شياو باي هو من أشعل فتيل النار عندما أخبرها بحقيقة
مشاعر تشنغ جونغ نحوها ولعب على أوتار قلبها، فوجدتها فرصة
لتثير غضب أمها. ولا تفارق ذاكرتها صورة شياو باي وهو يتكئ على
الوسادة ويربت على صدره ويقول:

- سأخبرك بشيء ولا تخبري به أحدًا، تشنغ جونغ شابٌ غريبٌ
جدًّا! تخيلي أنه لا يزال يحتفظ بملابسه الصغيرة، يحتفظ بكل قطعة
ويردد أسطورة أنه طفل معجزة! هل تصدقين هذا؟

ثم قال وهو يتنهد:

- والأغرب من هذا أنه معجبٌ بك!

- معجبٌ بي؟ لماذا؟ هذا غريبٌ جدًّا!

رفعت حاجبيها وتظاهرت بأنها تقلب في الكتاب وكأنها تقول
لشياو باي: أنا أستمع إليك وسألت نفسها: فيما يفكر هذا الصغير
البدين؟

- هذا حقيقي، أخبرني أنك مختلفة عن الفتيات الأخريات، وأذكى
فتاة رآها على الإطلاق ولديك طموحات كبيرة. وقال أيضًا...

فتظاهر بأنه يتذكر ما قاله، وهو يحاول أن يخترع شيئًا يمكن أن
يلفت انتباهها.

كان الوغد الصغير يحاول أن يتتقي كلماته بكل ما أوتي من حيل،
لكن لم يكن في حاجة إلى بذل كل هذه الجهود، فمهما يقول كانت
ستصدق حتى حديثه التافه جعلها تغير فكرها، وفجأةً أحسّت بفضول
غريب لم تعهده من قبل، وربما لأنها سئمت التحفظ والسير دومًا

على الصراط المستقيم، وأرادت أن تعرف ما إذا كان هناك توافقٌ بينها وبين شاب يعمل في نفخ الزجاج، حتى عيدان الطعام لا يستطيع مسكهما بشكل صحيح، كما إنه ابن صديق أمها. لكن على أي حال كان تشنغ جونغ مختلفًا بعض الشيء ويستحق أن تعيش معه هذه التجربة، تجربة الحب الأول. وبعد أن فطنت إلى حساسية أمها تجاه هذه العلاقة وغضبها من أن تربط مصيرها بمصير تشنغ جونغ، أحسّت بشيء من الإثارة لأنها أحسّت أن أقرب شخص لها يسيء إلى نفسه.

وبعد أن صفعتها سو تشين على وجهها وتوعدتها، فوجئت شياو لان أنها بالفعل قطعت علاقتها بدينغ بوه جانغ، فأحسّت بصدمة كبيرة من قلق أمها الذي لا أساس له من الصحة، بتورطها في علاقة حب مع تشنغ جونغ، وحقيقة لم يكن دينغ بوه جانغ بهذه البشاعة، ولم تخطط شياو لان لتفصل أمها عنه.

ومنذ ذلك اليوم وهي تشعر بأنها مدينةٌ إلى أمها وتتوق إلى رد الجميل إليها.

وقد وعدتها أنها ستبتعد عن تشنغ جونغ، لكن دومًا كانت هناك مغرياتٌ تدفعها لتخفّض هذا الوعد، وربما وجود تشنغ جونغ كان الحافز حتى لا تفي بوعدها؛ لأنه الشخص الخطأ من وجهة نظر أمها.

قطعت شياو لان على نفسها عهدًا أن تغادر منطقة المصانع ولا تعود إليها إلى الأبد، لكن بعد أن تركتها ورحلت، لماذا تراودها رغبة ملحّة للعودة إلى هناك مرةً أخرى؟ لماذا ترغب في لقائه من جديد؟ كان الوشاح ذريعةً لوصل حبال الهوى، وكانت الرغبة في مساعدة تشنغ جونغ محطّم الفؤاد وردة المحب تهديها إليه! كانت تصرفاتها

تشبه قلب "الملفوف" الملفوف بإحكام، وكم أحببت هذا الشعور،
شعور أن كل ممنوع مرغوب!

ولم يكن في حساباتها أن خروجها عن الأعراف والتقاليد
وتجاوزها للحدود سيقودها إلى هذه المشاعر المضطربة ويجعلها
تنغمس في هذه الوحدة، وحدة تعجز أن توصفها الكلمات، وتقرب
أكثر من تشنغ جونغ، فأحسّت بحنين جارف لم تشعر به من قبل
أفقدتها توازنها وزلزل كيانها.

لكن متى بدأت هذه المشاعر؟ فجأةً أحسّت أنها تحتاج إليه،
تحتاج إليه بشدة. وعلى الرغم من أن جميع معارفها من الرجال كانوا
يفوقونه في كل شيء، إلا أنها دومًا تشعر بالغربة وهي معهم وكأنها
تقف على أناملها وتتظاهر بأنها في حالة معنوية مرتفعة، وكان شعورًا
في غاية الإرهاق. وربما لأنها لم تنسلخ عن جلدها، ولم تترك أصولها
في منطقة المصانع وهي تتعامل مع الطبقة الراقية.

فكانت لا تحسُّ بالارتياح وتنكمش على نفسها مثل القنفذ،
وعندما كانت تعود إلى منطقة المصانع حيث بيتها القديم وتقف أمام
تشنغ جونغ، كانت تستطيع أن تُرخي أناملها وتكون على طبيعتها
وعفويتها من دون أن تنسى أصلها، بل تتخلّى عن كل طموحاتها
وأحلامها في أن تكون فتاةً من فتيات الطبقة الراقية، وهي معه تستطيع
أن تبوح له بكل الأمنيات والآمال التي لن تنالها يومًا من دون خجل،
وتسخر من كل شيءٍ ومن أي شخصٍ في منطقة المصانع. شعرت أنه
من نعم الدنيا عليها أن يكون لديها صديقٌ مثل تشنغ جونغ لتحكي
له عن أحلامها بعيدة المنال، فكانت معه تنسى أحلامها البعيدة

وطموحاتها الغالية كما لو كانا يطفوان على غمامة بيضاء من غمامات السماء في عالمٍ نقي وبريء، بعيدًا عن كل مظاهر الحضارة والثقافة. لكن هذه العلاقة الأخوية لم تكن بمأمن من أن تتسلَّل إليها مشاعر الحب والغرام.

وكم من مرات كانت تديم النظر إليه وإلى الندبة التي كانت على ذقنه وبشرته الجافة، وتظل تراقبه وهو يدخن وينفث الدخان في الهواء، فكانت تحسُّ كما لو أن غيبوبة طافت بها، وتشعر وكأنه أحد أفراد أسرتها، وفي الوقت نفسه، يراودها حلمٌ من أحلام اليقظة وتتخيل أمها مع دينغ بوه جانغ وهي مع تشنغ جونغ.

ذات مرة حاولت أن تعيد هذه العلاقة إلى مسارها الطبيعي فقالت:

- ألسنا أقارب؟ ألسنا إخوة؟ ألسنت أنت أخي الكبير؟

وكانت المرة الوحيدة التي نادته فيها بأخي الكبير، فعندما تقابلت العائلتان للمرة الأولى وطلبت منها أمها أن تناديه بهذا الاسم شعرت بالضيق، لكنها الآن أحبت هذا الاسم وأحبت هذه الكلمة، لكن هذا لا يمنع أنهما أيضًا عاشقان.

فأشاح بوجهه عنها، وكالعادة غطي عينيه بيده، فقالت له بحنانٍ بالغ:

- أخي الكبير! أخي الحبيب!

لم يحتمل أن يسمع هذه الكلمة وكان يريد أن يُخمد هذا الصوت. وقد أحسَّت أنه سيحب هذه الكلمة "أخي الحبيب" آه، وكم تمنّت في هذه اللحظة أن يضمها إليه ويعانقها!

تردّدت قليلاً ثم اعتزمت أن تأخذ زمام المبادرة، فدنت منه قليلاً حتى استطاعت أن تشم رائحة أخيها الكبير، لكنها كبحت زمام عواطفها وتوقفت وهي في كامل إرادتها، لأنها كانت تعلم إذا اقتربت خطوة أخرى لن تستطيع أن تعود خطوة واحدة إلى الوراء. وفي هذه الأوقات كانت تستغرب من أن قسوة قلبها ورغبتها المجنونة في تحقيق النجاح والارتقاء إلى مستوى أعلى جعلها تمتلك قوة شريرة قادرة على أن تنتزع قلبها وتثد كل مشاعر الحب والحنان، وكأنها تخشى من نفسها على نفسها.

مرّت لحظات ثم استعادت قوتها وكأنها استيقظت فجأة من سباتها وقالت:

- بلغت هذا العام السادسة والعشرين، وأنت بلغت التاسعة والعشرين، تقريباً نفس العمر، وعليّنا أن نمضي إلى الأمام ونتطلع إلى المستقبل.

وما كانت إلا فترة وجيزة حتى نوت الزواج، واتخذت القرار بسرعة البرق حتى تتجنب أن تشرح وتبرر؛ لأنها ستكون تفسيرات وتبريرات غير مجدية، فلم تكن ترغب في أن تحسّ لطف أمها وقلة حيلتها أمام قرارها، فالأمر في النهاية مجرد زواج.

وبينما هي تشقّ طريقها لتجد لنفسها مكاناً بين الطبقات الراقية، تشكلت لديها فلسفة خاصة اختمرت مع مضي الوقت، وهي أن هذا الشيء الذي يسميه الناس الحب هو شيء مؤلم ويحدث بمحض الصدفة، ولا يمكن أن يأخذ بيد الإنسان ويرتقي به، بل يعوقه عن التقدم والمضي للأمام ويجعل سنين العمر أكثر شقاء، أما الزواج

فيمكن للإنسان أن يخطو عتبة الزواج بعقلانية وتدبر بل ويستغله أيضًا لصالحه. وكانت على يقين أن هذه الآراء ليست آراءً فردية، فمن يستطيع أن يقسم أن زواجه أو زواجها كان بدافع من حب صادق وجارف؟ أليس الزواج مطلبًا يسعى إليه الجميع؟

وهناك في مقلب النفايات والخردة بجانب غرفة الغلايات التي يتصاعد منها أبخرةٌ بيضاء كثيفة، طلبت شياو لان من تشنغ جونج بمنتهى العقلانية أن يختار لها شريك الحياة وكان جميع الرجال في نظرها سواسية، وقد علقت آمالها على الوقت، فكان الوقت مثل الغبار يسقط طبقة تلو الطبقة، ويحجب تلك المشاعر الفوارة التي انبثقت في أعماقهما، ويواري هذه العاطفة الصادقة ويخمد لهيب الحب قبل أن يشتعل!

(٣)

اختار تشنغ جونغ لها شريكًا رائعًا.

وكان خوانغ شين على قدر التوقعات، وعقدا بينهما اتفاقًا ضمنيًا ليتشاركا الحياة، وطوال أربع سنوات وهما يتعاونان معًا ويحرزان النجاح والتقدم، فحصلت شياو لان على وظيفة في إحدى المدارس الإعدادية، ووقعت شركته عقدًا مع الحكومة وانتقلا إلى بيتٍ مكوّنٍ من دورين (دوبلكس)، كما اشترى "فيلا" مستقلة في الضاحية الجنوبية، كما كان يفكران في شراء سيارة أخرى، وكان أصدقاؤهما من الأطباء والمديرين التنفيذيين للشركات، ودارت موضوعات أحاديثهم حول أفضل مدرب كرة تنس، والاستثمارات المالية والتسوق من متاجر الأغذية العضوية*، وأصناف الطعام التي يمكن تناولها في المطاعم الإيطالية وغيرها من هذه الموضوعات الأخرى. واستطاعا أن يواكبا هذه الحياة العصرية، لكن شياو لان أحسّت بملل رهيب، كان مللاً أشبه بسكينٍ يمزق جسدها على مهل ويأكله مثل السرطان في تأنٍ.

ذات مساء ذهب شياو لان لحضور حفل عشاءٍ فاخر مع خوانغ شين نظمته جمعية رواد الأعمال، وكان الحضور من الشباب الواعدين. راحت شياو لان تنظر إليهم وهم يتجولون ويشربون النبيذ

* تعرف الأغذية العضوية بأنها الأغذية التي تمت زراعتها أو إنتاجها من دون استخدام الهرمونات المعدلة وراثيًا أو المواد الكيميائية، كالمواد الحافظة والمنكهات. [الترجمة]

ويتحدثون بمنتهى الثقة في القاعة، واستمعت إلى حديثهم عن دعم بعضهم لبعض، ومشاركة قرائنهم نفس الاهتمامات، وكان هدفهم هو توسيع شبكة علاقاتهم الاجتماعية بطريقة أنيقة وبناء مجتمع عمل حضاري يعزز من أعمالهم، بينما أخذت النساء يتحدثن عن العناية بالبشرة وسفر الأطفال إلى الخارج للدراسة والرحلات وغيرها من هذه الموضوعات غير العجاجة، ويذكرن شيئاً عن أنفسهن أو عن أزواجهن، وكانت أحاديثهن تفوح برائحة تطلعات الأسرة نحو المستقبل، رائحة تسكر ولا يمكن أن يقاومها أحدٌ، وعلى الرغم من أنه إحساسٌ يثير التعب والإرهاق ويجعلهم دوماً يلهثون وراء تحقيق طموحاتهم، إلا أنه يشبه إلى حدٍ ما المقويات الجنسية، فبدا جميع الرجال والنساء متألقين ومنسجمين.

سكنت قطع اللحم الصغيرة في صحنها، وهي تفكر بحزنٍ في هذه الوليمة العامة بالسعادة والطموحات وسط الأضواء الساطعة والزهور والأطباق والكؤوس ومكعبات الثلج والبهارات وأطباق عامرة بالخضراوات واللحوم على وشك أن تسكب في الصحون.. كل شيء كان حاضراً، بينما في مكانٍ آخر، تحت نور قنديل زيتي يتيّم، تجلس عائلةٌ ليس أمامها سوى البطاطس غير المقشرة، يجلسون بصمت يتقاسمون آلامهم وأحزانهم ويحاولون أن يتسامحوا مع كراهيتهم لأنفسهم، ويبدلون قصارى جهدهم لتدفئة بعضهم بعضاً.*

وظلت تفكر وكانت الأفكار تدور في رأسها مثل كرة تنس الطاولة، تأتي وتروح، حتى ألمها رأسها وعافت نفسها الطعام.

* لوحة زيتية رسمها الفنان الهولندي فان جوخ عام ١٨٨٥ وتعتبر واحدة من أهم لوحات فان جوخ. [المترجمة]

وفي أثناء العودة إلى البيت رتب خوانغ شين ورائحة النبيذ تفوح من فمه جميع بطاقات العمل التي جمعها في الحفل، ونوى إقامة حفل صغير الأسبوع المقبل، ودعوة بعض الصفوة ليطرق على الحديد وهو ساخن، وقلبه عامرٌ بالأمل أن توقع شركته المزيد من العقود التجارية مع الحكومة.

قادت شياو لان السيارة وأبدت أنها توافقه الرأي وهي تحدّق في عجلة القيادة. وعلى طول الطريق رأت بعض المشاهد مثل: معبر للمشاة مضاء بالأنوار وغبار تحمله نسائم الليل وشخص يركض وهو يدفع دراجة، واثنين من الأجانب يضحكان ويأكلان أسياخ الكباب المشوي، وامرأة نحيلة الجسد تحمل على كتفها حقيبة قماشية متنفخة، وفجأة طافت بها موجةٌ من الأحزان وسرى البرد في أوصالها، وأحسّت كما لو أنها محتالة وليس من حقها أن تقود هذه السيارة، بل لا يلائمها سوى السير على الأقدام على معبر المشاة الكائن في الأمام!

وفي بعض الأحيان عندما كانت تجلس بصحبة خوانغ شين وبعض الأصدقاء، كانت تشعر بدوار، فتمد يدها وتلمس نفسها لتتحقّق أنها بالفعل موجودة في هذا المكان، فتحس أنها امرأةٌ منافقةٌ ومحتالةٌ، ولا صلة لها بخوانغ شينغ ويمكن أن تكون زوجة لأي رجل آخر من الحاضرين، وبعد العشاء تذهب معه إلى إحدى البنايات الفخمة ذات الخمس نجوم، وتسير تحت الأسقف الرمادية وتسمع جرس الأمن على البوابة، وترى الشقق الفسيحة حيث الأريكة والتلفاز موضوعان في نفس الوضع والاتجاه، كما يمكنها أن تخلع نفس الحذاء الذي تتعله زوجاتهم ذي الستة ستيمرات،

وتفتح أحدث مجلة مصورة وتشرب نفس ماركة الحليب ثم تقضي ليلتها مع نفس الرجل.

لماذا تشعر أنها كادت تفقد عقلها؟ لماذا تتمرد على حياتها؟ كانت في حاجة إلى صفة قوية تعيدها إلى أرض الواقع، قد فعلت المستحيل لترتقي وتعيش حياة الأثرياء، وتعلمت أن تطأ بقدميها على مشاعرها ولا تجعلها تعوقها، فلماذا يأخذها الحنين إلى الماضي؟ لماذا تشتاق إلى ليالي شارع مفترق الطرق؟ لماذا لا تستطيع أن تُلقي بذكريات الماضي في بحر النسيان؟ لماذا لا تقدر أن تترك وراءها الخسارات والأوجاع والآلام وشروخ القلب ودموع العين وتمضي من دون أن تلوي على شيء؟ لماذا لا يبرح ذاكرتها هؤلاء الأشخاص الذين ينظرون إلى السماء البعيدة من قاع بئر عميقة، وآلام سنين المراهقة وقسوة الأيام والليالي وهي تحاول أن تصعد في الدرج، وتخلي الجميع عنها، كل هذه الأشياء قد أدارت ظهرها لها ومضت في طريقها، فلماذا تريد العودة إليها؟

وإذا بصوتٍ يرنُّ في أعماقها: لا! لا تفقدي عقلك! إياك أن تهدمي حياتك، وعليك أن تحافظي على ابتسامتك وتظاهري بالرضا وتمضي إلى الأمام وتواصل المشوار الطويل.

نعم، كانت في بعض الأوقات تكره أمها وكأنها السبب فيما تشعر به من حيرة وتخبُّط، على الرغم من أنه ليس حقيقة، حتى إنها قللت من زياراتها لأمها لتجنب الحديث معها، فلم تجرؤ أن تكشف لها عن أفكارها المزعجة، ولم ترغب أيضًا في الاستمرار في التظاهر بأنها تحيا حياة حلوة تتلون بألوان مبهجة.

وحدث الحمل صدفة.

في إحدى الصباحات استيقظت واستلقت على جانبها، ووسط العتمة فتحت عينيها على وسعهما، وحدّقت في الرجل المستلقي بجوارها، لكنها لم تره، بل رأت شارع مفترق الطرق الكائن على أطراف شمال المدينة، بمصابيحه ذات النور الباهت وتلك الزاوية المعتمة التي لا يصلها النور، وذلك الرجل الذي دومًا يجافي النوم عينيه. كانت عيناها تدوران مثل قطعتي كريستال سوداوين احترقتا تَوًّا لتلقيا الرعب في قلب من ينظر إليهما، وأحسّت بخواء كبير، وفجأةً فتح الرجل بجوارها عينيه وأخذ يحملق فيها، فأدركت أنه خوانغ شين، لكنها لم تأبه به وانغمست مرةً أخرى في أفكارها الضبابية.

عدّل خوانغ شين من نومته ورنّا إليها بلطفٍ بالغ، ولو كانت تظاهرت بشيءٍ من اللطف لسارت الأمور بينهما على ما يرام، لكن العناد تملك منها وأبت أن تدعي شيئًا لا تشعر به، ونوت أن تترك الأمور تنهار، فهي لم تر خوانغ شين يومًا ولم تحبه يومًا، لم تحبه أبدًا! لكن ما عساها أن تفعل؟

فجأةً أدارت دفة التفكير في اتجاهٍ آخر، وقفزت إلى عقلها فكرةً شيطانية تشبه الفطر متعدد الألوان، فكرة قد تكون مجديةً وقد تكون غير مجدية.

ووسط ضوء المصباح الباهت استعادت قوتها مثل وحشٍ صغير، وفجأةً اعتلت جسد خوانغ شين، وأطالت النظر إلى وجهه، وراقبت كل حركات جسده العنيفة وهي تتطلع إلى الغد المنتظر. وكانت هذه البداية، التحم الجسدان في علاقة عنيفة تحقّق التوازن في حياتهما،

وتدفع بها إلى نظام صارم يجعلها إحدى أمهات الطبقة الرأسمالية الراقية، وتكون في أنتظارها مهمة شاقة وهي تربية الطفل، وتتدرج في الهرم الاجتماعي وتسعى وراء إدراك المزيد من الممتلكات والتعرف على المزيد من الشخصيات رفيعة المستوى. ولم تكن ترغب في إنجاب طفل من خلال زواج رومانسي أو من خلال زوجة مُحبة لزوجها، بل كانت تريد أن يكون الطفل سلاحًا يرشدها إلى الطريق الصحيح.

وبعد مضي شهر استفاقت وهي شاردة اللب منهكة القوة، وشعرت بالغثيان، ولم يكن غثيانًا يشبه غثيان الحوامل، بل كان سائر جسدها يتقيأ في سلّة النفايات. ذهبت إلى عيادة أمراض النساء بوجه شاحب، وكأنها تطفو على غمامة في السماء وهي تفكر في تحديد موعد مع الطبيب لإجهاض الجنين، وفي أثناء فترة انتظارها سمعت فجأة صوتًا غليظًا، زاخرًا بالفرح، يناديها يشبه ذلك الصوت الذي نادها ذات يوم في الجامعة.

(٤)

في السنة الرابعة من الجامعة التحقت شياو لان بدورة تدريبية في مجال إدارة الأعمال، وكان المحاضر متحدًا بارعًا ومحفّزًا ماهرًا، وولع بالاقتراس من العبارات الملهمة لتحفيز الطلاب، واستهوى شياو لان في ذلك الوقت مطالعة مثل هذه الكتب حتى أيقنت أن النجاح هو القيمة الوحيدة التي يدركها الإنسان، وكل شيء آخر لا قيمة ولا وزن له، وفقدت رغبتها في أن تصبح معلمة، وفكرت في العمل في مجال يتطلب الإبداع ويمكنها من اكتشاف مواهبها المكنونة، فمثلاً تعمل مديرة أو موظفة إدارية أو أي وظيفة من هذا القبيل. في تلك السنوات كان علم الإدارة موضوعًا ساخنًا، وكانت الكتب الأكثر مبيعًا تباع في المطارات ومحلات الكتب وتعرض في الندوات ويكتب عنها في الصحف، وشياو لان مثلها مثل فتيات جيلها من المهوروسات بالكفاح وتحقيق النجاح، حتى علمت أن ذلك المحاضر مجرد شخص عادي يقضي معظم وقته في مغازلة الفتيات، وشرح الطريقة المثيرة للجلوس وهن يضممن الركبة مع ترك مسافة إصبعين بينهما. لم تشعر بالاشمئزاز نحوه بل على العكس أحسّت بالارتياح، لأنها أدركت القيم الشائعة الفارغة والكوميديا الهزلية فيما يسمى بـ "علم النجاح".

لكن لماذا دومًا تتذكّر هذا المحاضر؟ لأنها عادة تتذكّر "مخطط هيكل السمكة" أو "مخطط الشجرة" الذي كان يرسمه بالطباشير

الملون على السبورة، ويتكون من فروع وكل فرع يتدلى منه مجموعة من المربعات الصغيرة تشير إلى القوى المختلفة، وينتهي عند مربع كبير يحمل النتيجة النهائية. فابتسمت هازئةً عندما استحضرت صورة هذا المخطط في ذاكرتها، فلم يعد هذا المخطط، الذي عفا عليه الزمن، صالحاً الآن للأعمال الإدارية، ولا يمكن أن تستخدمه لتحليل قضية أو مشروع، بل ستستخدمه لتحليل نفسها وكيفية الوصول إلى المربع الكبير في النهاية، وكيف ستعود إلى تشنغ جونغ بهذه البطن المنتفخة؟

ويمكن رسم مخطط هيكل السمكة بشكلٍ معكوس.

كانت العظمة الأولى الرفيعة للسمكة هو زواجها المدروس والمثالي من خوانغ شين، لكن لا بدّ من إضافة قوسين لتوضيح أن "الخطأ ليس خطأ خوانغ شين".

والعظمة الثانية هي عظمة لينة وتمثل تشن تشن.

وعند الحديث عن تشن تشن، لا يمكن أن تتحدّث شياو لان عن الصفقات والمضاربات المالية، وعند عقد مقارنة بين تشن تشن وغيرها من الفتيات الراقيات، فكان نسبة الذكاء الاجتماعي والعاطفي والعملي لديها أقل من المتوسط، فلا يسعها إلا أن تتجاهلها ولا تحفل بها!

لكنها هبطت عليها فجأةً في عيادة أمراض النساء مثل إله الخصوبة! وفي غمرة صراعها وحيرتها، إذا بتشن تشن تنتزعها من هذا الصراع وهذه الحيرة بثرثرتها وصخبها. أخبرتها وهي تضحك أن أباهما فقد الذاكرة، ولم تنس أن تحكي لها بمنتهى الفخر عن رائحة

خي بي الكريهة، ثم ربت على بطنها وقالت إنها حامل. وعفويتها جعلتها تقارن بين حالتهما، فقد علمتها تشن تشن أن الأشخاص الذين لا يمتلكون شيئاً لا يخشون الخسارة؛ لأنه ليس لديهم ما يخسرونه! فشعرت أنها حتى لا تضاهي تشن تشن ولا يمكن أن تقارن نفسها بها. وراحت تسأل نفسها: ماذا تخشى؟ فهمس هامساً في أغوارها: اتركي خوانغ شين! اتركي هذه الحياة وتخلي عن هذا الزواج الكاذب واهربي من هذا المصير المشئوم!

وضعت تشن تشن يدها على يسار سرة شياو لان بضع دقائق، وربت على بطنها في رفق فتحرك الجنين. وكانت تشن تشن محقة فيما قالته بأنها لا تمتلك شيئاً حقيقياً في هذه الحياة سوى هذا الجنين. أما العظمة الثالثة للسمكة تشير إلى شياو باي.

ومنذ عودته من الجنوب وقد التفته شياو لان كثيراً. تحدثا عن دينغ بوه جانغ وعن غيابه عن حضور الجنازة، ومطبخه العامر بالروائح الزكية والشحوم التي تملأه، والنافذة التي صنعها لبيتهما من قطع الخردة في المصنع، ورشوة الدراجة وقاموس أكسفورد الصيني الإنجليزي، ولم يغفلا الحديث عن بعض الحكايات حول فقدانه للذاكرة. كما تكلموا بشيء من التأثر عن ترتيبات أمهما لجنازته واعترفاً أنها كانت تكن لهذا الرجل مشاعر لم يقدر أحد أن يتفهمها على الإطلاق، وقد أدركا هذا الشيء بعد فوات الأوان. ران بينهما الصمت للحظات وكأنهما يعيدان حسابتهما بشأن علاقة أمهما بهذا الرجل، لكنها أحسّت أن شياو باي يرغب في الحديث عن موضوع آخر، فكانت تألف شكله وهو يحاول أن يخبئ شيئاً، فسألته على الفور:

— ماذا تريد أن تقول؟ هل الأمر خطير؟

في ذلك الوقت لم تكن بطنها كبيرة، لكنها أحسّت بشيء من التعب، فاضطجعت على الأريكة، ووقعت عيناها على الحقيبة القماشية التي كان دومًا يحملها معه.

فمسح ذقنه وهو يبتسم وقال:

- كل ما حكيته لك من قبل عن أن تشنغ جونغ معجبٌ بك، كانت كلها قصصًا من وحي خيالي، وأنا أعلم أنك تعرفين وكشفتِ كذبتني منذ وقتٍ طويل، أليس كذلك؟

فلو مأت برأسها ولم تجبه، فهو يتحدث عن أشياء بعيدة ولم تعد تمثل لها أي أهمية. أليس الحب -عادةً- يبدأ بسوء فهم وخداع وغش وكذب؟

فقال لها بلهجة حكيم كبير:

- أنتِ فتاةٌ ذكية وعقلك متفتح، وكان قرارك بالزواج من خوانغ شين صائبًا.

- لكن لماذا تتصرفين الآن بهذه الطريقة؟ لماذا انفصلتِ عنه؟ أخبرتني أمي أنك كنت تلتقين بتشنغ جونغ قبل زواجك، لماذا الآن فقدتِ عقلك؟

وأخذ يقلب بصره في الشقة الصغيرة التي استأجرتها في انزعاج.

لوحت له بيدها، في إشارة أنها لا تريد أن تستمع إلى مثل هذا الحديث، فما يقوله لا صلة له بوضعها الآن. واندهشت وسألت نفسها كيف عرفت أمها أنها على علاقة بتشنغ جونغ؟ ولماذا سكنت طوال هذه المدة ولم تتحدّث معها؟! وهذا جعلها تفقد الرغبة في العودة إلى البيت.

أغلق شياو باي عينيه ومرت لحظات ثم سألها بخجل:

- ألم تخبرك أُمي شيئًا عني؟

- لم نتحدث منذ وقتٍ طويل. أرجوك لا تخبر أُمي عن أحوالي، فلا داعي لتجعلها تقلق!

لا أظنّ أنها ستشغل نفسها بالتفكير في أمرك، فبالها مشغولٌ بي. سأبدأ معكِ بالحديث عن لاو شان.

لم يكن شياو باي يعرف الكثير عن لاو شان، من أين أتى؟ وإلى أين كان ذاهبًا؟ فلا يعرف شيئًا، وربما يكبره بعشرة أعوام وربما بثلاثين عامًا، فلم يستطع شياو باي أن يحدد فارق السن بينهما. فثمة أشخاص في الحياة لا يهمهم السؤال عن العمر أو الوظيفة، بل كل ما يهمهم هو كيفية السيطرة على الأشخاص والأشياء والتحكم حتى في الهواء الذي يتنفسوه.

عندما التقى شياو باي بلاو شان كان في العشرين، وبعد التخرّج عمل في المكتب المحلي للتخطيط ورسم الخرائط، وكان مكتبه في الجهة الشمالية من المدينة وظلّ يعمل به طوال عامين، وقد جعلته مسطرة القياس والتحديد الدقيق للأنهار والشوارع، يشعر أنه سيعمل طوال حياته محاصرًا، وكأنه صخرة صغيرة تنمو عليها الطحالب ألقى بها في مدينة لا يعرف بها أحدًا. وقد حاول بشتى الطرق أن يتعرف على فتاة، لكن لطالما كان يشعر بالاشمئزاز من الفتيات، وقد تركت مداعبة نساء منطقة المصانع في الصغر ذكرى أليمة في ذهنه، ورائحة أخته وأمه في أثناء فترة الطمث التي عبأت فترة طفولته، جعلته ينفر من جنس الفتيات نفورًا كبيرًا، وحديث الرجال الفاحش عن الفتيات،

جعله يتذكر تلك اليد الغاشمة التي تسللت من النافذة في الماضي وجعلته يرتعد من الخوف. كان شياو باي البدين صاحب البشرة الناصعة يظهر بوضوح بين فتية الجنوب أصحاب البشرة الداكنة والأجساد النحيلة، ودومًا كان يسير وهو ينظر حوله بخوفٍ وقلق، وكأنه طائرٌ صغيرٌ غادر السرب وضلَّ الطريق، ووسط هذه الحيرة وهذا الارتباك، جذب مظهره اللين الهش أنظار الأقوياء، وسال لعبهم ليمسكوا بهذا الصيد.

في اللقاء الأول، نظر إليه لاو شان بغطرسة، لكن نبرته كانت زاخرةً بلطفٍ غريب وقال: "تعال معي!"، فقاده عبر الشارع الرئيسي حيث توقفت سيارة "بيسات". كان لاو شان رجلًا طويل القامة نحيف الجسم، يضع في معصمه سلسلتين من الخرز.

لم ينشغل بالحديث مع شياو باي، بل صبَّ كل تركيزه على القيادة، بينما جلس شياو باي بصمت، وأخذ بين الحين والحين ينظر إليه، وأغلب الوقت كان يمد بصره من النافذة وينظر إلى أضواء البنايات المبهرة، فأحسَّ وكأن خدرًا لذيذًا سرى في جسده أوقف عقله عن التفكير، وأنه صار مثل ظلٍّ تابع لهذا الرجل، وتسلسل إليه شعورٌ بأنه يستطيع الاعتماد عليه، وبعد الآن لا داعيَ ليحمل همًّا أو يفكر في الشعور بالانتماء. ربما يكون لاو شان النهر الذي شق أمامه مجراه ليعبره، فأغمض عينيه مسحورًا بهذا الشعور، وأحسَّ بارتياح كبير.

وفي عيادة الطبيب النفسي حثه الطبيب على تذكر هذا المشهد، والحديث عن نظرات لاو شان يومها إليه، واعترف شياو باي أن الأمر كان غريبًا حتى إنه اندهش كيف تتولد مثل هذه الصداقة السريعة من دون أي تحفظات؟

فأمسك الطبيب بالقلم وراح يلعب به وكان قد نفذ صبره وقال:
- لا يمكن أن أصدّق كلامك! لا بدّ أن يكون هناك تفاصيل
أخرى، أرجوك فكر قليلاً؟

صمت شياو باي وكانت الجلسة دوماً تتوقّف عند هذه اللحظة
التي يحاول فيها أن يعود بالذاكرة، ليجد تفسيراً لما حدث يومها،
ولماذا رضح إلى لاو شان ومضى معه من دون أدنى لحظة تفكير
أو تردّد، لكنه شعر بالسعادة لما حكاه بعد ذلك للطبيب النفسي.
اصطحبه لاو شان يومها إلى غرفة موضوع فيها أريكة وسرير بنفس
الحجم، وأشعل مصباحاً فأشاع ضوءاً أحمر وأصفر وأرجوانياً،
فتبدى حجم جسديهما بوضوح، وأخبر شياو باي أنه كان يعمل من
قبل مصوراً فوتوغرافياً، ويفضل عادةً الغرف المظلمة، وقال وهو
يداعب عنق شياو باي:

- انظر، كأننا نسبح في هذه الألوان.

تعلق نظر شياو باي بالطبيب وقال بلهجة مؤكدة:

- لكنني لم أستطع أن أفعل ما طلبه وسرعان ما هربت!

تحدث بسعادة بينما ترك الطبيب في حيرة.

حاول لاو شان معه فيما بعد عدّة مرات، لكن شياو باي كان يقابل
عرضه برفض شديد، فيقول لاو شان بحزن وهو يربت على الأريكة
الوثيرة:

- انظر، كم هي ناعمة وكبيرة!

وفي المرة الأخيرة وهو يودع شياو باي أخرج بطاقته الائتمانية وقال:

- في البطاقة مبلغ مالي، اذهب إلى طبيب نفسي وتحدث معه، وإذا مضت المحادثة وتحسنت الأمور، تعال وزرني مرةً أخرى، فأنت لا تعلم كم أهتم لأمرك! فأنا لا أخطئ أبدًا في حكمي على الأشخاص! وسرعان ما حذف شياو باي وسائل الاتصال بلاو شان من هاتفه، وعلى الرغم من أنه أحبه إلا أنه كرهه في الوقت نفسه، لأنه قطع عليه الطريق الذي ظن أنه هو طريق الخلاص، وأوقعه في حيرة فسأل نفسه: ماذا سيفعل؟ وأين سيقف؟ وإلى أي فريق سينتمي؟

وبالفعل بدأ يزور الطبيب النفسي، وحدث هذا عندما هاتفته الطيبة وطلبت منه زيارتها بلهجةٍ جدية، فلم يستطع الرفض، خاصةً عندما ذكرت في الحديث اسم لاو شان، فرفض إلى طلبها وبالفعل ذهب لزيارتها، لكنه فيما بعد أحب هذه الزيارات، وأخذها على محمل الجدّ وتعامل مع مشكلاته النفسية كما لو أنه يعمل بمتهى الجد. وأحب إحساس أنه يجبر مشاعره على الاعتراف، وكأنه يجبر جسده على التخلص من الفضلات، فكان وجهه ينتفخ وتعتليه الحمرة ويشعر بالإجهاد، ثم يرغم مشاعره على الخروج والتحرر من القمقم.

كان الأطباء بارعين جدًا في التحليل النفسي، بينما كان يجهل بحقيقة نفسه، ولم يكن يعلم أن بداخله كل هذه المشاعر المكبوتة وكم عانى العذاب منذ الصغر! وكم عانى الألم والوجع! كان بالفعل طفلًا بائسًا افتقر إلى مشاعر حب حقيقية، ولم يفتقر فقط إلى مشاعر حب والديه، لكنه افتقر إلى كل مشاعر الحب، فهو لا يعرف معنى

الأسرة السعيدة والصداقات، طويلة الأمد، ومشاعر الإخوة الصادقة، ولم يعيش الأمن والأمان ولم يعرف قلبه معنى السكينة والسلام. كان الأطباء النفسيون يستخدمون لغةً علمية ومثالية في تحليل الحالة وتقديم الشروح، وعندما يشعر شياو باي بقلّة حيلتهم في تقديم التبريرات وأنهم وقعوا في دائرة الحيرة والظنون، سرعان ما ينوي المغادرة وعدم العودة مرةً أخرى، والبحث عن طبيبٍ آخر لبدأ رحلة العلاج من الصفر، ويحاول سبر أغواره والبحث عن مواطن أخرى للسعادة وللراحة.

في تلك الفترة أصبح مريضًا نفسيًا يعجز الأطباء عن تشخيص حالته، لكنه كان مريضًا مثاليًا، بوجهه القرمزي المتنفخ، وهو يغوص في صندوق الذكريات المنسية، وبطريقته في أعمال عقله واستعداده لتجريب كل طرق وأساليب العلاج الغربية، كما إنه كان لا يتأخر عن سداد أجر المعاينة. ويبدو أن التحرر من الإحساسات المكبوتة، وإعمال العقل وإرغام المشاعر على الخروج من القمقم كان لها بالغ الأثر، فبدأت شحوم الجسد المكتنز تخف رويدًا رويدًا، وبدأ ينحف الجسد السمين وكأنه ينضج للمرة الثانية، فاستطالت قامته القصيرة ولاحت العينان من وسط الشحوم واستدارت ذقنه، وبدت ملابسه فضفاضةً وكأنه فنانٌ بائسٌ فقير!

وراودته فكرةٌ خبيثة، لو رأى لاوشان شكله الآن ربما سيندم على أنه أعطاه بطاقته الائتمانية.

وكانت الطيبية الأخيرة في الجنوب امرأةً دميمة، نحيفة، ممثلة الفم، بأسنان صفراء تبدو عليها آثار النيكوتين، لكن كانت الثقة بالنفس تملؤها. ألقت أمامه مجموعة من الصور الإباحية وجعلته يصنفها،

وأخذت تمنع النظر فيه وتسجل المدة التي استغرقها في النظر إلى كل صورة، راحت تخلع نظارتها ذات الإطار السميك وتضعها مرة تلو المرة وهي تطرح عليه الأسئلة الغريبة مثل: ماذا تشعر؟ هل تأثرت؟ هل راودتك رغبةٌ ما؟ ما أكثر صورة أثارت نفورك؟ لو كنت ستختار إحدى نجومات السينما لتكون شريكك، فمن تختار؟ هل هذه الصورة تثيرك أم تشعرك بالنفور؟

لم يعتد شياو باي هذه الطريقة في الحديث، فتشتت ذهنه وتوترت أعصابه، فقد أحب كثيراً الطريقة السابقة في العلاج والتحليل النفسي.. وكم كانت امرأةً قبيحةً وشرسة!

في النهاية وضعت القلم وقالت بحزم:

- أنت لا تزال تعيش في مرحلة التعلق الفموي*، ونفورك من جنسك ومن الجنس الآخر بسبب جمود الوعي الشخصي، رغم أنك مررت بمرحلة من النمو الجسدي، والآن تسيطر عليك احتياجاتك ورغباتك، لكن رغباتك لا تزال عالقةً في الماضي، هل تفهم كلامي؟ لذا عليك التمهّل والتريث وربما بعد فترة قصيرة تعود إلى طبيعتك مرةً أخرى!

ثم شرعت تدير الكرة المعدنية الكبيرة على مكتبها، وكانت كرةً مليئة بالرموز ونظرت إليه بمكر وقالت:

- لكن ليست هذه هي المشكلة، أخبرني هذه الكرة أنك تخفي شيئاً في قلبك، وأنت ارتكبت خطأً كبيراً في الماضي وكانت العاقبة

* التعلق الفموي سلوك قهري غير صحي يتعلق بالفم مثل التدخين ومضغ العلكة وقضم الأظافر. ويعتقد فرويد أنه إذا لم يتم تلبية احتياجات الطفل أثناء المرحلة الفموية من النمو، سيخلق حاجة مستمرة للتخفيف الفموي في مرحلة البلوغ. [المترجمة]

وخيمة، وينبغي أن نحل هذه المشكلة حتى تخرج من فترة التعلق
الفموي، وستحدث في هذا الموضوع عندما ألقاك في المرة
القادمة!

غادر شياو باي العيادة بوجهٍ شاحب وكان الهواء الثقيل يلتصق به
مثل كفٍ يلفُّ جسده. ولم يرغب في رؤية هذه الطيبة مرةً أخرى، فقد
أحسَّ بالخوف من هذه الكرة المعدنية الكبيرة وهي تحركها وترى
بداخلها أشياء مخفية، وتكشف لها أسرارًا مقبورة ثم توقفها لتسأله.
حتى إنه شعر في قرارة نفسه أن جميع الأطباء الذين زارهم يستخفون
به ويشعرون بالأسف نحوه!

في تلك الليلة الليلية، تمددَ في الفراش وأحسَّ بسخونةٍ شديدة
تحتاج جسده، وكأنه يركب سفينة تتقاذفها الأمواج العاتية.

وخلال هذه السنوات كانت تأتيه الأخبار من منطقة المصانع مثل
حركة التطهير والإبادة وتسريح العمال وأحوال نقابة العمال والزواج
وملك الخردة وفقدان دينغ بوه جانغ للذاكرة ومتجر الزجاج وغيرها
من الأخبار الأخرى، لكن جميعها كانت تمر عليه مرور الكرام، فيما
عدا خبرين فقط؛ وهما استقالة تشنغ جونج وفتح متجر الزجاج،
والثاني هو زواج شياو لان المفاجئ، وكان ما أثار حساسيته أنه تلقى
الخبرين في نفس الوقت، فساورته الشكوك. ولا شك أنه كان في
مقدرته أن يتصرف كالعادة ويدفن رأسه في الرمال مثل النعامة، وكان
شيئًا لم يكن، لكن تلك الطيبة النفسية إذا بها تقفز أمامه وتوقظه،
وتجعله يفتح عينيه على وسعهما في جوف الليل وتضيء ذاكرته
وكانها أضحت مرضًا شرسًا يهاجمه.

في الصباح الباكر وجد نفسه قد سقط من فوق الفراش، ووصل إلى الأرض وساقاه المائلتان تضغطان على بعض طرود الشحن، وكانت تحوي الملابس الصغيرة التي أرسلها له تشنغ جونج قبل تأسيس متجر الزجاج، وأحسّ بألم في أصابعه، فانتبه إلى أنه يضغط على الحقيبة بقوة. أحسّ بارتباكٍ شديد، وشرع يسأل نفسه: هل هذا ما تنبأت به تلك الطيبة المشعوذة؟ وكان عليه العودة إلى موطنه القديم والبحث عن شيء مماثل لحالته ليعيد إصلاح ذاته.

وقبل أن يغادر الجنوب لم ينس شيئاً من أغراضه، وفتح الصندوق القديم وأخرج دفاتر اليوميات القديمة، وكان أكثر من عشر سنوات قد انقضت وصارت الدفاتر أوراقاً هشة صفراء، وفجأة اضطربت مشاعره ولم يجرؤ على فتحها وسرعان ما حملها في عصبية، وكأنه يحمل ذكريات الماضي المبعثرة هنا وهناك، ثم فتح فمه وأخذ هبات الهواء إلى صدره وكان شيئاً ما يؤلمه.

حزم الملابس القديمة مع الدفاتر ووضعها في أكبر حقيبة سميكة بسحاب.

وعلى الرغم من أن لسانه قد جفّ بعد الحكي الطويل، كما إن هذا الحديث كان قرب طلوع الصباح، إلا أنه أخرج من الحقيبة التي وضعها بجوار الأريكة دفاتر اليوميات، وأمسك بها ويده ترتعش وكأنها مكسورة، ثم ألقى بها أمام شياو لان بقوة.

خيّم الليل ثقيلًا وسادَ السكون المكان، وكانت نصف أضواء المدينة قد انطفأت، ولا يمكن أن يتضح في أي عام وفي أي شهر كتبت اليوميات. أحسّت شياو لان بتعبٍ شديد ولم تحتمل الجلوس، فوضعت يدها خلف ظهرها، ودموع الحزن تنهمر منها وهي تقلب في

دفاتر اليوميات وشرعت تقرأ كلمات مثل: الهواء في منطقة المصانع،
يد تسلت من النافذة، لا كلمات في يوم الأربعاء، أصناف طعام
دسمة...

فتدفقت دموع الأسف والألم شلالاً، ورن صوتٌ في أعماقها:
لماذا لم تنتبه من قبل أن حيلته في التوفيق بينها وبين تشنغ جونغ لم
تكن من فراغ؟ هذا الأخ الصغير المسكين، كان هو الشخص الضعيف
الوحيد من بين الأفراد الستة، وقد علق آمالاً عريضة على لمّ شمل
العائلتين. أحسّت بالذنب عما حدث في الماضي، ولامت نفسها
لأنها لو تعاملت معه كأختٍ حقيقية، حتى لو كانت توبّخه وتنهره،
لما وصل إلى هذه الحالة التي هو عليها الآن، على أقل تقدير ما كان
سيمضي مع رجلٍ غريب من دون أدنى اعتراض!

وتذكرت ذات أربعاء أيقظها في جوف الليل، وهو يتشبث بحافة
فراشها، وكان ينتفض مثل ورقة شجر تقف في مهبّ الريح، وأخذ
يقصّ عليها حلمًا ودموعه تنهمر. أخبرها أن شخصًا في الحلم طلب
منه أن ينادي كلمة "أبي"، فتعرق جبينه وحاول جاهدًا أن يفتح فمه
وينادي، لكن تعذرت الكلمة أن تخرج من فمه وكأنه يتحدث بلغة
أجنبية لا يجيدها. كان بالفعل لديه أب وكم من مرة ناداه بأبي، لكن
ماذا يمثل له الأب؟ لم يكن يعرف بالفعل معنى الأبوة. "أنت لا
تعرف! قل أبي!"، قال الصوت وهو يقهقه عاليًا، وكانت الضحكة مثل
صفعةٍ مدوية هوى بها على وجهه.

بكى شياو باي وأحسّ أن قلبه قد تحطم، فتدثر باللحاف جانبها
والتمس منها أن تحكي له عن أبيه.

تذكرت شياو لان أنها ليلتها أدارت رأس المصباح حتى يصل الضوء إلى سقف الغرفة، فأشاع فيها جواً غريباً. نظرت إلى هذا الضوء وشرعت تقصُّ عليه بفخر قائلة:

- كنت وقتها صغيراً جداً وقد مكث أكثر من عام في المشفى فلا يمكن أن تتذكره. أنا الوحيدة من بين العائلة التي كانت تهتم لأمره، أفكر فيه طوال الوقت، وطوال هذه السنوات ولم يغب عن بالي لحظة واحدة، حتى لما كنا نذهب إلى "هناك" كان دوماً في عقلي وقلبي، وكنت أحكي له عن كل ما أراه وكل ما أفكر فيه.

صدمه حديثها وسألها بخجل وكأنه أحد الجيران قد انتقل للعيش حديثاً بجوارهم:

كيف كان شكل أبي؟

- كان دوماً ينتعل حذاءً أسود لامعاً ويجيد الحديث بالروسية، وحاول كثيراً أن يعلمني كيف أتحدثها وكما تعلم هي لغة صعبة لكنني تعلمتها، وكان يجيد الحياكة على ماكينة الخياطة وتقليد الموديلات من مجلات الأزياء والموضة، وذات مرة فصل لي سترة تزلج وردية وكانت أول سترة تزلج ترتديها فتاة في المدرسة، وكان يجيد أيضاً العزف على الهارمونيكا، واعتاد أن يعزف لي قبل النوم وصوتها العذب كان يجعلني أغط في نوم عميق. وبعد العشاء كان يصطحبنا للتتزه، كما كان يهوى إلقاء النكات.

بدت وكأنها تمتلك مستودعاً من الذكريات عن أبيها وراحت تخرجها ذكرى تلو الذكرى.

فقاطعها شياو باي وقال:

- هل أبي كان يحبني؟

- لا تكن أبله! وقتها لم تكن حتى تفهم ما يقوله من نكات ولم تكن حتى تعرف معنى النكتة.

تطلعت إلى الماضي وكأنها طرف ثالث متجرد من المشاعر، وكانت تعلم أن هذه الحكايات ليس حقيقية مائة بالمائة، فقد نسجت الكثير من الأكاذيب عن أبيها، كما لو أن لها مطلق الحرية في أن تبتدع حكايات عن أبيها، وكأنه ملكٌ لها وحدها، وهي الوحيدة التي لها الحق في الحزن عليه. وقد أضافت أشياء جميلة عن أبيها مما أضفى شيئاً من العمق على حديثها. وكشفت عن هذه الذكريات بسعادةٍ وبقسوةٍ، وراحت تتأمل أخاها الذي لم يكن يعرف شيئاً عن أبيه وملأها الرضا بحزنه وعزلته، ومن يدري ربما هذه اللامبالاة وهذه القسوة من دون قصد جعلتا أخاها يتردى إلى الهاوية!

ولم تجرؤ أن تعترف له أنها كانت طوال هذه السنوات قاسيةً وأنانية، وكانت تتعامل مع مشاعر الآخرين على أنها أشياء تافهة لا تعيرها اهتماماً كما لو أنها نبات مزروع في البيت أو قطعة من الأثاث، اليوم مثل الأمس والأمس مثل الغد ولا شيء يتغير فيها، فقط كانت تتباهى بأمجادها وتتغنى بكفاحها، وكانا هما الشيشين الوحيدين اللذين توليها اهتماماً، وربما كانت تُلقِي باللوم على أبيها؛ لأنه رحل عنها في وقتٍ مبكر وتركها وحيدة تواجه هذا العالم، فلو كان حياً لأحبها ودللها واحتواها، ولم تكن بلغت مشاعرها هذه القسوة وهذا التبلد. أحسّت بفضاعة الأمر وسألت نفسها: هل فات الأوان؟ ولم تعد تتوق إلى شيء، وكل ما كانت تتوق إليه هو أن تظل تبكي وتبكي، وتتفجر داخلها ينابيع من الألم والخوف والحب مثل الآخرين.

رتبت دفاتر اليوميات وقالت:

- اسمع أيها الصغير، مشكلتك بسيطة، وليست خطيرة كما تعتقد. كل ما هنالك أنك في حاجةٍ إلى التأقلم مع الأمور، وأنا مثلك أحتاج إلى هذا التأقلم. أنا معك ولن أتركك، اطمئن مهما يحدث فأنا معك ولن أتركك، وسأكون لك أختًا رائعة!

صفق شياو باي وأرخى وجهه وكأنه لا يبالي بكلامها، ثم أعاد دفاتر اليوميات إلى الحقيقة وفجأةً تغيرت لهجته وقال:

- عودي إلى البيت وتحديثي مع أمي في موضوعك. لا يمكن أن نكون عبثًا عليها أنا وأنتِ، كما إن البيت سيهدم في الشهر المقبل. فمدّت يدها وأمسكته من بطنه وعانقته وكأنه طفلٌ يبلغ الثمانية ربيعًا ومات أبوهما للتو، وأحسّت بدموع حارة على ظهرها فهمست قائلةً:

- من المفترض الآن أن تكون فهمت لماذا أريد الانفصال عن خوانغ شين، أنا مثلك تمامًا أبحث عن نفسي وأتمنى ألا يكون قد فات الأوان لأجدها. أتمنى من كل قلبي أن أكون ابنةً بارّةً وأختًا رائعةً وأما صالحةً.

- ولا ترغبين في أن تكونين زوجةً فاضلةً؟

أفزعها سؤاله المبالغت وتردّدت قليلًا ثم أجابته:
- دعنا ننتظر إذا جاءني الفرصة.

وبعد أن غادر شياو باي وقفت طويلًا في النافذة تنظر إلى الأنوار التي بدأت تضاء رويدًا رويدًا، والأفق البعيد الذي بدأ يتشكل شيئًا فشيئًا، وسرّبًا من الطيور خرج في الصباح الباكر، وفجأةً تحرّكت

مشاعرها ونوت العودة إلى البيت القديم لتستعيد كل الأشياء التي تركتها خلفها ورحلت. وفكرت أن هذا القرار هو أيضًا في صالح خوانغ شين، فلا بد أن يجد زوجةً أخرى تحبه ويحبها.

وتوقفت في هذه اللحظة فكانت عظام السمكة في مخطط هيكل السمكة تشير إلى تركها لخوانغ شين وإنجاب طفل، لكنها تخشى أن تصبح أمًا عزباء كما أنها تخشى ردة فعل أمها، فعليها أن تترث قليلًا ولا تعبر الخطّ الآن مع تشنغ جونغ. ثم طعنتها عظمة السمكة الرابعة، وجعلتها تنزف وكانت السمكة الرابعة هي وداع البيت القديم تحت زخات المطر.

ولم تكن في ذلك اليوم ابنةً بارة بأمها، لكن كان للطقس صلةً وثيقة؛ فقد أشعل المطر الغزير لهيب غضبهما وجعلهما يتصرفان بعدم حكمة وتهوّر، كما أخطأ مشاعر الحب بينهما. لم يستغرق اللقاء نصف الساعة، مرّ منها عشرون دقيقة في شجارٍ عنيف بسبب تشنغ جونغ، واشتعلت فيه ثورة الغضب وتأججت نيران الكراهية.

وقد ضربت بعرض الحائط نداء شياو باي، وأدارت لهما ظهرها ومضت تحت المطر وغادرت البيت القديم، وكلما ابتعدت عن أمها أدركت أنها لم تكن صادقةً فيما قالته لها، ولكن حتى لو لم تفِ بوعداها لأمها وحتى لو أخذ تشنغ جونغ الأمر على محمل الجدّ، فالفكرة في حد ذاتها مجنونةٌ ومحفوفةٌ بالمخاطر.

جعلت موجة الأمطار السخية الدماء تغلي في عروقها، وتفجرت داخلها موجةٌ من المشاعر هبّت عليها من سنين العمر المنقضي، وجلبت معها ذكريات سنين راحت واشتعلت في أعماقها مثل

ومضات برقي خاطفة. أحسّت أن كل شيء ممكن؛ فمن الممكن أن يجتمع الحب والصداقة معًا، كما يمكن أن تكون زوجةً صالحةً، فوطنت النفس على أن تحمل نفسها ببطنها الكبيرة وتذهب إلى تشنغ جونغ، ومهما كانت نتيجة اللقاء حتى لو أشاح بوجهه عنها أو ضمها إليه وعانقها بحنان، ستتقبل كلمة القدر وترضخ لأمره مهما كانت مرارته وصعوبته!

وربما يكون القرار قرارًا متهورًا، لكن لحسن الحظ كانت معها تشن تشن، تدعمها وتشد من أزرها، لأنها هي الأخرى تعاني مشكلة حملها الكاذب وعليها حل هذه الكارثة، فتخيلت الصورة كالاتي: هي وتشن تشن مثل محاربتين لا تخشيان الموت تعقدان ميثاقًا، وتمسك كل واحدة ببطنها؛ واحدة بطنها حقيقية والأخرى بطنها مزيفة، مثل قبلتين على وشك الانفجار، واحدة تمضي جهة اليمين تبحث عن خي بي، والأخرى تمضي ناحية اليسار تبحث عن تشنغ جونغ، كل منهما تحاول أن تصلح ما أفسدته وتعانق حبها بكل ما أوتيت من قوة ومن حيل!

وكان مخطط السمكة يرشدهما وينير لهما الطريق.

(٥)

كانت عواقب الانفجار المدوي أكوامًا من الزجاج المتهشم، فقد تحطّم عددٌ لا حصر له من نوافذ البيوت وشرفات زجاجية وأبواب منزقة وشاشات تلفاز وزجاجات نبيذ وطاولات ومزهريات زجاجية كبيرة وصواني فاكهة وأحواض سمك وغيرها من الأشياء، كما تحطّمت جميع أبواب ونوافذ البيوت المتراصة على الجانبين في الشارع الأقرب لمكان الانفجار، وصار سكانها مكشوفين للمارة كأنهم في عرضٍ مسرحي ويقفون على خشبة المسرح. فكان بوسعك أن تقف وتراهم وهم يطوون ملابسهم الداخلية أو يقفون في المطبخ يقطعون اللحم والخضراوات، أو يلصقون أوراق الجرائد القديمة على النوافذ، فبدوا وكأنهم عراة تمامًا. وكان الأمر في غاية الإثارة والتشويق.

وطوال أسبوع كامل، بعد وقوع الحادث، ظل الأهالي يمسكون بـ"المقشّات والجواريف" ويزيلون أكوام الزجاج المتهشم من على الطرقات في عدم اكتراث، وكأنهم يزيلون آثار المفرقات النارية بعد انتهاء الأعياد. راحوا يكنسون الزجاج المكسور وهم يتحدّثون بحماسة بالغة عن الانفجار وتأثير الانفجار على شارع مفترق الطرق، ويتحدّثون عن أعداد الضحايا الذين أعلنت عنهم وسائل الإعلام، ويقارنونها بالأعداد الحقيقية (خاصة لو وجد شخصٌ يعرف أحدًا

من الضحايا.)، وعن التحقيق في سبب الحادث والتعويضات التي ستدفع (وكانت التقديرات تتضاعف مع ازدياد حماسة المتحدثين)، والموظفين الصغار الذين سيقدمونهم كبش فداء للحادث، وأوشكوا أن يفقدوا وظائفهم وغيرها من هذه الموضوعات. حتى النساء والأطفال كانوا يتحدثون بعبارات طنانة، مثل التي تناقلتها وسائل الإعلام، مثل: "تسرب غاز البروبيلين**"، و"التعاقد من الباطن على أعمال الهدم"، و"فقدان رسوم وخرائط الأنابيب المارة تحت الأرض" وكأنهم يتحدثون عن الخيار والقرع المر، الموجود في سلال الخضراوات.

أما عن الأنابيب المارة تحت الأرض والتي كانت سبباً رئيسياً في وقوع الحادث، فراح الأهالي يتحدثون بمنتهى الفخر عن أن وجودها دليل على وفرة الإمدادات التي تتمتع بها منطقة المصانع، وكانت هذه الأنابيب متشابكة ومصممة بطريقة في غاية التعقيد أكثر من سترة صوفية غزلتها فتاة بيديها، وكانت هذه الأنابيب مسؤولة عن نقل غاز الإيثيلين والبروبيلين والكلور وسائل غسيل الزجاج والمذيبات، وبعضها مسؤول عن إمداد الغاز الطبيعي والديزل، والبعض الآخر يصرف الميثانول والزيلين** والغازات العادمة والنفط ومياه الصرف الصحي، فكل ما يخطر على بالك تجد له أنابيب صرف، وفي أماكن أخرى تكون الأنابيب مسؤولة عن التزويد بالمياه وكابلات الهاتف والغاز. وهؤلاء العمال الذين ركبوا ومدوا هذه الأنابيب تحت الأرض، استطاعوا أن يركبوا أطناناً من الأنابيب دفعةً واحدة وحققوا

* غاز عديم اللون ذو رائحة نفطية وقابل للاشتعال بسرعة. [الترجمة]

** يُعرف بزييت الخشب، هو سائل هيدروكربوني قابل للاشتعال ويستخدم كمذيب وكمادة أولية في صناعة الأصباغ والمواد المتفجرة. [الترجمة]

نتائج طيبة، ولا يمكن أن يفوتوا هذه الفرصة الذهبية، لذلك لم يحملهم الأهالي المسؤولية، والوحيد الذي ألقوا باللوم عليه هو ذلك الرجل الذي أشعل فجأةً سيجارة في شارع مفترق الطرق، وكانت أنفاسهم تحتبس في صدورهم وهم يتخيلون مصيره المأساوي، لكن في النهاية كل ما كان يشغل بالهم التعويضات التي ستُصرف لهم.

شاع بينهم أن التعويض عن كل متر مربع سيبلغ أكثر من مائة يوان، وكان هذا أعلى من سعر السوق. وقيل أيضًا أن هناك بعض الأهالي حطموا النوافذ والأبواب الزجاجية القديمة التي لم تتهشم وقت وقوع الانفجار للحصول على تعويضات!

وتحدثوا عن أن هناك ابنًا من عائلة دينغ يمتلك متجر زجاج يقع على رأس الشارع، قريبًا جدًا من الانفجار، والمتجر من أعلى إلى أسفل ومن الداخل والخارج مصنوعٌ من الزجاج، فلا بدّ أنه سيحصل على تعويضاتٍ خيالية أكثر مما يحصل عليه من تجارة الزجاج، لا شكّ أنه سيعقد صفقات هائلةً على مدار العام. هذا الشاب تعيس الحظ قد فارق الحياة بعد أن انفجر متجره بالكامل. هذا المسكين رحل عن الدنيا وهو لا يزال أعزب!

وبينما كانت شظايا الزجاج المكسور ترقص وتحدث صوتًا تحت "مقشات" الأهالي في شارع مفترق الطرق، كانت شياو لان ترقص على حافة الهاوية، وظلت راقدةً في المشفى طوال خمسة أيام بين الحياة والموت، وعلى خدها الأيسر ندبةٌ حمراء تشبه بتلات الزهور.

وعندما وقع الانفجار فقدت وعيها للحظات ثم جابت واحة الخيال، فمهما حدث كان عليها الذهاب لمقابلة تشنغ جونغ.

رأت نفسها قد وصلت أمام متجر الزجاج ثم توقفت وأحسّت بالخجل. نظرت إلى نفسها في المرأة الكبيرة الموضوعة أمام الباب وأعدت ترتيب شعرها وإصلاح الوشاح حول عنقها، ولا تعلم لماذا أحسّت أن الفتاة التي ترى ظلها في المرأة تبدو حزينّة وغير واثقة من نفسها، فابتسمت لنفسها في المرأة وشجعت نفسها قائلة: عندما أمضى إلى الداخل سأعانقه بشدة! فلم يتعانقا يومًا، واليوم ستعانقه حتى تتكسر ضلوعه وتتعلق به كقشّة هشّة تتعلّق بالمياه، وتكشف عن حب كبير قبرته طوال هذه السنين في قلبها المتيّم، وتسكب في أذنه كل كلمات الحب والشوق والحنين ويتناجيان كعاشقين.

وفجأة قلّصت بطنها وسحبته إلى الداخل، وانتبهت إلى أنها حامل وبطنها منتفخة وتشبه بائعة البالونات، وتبدو قبيحة جدًّا، وأحسّت أنه من المستحيل أن تعانق أي شخص وهي على هذه الحال!

فطافت بها موجة من الأحزان وأوشكت الدموع أن تنبثق من عينيها، وتمنت لو كانت لا تزال فتاة نحيفة، ويعود الماضي الذي كان، تعود فتاة في الثانية والعشرين أو فتاة لا تزال في عامها الجامعي الأول.

وإذا بها تقف أمام الباب الزجاجي فأحسّت أنها عادت إلى بيتها القديم، وتذكّرت لقاءاتهما قبل زواجهما، وكيف كان يحافظان على هدوءهما ويكبحان زمام مشاعرهما، وكأنهما ينهلان اللحظة الحاضرة من نهر تكاد تجفّ مياهه، لكنه كان نهرًا رقيقًا لا يمكن أن ينضب أبدًا!

وعندما كانت يدها على وشك أن تفتح الباب، سمعت صوتًا وإذا بالباب ينفتح تلقائيًا، فمضت إلى الداخل وألقت نفسها واقفة على

شاطئ أبيض من الرمال، وضباب كثيف يملأ حدود السماء فوقها، ولم يكن أحد في المكان ولم تر تشنغ جونغ، لكن لماذا لم يكن في استقبالها؟ فقد تحدث كل الصعاب لتأتي وتقبله، والآن جاءت إليه بقلب ملهوف، ونسج خيالها الرؤى العذاب لهذا اللقاء الموعود.

هل التوقيت خاطئ؟ هل لا يرغب في رؤيتها؟

فأحسّت باليأس وراحت تتجول في الفضاء القائم أمامها، وفجأة خطر على بالها مقبرة أبيها "رقم ٦٤٥٠٣، الغرفة رقم ثمانية، الطابق الخامس، منطقة رونغ يانغ"، حيث اعتادت زيارته، وكان هناك الكثير من الموتى وحفظت جميع أسمائهم، كما تذكّرت مقبرة عائلة دينغ والخوف الذي شعرت به يومها كما لو أن المقابر الغارقة في صمت تلوح إليها وتحييها وتتمنى لها الحظ السعيد، كما تذكّرت عندما اصطحبها تشنغ جونغ هي وشياو باي للنزهة في المقابر تحت أشعة شمس الربيع الدافئة وفوق العشب الأخضر الزاهي.. لكن لماذا تكرّر هذا المشهد الآن؟ هل تمضي شياو لان نحو الموت؟ وكانت تمضي إليه بمنتهى الحب وبمنتهى الرضا.

لم تخش الموت ولم تأبه به، فالموت لا يعني الاختفاء بل هو مجرد تغيير المكان والعيش في قلوب الآخرين، ألم يزل أبوها يسكن قلبها حتى اليوم؟ وخوانغ شيو مينغ زوجة دينغ بوه جانغ ألا تعيش في قلبه دومًا؟ كل شخص يرحل عن الدنيا لا يفارق قلب أهله وأحبابه. وفي هذه اللحظة هفت روحها إلى شيء واحد فقط، وهو أن ترى تشنغ جونغ حتى لو تحدّث معه بضع كلمات فقط.

انعطفت عند الزاوية وإذا بالشاطئ الأبيض الرملي يستحيل إلى شارع مفترق الطرق الصاخب، لكن لم يكن الزحام بسبب الناس،

بل لقطات من الذاكرة راحت تدفعها وتمر من أمامها وتكاد تسقطها أرضاً: اللقاء الأول على مائدة العشاء قبل أربعة عشر عاماً، والنظرات المختلصة في عشاء السبت، وعيناه الضيقتان وهو يتحدث عن بعض المصطلحات الكيميائية عن الزجاج، والكشاف الأخضر الصغير الذي أصر على شرائه لها، ولقاء تحت المطر في شارع مفترق الطرق وهو يحاول أن يحمي رأسه ويتفادى اللكمات وقت الشجار، وارتباكها عندما زارها في الجامعة، ولقاؤهما في المصنع المهجور وفحصها لكدمات ظهره، ومساعدته في اختيار شريك الحياة، حتى مشهد حلوى الزفاف وهي تذوب في فمه وسط القبلة الخاطفة. ووسط الظل والنور اللذين كانا مثل سياج حديدي. تدافعت ذكريات الماضي مثل حوريات يتدافعن أمامها في عجالة، فالتمست منها أن تنتظر أو تتمهل وتبقى قليلاً، لكن كانت الذكريات كما خزانة طعام لعائلة فقيرة معدومة ومثل فقاعات مائية ومثل حبات ندى الصباح ومثل سراب خداع، فمدّت يدها وتوسلت إليها أن تبقى ولا ترحل حتى لو تبقى لحظات قصيرة، لكنها مضت بعيداً بمكر وبقسوة من دون أن ترحم توسلاتها!

فركضت شياو لان تبحث عنه وسط الضوء، وفي النهاية رآته وهو يجلس من دون اكتراث على الرصيف، يدخن سيجارة وينفث الدخان في الهواء، لكنها عجزت عن رؤية هذا الوجه الذي تألفه جيداً، وكأن ضباباً كثيفاً حجبه عن العيون أو كأنه صار مثل نقطة حبر سوداء، سقطت في حضن الماء، ثم رحل إلى الأبد حاملاً معه وداعها الأخير وصلواتها.

(٦)

توقفت وتمنّت لو تبقى هناك إلى الأبد وتنام وسط الغمام والماء..
تنام إلى الأبد.

ظلت شياو لان في غيبوبة وقتًا طويلاً، ولم يكن الأطباء متفائلين بشأن حالتها، وكانوا يعتقدون أنها فقدت الرغبة في الحياة، كما أن طفلتها التي ولدت قبل الأوان، لم يدعوا أهلها يرونها ولم يتحدثوا كثيراً عن حالتها، فكانت الممرضات يدخلن ويخرجن في عجلة، ولم يتسن لهن الرد على أسئلتهم. كانت تشن تشن تأتي كل يوم لتطمئن على حالتها، وبدا شكلها مزرّياً ووجهها متنفخاً مثل العجين، وكانت ملابسها غير مهندمة وتسير وكأن قدميها مقيدتان بالأغلال. كانت تقف في ركنٍ وتتحاشى الحديث مع أي شخص، حتى وإن جمعتها الصدفة مع سو تشين في غرفة العناية المركزة، كانت تقف بعيداً وتكمش رقبتها وتغمغم فقط ببعض الكلمات.

ولحسن الحظ انشغلت سو تشين بعد الحادث، ودوماً كانت تأتي إلى المشفى وهي تحمل كيسين من البلاستيك، وضعت بهما إكسسوارات أطواق الشعر الكريستالية التي اعتادت تركيبها، وكانت تحملهما أينما ذهبت. عندما تصل إلى المشفى تضعهما بجوار سرير شياو لان وتجلس تعمل في عجلة بيدين تشبه الماكينة، كما لو أنها ستسلم طليقة خلال ساعة فبدت متبلّدة المشاعر، ووجدت

بهذا العمل ذريعةً لعدم الحديث مع تشن تشن، حتى أنها لم تنتبه إلى خجلها غير المعهود وبطنها المنتفخة المزيفة.

في ذلك اليوم مضى الطبيب لتفقد بعض المرضى، ولم تحتمل تشن تشن أن تبقى صامتةً طوال هذه المدة، وفجأةً اقتربت من سو تشين وقالت بلهجةٍ وكأنها لا تريد شياو لان تستفيق من الغيبوبة:

- ماذا سنفعل لو استعادت وعيها؟

كانت سو تشين تفحص زهرة كريستالية تحت الضوء لترى ما إذا كان بها عيبٌ ما لتعالجه، فلم تجبها وبدأت ردة فعلها تفتقر إلى الأدب واللياقة، فاقتربت تشن تشن منها وأمسكت بوسادةٍ على شكل نمر، وضعتها الممرضة من أجل الطفلة، ووضعتها على فمها وشرعت تتحدث بصوتٍ مكتوم، وكأنه صادرٌ من عنقها، وقالت:

- عمتي سو، أخشى أن تستفيق شياو لان ولا أعلم ماذا سأقول لها، الأمر خطير جدًا ويتعلق بخي بي وبحملي!

فركت تشن تشن يديها وكأنها سجينَةٌ تنتظر المحاكمة، ثم قالت:

- لا أعلم لماذا لم أخبرك منذ البداية لتعطيني المشورة!

فنظرت إليها وكأنها لم تستوعب ما قالت، ثم حولت نظرها إلى شياو لان، وعلى الرغم من أنها كانت لا تزال غائبة عن الوعي ووجهها شاحب بلون الرخام وفاقدة لأي إحساس أو شعور، إلا أنها خشيت أن تزعجها، فحملت الكيسين وقادت تشن تشن إلى الخارج.

قادتها إلى سلّم الطوارئ، حيث جلست تشن تشن، وشرعت تتحدث في ذلك المكان الضيق. تلعثمت في البداية وراحت تحكي

بشكلٍ غير مرتب، وتقول كلماتٍ من الشرق ومن الغرب، وبدأت ببعض التفصيلات غير الضرورية.

في ذلك الصباح اختفى خي بي واستيقظت على رنين هاتفه، نادته عليه بأعلى صوتهما لكنها اكتشفت أنه ترك هاتفه في المنزل وغادر، ثم تذكرت أنها في الليلة الماضية أخبرته بخبر حملها الكاذب!

أخذ عمال الهدم يتصلون واحدًا تلو الآخر ليسألوا عن خرائط الأنابيب المارة تحت الأرض، وما لبثت أن مرّت خمس دقائق حتى هاتفوها مرةً أخرى ليخبروها أن لديهم موعدًا نهائيًا لتسليم الخرائط، وأنهم عثروا على مشترٍ للأنابيب بسعرٍ جيد، وبعد ظهر اليوم ستأتي شاحنةٌ كبيرة لجمع الأنابيب، ومهما كان الوضع فلا بدّ من العمل عند الظهيرة.

تعاملت تشن تشن مع هذه المكالمات المزعجة بصبرٍ شديد، وكأنها سكرتيرة مؤقتة عينها المدير لكنها غير مؤهلة وقالت:

- أنا لست خي بي، أنا زوجته، من أنت؟ أنت المسؤول عن هذا المشروع؟ تريد الخرائط؟ معذرةً أنا لا أعرف عنها شيئًا! خي بي ليس هنا كما إنه لا يملك هذه الخرائط، سُلمت هذه الخرائط إلى رؤوساء آخرين، ولو كانت معه لأعطاها لكم، وإلا لماذا سنحتفظ بها؟ فلا جدوى من وجودها معنا.

كانت تردّد هذه الكلمات حتى ينهي المتصل المكالمة، وفكرت في أنها كلما تعاملت مع المتصل بلطف، لربما هدأت ثورة غضب خي بي نحوها، فلا شك أنه سيعود في القريب العاجل، وربما يكون واقفًا خلف الباب يسمع حديثها، فهنا بيته ومن حقه الذهاب إلى أي

مكان والعودة في أي وقت، مثلما اعتاد أن يفعل، كان يغادر ويبيت في فندق صغير، يسهر ويشرب ثم يعود إلى البيت.

- عمتي سو، هل تعلمين بأمر المشاية المائية؟ دحك منها، شياو لان تعرف بها، سأخبرك عنها فيما بعد، قد بحثت عنها في البيت واكتشفت أنها غير موجودة، وفي نفس الوقت وقع الانفجار، هل تفهمينني؟ لكن دعينا لا نتحدث عن الانفجار، أريد أن أتحدث عن أعمال الهدم.

وعادت بالحديث إلى الورا قبل شهر تقريبًا.

خلال هذا الشهر حصل خي بي على صفقة كبيرة، وعلى الرغم من أنها كانت صفقة من الباطن، وأنه تحمل أعباء جزء واحد فقط من المهمة، إلا أنها كانت أكبر قطعة يحصل عليها من قالب الكاتو منذ بدء العمل. استأجر مكبسين وثلاث رافعات وقراءة عشرة عمال أقوياء البنية، وباتوا يعملون ليلاً ونهارًا طوال الأسبوع، ويتجولون فوق المباني المهجورة مثل أسراب النمل، ويجمعون القضبان الحديدية والأسلاك الفولاذية، وأنابيب الطاقة الكهروضوئية والكابلات والمعدات الكهربائية، والمفاتيح والمكابس ومقابض الأبواب، والأبواب والنوافذ والكراسي الخشبية، وعوارض الأسقف والأرصعة الخرسانية وقوالب الطوب غير التالفة وأشياء أخرى من هذا القبيل. وكانت قطعة الألماس من بين كل هذه النفايات هي الأنابيب المتشابكة تحت الأرض، وقد بنيت البيوت في منطقة المصانع على أساس متين، فكان معظمها مصنوعًا من الحديد الزهر، والبعض الآخر مصنوع من النحاس، أو كما كان يقول دينغ بوه جانغ: "إن منطقة المصانع منجم ذهب وفضة، تغري الناس للحفر فيها."

وخلال هذا الشهر وصلت بطن تشن تشن إلى أكبر حجم، وكان هذا بفضل شرائح لحم الخنزير واللحم البقري والبيض المقلي والفطائر المحشوة بالكرات واللحم المفروم، بالإضافة إلى الشكل والثقة المطلقة في أنها حامل، أضفى كل هذا على بطنها شكلاً يثير الإعجاب، وصارت بطنها مثل بوليصة تأمين، تضمن لها السعادة في المستقبل، وعندما كان خي بي يرى بطنها قد وصلت إلى هذا الحجم، كانت حماسه تزداد والسعادة تعربد في كل خلجة من خلجات نفسه.

أخذ يتحدث إلى ابنه المنتظر من وراء ملابس تشن تشن بفخر، وكأنه أعظم رئيس أعمال هدم تحدث في التاريخ وقال:

- هل تعلم يا ابني أن أباك حصل على أكبر صفقة في منطقة المصانع. أنا أخبرك أنت فقط.. مصنع الألكيل بنزين هو أكبر المصانع وعامرٌ بالخردة والنفائات. لا يهم لن تفهم كلامي، أبوك سيدمر المصنع بأكمله ويجني ثروة طائلة من ورائه، سيجني أموالاً تجعلك قادرًا عل دخول روضة ثنائية اللغة! بني، كن قويًا وسانتظرك حتى تكبر وتغدو في أتم صحة وفي أفضل حال وتخرج وتنفق هذه الأموال. أنا في انتظارك!

فشمخت تشن تشن بأنفها مثل ملكة متوجة على العرش، وأحسّت بزهو كبير ولم تأبه بحديث خي بي أمام بطنها الوهمية، لكن من أي شيء تخشى؟ فهي تثق في شياو لان وتثق تمام الثقة في نفسها، قد ناقشتا المشكلة وهما على يقين تام بأنهما قادرتان على حل أي مشكلة تعترض طريقهما.

قفزت مرةً أخرى بالوقت في ذلك اليوم الذي أبرمت فيه اتفاقاً مع شياو لان، وكان المساء أوشك على المجيء وملاً الشفق أركان السماء (توقفت للحظات وفكرت هل تخبر شياو لان أنها ستذهب إلى تشنغ جونغ لتخبره بالخبر السعيد). وكان الليل أوشك أن يسدل ستاره فهرعت إلى البيت.

تحمّمت وارتدت ملابس فضفاضة، فأحسّت بالدفع ثم كشفت عن بطنها المستديرة التي لم تكشفها يوماً، فبدت بطنها ناصعة البياض واضحة جداً لخي بي أمام بشرته الداكنة، وقالت:

- تعال إلى هنا وتحسّس بطني!

وكانت هذه المرة الأولى التي تطلب منه هذا الشيء، فدوماً كانت بطنها مكاناً محظوراً عليه، حتى إنه كان يلمسها من وراء ثلاث طبقات من الملابس، فتهلل وجهه بالبشر، لكنه قيد زمام مشاعره وأرعى ملابسها وقال:

- كفى، لا تخيفي ابني، رائحتي الكريهة ستزعجه! ما الذي يمكن أن أراه؟

ثم تراجع بضع خطوات إلى الوراء، رفعت ملابسها مرةً أخرى وقالت:

- انظر إلى بطني، هل سبق لك ورأيت بطن امرأة حامل في الشهر الثامن؟ هل أنا أشبه هؤلاء النساء؟

- لا لم أر، لكنني أعلم أن هناك نساء حوامل وبطنهن صغيرة، لكن أنتِ بدينة وبطنك لا تشبه بطن هؤلاء النساء، أنا أفهم هذا الأمر.

ثم أسدل ملابسها مرةً أخرى. ولم ترفع ملابسها هذه المرة وقالت:

- خي بي، اسمعني أنت مخطئ، أنا لست حامل! كل ما في بطني هو أحشائي وبعض الدهون وليس جنينًا، هذا الحمل يسمى "حمل كاذب أو حمل وهمي"، وإذا كنت ترغب في الاسم العلمي فهو يسمى "متلازمة انتفاخ البطن المزمن"، يمكن أن تذهب وتساءل الطبيب، وهذا يعتبر مرضًا حقيقيًا، عندما تتوق المرأة إلى الإنجاب - بشدة - تكبر بطنها.

ثم أظهرت بطنها أمامه بلا خجل، فعبس بوجهه وأخذ يفكر ثم ضحك قائلاً:

- ماذا تقولين؟ أنا أعلم أنني أسأت معاملتك في الفترة الأخيرة، لكن هذا بسبب انشغالي في المشروع الجديد لأوفر لابنتا المال، اطمئني لن أخونك مرة أخرى مع أي فتاة، أعدك أنني سأكون زوجًا مخلصًا وأبًا مخلصًا، فلا داعي لكل هذه السخافات، ماذا تريدين؟ أنت في حاجة إلى المال؟

فقالت بصوتٍ خافت وتشبثت بالطاولة حتى لا تقع إذا ضربها:

- ليست سخافات، أنا لست حاملاً، كذبت عليك كي أجعلك سعيدًا.

حدّق خي بي بها بوجهٍ مثل لحاء شجرة عتيقة، وقال:

- لا يمكن! هل تذكرين اليوم الذي ذهبنا فيه لزيارة العمّة سو لنشكرها وكنا سعداء، وهي أيضًا كادت تطير من الفرحّة؟ وحماي عندما ذهبت إليه وأحضرت له النبيذ وأخبرته أنه سيصبح جدًّا عن

قريب، كيف تخيين آمال كل هؤلاء؟ وأنا، انظري إليّ! أعمل ليلاً ونهاراً حتى أنني لا أغسل يديّ ولا أتحمم!

وراح ينظر إليها مثل جرو صغير مسكين، ثم استطرد:

- تحت أي ظرف ستنجبين لي ابناً خلال شهر، جميع أهلي وأقاربي يعلمون أنك أوشكت على الولادة، وجميع أصدقائي وجميع أصحاب المحلات حولي يعلمون أنني سأصير أباً، فلا يمكن أن نكذب، هذه الحقيقة. هل تريدان أن أفقد ماء وجهي في الشارع؟

ف قالت بنفاد صبر:

- كذبتُ عليك! خدعتك!

ثم سألت نفسها لماذا لا يضربها وينتهي الأمر.

فجأة أمسكت بالقميص القطني القديم الذي كانت ترتديه ومزقته بالكامل حتى وصل إلى خصرها، فأنكشفت بطنها وبدت مثل وحش كبير، وقالت:

- اطمئن، أنا سأعفيك من هذا، سأذهب في الغد وأخبر الجميع بالحقيقة، سأخبر عمتي سو وأبي أنني أخطأت، فالجميع يعرفون شخصيتي ولن يسخروا مني!

فتراجع إلى الوراء ومد يديه من بعيد أمام بطنها وكأنه يحمل طفلاً في الهواء، وقال:

- تشن تشن، تزوّجنا منذ ست سنوات وأنت لم تحملي، فيئست منك ودفعني اليأس لخيانتك مع فتيات الليل ولعب القمار، ثم

جئتِ أنتِ والعمة سو وأيقظتما الأمل في قلبي؟ هل كنتما تتآمران علي؟

وفجأة ضحك عاليًا ثم قال:

- لكن كيف تكذابين في أمرٍ مصيري مثل الحمل؟ لقد ارتكبتِ خطأ فادحًا!

في هذه اللحظة انهمرت الدموع من عينيه مثل تلك المرة التي التقاها في الصباح الباكر في غرفته بالفندق وقال:

- قد وضعتُ ثقتي فيكِ، وكلما وثقتكِ فيكِ شعرت بالسعادة، هل تعرفين لماذا؟ لأنني لم أتخيل أنكِ تمزحين معي فلا يمكن أن تخدعيني، أنتِ لم تعامليني كإنسان، أنتِ حطمتيني! فحتى لو تعامل معي الجميع على أنني غير إنسان، لا يمكن أن تكوني مثلهم لأنكِ تعلمين كم عانيت في حياتي!

ارتعش أنفه وأخذ نفسًا عميقًا إلى صدره، فهدأت أعصابه قليلًا ثم قال:

- زوجتي العزيزة، كان عليك منذ البداية أن تفكري في النتيجة التي ستصلين إليها، أخبريني الآن ماذا سنفعل؟ أنتِ دمرتِ حياتي ولم أعد أرغب في رؤيتك مرةً أخرى، كما أنني فقدت الرغبة في العمل وجمع المال، وأنتِ تعلمين كم تعبت حتى أسست هذه الشركة لنعيش هذه الحياة المريحة.

فظلت متشبثةً بالطاولة حتى تورمت يداها، واعتقدت أن الأمور تمضي بسلاسة فأحسّت بالامتنان، وحاولت أن تقنع نفسها أنه في

النهاية سيتفهم الأمر ويتقبله، فحتى لو كانت خدعته بخبر حملها الكاذب، فلا فرق بين الخداع والمزاح طالما أن النوايا كانت طيبة.

في مساء ذلك اليوم الحافل سمعته وهو يُجري عدّة مكالمات هاتفية وكأنه يوكل بعض الأعمال إلى شخص ما، وكان يتحدث بنفاد صبر، لكنها لم تجرؤ على التصنت عليه، كما إنها لم تكن تفهم شيئاً في عمل الخردة. وعندما انتصف الليل لم ينسل من الغرفة، بل جاء وذهب عدّة مرات حتى إنه صعد إلى الطابق العلوي وفي النهاية غادر البيت. سمعت كل حركاته وفكرت أنه من فرط الغضب لربما خرج لبحث عن قطعة ضالة يقضي معها ليلته، وقبل أن يخرج فكرت في أن تنهض وتحدث معه، لكنها تراجع، فعن أي شيء سيتحدثان؟ كانت كل أحاديثها في الفترة الأخيرة تدور حول الطفل، والآن لم يعد في بطنها شيء، فقد خسرت رأس مالها ولا يمكن أن تمنعه من الخروج، كما أنها أحست أنها لم تنعم بنوم هادئ منذ فترة طويلة، فيبدو أنه بعد الاعتراف بالحقيقة نستطيع أن ننام ملء الجفون.. أحست براحة كبيرة حتى إنها لم ترغب في أن تتحرك من مكانها، ومدت يدها وراحت تمسح ثنيات بنطالها، ثم قالت:

- عمتي سو، لو لم أنم في تلك الليلة عميقاً، أو لو تحدثت معه في اليوم السابق أو اليوم التالي، لما وصلنا إلى ما نحن عليه الآن.

وفجأة تذكرت شيئاً وأخرجت من حقيبتها الصغيرة التي كانت تجلس فوقها مغلفاً مجعداً ثم فضّته وأخرجت منه تقريراً طبياً ممزقاً، ثم قالت متلعثمة:

- ذهبت من قبل إلى المشفى لإجراء الفحوصات الطبية وأخبروني أنني أعاني مشكلة صغيرة تسمى "بطانة الرحم المهاجرة".

قدمت إليها التقرير وهي تمعن النظر فيها مثل متهمّة تنتظر حكم الإعدام.

وإذا بسو تشين، التي كانت منشغلة ومتبلدة المشاعر ومنطوية، تُلقِي بالزهور الكريستالية من يديها وتمضي لتمسك سريعاً بيد تشن تشن، وكأن تشن تشن أثارت في نفسها آليات الجريمة والعقاب، وأخذت تربت على بطنها المتنفخة في حنان دافق وقالت وهي تبدي سيلاً من الاعتذارات:

- تشن تشن، لا تفكري بهذه الطريقة، الذنب ذنبي أنا، كل ما حدث كان بسببي، أنا امرأة عجوز لا طائل منها! أنتِ تعلمين أنني دمرت حياة أبنائي، لكن كنت أرغب في مساعدتك من كل قلبي، ولم أتخيل أنك غير قادرة على الإنجاب، ورغبت أن أعطي خي بي درساً قاسياً. وأخوك لو كنت توسطت له ووجدت له وظيفة كما طلب مني أبوك، لما فتح هذا المتجر عديم الفائدة والذي جعله محلّ سخرية الناس. أنا أعتذر من أبيك، فطوال هذه السنوات لم أفعل شيئاً من أجلكما. تشن تشن، لا تقلقي عندما تسترد شيئاو لان وعيها سأحدث معها.

أحسّت سو تشين أن كل أحداث الماضي الأليمة هي من تسببت فيها حتى صارت مدينة للجميع، فبدا صوتها واهناً ومبحوحاً وامتلأ فمها باللعب.

(٧)

أحسّت شياو لان أنها تزيل من أمامها سياجًا من الحديد، وبشق الأنفس فتحت عينيها فأحسّت بدوار في رأسها وطنين في أذنيها، فأطبقت عينيها مرةً أخرى، ثم حاولت قدر الإمكان أن تفتح عينيها، فرأت صورًا ضبابية مشوشة، رأتها من بعيد وعبر طبقات سميكة من الزجاج، ورأت ملامح لرجل بلحية قصيرة، وللحظة خيّل لها أنه زوجها خوانغ شين، فتذكرت أنه في اليوم الذي سبق ذهابها إلى تشنغ جونغ في متجر الزجاج وبعد أن تركت تشن تشن، ظلّت ثلاث ساعات كاملة في غرفتها أمام الحاسوب، تكتب رسالةً إلكترونية إلى خوانغ شين، وبعد الانتهاء منها حفظتها على أسطوانة. وقد خطت الرسالة أيضًا لنفسها واعترفت فيها عن أنانيتها ومشاعرها الباردة تجاه الآخرين، وكل ما ارتكبته من أخطاء في علاقاتها العاطفية وتخليها عن حبيبها واستبداله بآخر.. وكتبت عن أبيها المتوفى وعن تشن تشن وعن تشنغ جونغ، ولم تستطع أن تكبح زمام نفسها وراحت تكتب من دون توقف، لكن كانت الكتابة غير متقنة، وكأنها تكتب بلغة أجنبية لا تجيدها. وكانت المرة الأولى التي تنبش في ماضيها وتتحدّث عن زواجها الذي استمر أربع سنوات، ولا شك أن خوانغ شين لن يحتمل هذه الكلمات ولن يقبل بالأمر، لكنها فكرت في أن الوقت كفيل ليداوي كل شيء، وسيأتي يومٌ ويتفهم موقفها. أو ربما يكون قد فهم بالفعل حقيقة مشاعرها في صباح ذلك اليوم الذي حملت فيه،

ومن المؤكد أنه كان يعلم في قرارة نفسه أن هذه الزيجة غير موفقة، وستتظر عودته حتى تكشف له الحقيقة (كانت تعلم أنه ليس في البيت وذهب للتقديم على مناقصة في أحد المشروعات، ثم سيذهب لتفقد بعض المشروعات، وعلى أقل تقدير أمامها عشرة أيام حتى يعود ويتفقد بريده الإلكتروني، وهذا أمر جيد حتى يسوي الجميع مشكلاتهم ويصلوا إلى حلٍ يرضي جميع الأطراف).

- أين الطفل؟

فجأةً أصيبت شياو لان بالذعر، وتذكرت أنها في نهاية الرسالة أخبرت خوانغ شين بأمر حملها، وكان لا مفر من أن تخبره، فحتى لو انفصلا فمن حقه أن يعرف أنه سيصبح أباً، فأحسّت بالقلق وكأنها تركب ذراعاً صناعية ومدت يدها لتحسّس بطنها بحذر، فأصابها الهلع عندما وجدتها مستوية مثل أرضٍ قاحلة.

فتحت فمها وحاولت الصراخ بكل ما تملك من قوة، لكنها لم تكن تعلم أن صرختها كانت مثل رفرفة جناحي فراشة صغيرة.

- ماذا بك؟

اقترب الرجل ذو اللحية من وسادتها وتناهى صوته إليها وكأنه قادمٌ من مكبر صوتٍ مكسور، فلم تميز الصوت، فقال بتردد:
- انتظري قليلاً.

كانت عيناه تتوهجان مثل مصباح سقف الغرفة أو مثل أضواء تسطع في حوض المياه، وقد رأت هاتين العينين في الماضي البعيد في جوف الليل، في هذه اللحظة تعرفت على صاحب العينين وأدركت أنه أخوها شياو باي.

حاولت بشقّ الأنفس أن تمدّ يدها وتصل إليه، وأخيرًا بعد عناء كبير وصلت إليه، وكأنّ شارعًا طويلًا يفصلها عنه. وصلت إليه رغم أن يديها كانتا ثقيلتين تؤلمانها، لكن عندما لمست وجهه شعرت أن هناك تغييرًا به، ليس فقط اللحية الصغيرة النابتة على وجهه، لكن نظراته ويدها؛ اختلفتا تمام الاختلاف عن تلك الليلة التي تعانقا فيها. وكان بالفعل طرأت عليه بعض التغيرات.

بعد وقوع الانفجار مرّ بأشياء كثيرة، ولم يستطع الاعتماد على تشن تشن وأمه، فظلت كلّ منهما جالسة على الأرض تشعران بالندم وعافت نفساهما الطعام وجافى النوم عيونهما، فكانت كلّ منهما في حالةٍ يُرثى لها وفقدتا القدرة على التفكير، ففطن أنهما عاجزتان عن تقديم يد العون له.

فحمل على عاتقه مسؤوليات كثيرة في تلك الفترة، فتولى أمور الجنازة وتنظيف متجر الزجاج والتوقيع على التعهّد بتحمل المسؤولية لوضع الجنين، وتلقي كلمات العزاء والمواساة والإجابة على أسئلة المحققين، والحديث الرتيب بشأن مبالغ التعويضات، وفي المساء كان عليه أن يأتي ليبدل الوردية مع تشن تشن وأمه حتى ترتاحا. كان يجلس بجوار فراش شياو لان وهي تغطّي في نوم عميق يستمع إلى أنفاسها، وينظر إليها بدهشةٍ كأنه صخرة صماء تحجرت الدموع في عينيه!

وتمنى لو يستطيع أن يبكي ويحرر دموعه، وتذكر تلك الأيام التي كانت الدموع تطوف في عينيه دومًا وكان يحس فيها أن العالم أكثر حنانًا، على الرغم من أن دموعه كانت أكثر ما يثير حنق أمه وأخته.

لكن الآن هو لا يرغب في البكاء. وشرع يفكر على أي شيء يبكي؟
جلس أمام الفراش مستغرقًا في التفكير وأخذ يحدّق النظر في قدميه
اللتين كاد ينكرهما حتى إنه أحسّ أنه لا يعرف لأي شخص تنتمي!

قبل وقوع الانفجار كان يجلس واضعًا قدميه على طاولة
الحاسوب، وقد وضع لوحة المفاتيح على فخذه، وراح يتحدث
مع بعض التجار بشأن عقد عدّة صفقات، وفجأةً مستأنفه الرائحة
التي انتشرت في شارع مفترق الطرق، ثم اسودت شاشة الحاسوب،
فارتعد من الخوف وألقى بلوحة المفاتيح بعيدًا، وركع على الأرض
مثل الجرو، وسرعان ما أخرج دفاتر اليوميات من تحت الفراش
وضمها إليه بقوة فقد خشى أن يفقدها، وأحسّ أن اليوم هو نهاية
العالم، فطافت الدموع في عينيه وأحسّ بشعور من الارتياح، على أقل
تقدير قد تحرر من أشياء كانت تجثم على صدره مثل حجر ثقيل.

وبجانب الدفاتر عثر على ملابس تشنغ جونغ القديمة، فسرت
قشعريرةً في ظهره، وسرعان ما غادر البيت وأخذ يركض ويركض
وهو يمرّ على مشاهد غريبة، وحشود مذعورة كانوا يركضون وسط
الزهورات الكريستالية التي تطير في الهواء، ولم يكن يتخيّل أنه عداءٌ
ماهرٌ إلى هذا الحد، وبات يركض حتى وصل إلى متجر الزواج ثم
مضى إلى أطلال المتجر. سارت قدماه وسط الأنقاض وكأنه يجوس
بثراً عميقة، وفي غمضة عينٍ استحال المتجر الشفاف المصقول إلى
مكان خرب أجوف، وفي كل نحو من الأنحاء امتلأ بشظايا الزواج
التي مزقت بنطاله وحذاءه قطعًا صغيرةً.

ورأى تشنغ جونغ مستلقيًا على الأرض في مؤخرة المتجر،
والزجاج الذي اعتاد تنظيفه صار ملطخًا بالدماء. كان يرتدى "فانيلة

قطنية" وبدأ فيها مفتول العضلات، كما بدا في ذلك اليوم في أثناء زيارتهما للمقابر في عيد تشينغمينغ، وهو يجرف التربة ويلقي بالتراب فوق العشب النامي على المقبرة. وفجأة انتبه إلى قطعة القماش التي كان يغطي بها ذراعه الأيسر وقد تلطخت بالدماء، وكان ذراعه مفرودين مثل عصفور ينشر جناحيه، وكأنه بقطعة القماش يغطي رسالة تطلب العفو والغفران، ثم تحول ببصره إلى اليد اليمنى، فوجد قطعة زجاج على شكل مثلث بزاوية منفرجة وقد تلطخت نهايتها بالدماء.

وخلال هذه الأيام الشاقة وهو ينهي كل الترتيبات اللازمة، لم يكن المشهد الأخير في حياة تشنغ جونغ يفارق عقله، وفكر في أنه ربما يكون تشنغ جونغ اندمج مع الزواج وما حدث كان صدفة، ولا يمكن أن يكون هو من أنهى حياته. وراحت صرخات سو تشين وتشن تشن وكلمات جلد الذات تطنُّ في أذنيه مثل حشرات مزعجة، فتظاهر أنه مشغول وظل يركض هنا وهناك، لكنه كان عاجزاً عن أن تحمله قدماءه، وحاول جاهداً أن يلتزم الصمت ويبتلع الكلمات التي كانت مثل الفلفل الحار، فلا يمكن أن يخبرهما ب وفاة تشنغ جونغ، وأحس أنه من الظلم أن يعرفا ما حدث له، فما جدوى أن يخبرهما؟ كل ما هنالك أنه سيحول دفة الأحزان من الشرق إلى الغرب، كما إنه لا يجرؤ على أن يعترف لهما أنه من حرك المياه الراكدة منذ البداية، وهو من اختلق كل هذه الأكاذيب بين شياو لان وتشنغ جونغ، وهو من أشعل فتيل هذا الحب الكاذب في قلبها.

وقال لنفسه لا يمكن أن يكون مثلهما لا يكف عن البكاء والنحيب، حتى إنه لم يعد يرغب في البكاء ولا يرغب في الحديث

مع أي شخص، خاصةً مع شياو لان حتى تسترد وعيها ويقرر ماذا سيخبرها.

ظلّ مشوش التفكير، حائر اللب، ولم يتذكّر أن شياو لان صارت أمًا إلا عندما استفاقت وطلبت أن ترى طفلتها، فحمل الطفلة عاليًا، والحديث الأول الذي كان من المفترض أن يكون بينه وبين شياو لان تحدث به إلى طفلتها.

ولا شكّ أن هذه الطفلة التي كان لديها رغبةٌ قوية في الحياة، جاءت إلى الحياة في زاوية باردة لشارع مفترق الطرق، لأن أمها أصيبت بصدمةٍ عصبية وغابت عن الوعي، وراحت الطفلة تتحرّك في رحمها قبل الأوان وخرجت مع السائل الأمنيوسي والدم المتخثر، ووصلت إلى أرض الشارع المغبر ووضعت على جانب الطريق، وكان هناك بعض الخدوش على ظهرها وأصيبت بشدّ عضلي في الساق اليسرى وعدوى في الجهاز التنفسي، ولم يتمكن الطبيب، لأنه لم يكن طبيب نساء متخصص، من ربط الحبل السري بطريقةٍ صحيحة، وربما استاءت الطفلة من فعلته فظلت مطبقة العينين وأبت أن تفتحهما، وتنفست بصعوبةٍ بالغة وكأنها تعاني نوبة غضبٍ شديدة، وعندما وضع في فمها جهاز التنفس الصناعي وخرج مرةً أخرى كادت تفقد الحياة، لكنها تمسكت بها، وفي اليوم السادس أغلقت يديها وظلت تصرخ من دون توقف، وحاولت الممرضات وسو تشين وتشن تشن وشياو باي تهدئتها وإطعامها الحليب والغناء لها، لكن من دون جدوى، فظلت تبكي بلا توقف حتى وافق الطبيب على وضعها بجوار أمها، رغم أنها كانت لا تزال فاقدة الوعي، وبفطرةٍ طبيعية اتجهت الرضاعة بفمها نحو صدر شياو لان، في هذه اللحظة

أَحْسَتْ شياو لان بها فحركت جفניה وتنهّدت وابتعدت أخيرًا عن ذلك الشاطئ المهجور.

وعندما نظرت إلى الطفلة أَحْسَتْ أن وجهها صافٍ وبرئ مثل بوديساتفا* صغيرة، لكنها سرعان ما ستغمس في عالم قاسٍ وتمر بتجربة الحب، وتغرق في فقاعات كثيرة متهورة وتكون أسيرة للرغبات، لكن ماذا ستمنح طفلتها؟ ستمنحها آفاقًا مشكوكًا فيها وذاتًا متذبذبة غير واثقة في نفسها وربما تكون أكثر تذبذبًا من جدتها، وشارع مفترق الطرق القديم المتسخ وكل ما حملته من محبة وكرهية لهذا الشارع!

أَحْسَتْ شياو لان بآلم غصن الشجرة في خدها الأيسر، ولأول مرة تشعر بحقيقة ما قالته أمها عن الأمومة، فالآن صارت أمًا وتغير كل شيء، فهي التي كانت دومًا تحارب قدرها بلا خوف، الآن صارت مقيدةً وارتبط بمصيرها بمصير طفلةٍ صغيرة.

مدت بصرها نحو النافذة، فرأت مشبك شعر كريستالي يتوهج بأشعة شمس النهار، فبدا وكأنه دموع عين لا يمكن أن تسقط أبدًا، فأَحْسَتْ بالفخر نحو أمها صانعة هذه المشابك الكريستالية، الأم التي دومًا كانت حريصة على الأخلاق وتحترم الأعراف والتقاليد، وربما لم تكن أمًا سيئة وربما تعلمت منها! كما إنها وقفت هي وطفلتها وسط المطر، فهل ستعجز عن أن تحميها من تلك الحياة القاسية؟ وإذا كان اليهود وهم أكثر شعوب العالم قوةً وعنادًا قالوا: "لا يوجد شيء يمكن فعله!"، و"كل شيء سيكون على ما يرام!"، وتناقلت

* مصطلح في البوذية يشير إلى الشخص الحكيم الذي يملك مجموعة من المهارات لإنهاء معاناة الآخرين. [المترجمة]

الأجيال هذه الأقوال جيلاً بعد جيل، فهي أيضاً بمقدورها أن تفعلها وسيكون كل شيء على ما يرام.

قبلت طفلتها ثم أخذت تداعب شعرها الخفيف، ثم طلبت مرآة ونظرت إلى الندبة على خدها الأيسر وراحت تتحسسها، فألفتها مرسومة على شكل حرف "Y" مقلوب، وعلى الرغم من أن الندبة لم تكن غائرة ولا قبيحةً بالقدر الكافي إلا أن شكلها راقها.

بينما وقف شياو باي ينتظر بصمت، وأحس أن الطفلة مهدت له الطريق وبسطت له البساط ليمضي ويحكي لها ما حدث، لكنها ظلت رابطة الجأش ولم تكثرث لوجوده ولم يشغلها سوى الاهتمام بطفلتها.

وعندما أوشك أن يغادر، قالت:

- هل يمكن أن تحضر لي شيئاً عندما تأتي في المرة القادمة؟ أضع فوق سريري كشافاً صغيراً أخضر، أحضره معك في المرة القادمة فقد اعتدت على وضعه بجوار الفراش.

فجمد مكانه، فهو يعرف هذا الكشاف الصغير تمام المعرفة، لكنه لم يتوقع أنها لا تزال تحتفظ به وسرعان ما أدرك أنه ما من جدوى من الحديث معها.

أجرى عمليةً حسابيةً صغيرةً في رأسه، فأدرك أن ثلاثة عشر عاماً انقضت، وقبل ثلاثة عشر عاماً ذات مساء ذهب الأربعة إلى السوق الليلي، وتراءت أمامه صورهم مثل ظلالٍ شاحبة تتبدى من بعيد، وهم يقفون بين حشد من الناس يرتدون ملابس رديئة، فبدوا مثل صور باهتة بتقنيات طباعة رديئة المستوى. ليلتها قضوا وقتاً ممتعاً

وأكلوا الآيس كريم وأسياخ لحم الضأن ولعبوا لعبة البنادق الهوائية، واشترت تشن تشن ظلال الجفون وحزامًا جلديًا، واشترى شياو باي الفول السوداني المحمص ولعبة السودكو، بينما أصرَّ تشنغ جونغ على شراء الكشّاف الأخضر لشياو لان، لكنها رفضته في البداية، وبعد إلحاحٍ شديدٍ قبلت الهدية ووجهها تعتليه حمرة الخجل.

هزَّ رأسه موافقًا ومضى وحملَ الطفلة، وكان جسدها دافئًا ورائحته عطرة، لكنه أحسَّ بثقلٍ غريب في ذراعيه، وإذا ذاكرته تستدعي جسدًا آخر حمله بين ذراعيه برفق وغطى ذراعه الأيسر بحرصٍ بالغ، وخرج به من متجر الزجاج وعبر به من شارع مفترق الطرق، ووصل إلى مكان صالة البلياردو وكشك السجائر والسوق الليلي ومكان الشجارات. ولطالما كان هذا الشاب قوي البنية صاحب جسد قوي حتى إنه كان يغبطه على جسده، لكن عندما حمله بين ذراعيه كان قد خف وزنه كثيرًا، فأصابه دوارٌ، وهمس للطفلة قائلاً:

— حبيبتى، ما هي الحياة؟

وهنا بكى وأحسَّ أن الحياة في غمرة الدموع تعود رقيقة ورطبة، وتسَلَّت مشاعر الحزن إلى قلبه؛ لأن تشنغ جونغ عندما رحل خف وزنه، وهذه الصغيرة البريئة تعيش حياةً مُثْقَلَةً بالهموم، فتشبث بها. ووسط ماء العين غمره شعورٌ غريبٌ وراودته رغبةٌ رقيقةٌ ووعدوا أنه تحت أي ظرف، سيفعل المستحيل من أجل أن تحيا حياةً كريمة، وعليه أن يكون رجلًا حقيقيًا من أجلها، نعم، رجل! واللعنة على هؤلاء الأطباء النفسيين!

مكتبة

t.me/soramnqraa

فاقترب منها واستنشق رائحتها وقال:

- حبيبتي الصغيرة، لدي ملابس قديمة أعلم أنها ملابس صبي، لكن ينبغي أن ترتديها، خذي كلامي على محمل الجدّ وعديني أن ترتديها!

وفجأةً تنهى وقع أقدام تشن تشن وهي تتجه نحو الغرفة وحفيف الأكياس البلاستيكية من الخارج، فأدركت شيئاو لان أنه حان الآن لينابيع من المشاعر أن تتفجر، مثل تبادل العزاء والمواساة بعد الحادث الأليم والألم والمعاناة، وتأنيب الضمير وجلد الذات وافتراسات وتكهّنات عديمة الجدوى، لكنها كانت تتوق أن تتحدّث إليهم وتقول:

- أحبائي، لا داعي لهذه الدراما، فالحب دوماً بريء من هذه الاتهامات. الحب قدر لا يمكن الفرار منه. هل نحن أزهار وأعشاب برية صغيرة تعيش في مكانٍ دافئ ويمكن أن نعيش بمأمنٍ عن الحب؟ انظروا إلى دينغ بوه جانغ الذي فقد ذاكرته بسبب الخمر، وتشن تشن وفلسفتها الغبية ورعونة شيئاو باي وضعفه، وأمي صاحبة الشرف والفضيلة، وتشنغ جونغ صانع الزجاج العظيم! وفكروا كم من الطرق تقودنا إلى تخمير الأحزان كي نحصل في النهاية على الرحيق! وكم من منح تأتي من قلب المَحَن! وكم من سعادة تولد من رحم المعاناة! حركت رأسها على الوسادة، فترأى لها صورة الكشاف الأخضر الصغير. ورغم أنها لم تكن في حاجة لاستعماله طوال هذه السنوات، لكن دائماً كانت تغيّر له البطاريات وتضغط على زر التشغيل الذي لم يكن يعمل بشكل جيد، وتفحص ما إذا كان به مشكلة أم لا، واعتادت أن تعتني بهذه السلعة المتواضعة وتؤكد أنها دوماً معها.

وخارج النافذة رأت مجموعة من السحب الرمادية تجمعت فوق منطقة المصانع، فبدأت مثل قطع من الزجاج المتسخ، ثم تراءى لها تشنغ جونغ يقف وسط السحب ويمسك بقطعة قماش بيضاء ويمسحها بصبر شديد، وكأنه يمسح آخر علامة تركها في العالم ورحل.

(٨)

وكان آخر لقاء جمع العائلتين على قطعة أرضٍ قاحلة على شاطئ نهر اليانغتسي. وفي وقتٍ سابق من هذا اليوم، وعندما كانت إحدى السفن تطلق صافرة الإنذار ألقوا برماد جثامين تشنغ جونغ ودينغ بوه جانغ ووالد شياو لان الذي أحضره قبل عامين من مستودع الرماد في شيجانغ.

وكانت فكرة إلقاء الرماد في النهر فكرة شياو لان، وكانت على يقين أن هذه الفكرة ستروق المتوفين وتجعلهم يشعرون بكامل الرضا، خاصة أن هذا النهر هو أطول أنهار الصين وتعجُّ مياهه العكرة بالحياة والفضلات ودومًا يسبب الفيضانات، كما أن دينغ بوه جانغ سيرقد مطمئنًا في مثواه الأخير، ولا أحد يستطيع أن ينبش قبره أو يزيله من مكانه.

فكّت سو تشين وتشن تشن القطع القماشية الحريرية الحمراء الثلاث، وألقتا بها في النهر على مهل، فسقطت القطع الثلاث ومحتوياتها في الماء وسرعان ما اختفت، بينما أخذ شياو باي يحدّق في النهر وفي القطع القماشية الثلاث التي سرعان ما بلعتها مياه النهر، وبجانب رماد أبيه وتشنغ جونغ ودينغ بوه جانغ، ألقى أيضًا برماد دفاتر اليوميات التي حرقها واستحالت إلى رماد.

لم يدر كيف خطرت على باله هذه الفكرة، في ليلة أمس راح يبحث عن قداحة، لكن بعد لحظات أحسّ أنها غير لائقة بهذا المشهد

المهيب، فمضى يبحث عن أعواد الثقاب وأخذ ينتقي على مهل شكل العلبة وطول عود الثقاب وشرع يجربها، يشعل عودًا ويطفئه ثم يشعل آخر ويمعن النظر في لون العود وشكل اللهب، وفي النهاية أشعل النيران في كل دفاتر اليوميات، وعندما احترق الورق أحس أن أيامًا وليالي طوَّالاً مضت في مثل لمح البصر!

وهبَّ نسيم الليل مثل شخصٍ فضولي وراح يحوم حول الدفاتر، فرفرف الورق الذي كان يجهل موته الوشيك بمرح، وظهرت الفقرات المكتوبة بوضوح قبل أن تستحيل إلى رماد أسود، فأخذ شياو باي نفسًا عميقًا إلى صدره، وجمع بحرصٍ الرماد المشتعل وأحسَّ بصوت النسيم في أذنيه، وحلق عاليًا عبر سنوات الطفولة والمراهقة.

اقتربت سو تشين من شياو لان وحملت عنها الطفلة، وبلهجة غريبة قالت:

- أعلم أنك لم تنسي أباك وأنا مثلك لم أنسه، رغم أنني أعجبت بدينغ بوه جانغ، فلا تلوميني فهذا ليس تناقضًا!

فخفق قلبها مثل جناح يمامة وأحسَّت بصدق حديثها، لكن لا بدَّ أن هناك هدفًا وراء هذه الكلمات، وحاولت سو تشين أن تواصل حديثها بلسانٍ طليق، لكن بدا عليها التردّد وقالت:

- ليس هناك تناقض بين حبك لتشنغ جونغ وزواجك من خوانغ شين، ومهما حدث في النهاية الحياة تستمر! أهم شيء أن تكوني مخلصةً وصادقةً في مشاعرك!

فهزّت رأسها موافقةً من دون أن تتحدّث. في هذه اللحظة أرهفت حواسها.. كل حواسها وفتنها مشهد النهر من أمامها.

عاد خوانغ شين بعد سماع خبر الحادث، والتقى بها ليطمئن على صحتها وصحة الطفلة، وعندما رأت شياو لان نظراته الغاضبة وخوفه الشديد عليها وعلى الطفلة وشعوره بالسكينة عندما اطمأن عليهما، تذكرت الأيام السعيدة التي قضياها معاً، وربما كان لوجود ابنتها الفضل في أن تحسّ هذا الشعور. حمل الطفلة واعترف لشياو لان أن حياتهما لم تكن سيئة، وأخبرها أنه لم يقبل ما خطته في الرسالة، لكنه أعجب بها كثيراً، وسيخط لها رسالة بنفس الطول، ثم طلب منها أن يختار اسماً للطفلة حتى إنه طلب حضور عزاء تشنغ جونغ اليوم (إلقاء الرماد في النهر)، فرفضت لكن في النهاية قبلت أن يختار اسم الطفلة، فلم تكن ترغب في صده والتعامل بقسوة مع لطفه، لكن كانت لا تزال تحس بشيء من العداء نحوه قد تغلغل في أعماقها وسكن كل جوارحها، بل كان الأمر مثل ريح باردة قاتمة، تجتاح جسدها، ولا تعلم متى ستوقف هذه الريح ويأتي ربيعٌ يدفئ قلبها. وعلى الرغم من أن الأمر كان محزنًا، إلا أن خوانغ شين لم يكن في حاجةٍ إلى أن يشرح أو يبرر موقفه.

ولطالما كان تحقيق الرغبات وإدراك المنافع أشياء مشروعة، بل هي عوامل رئيسية وقوى دافعة حتمية لتحقيق النجاح والارتقاء الاجتماعي، وقد اعتنقت شياو لان هذا المنطق منذ وقتٍ طويل، تمامًا مثل الفخر والتعصب اللذين كانت تتمتع بهما دومًا.

وفي اليوم الذي استردّت فيه شياو لان وعيها، تعمّدت تشن تشن أن تكون آخر شخصٍ يغادر من الغرفة، وبعينين متورمتين قالت:

- شياو لان، هناك شيءٌ آخر أريد أن أخبرك به، في اليوم الذي ودعتك فيه ذهبت إلى أخي وأخبرته بكل شيء عنك وماذا تنوين فعله.

- وماذا كان رده؟

فجأةً أحسَّت شيّاو لان بغمامةٍ سوداء غطّت رأسها وشعرت بوخزٍ حاد في كامل جسدها، فتذكرت تشن تشن منظر أخيها عندما أخبرته بقدوم شيّاو لان ورده الحازم عندما قال:

- لن أقبل هذا الوضع! لن أدع هذا يحدث!

فارتبكت وتسارعت نبضات قلبها وتعدّرت عليها أن تقول الحقيقة، وتظاهرت باللعب بأصابع الطفلة وقالت:

- سرّته كثيرًا هذه الأخبار، ورحب بك وبالمولود لتعيشوا معًا في متجر الزجاج.

وكانت تشن تشن قد قطعت أشواطًا كثيرة في الكذب في خبر حملها، واستنفدت كل حيلها، فبدأ ما تقوله مثل رسالة ترحيبٍ جوفاء يرحب فيها فندق بالتزلاء الجدد، فنظرت شيّاو لان إلى نظراتها اليائسة وأومات برأسها لتعبّر عن امتنانها، لكن أزيزًا كان يطنُّ في أذنيها ممتزجًا بدويٍّ هائلٍ، قادم من عمق زقاقٍ ضيقٍ. نعم، كان عليها أن تعلم أن تشنغ جونغ من المستحيل أن يقبل بهذه الفكرة، وسيدافع بكل ما يملك على الحفاظ على حياتها، وسيطلب منها عدم النظر إلى الوراء وأن تمضي إلى الأمام، وهذا مبدأ من مبادئ الحب وغريزة طبيعية موجودة في هذه الطبقة الاجتماعية، وكان هذا التصرف هديته الأخيرة لها قبل أن يرحل.. يرحل إلى الأبد.

منعت نفسها عن التوغل في التفكير. وهبَّ نسيم النهر عليلًا منعشًا وأطلقت السفينة الخضراء الداكنة صافرة الإنذار وغابت عن الأنظار.

"حياتنا مليئة بالمصاعب ولا يمكن تفاديها أو الاستهانة بها، وأن نتعلم كيف نحيا وكيف نحب يعني تحمل كل مصاعب الحياة، ثم ينبغي البحث عن الجمال والصداقة والحب، والخروج من النفق الضيق المظلم إلى العالم الرحيب."

كانت هذه إحدى أقوال الشاعر الألماني الشهير ريكله، وكتبها شياو لان ذات مرة في دفترها، أيام الجامعة، وقرأتها مصادفةً في اليوم الذي كانت تبحث فيه عن الوشاح الحريري.

نعم، لا بدّ أن تتعلم كيف تحب، حتى لو لم يعد تشنغ جونغ موجودًا، فعليها أن تستمر في التفاوض واللعب مع الحياة ومقاومة كل رغباتها بقوة وشراسة. ولا يمكن الهروب من مصيرها المحتوم؛ نحن نولد بقيود وأغلال تحدّد حرياتنا ونسير على دروب وعرة حتى نصل في النهاية، وحينها ندرك أنه سرابٌ خداع ووهمٌ كاذب!

لكن ما الضرير من هذا؟ فهذه هي جسارة الحياة وحيويتها وغرابتها، فالحياة مزيجٌ من الحلاوة والمرارة وعلينا أن نتجرّع حلاوتها ومرارتها، وأن نتعلم كيف نحب وكيف نخلق هذا الحب، وهذه مسؤولية لا يمكن أن نتصل منها، لأننا مخلوقات حية نعيش ونتنفس.

وبعد إلقاء رماد الجثامين الثلاثة في النهر، وقفوا طويلاً على الشاطئ مثل سائحين يستمتعون بالمشهد البديع، وخطر على بال شياو باي فكرة أن يقضوا نزهةً على شاطئ النهر، فذهب بعضهم لشراء الطعام. وربما يكون هذا المشهد استدعى ذكرى وقعت قبل أكثر من اثني عشر عامًا، حينما كانوا يلتقون كل سبت على العشاء،

فكان الجميع وقتها يبدو مشرقاً مليئاً بالحيوية نابضاً بالحياة، وإذا رغبوا في الاجتماع على عشاء، فهل هناك مكانٌ أفضل من شاطئ النهر، بعد أن اختفت وتهدّمت بيوتهم ولم يعد لها أثر.. فقط في هذا المكان، فقط في هذه اللحظة، يستطيع أن يجتمع الأحياء والأموات معاً.

كان الوقت متأخراً وكانت نزهة متواضعة، واشتروا فقط بعض شرائح الخبز وزجاجات اللبن المعلبة وبعض الفاكهة، وجلسوا على مفرشٍ صغيرٍ من القماش بورود قبيحة، لكنهم لم يبالوا بهذه الأشياء، وكل ما شغلهم هو مشهد عشاء السبت وهم يتحلّقون حول مائدةٍ عامرة بأشكال وألوان من الطعام، تحت ضوء المصباح الأصفر الباهت، وكان هذا الاجتماع الأول للعائلتين بعد الانفصال الرسمي منذ اثني عشر عاماً. جلسوا كما كانوا يجلسون في تلك الليالي؛ وضعت تشن تشن مكان دينغ بوه جانغ كأس النبيذ الفخارية وقد تردّدت في إلقيائها في حوض النهر، ووضعت عربة الطفلة المزينة بالبالونات حيث كان يجلس تشنغ جونغ، ولو كانت شياو لان سمحت لخوانغ شين بالحضور، لما وجد مكاناً فوق هذا المفروش الصغير، لذا كان عليه الانتظار حتى يحين اللقاء في المرة القادمة.

وفجأةً سعلت تشن تشن مثل شخصٍ يقرع بشوكة ذهبية على كأس نبيذ، في حفل عشاءٍ فاخر، وانتظرت حتى أثارت انتباه الجميع، وراحت تمسح بعينيها كل واحد منهم بخوفٍ وقلق، ثم قالت بشيءٍ من الخجل:

- قد حزمت أمتعتي ونويْتُ الذهاب لأبحث عن خي بي. أعطتني الشرطة نفقات السفر والتنقل، وأخبروني أن هناك عددًا كبيرًا من

المتورطين في الحادث ولا يستطيعون تتبعهم، لكن خي بي ليس موقفه خطيراً، وإذا عاد من تلقاء نفسه سيخفف الحكم عليه، فلا داعي للقلق بشأنني! سأسافر إلى المدن الكبرى ولن أترك مكاناً به بحيرة إلا وسأذهب إليه، فلا شك أنه يختبئ في إحدى هذه الأماكن ويرتدي المشاية المائية، وربما لا تعرف الشرطة بهذا الأمر.

فربت شياو لان على كتفها العريضة وقالت:

- اذهبي وأنت مطمئنة! لكن عليك العودة في أسرع وقت. طفلتي مدينة لك بحياتها، أنت أختي وخالتها وعليك رعايتها معي!

مضغ شياو باي قطعة خبز تحت أسنانه بقوة، وكانت هذه المرة الثانية التي تناديه شياو لان أختي. وتداخلت مشاهد من سنوات بعيدة أمام أعينهم مثل: عائلتان تتكونان من ستة أفراد يتعارفون للمرة الأولى في المبنى السكني لمصنع الأنابيب الإلكترونية الذي لم يعد له أثر اليوم. يقفون ويتعارفون مثل دميّ تقدم عرضاً على مسرح صغير، ويقف كل واحد منهم مثل جذع شجرة في دائرة صغيرة، رسمها له القدر، ويتبادلون التحية بحرج وهم يجهلون بالغد الذي ينتظرهم.

ألقى شخصٌ بفتات الخبز في النهر، فانقضت طيور النورس الجائعة، تتقاتل من أجل الحصول على الطعام، وزادت كثافة الشفق الأحمر على حدود السماء وصارت مثل ثوب كبير فضفاض، حجبهم عن العيون.. جلسوا قريباً بعضهم من بعض، وغامت ملامح الوجوه وانطفأت العيون.

كلمة المترجمة

عش الحياة بحلوها ومرّها
واصبر على الأيام حتى ينكشف لك سرّها

تقسو علينا الحياة وتعصف بنا رياح المِحن وتضيق أماننا الدروب
ويموت الأمل في قلوبنا حتى يخيّل لنا أنه ما من خلاص، وأن الزمن
توقّف بنا وسنظل عالقين، لا نستطيع العودة إلى الوراء ولا الماضي
قدماً إلى الأمام، حتى يأتينا زورق النجاة فنصعد على متنه ونشبت
ببارقة الأمل الوحيدة، التي لا نملك سواها، ويشد بعضنا أزر بعض،
ونتلمّس لحظاتٍ من الدفء في قلوبنا ونبتلع آلامنا ونتجرّع أحزاننا
ونشحذ عزيمتنا، ونحاول أن نجد ولو القليل من الحب حتى نصل
إلى مرفأ الأمان.

حينها ندرك أن ما عشناه من أزمات هي عاصفة عاتية مهّدت لنا
الطريق حتى نتغير، نتغير للأفضل، ونصل إلى لحظة التنوير والتجلي
ونتبدل من الداخل والخارج، وندرك المعنى الحقيقي للحياة، ونتعلّم
كيف نعيش الحياة بكل حلاوتها ومرارتها، وكيف نجتاز المِحن
ونسعد بالمنح التي تولد من رحم المعاناة. وبعد ما عصفت بنا الأيام

وجرت بنا المقادير نتبدّل ولا نعود كما كنا ونقف كجبلٍ راسخ في
مهبّ ريح الأيام.

فإياكم والكراهية، وإياكم واليأس، وإياكم والاستسلام!
وأوصيكم بالحب، أوصيكم بالحب بمنتهى الصدق وبمنتهى
الإخلاص!

ميرا أحمد

مكتبة
t.me/soramnqraa

عشاء لستة أشخاص

تتبنى رواية عشاء لستة أشخاص سردًا غير تقليدي، فهي تسرد حكاية ستة أشخاص وستة فصول وست تجارب شخصية وست زوايا سردية، تشكل في النهاية شكلًا سداسيًا متساوي الأضلاع، غنيًا بالجمال المتناسق. وبعض القصص المروية بشكل متسلسل تتداخل جزئيًا، في حين أن البعض الآخر يشكل امتدادًا وتكاملاً طبيعيًا، فالزمن لا يمضي على خط واحد ولا يتبع حالة الزمن الخطي.

فازت "عشاء لستة أشخاص" بجائزة أدب الشعب عام ٢٠١٢، كما فازت لو مين بعدة جوائز، منها (جائزة لوشون، وجائزة تساو شيوي تشين عن رواية "النهر الذهبي"، وجائزة يو دافو، وجائزة المئة زهرة).

المترجمة



لو مين

مكتبة

t.me/soramnqraa



9 789921 712971



دار الخان للنشر والتوزيع